روايات

WALID SAIF

وليد سيف

التغريبة الفلسطينيّة

1 أيّام البلاد

رواية

فريق
متميزون



E-BOOK



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر



كلمه مهمة

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (للكتب النصية على (د. حازم مسعود توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات

متميزو) فريق‌ن)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

(حازم مسعود قناة د)

[إشترك بالقناة]

التغريبة الفلسطينية

(١)

أيام البلاد

وليد سيف

إلى كل الأبطال المعروفين والمجهولين والمنسيين

إلى كل القابضين على جمر القضية

إلى زهر البنفسج في ربيع بلادنا

إلى الأم التي تحتضن جذع شجرة زيتون قديمة كمن يحتضن حبيباً يوشك أن يتخطفه الغزاة

إلى كل الشهداء الذين يصعدون من مراقدهم في كل ليلة ليضيئوا مصابيح الليل والحلم الفلسطيني

إلى كل حرّاس الذاكرة الفلسطينية التي تستعصي على الطمس والتهجير

إلى المخيم: مستودع الذاكرة وعنوان المأساة وحاضنة المقاومة.. المخيم الذي أعارني حكاياته وأعرته قلمي

إلى كل الوطن الممتد بين الماء والماء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«ما كان لتباعد المسافات بيننا أن ينسيني ذكره في كل حين. وما زلت أقصّ على أبنائي من أخبار شجاعته وتضحياته وبطولاته أيام كان قائد فصيل حطين في الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦- ١٩٣٩). وكنت أكرر الكلام على مسامعهم عن فضله على العائلة وعليّ أنا بصفة خاصة. فلولاه لما بلغت ما بلغت من العلم والمركز الأكاديمي الذي أتمتع به الآن

في الولايات المتحدة، ولما كان أبنائي الآن يحصدون ثمار النجاح الذي تحقق لأبيهم في أعرق الجامعات الأمريكية والمراكز العلميّة المرموقة، وهو القادم من قرية صغيرة في شمال فلسطين، ومن بيت طيني متواضع. بلى، كان دائماً «أبو العائلة» وفخرها، وإن لم يصب من العلم إلا قليلاً، وانتهى إلى حياة المخيمات، ولم يعد يذكر كفاحه إلا بعض من عاصره أيام فتوّته أو عرفه عن قرب.

لا، ما كنت لأغفل عن شيء من هذا.

ولكن، لكأن مفارقات الأقدار قد شاءت هذه المرّة أن تستحضره في وجداني ومخيلتي لتلزمني التواضع أمام صورته المعلّقة على الحائط. فإذْ عدت إلى بيتي في نيو جيرسي بعد انتهاء مراسيم تكريمي بجائزة عليا من الأكاديمية الأمريكية للعلوم والتكنولوجيا، رنّ الهاتف، وكان على الطرف الآخر ابن أخي صالح يتحدث من طولكرم في الضفة الغربية المحتلة، يعلمني أن أباه -أخي الأكبر أبو صالح قد اشتد به المرض، وأنه يذكر اسمي في هذيانه. ولم يزد على ذلك. فأدركت أن الأمر أشد من وصفه. فالعادة عندنا أن يموه الناس ما استطاعوا على النبأ العظيم حين يخبرون به الغائب البعيد.

وفي اليوم التالي كنت في الطائرة إلى عمّان، ومن عمّان قطعت الجسر على نهر الأردن إلى طولكرم.

أدركته في النَّفَس الأخير. وجلست بالقرب من سريره. وبصعوبة بالغة

فتح عينيه قليلاً ونظر إليّ دون أن يكون بوسعه أن يقول شيئاً. إلّا من حشرجة ضعيفة. نظر إليّ نظرة غائمة، ثم لاحَ طيف ابتسامة على وجهه. أخذت يده وقبّلتها، ثم تقدّمت برأسي نحوه وهمست: «أنت أبونا وتاج رأسنا. ولولاك ما كنت شيئاً». ثم أغمض عينيه إغماضة الأبد.

رحل الرجل الكبير، وتركني بعده أتساءل عن معنى البطولة. أخي الأكبر أبو صالح، أحمد صالح الشيخ يونس، لن تعلن خبر وفاته الصحف والإذاعات، ولن يتسابق الكُتّاب إلى استدعاء سيرته وذكر مآثره. وقريباً يموت آخر الشهود المجهولين؛ آخر الرواة المنسيين.. أولئك الذين عرفوه أيام فتوّته جواداً برياً لم يُسرج بغير الريح.

فمن يحمل عبء الذاكرة؟ ومن يكتب سيرة من لا سيرة لهم في بطون الكتب؟ أولئك الذين قسّموا أجسامهم في جسوم الناس، وخلّفوا آثاراً عميقة تدلّ على غيرهم.. ولكنها لا تدلّ عليهم!».

من مذكرات علي الشيخ يونس

١٩٨٠

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(أحلام كبيرة في أزمنةٍ عسيرة)

لم تكن القرية في يوم من الأيام كما يحلو لنا أن نتخيلها الآن: لوحة يطوقها قوس قزح بألوانه المتنوعة الجميلة، ولا مجرد عالم من الخضرة البديعة والنسيم العليل وزقزقة العصافير وخرير المياه، واللقمة المغموسة بالرضا والهناءة. ولم يكن القمر فيها يدرج على سطوح القرميد المائلة ويغازل القرويات الفاتنات، ويرمي على وسائدهن زهور النرجس الجبليّ والياسمين. لم تكن القرية كذلك أبداً.. أو على الأقل لم تكن كذلك القرية التي كانت عائلة الشيخ يونس تعيش فيها مطالع الثلاثينيات في شمال فلسطين.

ومع ذلك كان الصغار يجدون دائماً طرقاً بسيطة للمرح والسعادة تصرفهم، ولو مؤقتاً، عن الشعور بالأرق لما يسمعونه بين الفينة والأخرى من حديث الكبار عن نكد العيش وضيق الحال وقهر الرجال: التسابق في العَدْو، نصب الأفخاخ لاصطياد القنابر مع الصفير الخادع الذي يستدرجها إلى الطّعم اللذيذ القاتل؛ تسلق الأشجار العالية لاختطاف أفراخ العصافير من مهدها قبل أن تقوى أجنحتها على هجرها؛ تفقّد «خم» الدجاج وبهجة اكتشاف الكنز الذي خلّفته الدجاجات من بيضها؛ صُنْع شعب الصيد والتباهي بدقة صنعها ومهارة صاحبها في الإصابة؛ اقتلاع «قرميّة» نبتة ملفوف مقطوفة ونفضها من أثر التراب والوحل ثم ضربها على حجر أو صخرة واستخراج لبّها وأكله؛ نعم، واستغفال ناطور «المقثاة» لاختطاف حبة خيار من عِرقها، فإذا تنبّه «الناطور» وصاح

بالسارق الصغير، ركض بلا خوف مع غنيمته. وما كان الناطور على كل حال ليجتهد في الملاحقة. أما أحسنهم طريقة وأطيبهم نفساً فلربما تجاهل الأمر وعدّه من صدقة الزرع إلّا أن يحاول المعتدي جمع كمية منها لغير شهوته العابرة.

كان عليّ، أصغر أبناء صالح الشيخ يونس، ويبلغ الحادية عشرة من عمره، أول من التقط شعبة الصيد الملقاة على جانب طريق ترابيّ، ولكن أخاه حسن الذي يكبره بعامين فقط أصرّ على أنه أول من التقطها ببصره وعثر عليها، قبل أن يسبقه عليّ إليها. فهو بذلك أحق بها. وبينما كانت الأم تعمل على خبز «كراديش» الذرة في «الطابون» ضاقت ذرعاً بتصايح الصبيين على الأحق منهما بملكية الشعبة. فصاحت بهما أن يكفّا وإلّا شكتهما لأخيهما الأكبر أحمد حين يرجع من عمله في أرضهم مع أبيه وأخيه مسعود.

نعم، لم تذكر أنها ستنقل الشكوى للأب نفسه الذي لم تكن له هيبة ولده الأكبر وصرامته في تلك الأسرة الصغيرة. فكانت مهمة التأديب والتأنيب والأمر والنهي للأخ الأكبر في المقام الأول. وهو ما تراضت عليه الأسرة دون تدبير أو كلام. كان أمراً واقعاً فقط، لم تفرضه رغبة في التسلّط من جهة أحمد، ولا ميل إلى الخضوع من جهة أبيه وإخوته. ولكنه كان نتيجة طبيعية لخليط من قوة الشخصية والهيبة والحرص على العائلة والتفاني المطلق من أجلها، والتصدّر لحاجاتها، والتصدي لأي مظلمة يمكن أن تقع عليها، مهما يكن مصدرها، دون وَجَل. وكان الأب

في المقابل رقيق القلب يميل إلى الموادعة وتجنب المواجهات وإيثار السلامة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بخلاف الأم التي يبدو أنها هي من أورثت ابنها الأكبر صفاته. وعلى اختلاف ما بينهم في المزاج والميول، فقد كانوا يجتمعون على المحبة والإيثار وطيب السريرة وتقديم الآخر على النفس. ولعل ما أسهم في ذلك كله أن أهل القرية الصغيرة كانوا يعدّونهم غرباء، فيصفونهم بـ «الغُرْبيّة» على الرغم من أنهم جميعاً وُلدوا في تلك القرية، ولم يعرفوا لهم بلدةً أخرى غيرها. ولكن لم يكن لهم جذور أو فروع أو أقارب في قريتهم تلك، ليكونوا عزوةً لهم.

وكان من المعروف لدى أهل القرية أن أحد أجدادهم قد نزل القرية قبل عشرات السنين، قادماً من بلدة أخرى، لسبب غامض. وإن كان المرجح أنه جاء على خلفية نزاع دمويّ بين حمولته وحمولة أخرى تقاسمهم البلدة الأصلية. فآثر السلامة، وانتهى إلى هذه القرية. أما أسرة صالح الشيخ يونس نفسها، فكانت تؤيد هذه الرواية الموروثة، وتنسب نفسها إلى عشيرة كبيرة معروفة، وإن تقطع ما بينها وبين جذورها في تلك العشيرة. وكانت تستدعي ذلك النسب كلما تعرّضت للاستضعاف من طرف أحد وجهاء القرية. وكان ذلك يحدث كثيراً لها. ومما زاد من الاستقواء عليها، عدا اعتبارها طارئة غريبة بلا عزوة، أنها كانت أسرة شديدة الفقر، وإن كانت تملك «عمارة» زيتون لا تزيد على الثلاثين دونماً على سفح منحدر، ينتهي بمساحة منبسطة فكانوا يزرعون ما استطاعوا تمهيده منه ببعض أنواع الخضار والحبوب. ولكن الأرض في ظل سياسات

الانتداب وضرائبها الباهظة، لم تكن لتفي بحاجات الأسرة، وقد تكون عبئاً عليها في بعض المواسم.

ومثل جميع صغار الفلاحين، كان عليهم أن يعملوا بالأجرة عند كبار أصحاب الأراضي كلما أتيح لهم ذلك: الحرث والزراعة والقطف والحصاد وقلع الأعشاب وتقليم الشجر ونحو ذلك، لقاء أجور زهيدة.

لم يتوقف الصبيّان عن الجدال حول شعبة الصيد، فصاحت بهما الأم مرة أخرى، ولم يكن ردّ حسن إلّا أن اختطف رغيف «كردوش» ساخن مما خرج من «الطابون»، فصاحت به الأم:

- ولك راحت بركتهم.

ثم نفخت متبرّمة:

- وينتا ييجي المعلّم وتروحوا عالمدرسة وأخلص من همكم.

لم يكن عليّ يجرؤ على ما يجرؤ عليه أخوه حسن. فاكتفى بأن طلب منه أن يقطع له من الرغيف. ووجد حسن أنها فرصة مناسبة للمقايضة. فعرض عليه أن يعطيه «الكردوش» كله في مقابل شعبة الصيد. وزيادة على ذلك فإنه سيشاركه الصيد بها. ولكن عليّاً آثر الصمت، ومشى مبتعداً عنه. وما هي حتى لحق به حسن، وتابعا المشي معاً صامتين ساهمين. وبعد هنيهة، توقف حسن ومدّ يده بالكردوش إلى أخيه مستسلماً:

- طيب خذ.

تناوله عليّ ونظر في أخيه متعجباً ومتفحّصاً، وسأل:

- وأنت؟

أجاب حسن وهو يتابع المشي:

- ما بدّيش.. ما ليش نِفِس.

نظر عليّ في «الكردوش»، وعلى الرغم من أنه كان شديد الجوع، وكان «لكردوش» الساخن مثيراً للشهية. لم يقضم منه، ولحق بأخيه.

لم يكن البيت المبني من اللِّبن المصنوع من الطين والتبن غير غرفتين صغيرتين، ينام الأبوان في إحداهما، وسائر الأسرة في الأخرى على فرش متجاورة. وفي النهار تتحوّل غرفة الأبوين إلى غرفة معيشة، ويُرفَع الفراش ويرتَّب على مصطبة داخلية. أما السقف فأعواد غليظة من فروع الشجر، اسودّ لونها مع الأيام من أثر دخان الموقد، ويعلوها طبقة سميكة من اللِّبن القاسي تسمح بالجلوس على السطح والنوم عليه في أيام الصيف الحارّة. ويتصل البيت بمصطبة خارجية عريضة تجلس الأسرة وزوارهم عليها. وتنزل إلى حوش يحيط بالبيت وفيه خمّ للدجاج وبيت للحمام، إضافة إلى «الطابون» في أحد زواياه، ومرحاض خارجي في زاوية أخرى.

ويحيط بذلك كلّه سور من الطين يتوسّطه باب خشبي قديم متصدّع.

كان بيتاً بسيطاً صغيراً، ولكنه كان عامراً بالأحلام الكبيرة وعزّة النفس. وكان أهل القرية يعجبون من هؤلاء «الغربيّة» الفقراء الذين لا

يظهرون شيئاً مما يُتوقَّع ممن كان في رقة حالهم. فإلى جانب التعفف وعزة النفس والنأي عن الدنايا والمشاكل، لم يكونوا ليطأطئوا رؤوسهم لأحد مهما تكن منزلته ووجاهته وماله وعزوته. قد كفّوا أيديهم عن الناس، وكفّوا أيدي الناس عنهم.

وكان هذا مما يستفزّ بعض الوجهاء من هذه الأسرة الصغيرة شبه المعدمة، التي تتكوّن من أبوين وأربعة أبناء ذكور وبنت وحيدة: أحمد الذي يبلغ الآن الثانية والعشرين من عمره، يليه مسعود في العشرين، ثم «خضرة» في زهاءالثامنة عشرة، ثم الصبيين حسن وعليّ.

في ذلك المساء، كان الأب يضطجع على حشية مهترئة على مصطبة البيت ويلف سيجارة من علبة «الهيشة» ذات الرائحة النفادة، بينما يدور الحوار بينه وبين أم أحمد حول استمرار الصبيين الصغيرين في التعليم. فقد وصل أخيراً معلم المدرسة الجديد الذي كان أشبه بشيوخ الكتاتيب في هيئته فيرتدي ثوباً وسروالاً كغيره من الفلاحين، إلّا أنه يضع عمامة على رأسه، ولما رفضت دائرة معارف الانتداب البريطاني أن توفر مدرساً على حسابها، تواطأ مختار القرية ووجهاؤها على استقدام مدرِّس على حساب أهل البلد ممن يرسلون أبناءهم إلى المدرسة التي لم تكن تضم غير أربعة صفوف ابتدائية يُحشَر تلاميذها في غرفة واحدة، ويتنقل المعلم بينهم.

وكان رأي أبي أحمد أن الصبيين قد تعلما القراءة والكتابة وبعض الحساب في الصفوف الثلاثة الأولى، وكفى بذلك. فما حاجتهما إلى أكثر

مما حصّل أخواهما الكبيران أحمد ومسعود؟ وهما بعد صبيان اثنان، فمن أين يأتي بحصته من أجر الشيخ؟

وما الذي ينتظرانه، على كل حال، بعد أن يتمّا صفوف القرية؟ أليس الفأس والعمل في الأرض والحقول؟ فما الجدوى من أن يضيِّقوا على أنفسهم بتوفير أجر الشيخ عنهما فوق ما هم فيه من الضيق؟

ولكن الأم كانت أكثر طموحاً وعزيمة. فكانت تتطلع إلى أن ينتقل ولداها الصغيران، بعد إتمام صفوف القرية، إلى المدينة ليتابعا الدراسة هناك حتى آخر الصفوف، لينخرطا بعد ذلك في العمل الوظيفي بعيداً عن نكد العيش في قرية صغيرة لا تعد بغير الحرث والكدّ في الحقول، لقاء دراهم معدودة لن تُخرِجهم من حال الفقر الذي هم فيه. نعم، تريدهما أن يصبحا «أفندية» تفاخر بهما، وينتشلان الأسرة كلها معهما من تلك الحال. لِمَ لا، وقد أثبتا حتى الآن أنهما أذكى صِبْيان القرية؟

وحين أفصحت عن ذلك، لم يجد الأب إلّا التهكم:

- بتخرفي وكأني أبوهم مردخان باشا!

ردّت بإصرار:

- إذا كان أبوهم مش مردخان باشا، إن شاء الله همّه بصيروا أحسن من مردخان باشا.

زاد من نبرة التهكم:

- لما يكون أبوهم طخطخان باشا، بصيروا أحسن من مردخان باشا. أما لما يكون أبوهم صالح الشيخ يونس...! هيه.. اللي بدري بدري.. وإلّا ما بدري يقول كف عدس.

سحب نَفَساً من سيجارته، وتنهد من جديد وقال:

- يا مَرَه.. وأنا بطوق على إيش وإيش. الواحد اللي زي حالاتنا بوقف كل ليلة على روس أولاده من حد ما يولدوا لحد ما يكبروا.. هذا بحمل فاس بعد ثَلْث أربع سنين... وهذا بحمل العصاة بعد سنتين، وهذا..

قاطعته:

- وليش ما تقول: وهذا يصير معلّم زي الشيخ بعد سبع سنين.. وهذاك..

قاطعها ممعناً في التهكم:

- وهذاك بصير حاكم صلح بعد.. مليون سنة!

- هذا أنت.. هيك دايماً، بتحب تتمسخر على حالك.

- ما حدّ عاجبته حالته يا أم أحمد.

- اللي مش عاجبه حالته بغيّرها..

- الإيد قصيرة والعين بصيرة.. واللي بكبِّر حجره ما بصيب. قالوا: عدّ غنماتك يا جحا. قال: واحدة قايمة وواحدة نايمة.

لم يكن لينهي الجدال إلا أحمد حين قال:

- يابا خلي الأولاد يتعلموا هالسنة.. وبعدها بنشوف إيش بصير.. واحنا اللي بنقدر عليه بنعمله.. وربنا ما بقطع حدّ بقول: يا ربّ.

لم يملك الأب إلا الاستسلام مردِّداً:

- يا ربّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حسن وعليّ يرقدان على فرشة واحدة على سطح البيت، وقد سبق حسن أخاه في النوم، حين استيقظ من أول نومه على عليّ يهزه، ففتح عينيه بضيق والتفت إليه، فرآه يمدّ له يده بشعبة الصيد التي اختلفا عليها:

- خلص، خذها. بس بتخليني أصيد فيها معك.

رمقه حسن متمعّناً دون أن يتناول الشعبة وقال:

- خليها معك.

- حلفت، والله العظيم لتوخذها.

- طيب، طيب. خبّي لي إياها معك.

واستدار عنه في ضجعته ليعود إلى النوم. ولكنه مكث وقْتاً فاتحاً عينيه، مفكراً ومتأثراً بموقف أخيه.

"منذ عقلت على الحياة وما يدور فيها، كان أخي الأكبر أحمد هو «أبو العائلة» حتى مع وجود أبي. كان صلباً شديداً ذا عزيمة أخّاذة، وشخصيّة

قوية لا تعرف الملل. ولم يكن من السهل أن يعبِّر عن عواطفه بأسلوب مباشر، ربما لأن ذلك يتعارض مع معايير الرجولة في ثقافة المجتمع الريفي. يعزّز من ذلك أن الحياة في القرية تتقلص أحياناً إلى مجرد صراع للبقاء. ولكن أفعاله وتفانيه في سبيل أسرته وتقدّمها، كان دليلاً لا يمكن إخفاؤه. وكان إنكاره لذاته وانصهارها التام في الأسرة يبدوان لنا أمراً مسلَّماً به. وقد كان الشائع في الريف ألّا يتجاوز الفتى العشرين من عمره حتى يكون قد تزوّج، وربما أنجب. ولكن أخي أحمد وبعده أخي مسعود كانا استثناءً. وما ذاك إلّا لأن كلّاً منهما آثر أسرته الأولى على نفسه، فلم يرد أن ينصرف عن حمل أعبائها إلى أسرته الخاصة الجديدة، قبل أن يتحقق ما يتطلع إليه من تحسين أوضاعها الماديّة، وتأمين فرص التعليم لأصغر أبنائها، مهما تكن التضحيات.

وكان علينا بعد سنين طويلة فقط أن ندرك المعنى الأخلاقي لتلك التضحية العظيمة، إلّا أنه في مقابل تلك المسؤولية الثقيلة التي أخذها أخي أحمد على عاتقه دون تبرّم، كان علينا أن نطيعه طاعة لا تقبل الجدل".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

لم يكن اللقاء الأول مع المعلم الجديد مريحاً لأحمد الذي صحب أخويه إلى المدرسة في يومها الأول. فما كان أحمد بطبعه يفعل ما يفعله أولياء أمر التلاميذ الآخرين في مثل هذه المناسبة، فيأمر الصبيّ بتقبيل يد الشيخ المعلم ثم يوصيه بطاعته والامتثال لأمره، أو يتبرّع له بلحمه ويكتفي منه بالعظم بالعبارة المعروفة المكرورة «لك اللحم، ولنا العظم». وعوضاً عن ذلك توجه بالكلام إلى المعلم طالباً منه أن يُحسِن تعليم أخويه والاعتناء بهما. وبدا أن المعلم قد امتعض من التوجيه، فقال بجفاء:

- إحنا بنعلِّم مليح.. المهم همّه يتعلّموا.

- رد أحمد:

- لا.. لا تخاف من هذي الناحية.

ازداد الشيخ امتعاضاً كما بدا في وجهه وهو يدقق النظر في أحمد ثم في حسن وعليّ وقال متبرّماً:

- يعني بس الخوف من ناحيتي!

استدرك أحمد متلطفاً:

- أنت الخير والبركة. قصدي مش رايح تلاقي أشطر منهم.

- تنشوف! ترى أنا اللي ما بمشي مليح معي بوكل عندي عُصي حتى

تنتفخ اجنابه.

هنا انقبضت ملامح أحمد، وقال قبل أن يخرج:

- العصي للحمير يا شيخ حسين.

ردّ المعلم بنبرة ذات مغزى:

- هذا الذي قصدته.. للحمير!

ألقى عليه أحمد نظرة أخيرة عابسة. وخرج.

كان الشيخ حسين يجلس على حشايا مرتفعة وأمامه طاولة منخفضة.. وبينما كان يجيل بصره في جمع التلاميذ بنظرات صارمة، ران الصمت على الجميع في انتظار «خطبته» الافتتاحية! وحين نطق بها أخيراً لم تكن غير تهديد ووعيد وكلام عن تجاربه الطويلة الماضية التي أثبتت له أن الخبيث أكثر من الطيب، والكسل والإهمال أكثر من الجدّ والاجتهاد. وليس عنده غير العصا لمن عصا، وأن سلطته ورقابته تتجاوزان الصف إلى طرقات القرية وبيادرها، فمن رأى منه منكراً في أي منها صبّحه بالعقاب. ولم ينسَ في أثناء ذلك أن يعبّر عن مرارته من الأيام التي اضطرته إلى تعليم الصبيان في هذه القرية البائسة، وهو الأحقّ بالتعليم في مدرسة المدينة التي يعمل فيها الآن بعض المعلمين الذين درسوا على يديه في كتاتيب قراهم، وانتفخت جنوبهم من عصاه، قبل أن يصيروا إلى ما صاروا إليه. ولكنها حظوظ أو وساطات.. أو حتى خيانات التقرّب من الإنكليز، أولاد الحرام!

بدا ناقماً على حظه في المقام الأول، ولعله لم يجد مصرفاً لها إلّا هؤلاء الصبيان الذين سيذهب جهده في معظمهم سدى، أما الأشدّ عليه فتلك الندرة التي سوف تتفوق وتملك القدرة على متابعة الدراسة، حتى تصل إلى خير ما توصّل إليه!

ولم يفرغ من وعيده حتى ندب من يأتيه غداً بعصا طويلة أو «مطراقة» بلهجة أهل الريف، يحسن اختيارها وتهذيبها بما يناسب وظيفتها في تأديب العصاة والمقصّرين! وكان حمدان، الابن الأصغر لأبي عايد، أول المتطوعين لإنجاز المطلوب. وكان أبوه أحد كبار وجهاء القرية وملّاك الأراضي، وصاحب معصرة الزيتون الوحيدة في القرية. وكان أبغض الناس لأسرة الشيخ يونس لشدّة استكباره عليهم وما يظهر من ازدرائه لهم. وكان من سوء حظهم أن أرض الزيتون التي يمتلكونها تحاذي إحدى أراضيه الكثيرة. فإذا رآهم يعملون في أرضهم لم يُكلف نفسه إلقاء السلام عليهم. وقد ألمح غير مرّة إلى رغبته في شراء أرضهم ليضمها إلى أرضه. ولم يكن ليكتفي من امتلاك الأراضي. وما ذاك من أجل مردود محاصيلها في المقام الأول، ولكن قيمة الأرض عند أهل الريف في ذلك الزمان، كانت في ذاتها أولاً. فعلى قدرها وسعتها يكون مركز الرجل ووجاهته.

لم يكن حسن ليأبه كثيراً بتهديدات المعلم.. أو غيره. فقد كان مجبولاً على العناد والتمرّد، إلّا أن يأمره أخوه أحمد فيطيع. فما إن خرج من المدرسة حتى دعا بعض الصبيان للذهاب إلى البيادر للعب «الدقّة

والحاح»، و«الحاح» عصا طويلة، و«الدقة» قطعة صغيرة من عصا يركزها اللاعب على الأرض، ثم يقوم بنقرها بعصا «الحاح»، حتى إذا ارتفعت عن الأرض سارع إلى ضربها بعصا «الحاح» فيطيرها، ويكون على اللاعب الذي يقابله أن يتلقّى «الدقة» الطائرة ويردّها بعصاه أو يمسكها بيده. فإذا نجح في ذلك انتقل إلى مكان الأول ليصنع مثلما صنع، وإلّا عاود الأول من جديد.

ولم ينجح عليّ الذي يميل بطبعه إلى الموادعة وتجنب المشاكل، في ثنيه عن عزمه، بعد أن ذكره بأوامر المعلم وعواقب مخالفته، إذا رآه وأصحابه في اللعب، أو وشى بهم أحد الصبيان. ومثل هذا يحدث كثيراً.. وقبل أن ينطلق حسن والآخرون إلى البيادر، توقف إذ رأى «عارف»، ابن المختار، يعرض لأحد الصبيان قبضةً من «البنانير» الجديدة الجميلة التي جاءه بها أبوه من المدينة، وكانت تسمى «القلول» أيضاً. وهي كرات صغيرة من الزجاج في ألوان مختلفة، يتبارى الصبيان بها، إذ توضع إحداها على الأرض على بُعد مسافة من اللاعب الذي يكون عليه أن يضع يده على الأرض وبين إصبعيه «بنورة» فيصوّب ثم «ينقف» ليصيب البنورة الأخرى، فإذا أصابها صارت من حقه وأخذها، وإلّا انتقل التصويب إلى المتباري الآخر. وكان حسن من أمهر الصبيان في الإصابة، وكان التباري مع الآخرين وسيلته الوحيدة للحصول على الجديد منها. ولما اقترب من عارف أشاح عنه. ولكن «حسن» تحدّاه للعب. ولم يكن في جيب حسن إلّا «قُلّ» واحد قديم من النوع غير الشفاف. كان يُطلَق

عليه «الراس» لأنه القلّ الذي يتفاخر بصلابته وثقله ومن ثم ثبات مساره حين «ينقفه». وما كان عارف ليباريه وهو يعلم أنه لا يملك من البنانير الجديدة مثل ما يملك. إلّا أن حسن تفاخر بأن «قلّه» يفضُل كل ما مع عارف، فهو من نوع قديم شديد الصلابة لا يبلى ولا يتهشم مع طول الاستعمال، بخلاف البنانير الشفافة الهشة الجديدة، ولذا صار من النادر أن تجده الآن. ولم يستجب عارف حتى تحوّل حسن بالتحدّي من مجرد التباري في الإصابة إلى اختبار قوة القلب والشجاعة و«الزلوميّة» فضلاً عن المهارة، وكان قد تجمع عليهما صبيان آخرون ذهبوا بأبصارهم إلى عارف الذي أدرك الآن أن ما صار على المحك أكثر من «البنانير»، فاضطر إلى قبول التحدّي أخيراً.

ولم يطل الوقت حتى مضى حسن وقد امتلأت جيبه بالغنيمة الجديدة. وفي الطريق إلى البيادر، رأى الصبية «حمدان»، ابن أبي عايد، جالساً على سلسلة حجريّة يهذّب بالسكّين العصا التي تطوّع بإعدادها للمعلم الجديد، الشيخ حسين. فقال حسن متلفتاً في أصحابه:

- هذي «المطراقة» اللي بدها توكل من اجنابنا من اليوم وطالع.. عافاك يا حمدان..

ثم دعاه للمضي معهم إلى البيادر للعب، فاستنكف حمدان أولاً محتجاً بأنه يريد أن يتم عمله في إعداد العصا، ثم يرجع للدراسة. ولكن حسن ألحّ عليه وتابعه على ذلك الآخرون. وأكد له حسن أنهم لن يقضوا في اللعب إلّا وقتاً قصيراً، فيبقى من الوقت ما يكفي لإتمام إعداد العصا

والمذاكرة. ولما أبدى حمدان تخوّفه من أن يراهم الشيخ حسين بعد الإنذار والوعيد، قال حسن متهكماً:

- وشو بتعمل عصاتك؟ بس أنت بتنفد لأنك ابن أبو عايد، وانت اللي زبطت المطراقة.

ثم اقترح عليه أن يترك العصا في مكانها، فإذا فرغوا من اللعب عاد إليها واستكمل مهمته.

وقبل أن يبلغوا البيادر توقف حسن فجأة، وبدا كأنه تذكر شيئاً، وقال:

- آ آخ.. والله أبوي ليطبش راسي.. طلب مني ألفي على أبو العبد وأقول له إنه أبوي بده يشوفه ضروري.

ثم طلب من أصحابه أن يسبقوه إلى البيادر، ثم يلتحق بهم في أسرع وقت. وانطلق راكضاً.

بعد أن رجعوا من اللعب، عاد حمدان ليلتقط العصا من مكانها، ليفاجأ بأنها قد قُطِعت إلى أجزاء صغيرة، وذهب جهده فيها سدىً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما حسن، فكانت في انتظاره مفاجأة من نوع آخر، حين دخل حوش البيت!

كان الجميع يقفون في انتظاره: الأبوان والإخوة و.. عارف ابن المختار، ومعه أخوه زيد الذي يكبره بثلاثة أعوام، وصبيان آخران ممن شهدوا

المباراة على «البنانير» وهما رياض وزيد.

استقبله الأب من فوره بالكلام مع وجه عابس ونبرة التأنيب:

- الحمد لله عالسلامة..

نقل حسن بصره في الحضور، وأدرك أن الموقف يتعلّق بالبنانير، بينما تابع الأب:

- صحيح اللي بقوله عارف؟ أنت ضحكت عليه وشلحته القلول؟

اقتحم حسن عارف بنظرات صارمة غاضبة، ولم يتردد في تكذيبه مبيّناً أنها كانت مباراة ربح فيها بمهارته دون تحايل. تدخّل زيد، أخو عارف قائلاً:

- أخوي ما بكذب. أنت الكذاب.

أجاب حسن متحدياً:

- طيب، أنت وأخوك كذابين.. شو رايك؟

نهره أبوه. فهو يخاطب ولدَيْ المختار، وهما الآن في بيته. ولكن حسن أصرّ على موقفه واستشهد رياض الذي كان حاضراً وشهد اللعب، مستحلفاً إياه أن يقول الحقيقة. تلبّث رياض قليلاً قبل أن يتحدث بلهجة حذرة بطيئة:

- أنا بدي أحكي الصحيح. الكذب مش مليح.. هو إنه حسن سرق القلول، هذا ما صارِش.. الشهادة لله.

صاح حسن صيحة الفوز:

- شايفين؟ شايفين؟

ولكن بهجته لم تطل، إذ أعقب رياض قائلاً:

- بس، إنه أخذهم بالغش.. هذا هو الصحيح.

أخذ حسن يرتجف من الغضب، وتقدّم من رياض وصاح في وجهه:

- بالغشّ وكيف بغش الواحد في لعب القلول؟ ما هي يا إما بتصيب، يا إما بتصيب.. قول.. كيف غشيت.. فهّمنا يا قليل الدين..

ثم أخذ بتلابيبه يهزّه، حتى سحبه والده بعيداً عنه، وقال بلهجة حاسمة:

- هسّع احنا بدنا نختصر هالموضوع.. حق والا باطل.. هالقلول اللي بتيجي من أولاد المخاتير بدناش إياها.. طلّع القلول واعطيهم إياها..

همّ حسن بالاحتجاج ولكن أباه كان أسرع منه:

- زي ما سمعت أبوك يا حسن.. مش ناقصني أظلّ واقف أحكم بين أولاد.. «قاضي الولاد شنق حاله».

بدا أن حسن قد استسلم لإرادة أبيه مكرهاً. فدسّ يده في جيبه واستخرج «البنانير» بقبضته. وحين بدا أنه سيناولها لعارف استدار فجأة وقذف بها بأقصى قوته خارج الحوش. صاح عارف متفجعاً، واكتفى أخوه زيد بالقول:

- أبوي مش رايح يكون مبسوط كثير..

وجذب أخاه وخرج به.. وما إن خلا البيت إلّا من أصحابه، وقبل أن يبدأ الأب في تقريع حسن على فعلته، أطلقت أم أحمد ضحكة خفيفة. نظر أبو أحمد إليها معاتباً، فقالت:

- خَرْجهُم.. أنت عارف إنه ابنك مش كذاب.

- بس المختار مش عارف.

تدخل أحمد لأول مرّة:

- الله لا يجعله يعرف.. مش قضية قلول يابا.. ما فيش أعطل من الظلم.. قلول وإلا بقرة وإلا أكثر، الظلم ظلم.

سُرّ حسن بموقف أمه وأخيه الأكبر إلى جانبه. ولم يشعر بالأسف على ضياع غنيمته، بقدر شعوره بالرضا أنه انتصف لنفسه، وفجأة سمعوا مسعود الذي لم يقل شيئاً قبل الآن، يقهقه ضاحكاً وهو يستلقي على الحشية، فاتجهت أنظارهم إليه، فقال دون أن يفارقه الضحك:

- أنا اللّي مطيّر مخّي مش عارف ولا أخوه ولا.. بس هذا الولد رياض.. شفته كيف زبّطها؟

يعني هذا شاهد زور بالطبيعة..

ثم استرجع كلام رياض مقلِّداً طريقته:

- إنه سرق، لع والكذب مش مليح. بس إنه أخذهم بالغش، هذا هو

الصحيح. هه هه هه. عليَّ النعمة هذا لما يكبر راح يكون له مستقبل قدام المحاكم.. يعني رايح يسترزق من أولاد الحرام.

بينما كان عليّ قد فرغ من الدراسة مبكراً لأنه لم يصحب أخاه إلى البيادر، عكف حسن على المذاكرة والحفظ على ضوء السراج. حتى تدخلت أمه بأنه قد آن الوقت لإطفاء السراج ونوم الجميع. ولما اعترض بأنه لم يفرغ بعد من الحفظ ذكرته بأن السراج لا يشتعل بغير «كاز»، وقنينة الكاز توشك أن تنفد، وأن أباه لا ينام على مائة «ورقة»! تعني الليرة. عندئذٍ طلب من أبيه أن يوقظه على صلاة الفجر كي يتمّ الحفظ قبل الخروج إلى المدرسة. فقال أبوه مذكِّراً إياه، بأن الإنسان ينهض مع صلاة الفجر من أجل الصلاة، لا من أجل القراءة التي كان ينبغي أن يتمّها في ضوء النهار بدلاً من الانشغال في اللعب.

إذا كان على حسن أن يواجه مشكلة «البنانير» مع عارف، ابن المختار، فسيكون عليه أن يواجه مشكلة أخرى في صباح اليوم التالي مع المعلم وحمدان، ابن أبي عايد.

تفحّص الشيخ حسين «المطراقة» التي جاءه بها حمدان، وهزّها، وبدا أنه مسرور بالنتيجة، فأثنى على جهد الصبيّ. ثم جاء الوقت ليختبر حفظ التلاميذ لقطعة الشعر التي أملاها عليهم، وبدأ بحمدان نفسه. فالذي اجتهد في صنع العصا حقيق بأن يجتهد بالحفظ. بدا حمدان مضطرباً، ولكنه مع ذلك نفخ صدره وصاح كأنه يستنفر جيشاً على وشك الدخول في معركة:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ

فلا تقنع بما دون النجومِ

ولكن تنفخه وحماسه المضحك توقفا مع نهاية البيت الأول، وبدا أنه يبحث في ذاكرته عن البيت التالي، ومرّت لحظة صمت وترقب، بينما أخذ المعلم يحدجه بنظرات صارمة زادت من توتّره وعجزه عن التذكر، حتى فُتِح عليه أخيراً:

- فطعم الموت في شيءٍ..

قطعه المعلم مصححاً:

- في أمرٍ..

- فطعم الموت في أمر كبيرٍ..

صحح عليه المعلم من جديد:

- فطعم الموت في أمر صغيرٍ..

وأعاد كلمة «صغير» مؤكداً عليها.. فأعاد حمدان:

- فطعم الموت في أمر صغيرٍ

كطعم الموت في شيء..

واستدرك على نفسه فوراً:

- أمرٍ.. أمرٍ..

كطعم الموت في أمرٍ كبيرٍ..

توقف من جديد وقد أعجزه تذكر البيت التالي، وبدأ العرق يتفصّد من وجهه، فأحب المعلم أن يذكره بأول البيت:

- يرى الجبناءُ..

ردّد حمدان:

- يرى الجبناءُ أنّ.. أنّ..

هنا توقف حمدان عن المحاولة، وقرّر أن يتخلّص من ذلك العذاب فقال معترفاً:

- ما لحقت أحفظها.

هز الشيخ حسين رأسه ثم قال:

- يمكن بدك تقول لي إنك ظلّيت مشغول بـ «المطراقة»!

هز حمدان رأسه، واستأنف المعلم:

- يعني فكرك ترشيني بالعصاة.. أي خلّيها أكبر من هيك.. قرّب تانشوف.. افتح إيديك الثنتين ومدهم.. وإياك، إياك تسحبهم، وإلا بكسر العصا على جنابك، وبتروح تعمل واحدة ثانية.

ونزل بالعصا على يدي حمدان بضربات متتالية صحبتها تأوهات لم يستطع حمدان كتمانها. ولما عاد إلى مكانه أخذ ينفخ في يديه، وهنا

سُمِعت ضحكة مكتومة من بين التلاميذ، انتفض لها المعلم، واشرأبّ برأسه يبحث عن مصدرها.

- مين الشاطر اللي ضحك؟

هنا أشار حمدان إلى حسن:

- هاذاك.. هو السبب في كل شي. حسن.. هو اللي ضحك عليّ امبارح، كنت بزبط المطراقة، بس ظلّ عليّ حتى طلعت ألعب معه عالبيادر، وخلّيت المطراقة وراي، حتى نخلص لعب وارجع أكمّلها.. بعدين ضحك علينا وعمل حجّة حتى يغيب عنا شويّة.. ولما رجعت لقيت المطراقة مكسّرة.. فأنا انجبرت أروح أعمل غيرها، وهيك ما ظلّ عندي وقت للقراية.

تطاير الشرر من عيني الشيخ حسين وهو يصوّب بصره إلى حسن، ثم أومأ إليه أن يتقدم. وبدأ في عرض لائحة الاتهام بمجموع الجرائم التي ارتكبها حسن: الضحك قبل قليل، اللعب في البيادر، إغواء الآخرين باللعب معه. هذه ثلاث جرائم. أما إن صحّ أنه قد غافل حمدان لكسر العصا فتلك كبرى الجرائم. ولكن حسن حاول أن يدفع عن نفسه الجريمة الأخيرة بأنه لا شاهد عليها. وطلب من الشيخ حسين أن يسأل حمدان نفسه إذا كان قد رآه يفعل ذلك. وهنا قال الشيخ حسين:

- طبعاً ما شافك. بس انت مبيّن عليك زلمة زي ما أنا شايف. ما شاء الله على هالطول. إذن خليك زلمة وقول الحقيقة: كسرت العصا والّا ما

كسرتها؟

صمت حسن قليلاً دون أن يطرق برأسه، ثم هزّ رأسه بالإيجاب. قال الشيخ:

- هه! هذا زلمة بقول الصحيح.. بس خلينا الآن نشوف قدّيش بظلّ زلمة تحت العصا.. مدّ إيديك ولَهْ.

مدّ حسن يديه دون وَجَل ولا تردد. ونزل الشيخ بعصاه على يديه في ضربات قوية متسارعة. ولما وجد أن حسن لا يتأوه ولا يحاول سحب يديه أو النفخ فيها بين الضربات، ولا يتوسّل، وكان غاية ما يبديه هو زم شفتيه واحتقان وجهه وهو يغالب الألم، دون أن يزوغ ببصره عن عيني المعلّم، صار همّ الشيخ أن يكسر صموده وكبرياءه، فاشتد في قوة الضربات. لقد بات الأمر تحدياً وصراعاً على الإرادة.

وكان عليّ يرقب ما يجري الآن على أخيه ويعتصره الألم، حتى اضطر أخيراً أن يغمض عينيه. أما عارف، ابن المختار، وحمدان، ابن أبي عايد، فكانا ينظران بتشفٍّ وقهر معاً. أما التشفي فأمر مفهوم، وأما القهر فلأن حسن يقدّم عرضاً للثبات و«الزلوميّة» لم يسع حمدان قبله أن يبدي مثلهما. فإذا ثبت حتى آخر العقاب على هذه الحال، فقد خرج منه بإعجاب سائر التلاميذ، وكبر في عيونهم. ولما أدرك الشيخ أنه لن يبلغ منه أكثر مما بلغ، وتعبت يده من الضرب، توقف أخيراً. ومن الفور، انسحب حسن عائداً إلى مكانه بكل اعتزاز وكبرياء. وهنا صاح به الشيخ

أنه لم يأذن له بالرجوع، فقد بقي أن يتحقق من جريمة أخرى محتملة، نتيجة انشغاله في اللعب. فطلب منه أن ينشد القطعة الشعرية المطلوبة ليرى حفظه لها.

انطلق حسن في إنشاد الأبيات بإيقاع سريع قوي لا تلجلج فيه وهو يصوب نظره إلى الشيخ في أثناء ذلك:

إذا غامَرْتَ في شرفٍ مروم

فلا تقنع بما دون النجومِ

فطعم الموتِ في أمرٍ صغير

كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

يرى الجبناء أن العجز عقل

وتلك خديعة الطبع اللئيمِ

وكل شجاعةٍ في المرء تغني

ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً

وآفتُه من الفهمِ السقيمِ

ولكنْ تأخذ الآذان منه

على قدر القريحةِ والفهوم

بدلاً من أن يشعر الشيخ حسين بالرضا الذي يشعر به المعلم عادةً مع تلميذ نجيب أتقن واجبه، شعر بخيبة أمل ومزيد من الغضب مع هذا التلميذ الذي يرتدي ثوباً مهترئاً مليئاً بالرقع، ويخرج فائزاً في غير مرّة: في تحدّي الصبر على الألم، وفي تحدّي الحفظ والدرس، وقبل ذلك في تحدّي اللعب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأمس فقط حين كان يتفقد أرضه المحاذية لأرض أبي أحمد، ورأى الأب وولديه أحمد ومسعود يعملون في قلع بعض الصخور ليمهّدوا مواضع من الأرض للزراعة بين أشجار الزيتون، اكتفى بأن أرسل إليهم نظرة شزراء ولم يلقِ عليهم السلام. والآن يرسل إلى أبي أحمد أن يوافيه في بيته في أمرٍ ما. هل يكون ذلك ليراجعه فيما وقع بين ابنه حمدان وحسن من أمر العصا وتكسيرها؟ ولكن أبا عايد، وإن كان متجبّراً مستكبراً لا يهبط إلى مستوى التدخل في نزاع الصبيان. وحسن لقي عقابه على كل حال وإن خرج منه بعزة النفس. اعترض أحمد أن من كانت له حاجة عند أبيه فالأَوْلى أن يأتيه بنفسه، لا أن يرسل في طلبه كأنه أجير عنده. ولكن الأب لم يكن يرغب في أن يزوره أحد من منزلة أبي عايد في بيته البسيط الذي لم يكن غير «خشّة» كما وصفه. والرجل من زعماء البلد على كل حال. والناس مقامات شاؤوا أم أبَوْا. قال أحمد:

- زعيم على حاله.

ردّ الأب:

- بخاطرنا وإلا مش بخاطرنا، زعيم على اللي أحسن منا.

قال أحمد متبرماً:

- طيب يلعن أبو اللّي أحسن منا. هو شو اللّي قاعد يخرّب بيوتنا غير الزعامات!

لم تكن غاية اللقاء إلّا محاولة إقناع أبي أحمد ببيع أرضه لأبي عايد. فقد رآهم يكدّون في خلع الصخور منذ وقت. وما الذي يرجونه منها في آخر المطاف؟ فلن ينالهم منها الكثير مع ما يفرضه الإنكليز، أولاد الحرام، من الضرائب على الأرض والزيتون. وهم قوم مستورون «على قدّ الحال». والقرش صعب هذه الأيام. والله يسّر الناس بعضهم لبعض. وأبو عايد يريد أن يساعدهم في «فك ضيقهم» فيشتري منهم الأرض بقيمتها وزيادة. وردّ أبو أحمد بأنهم لم يشكوا حالهم لأحد وأنّ النقود تأتي وتذهب، أما الأرض فذخر دائم. وإذا كان الإنكليز قد يضيّقوا على الفلاحين، فهم الآن في البلاد، وغداً يرحلون لا ردّهم الله. ولكن أبا عايد مضى في إلحاحه. فبعد أن أمّن على دعاء أبي أحمد على الإنكليز، ذكّره بأن «حساب القرايا ليس كحساب السرايا». وأن موضوع الإنكليز والانتداب مسألة كبيرة وطويلة، وراءها وعد بلفور وتوطين اليهود. وهو على صلة ببعض الزعماء الذين لهم علم في السياسة في القدس. ويسمع منهم ما لا يسمعه سائر أهل القرية. وإلّا لماذا كل هذه الضرائب التي يفرضونها على الفلاحين وأصحاب الأراضي؟ إلّا أن يجبروا الناس على بيع أراضيهم، ليعطوها لليهود؟

هنا قال أبو أحمد:

- هون مربط الفرس يا أبو عايد. هيّاك قلتها.. عشان هيك ما ببيع أرضه إلّا عديم الأصل والدين.

ووقف ليخرج. وحاول أبو عايد إخفاء غضبه وهو يقول:

- بس أنا مش سمسار لليهود ولا للإنكليز يا أبو أحمد.

- حاشاك يا أبو عايد.. مش القصد.. عن إذنكم.. عامر إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكأن ظروف الحياة اليومية تحالفت مع أبي عايد للضغط على الأسرة. ففي البيت توقفت الأم عن العمل حائرة فيما تفعل حين طلب منها ولداها حسن وعليّ دفترين جديدين لكل منهما غير الدفاتر القليلة التي اعتصرت الأسرة نفسها لشرائها لهما قبل يومين، وكانا يشتركان فيها. أما الآن، فلا بدّ من أن يحصل كل منهما على دفترين آخرين لا مجال للمشاركة فيهما. فأحدهما للإملاء في الصف، والآخر للحساب حيث يكون على كل منهما أن يحلّ المسائل على دفتره الخاص في حصة الدرس. وكانا يؤثران أن يخبرا أمهما بحاجتهما دون أبيهما، خشية أن يُذَكّر الجميع بما قاله غير مرّة من أنه لا طاقة له بتعليم ولدين. وبالطبع لم يكن مع الأم نقود لتلبية تلك الحاجة. وكانت أحرص منهما على تجنب الطلب من الأب. فماذا عساها أن تفعل الآن؟ وأخيراً وجدت أختهما الوحيدة «خضرة» المخرج الوحيد الممكن، فجمعت بضع بيضات مما بقي عندهم ووضعتها في صرّة كي يذهب بها أحد أخويها إلى دكان أبي العبد فيبادل بها الدفاتر المطلوبة. وكان أبو العبد من القلة التي لها صحبة مع أبي أحمد، ويشاركه النفور من استكبار بعض الوجهاء. وكان رجلاً طيب النفس هادئ الطبع. وكان ابنه الأكبر «العبد» أقرب شباب القرية إلى أحمد.

بعد حين، رجع عليّ الذي خرج في تلك المهمة حزيناً مكسوراً، وقد بدت على وجهه بعض الكدمات، ولطخ ثوبه بالبيض المتهشّم. هرعت أمه وأخته وأخوه حسن إليه، فادّعى أنه تعثّر في طريقه فوقع على الأرض وتهشّم البيض. شكّت أمه في روايته، ولكنه أصرّ عليها، حتى ضاق ذرعه بالسؤال. وبينما أخذت الأم تنظّف له وجهه المعفر بالتراب وتتفحّص الكدمات، جاءته أخته بثوب آخر. وازدادت الأم شكّاً حين رجاها ألا تخبر أباه وأخاه أحمد. قالت الأم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. خسرنا البيضات وما جبنا الدفاتر. عاد شو بدنا نعمل..

فاجأها بالقول:

- يمّه أنا ما بدّي أروح بكرة عالمدرسة. قصدي زيّ ما قال أبوي. واحد بكفّي.. أخوي حسن بكمّل الدراسة، وأنا بشتغل مع أبوي وإخوتي..

نهرته أمه:

- طب اسكت.. بدكم تتعلموا انتوا الاثنين وتصيروا أفندية، أحسن من كل اللي في البلد، وترفعوا معكم العيلة كلها.. الله يقطع نصيبكم من الفِلح وأهله..

- أنا مش أحسن من أخوي أحمد وأخوي مسعود.

- هذول راحت عليهم، لأنهم ما لقوش إخوة أكبر منهم يشتغلوا ويحملوا مع أبوهم ويعلموهم.. هسّع همه بدهم إياكم تصيروا حين

يصيروا معكم وتنشلوا العيلة من الهمّ والمعيشة اللي احنا فيها.. وإلا بنظل محلنا طول عمرنا.. الناس شايقة حالها علينا.. وشغل من الصبح للمغرب في العماير والمقاثي والحصيدة والحراثة، وآخرتها يا دوب نطلع اللقمة. والا ليش أخوك أحمد ما بفكر الجيزة وكثير من اللي زيّه صار عندهم أولاد؟ ما فيه قدامنا إلا التعليم.. ما عندنا أراضي زيّ المِسْعدين.. والإنكليز، الله يكسرهم، فقّروا أهل الفِلح بالضرايب، عن قصد منشان اللي عنده شقفة أرض يبيعها وتصفّي لليهود. شو ظلّ إلنا غير التعليم لحتى نصير ونكبر؟ قال ما بدو يروح عالمدرسة، وبدو يشتغل مع أبوه وإخوته؟! منشان تظل مشحّر طول عمرك، وإحنا معك مشحرين.. أوعى عمرك تقول الخراف.. أنت وأخوك حسن بدكم تتعلموا، وفي يوم من الأيام بدكم تصيروا أساتذة وأفندية، وتمشوا بين الناس لابسين بناطيل ورافعين روسكم، واحنا نرفع روسنا فيكم على اللي زي المختار وأبو عايد. فاهم؟

قبل أن يردّ عليها، دخل الأب وولداه أحمد ومسعود مندفعين بسرعة، فأدار عليّ وجهه عنهم يداري آثار الكدمات على وجهه. ولكن أباه أمسك برأسه يدقق النظر. وصاح أحمد من الفور:

- أولاد الوسخة.

ومضى ليخرج وقد احتقن وجهه غضباً، فصاح به الأب يوقفه، بينما قالت الأم:

- مين هذول أولاد الوسخة؟ شو اللي صاير؟

وأدركت أن ابنها الأصغر لم يتعثر كما ادّعى، وأن ثمة من اعتدى عليه، فاستأنفت:

- والله أنا شكّيت بخرافه هالكذّاب.

وشرح الأب:

- هسّع العبد ابن أبو العبد خبرنا أنه شاف أولاد المختار زيد وعارف، ومعهم حمدان، ابن أبو عايد، بضربوا ابنك وباطحينه عالأرض.. قال بدهم ينتقموا منه بدل عن أخوه حسن واللي عمله في القلول ومطراقة المعلم. ولولا العبد اللي خلصوا منهم، كان صار أكثر.

همَّ أحمد من جديد بالخروج وهو ينتفخ غضباً وفي نفسه الانتقام لأخيه، ولكن الأب استوقفه من جديد بلهجة قاطعة:

- يعني شو بدّك تعمل فيهم؟ إن ضربت الأولاد الصغار بدهم يقولوا قليل عقل واستقوى على اللي أصغر منه.. وإذا بدّك تبهدل أبوتهم، إحنا مش قدّهم.

قال أحمد:

- إيش يعني مش قدهم؟ احنا مش زلام؟

- إذا عالزلام عندهم زلام أكثر منا.. بس مش هاذي المشكلة. شو يقول الناس عنا؟ مشاكل وزعل وصراخ وضرب عشان طوشة أولاد؟ اهدا..

اهدا الله يرضى عليك..

تدخل مسعود لأول مرة ليذكر أحمد بأمر آخر أكثر أهمية. فبعد أيام يجتمع كبار أهل القرية لتوزيع أرض القرية المشاع على سكان القرية، كما يحدث في كل عام. وهي أرض واسعة ملكية عامة للقرية. وقد درجوا في وقت معين من كل عام على تقسيم قطع منها على عائلات القرية ليفلحوها لأنفسهم ذلك العام. وبالطبع كان وجهاء القرية وعلى رأسهم المختار وأبو عايد يتحكمون في عملية التقسيم والتوزيع، فيختصون أنفسهم بأحسنها من حيث الموقع والجودة والاستواء. ثم يراعون أصحابهم والمقرّبين منهم. أما خصومهم ومن لا عصبة له فيخرجون بأدناها. فإذا دخلت العائلة معهم الآن في مواجهة ونزاع، فلسوف يضيقون عليهم ويقسموا لهم ما لا نفع به، بل ربما حرموهم من القسمة واحتجوا أنهم «غربيّة» ليسوا من أهل القرية المؤصّلين.

نفخ أحمد عن ضيقه وقال:

- الله ينعل الأرض المشاع على الأرض اللّي مش مشاع.. الواحد كرامته في الدنيا.

تدخلت الأم لتذكِّر الجميع بمشكلة الدفاتر التي لم تحلّ حتى الآن، وأنه لا بد من توفيرها بأي طريقة كي لا يتعرض ولداها الصبيان لغضب المعلم وعقابه وللذل بين زملائهما. وكما هو متوقّع وجد الأب سبباً للعودة إلى التذمّر من فكرة المدرسة وعجزه عن نفقاتها.

وفي هذه الأثناء انسلّت «خضرة» الوديعة الطيبة الهادئة من الغرفة، عمدت إلى بيت الحمام، فاستخرجت منه فرخين لتخرج بهما إلى من يشتري ثم تعود بالدفاتر المطلوبة. وحين فتحت باب «الحوش» فوجئت بالعبد يقف هناك وكان على وشك أن يطرق الباب. شعرت بالارتباك والحياء، ولم يكن «العبد» بأقل منها حياءً. قالت:

- اتفضل يا خوي.. أناديلك...

قاطعها قائلاً:

- لا ياختي.. لا تنادي حدّ.. ما بديش أفوت.

انتظرت مترقبة أن يُفصح عن سبب وجوده، وبدا العبد شارداً للحظة، ثم تنبه إلى نفسه، ومدّ لها يده بالدفاتر التي جاء بها من دكان أبيه، وكان ارتباكها قد صرف نظرها عما بيده. وقال:

- هذول لحسن وعلي.

ترددت في أخذها، ولكنه قال بلهجة ملحّة متعجّلة:

- خذي يا اختي، خليني أمشي.

تناولت الدفاتر بيد، بينما كانت تحمل بيدها الأخرى فرخَيْ الحمام من أجنحتها، واستدار العبد ليمضي راجعاً، ولكنها استدركت عليه:

- وقف يا خوي.

عندما توقف واستدار إليها، رآها تمدّ له يديها بالفرخين. اكتفى بابتسامة

هادئة، ثم استدار عنها من جديد ومضى مبتعداً دون أن يقول شيئاً. أغلقت الباب وراءه ببطء وهي تشيّعه بأنظارها، وقد احمرّ وجهها وشعرت بسخونته، وارتجفت يدها حتى كادت تُسقِط الدفاتر وزوجَيْ الحمام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الشيخ حسين يملي على تلاميذ الصف الرابع مادة في التاريخ وهم يدوّنون عنه في دفاترهم، حين توقف فجأة. فذهبوا بأبصارهم إليه، فوجدوه يصوِّب بصره جهة حسن الذي حاول أن يتدارى عن نظره خلف التلاميذ الذين يجلسون أمامه. وتحولت أنظارهم إلى حيث ينظر، وهو يخاطب «حسن»:

- ما لك ما بتكتب؟ وين دفترك؟

تدخل عليّ ليشرح الموقف وأنهما يشتركان في دفتر واحد للتاريخ:

- احنا الاثنين..

قاطعه حسن بقوة:

- اسكت أنت.. الأستاذ بسألني أنا..

انتهز حمدان، ابن أبي عايد، الفرصة لإذلال حسن، فتطوع بالشرح:

- هذا بشترك مع أخوه في دفتر واحد.

صاح به حسن:

- سكّر نيعك أنت!

قال الشيخ حسين:

- صحيح إنك قليل تربية. أنا بس اللي بقول له سكّر نيعك.

ثم اتجه إلى حمدان:

- انت سكّر نيعك حتى أسألك.

ثم أمر حسن أن يقف ويقترب منه. وأخذ يتفحّص ثوبه الرث المرقّع، ونعليه المثقوبتين اللتين تظهر من مقدمتهما بعض أصابعه. وأشار إليه مزدرياً هيئته:

- هذا شكل هذا؟ إذا كان أبوك مش قد تعليمكم وعليش باعتلي اثنين للمدرسة؟ يعني اللي زيك شو بده يصير؟ مندوب سامي؟

أجاب حسن بنبرة قاطعة وهو يبادل المعلم نظرة صارمة هذه المرة توحي بالتحدّي:

- لع.

- وليش لع؟ مش عاجبك تصير مندوب سامي؟

انفلتت بعض الضحكات من الصف، فأرسل المعلم إليهم نظرات رادعة، بينما أجاب حسن:

- بصرش مندوب سامي لأني مش إنكليزي. أنا ابن هالبلاد. وابن البلاد لما

بحكم بسمهوش مندوب سامي!

- ما شا الله، ما شا الله. ومنين إلك هالمعرفة؟

كان حسن قد أضمر في نفسه المضي في التحدي والمواجهة حتى النهاية، فقال بنبرة مشوبة بالتهكم:

- من بركاتك يا أستاذ.. مش هيك أنت علمتنا؟

- آه عافاك. طيب ما دام ابن البلاد لما يحكم ما بسمّوه مندوب سامي، إن شا الله عاد لما يطلع الإنكليز من فلسطين وحضرتك تصير حاكم، شو ناوي تسمي حالك؟

- لوقت ما يطلع الإنكليز الله يهونها يا أستاذ.

هنا انطلق الصف في الضحك من جديد، ولكنه كان هذه المرة استجابة لتهكم حسن بالأستاذ. فصاح بهم وهو يتميّز غيظاً:

- اخرس أنت وإياه.

ثم عاد ينظر في حسن بنظرة حقد وغضب:

- بتيجي عالصف بدون دفتر.. وبعدها بتقلل أدبك، هاه؟

- ما قللت أدبي.. انت سألتني..

- بتجادلني كمان؟ يا وقح يا قليل التربية.

- أنا مربّى مليح في بيت أبوي..

كان المعلم قد نهض من مكانه:

- أنا ما مرّ عليّ طالب من هالعيّنة؟ شو بدي أعمل فيك.

وأخذ بأذنيه يفركهما ويقرصهما بشدة ورفع جسمه من أذنيه، ثم أخذ يصفعه بقسوة، فتحامى حسن منه، ولكنه تناول العصا وأهوى بها عليه دون تحديد بضربات متتالية على أنحاء جسمه. حاول حسن أن يتحاشى الضربات بذراعيه ما وسعه ذلك لكن المعلم أمعن في الضرب. وبدا أنه لن ينتهي حتى يكسر عزيمته هذه المرة ويلزمه التوسّل والاعتذار. وكان عليّ يراقب وهو يرتجف إشفاقاً على أخيه، دون أن يكون بوسعه أن يفعل شيئاً. تمنّى لو كان مكانه، وأراد أن يصرخ ليوقف المعلم، ولكن صرخته انحبست في داخله وغصّت بها حنجرته حتى شعر بالاختناق.

وفجأة اختطف حسن العصا من يد المعلم، وكسرها على ركبته، وانطلق راكضاً خارج المدرسة والصف. وبدا المعلم مصدوماً للحظة قصيرة، ثم صاح في التلاميذ:

- وراه.. شو قاعدين تعملوا؟ جيبوه من تحت الأرض.

وانطلق التلاميذ حتى فرغ الصف، إلّا من عليّ الذي بقي متسّمراً في مكانه، لا يدري ما يفعل، حتى صاح به المعلم:

- روح انت الثاني انقلع.. طينة واحدة وسخة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحّ تقدير عليّ، فوجد أخاه حيث توقع أن يجده عند ضريح «أبو نار»،

على تلة خالية تشرف على القرية. وكان الضريح في غرفة مبنية من الحجارة تقوم عليها قبة صغيرة، ويحيط بها سور وطيء، ترتفع بحذائه شجرة جمّيز قديمة، كان حسن يجلس في ظلّها، ويدخِّن.

بقي مشيحاً حين اقترب منه عليّ، وسأل مستنكراً:

- بتدخّن؟ منين جبت السيجارة والولعة؟ إن عرف أبوك..

قاطعه حسن بشيء من العصبية:

- روح قول له إذا بدّك.

جلس عليّ إلى جانب أخيه، ومرّ وقت دون أن يقول أحدهما شيئاً. ثم قام حسن وقال وهو ينظر إلى القرية الصغيرة أدنى منهما:

- عارف ليش سمّوه أبو نار؟ كان ولي صالح.. ويقولوا إنه في يوم من الأيام زعل على أهل القرية، ما بعرف ليش.. يمكن ما كانوا مصدقين إنه وليّ وفكروا إنه أهبل أو مجنون.. قام وقف عراس الجبل ومدّ إيده جهة القرية وصاح: نار. راحت النار مولعة بالحصيدة.. بعدها صاروا يبوسوا إيديه ورجليه ولما مات بنوا له هاظا الضريح.. وظلهم ييجو هون يقدسوه ويتبركوا فيه.. اللي عنده مريض.. اللي عنده مشكلة..

قال علي:

- هسّع خلينا نفكر بمشكلتنا.

انثنى حسن وتوجه إلى غرفة الضريح ودخلها. كان المكان معتماً إلا من

ضوء الشمس الذي يأتي من كوّة واحدة في جدار الغرفة. ولم يكن الضريح غير قبر مرتفع ضخم من اللِّبن. وقد فرشت فوقه بعض الملاءات الخضراء. وإذ أجال حسن وعليّ الذي لحق به أنظارهما في المكان، شاهدا بعض السّرج وقوارير الزيت والمسابح مما يأتي به الزوار تقرّباً وطلباً للبركة وقضاء الحاجات!

كان المكان يوحي بالرهبة والسكينة معاً. تقدّم حسن إلى الضريح بهدوء تام، ثم بسط يديه يقرأ الفاتحة للوليّ الراقد فيه. وكذلك فعل عليّ. وأخذ حسن يتمتم فيما يوحي أنه كان يدعو وقد رفع كفيه إلى الأعلى.

حين خرجا واستقبلا القرية من مكانهما المشرف بالقرب من سور الضريح، سأل عليّ:

- شو دعيت؟

لم يجب حسن، ولكنه ذهب ببصره إلى القرية، ثم أشار:

- مش هناك ساكن المعلم؟ هناك.. جنب بيت أبو خضر، اللي فيه عليّة مطروشة وعليها شبابيك خضر!

تأمّله عليّ متعجباً متسائلاً. وفجأة مدّ حسن يده في اتجاه موقع سكن المعلم وصاح:

- نار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة صحا أهل البيت على حسن يرتجف ويهذي محموماً في نومه، وحين كشفت الأم عنه الغطاء وجدته يتصبب عرقاً فصاحت:

- هذا الولد بغلي غلي.. هاتوا لي إبريق الميّة بسرعة. يمّه يا حسن.. مالَك؟ اسم الله عليك.. يمّه.. يمّه!

وأسرعت خضرة لتأتيها بالماء، بينما فزّ حسن من فراشه، ونظر إلى العائلة التي تحلقت حوله بنظرات زائغة، وبدا أنه غائب عما حوله، حتى قال أخيراً:

- ما لكم؟

قال الأب الذي جلس مقرفصاً عنده:

- انت مالك يابا؟ شو حاسس؟

- ولا شي.

ولكن الرجفة عاودته بشدّة. وقالت الأم وهي تمسح وجهه بالماء:

- لا تكابر يمّه.. قول.. راسك والا بطنك والا حلقك.. منشأن نعرف شو نعمل.. مدّ إيدك يا أبو أحمد على راسه واقرا عليه.

فجأة سُمِع صوت علي:

- يابا..

وقبل أن يكمل، صاح به حسن:

- ضب لساك انت..

ولكن عليّ تابع على الرغم من تحذير أخيه:

- بدّي أقول.. وطبش راسي إذا بدّك.. يابا.. هاظا المعلم.. شوفو ظهره واجنابه وذنيه..

هنا قفز أحمد نحو أخيه حسن وأخذ برأسه ليتفحص أذنيه، وحاول حسن أن يخفيهما بكفيه، ولكن أحمد فرّق يديه بقوة ونظر.. كانت الأذنان محمّرتين منتفختين.. ثم شدّ ثوب حسن إلى الأعلى على الرغم من مقاومته، وكشف عن جسمه الذي كان مليئاً بالكدمات المحتقنة وآثار العصا وقد تحولّت إلى ألوان داكنة بين الأزرق والأسود. كان المنظر صادماً. وبينما شهقت الأم والأخت تحوّل أحمد ببصره إلى أبيه، بوجه منقبض محتقن، وشفتين مزمومتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح الباكر، حين كان الشيخ حسين يسوّي لحيته، ويضع عباءته مستعداً للخروج، باغته انفتاح الباب بسرعة وعنف، ليرى أحمد يقف هناك والشرر يتطاير من عينيه. ابتدره الشيخ حسين بالقول وقد رأى الشر في وجهه:

- أدب الإسلام.. الاستئذان قبل الدخول، والسلام.

اندفع أحمد نحوه وجذبه من صدره ودفعه إلى الحائط وأخذ يدقه بشدّة وهو يصيح بغضب جارف:

- أدب الإسلام! أنت بتعرف الله يا قليل الدين!

صاح المعلم وهو يحاول التفلت منه:

- فلتني.. فلتني بقلّك.

- ما بدّي أفلتك حتى تطلع روحك.

وتابع دقّه، وصاح المعلم مستنجداً بأعلى صوته:

- يا عالم، يا ناس.. يا ولاد الحلال. هذا المجنون بدّو يقتلني.

قذفه أحمد بشد إلى الأرض:

- الله يقتلك يا عديم القلب.

زحف الشيخ حسين إلى الخلف متحامياً ومدّ يده:

- استنى.. خلينا نتفاهم.. صلي عالنبي.

- بدّي أصلي عالنبي، وأفتح راسك في نفس الوقت.

ثم تناول بعض ما في الغرفة وقذفها عليه، وجذبه من جديد حتى أوقفه، ودَعّه إلى الحائط وهو يشدّ على أعلى ثوبه وعنقه حتى قال بصوت مختنق:

- رايح تخنقني..

- الله لا يردّك. لا المسلمين بخسروا بموتك، ولا الإنكليز واليهود بكسبوا. اسمع شو بدّي أقلك، واسمعه مليح.. لأني والله والله ما بعيده.. أنت

مش جاي تعلم هون ببلاش.. واحنا دفعنا زي ما دفع الناس.. من دم قلوبنا.. بس ما أعطيناك فَرَمان تذبح أولادنا.. الولد الليلة ما نام من الوجع والسخونة.

- أنا بربيهم منشاكم. منشان يصيروا..

قاطعه أحمد:

- أولادنا مربيين أكثر من أولادك إذا كان عندك أولاد. أنت عليك تعلمهم وبس، والباقي علينا احنا..

وقذفه من جديد، ومشى نحو الباب، ولكنه توقف قبل أن يخرج والتفت من جديد إلى المعلم الذي ما زال مُلقى على الأرض يسترجع أنفاسه:

- وإن شا الله تظلمهم بالعلامات.. كل البلد عارفة إن أولادنا أشطر ولاد.. وبدهم يظلوا أشطر ولاد. نقِّص من علاماتهم إذا بدك، وأنا إن شا الله بنقّص من عمرك!

وصفق الباب وراءه بقوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما كان متوقعاً لم يمر الحادث بلا ذيول. وحين أرسل المختار أبو عارف في طلب أبي أحمد، عرف هذا ما الذي ينتظره. وحين دخل مضافته وجد عنده أبو عايد وآخرون من وجهاء البلد الذين استقبلوه بوجوه عابسة. وبالطبع كان الشيخ حسين معهم. وابتدره المختار بالسؤال عن فعلة ولده المنكرة بمعلم القرية الذي ينبغي توقيره. أين القول المأثور «من

علمني حرفاً كنت له عبداً»؟ أجاب أبو أحمد، وهو يلقي نظرة على المعلم، بأنهم قد سمعوا من طرف واحد. ودعا المختار إن شاء أن ينظر في جسم ولده حسن ليرى آثار الضرب المبرّح الذي لا يجوز في حق الدابة، فكيف بالبشر، حتى صحا أهل البيت على الصبيّ ينتفض ويهذي وقد أخذته الحمّى. فلم يهن على أخيه الأكبر أن يراه على تلك الحال، فأخذته فورة الغضب وحميّة الشباب، ففعل ما فعل دون أن يستشير أحداً.

تدخّل أبو عايد، وقد وجد في الموقف فرصة للنكاية، فذكر أن المختار ليس عنده الوقت ليضيعه على تفحّص التلاميذ كلما تعرض أحدهم لعقاب يستحقه وأن أولادهم أيضاً يُضرَبون إذا أخطأوا أو قصّروا، فلا يعترض أحد. ثم قال متهكماً:

- ولا ولادك أحسن من ولاد الناس؟

أجاب أبو أحمد:

- لا أولادي أحسن من أولاد الناس، ولا أولاد الناس أحسن من أولادي. بس كل واحد بنام عالجنب اللي بريحه. واحنا ما جبنا هالولاد منشأن ينذلّوا وينضربوا. وأنا والله مش مفرط بأولادي.. كلهم أربع ولاد.

قال المختار:

- طيب مليح.. إذا مش مفرط بأولاك ومش عاجبك ينضربوا من المعلم، بلاش تقرّيهم في المدرسة.. ما هو آخرتهم للشغل والحراثة.

- وليش ما أقرّيهم؟ أنا دافع للمعلم زيّ الناس عن كل السنة.

هنا تدخل الشيخ حسين نفسه:

- اللي دفعته خذه، وزيادة عليه تعريفة.. بس أنا والله مش مستعد أعلِّم ابنك حسن بعد اللي عمله في الصف، وبعد اللي عمله ابنك الكبير.

ثم التفت إلى المختار، وتابع:

- زي ما قلت لك يا أبو عارف.. بدكم إياني أكمّل معكم السنة، هذا شرطي.

قال أبو أحمد:

- والله عاد على كيفك.. ما حدّ بجبرك.

صاح أبو عايد بمزيد من الغلظة:

- يعني على كيفك أنت يا أبو أحمد؟ إحنا اللي جبنا الأستاذ، والكلمة إلنا مش إلك.

قال أبو أحمد وهو يكتم غيظه:

- يا خوي اعملوا اللي بدكم تعملوه. أنا خلّصت اللي عندي. وأنا عارف إنكم مستكثرين عليّ أعلّم ولدين.. وبتقولوا زمله تعبان ومش قد تعليمهم، وآخرتهم للحراثة. بس أنا ما شكيت لحدّ منكم.

قال الشيخ حسين:

- مبيّن عليك ما بنفع معك الحكي.. بس عاجبك والا مش عاجبك أنا بكره بدّي أطرد ابنك من المدرسة.. خلّي أخوه الكبير يتعلّم ويندم على عملته.. احمد ربك إني ما طلعت المدينة أتشكّى عليه.

نهض أبو أحمد واقفاً وقال قبل أن يمشي خارجاً:

- لا يا خوي، روح اتشكّى. بس خلّيني أقول لك، إذا طردت الولد، أنا من بوز الصبح بركب لي دابة وبوخذ الولد عحكيم الصحة منشان يكشف عليه ويفحصه.. وبعدها بَتْوكّل على الله، وأنا اللي بتشكى عليك، وخلينا نشوف شو بدّه يصير... والسلام ختام.

وإذ هَمَّ بفتح الباب ليخرج، سمع أبا عايد يصيح به:

- أنت يا زلمة قد المحاكم؟ والا مفكر المحاكم ببلاش.

أرسل إليه أبو أحمد نظرة عابسة، وخرج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يجرؤ الشيخ حسين على طرد حسن من الصف، وآثر منذ ذلك الوقت تجاهله وتجاهل أخيه، وإن تراجعت هيبته أمام التلاميذ بعد أن تسامع الجميع بالضرب الذي تعرّض له من أحمد. ولكن المشاكل لم تقف عند هذا الحدّ. فقد وقع ما حذّر منه مسعود، وبلغ الأسرة أن المختار وأبا عايد وآخرين من الوجهاء قد قسموا الأرض المشاع على هواهم في غياب الآخرين. وكانت حصة أبي أحمد قطعة شديدة الوعورة لا تستحق جهد فلاحتها.

وكان الأصل أن تتم القسمة بحضور الجميع، وأن تراعى فيها العدالة بقدر الإمكان، فما اختلفوا عليه اقترعوا عليه. وعلى الرغم من أن قطعة أبي أحمد كانت الأسوأ، فإن كثيراً من أهل القرية، وجلّهم من صغار الفلاحين، شعروا بالظلم. ولما روجع المختار في الأمر أعلن أنه نفض يده من الموضوع هذه السنة، فلم يشارك في القسمة ليتجنب «وجع الرأس»، فمن شاء فليراجع أبا عايد الذي تولّى الأمر مع آخرين. وزعم هذا أنه وأصحابه قد أجروا القرعة، وكل وحظه. ولما اعترض أحمد على إجراء القرعة في غياب الآخرين، إن صحّ أنها كانت قرعة حقاً، ردّ أبو عايد عليه بغلظة محتجاً بأنه لم يعد من المقبول تجميع أهل القرية جميعاً كلما جاء وقت القسمة السنوية، مع ما يخالط ذلك من الجدال والمنازعات والاعتراضات. وذكره أنه في كل مكان هناك زعماء ورؤساء ووجهاء مسؤولون لهم الرأي والتدبير. وإلّا صارت الأمور فوضى.

وما كان أحمد ليتراجع، فقال محتداً:

- ومين اللي حطكم مسؤولين عن البلد؟

ردّ أبو عايد بأنهم كبار أهل البلد أباً عن جد من قبل أن يضع جد جد أحمد قدمه في البلد! أراد بذلك أن يُعرِّض بأنهم غرباء طارئون ثم خرج من التعريض إلى التصريح:

- انتو من دون الخلق، ما بطلع الكم تعترضوا. الأرض الميري لأهل البلد الأصلاء. بس إحنا صرنا نقسم الكم. وهياكم ما شا الله، صار عندكم عمارة زيتون، وصرته من أصحاب الملك.

قال أبو أحمد:

- عمارة الزيتون اللي حاسدنا عليها ما بتيجي خزق في أراضيك يا أبو عايد.. واحنا ما أخذناها صدقة.. وحطينا فيها دم قلوبنا حتى زبطناها بعد ما كانت وعرة ما حدّ بتطلع عليها. وفي الأخير شو بطلع إلنا منها مع ضرايب الإنكليز!

قال أبو عايد:

- عاد أنا شو أسويلك؟ روح هِدّ عالإنكليز إذا بدّك، بدل ما تيجو تتمرجلوا عندي. بعدين إذا مش قادر على ضرايب الإنكليز، أنا عرضت عليك أريحك من هم أرضك واشتريها منك بحقها.

قال أبو أحمد:

- والله الواحد مش عارف منين يلقيها: من الإنكليز والا..

- قصدك والا منا؟ بتحطنا مع الإنكليز في خرج واحد يا أبو أحمد؟

هنا تدخل أحمد:

- الظلم عاطل من وين ما أجا. يا جماعة خافوا الله.. الواحد منكم وراه أراضي قد مية واحد زينا.. واحنا ثلاث ارباعنا بعيش على الأرض المشاع. وبعدين بتزبطوها لبعض وبتوخذوا أحسن قطع منها.

قال أبو عايد وقد نفد صبره:

- لليش كثر الحكي.. هذا اللي أجاكم.. واللي مش عاجبه يروح يبلّط البحر.. وأعلى خيلكم اركبوه.

هز أحمد رأسه وهو يقتحمه بأنظاره:

- هذا هو.. هذا هو.. هاذي شغلة ما بنسكت عليها..

قال أبو عايد مستهزئاً:

- يعني شو بدّك تساوي؟ بتجيب لي أزلامكم؟ أي إحنا عندنا زلام لو نفخوا مع بعض بقلعوك من مطرحك.

قال أبو أحمد:

- إحنا برضه ورانا ناس يا أبو عايد. مش مقطوعين من شجرة.

- يا مرحبا بيك وبيهم.. طول عمرنا بنسمعكم بتحكوا عن هالحمولة

تبعتكم.. وعمرنا ما شفنا واحد منهم بلفي عليكم.. خلينا نشوفهم ياخوي أول.. وبعدين تعال احكي.. أما هسّع خلص الحكي، الله يسهّل عليكم.. أنا مش فاضي لكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من الواضح أن أبا عايد يريد أن يضغط عليهم حتى يضطرهم إلى بيع أرضهم له. ولكن أحمد كان مصرّاً على المواجهة هذه المرة في أمر الأرض المشاع. وإذا كان أبو عايد يعيّرهم بأنهم بلا مال ولا رجال، فإن عزوته الآن كل أولئك الذين تعرضوا للظلم في تلك القسمة الظالمة. وكالعادة حاول أبوه أن يثنيه عن عزمه مؤثراً السلامة، بينما كانت أم أحمد على النقيض منه، فقالت:

- ولوينتا بظلوا يسموكم غُرْبيّة ويستوطوا حيطكم؟ وبعدين منين أنتو جيتوا؟ ماهية كلها فلسطين، والبلد اللي أجا منها أبو جدكم بتقدر توصلها عالحمار. إذا في البلاد غربية فهمّه الإنكليز واليهود اللي فاتحينلهم البلاد. يروحوا يتشاطروا عليهم إذا بطلع بإيدهم.

ردّ أبو أحمد:

- اللي ما بقدر عالحمار بقدر عالبردعة.

قال أحمد:

- يسلم ثمك يمّه.

قال أبو أحمد موجِّهاً الكلام إلى زوجته:

- أنت ولعي النار في راس ابنك.. ما هوه ما بدّه غير ولعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها مواهب أحمد في القيادة. فقد جمع المتضررين وحرّضهم على رفع مظلمتهم للمسؤولين في حيفا. وكان قد أعدّ لذلك عريضة خاصة تبيّن الحال، على أن يبصم عليها الجميع. وما زال بهم حتى تتابعوا على تسجيل أسمائهم ووضع بصماتهم، إلا من خشي انتقام أصحاب الأراضي الكبيرة الذين يتعيّشون من العمل في أراضيهم في المواسم، ومن كان يرى أن المسؤولين في المدينة لا يأبهون أصلاً بما يجري في القرى الصغيرة المنسيّة، أو أنهم يتحيّزون إلى الزعامات الريفية، ويقدمون ولاءها لهم على اعتبارات الحق ورفع المظالم.

وحين علم الوجهاء، وعلى رأسهم المختار وأبو عايد، جنّ جنونهم، وأرسلوا يهددون ويتوعّدون. ولم يكن ذلك خوفاً من تدخل الدوائر الرسمية المسؤولة في المدينة، التي ترجع إلى سلطة الانتداب في آخر الأمر، ولكنهم سخطوا أن يتجرأ عليهم أهل القرية ويتحدّوا سلطانهم التقليدي الذي لم يكن قبل الآن موضع جدال.

على أن ما أخفق فيه أولئك النفر من الوجهاء من ردع أحمد وردّه عن عزمه، نجح فيه أقرب الناس إليه: أخوه مسعود!

فحين عاد أحمد إلى البيت وبيده العريضة مزهواً بنجاحه في جمع كثير

من الناس على رأيه، ودعا أباه إلى إضافة بصمته، ومسعوداً لإضافة توقيعه، فاجأه مسعود بأن طلب منه تمزيق العريضة، ونسيان الموضوع كله.

لم يكن مسعود بالذي يعارض أخاه الأكبر في العادة، إلّا أن يكون مستيقناً بحسّه العملي أن المنافع المقصودة لن تتحقق، ولن ينالهم من التدبير إلا الضرر عليهم، وربما على غيرهم. فذكّر أحمد أن موسم عصر الزيتون قد اقترب، وأنه إذا مضى في خطته فلسوف يحرمهم أبو عايد الذي يملك المعصرة الوحيدة في القرية، من عصر زيتونهم، حتى يفسد، أو يبيعوه بأبخس الأثمان، فيخسروا ما بذلوه في عمارة الزيتون من الجهد والتكاليف. وإن لم يكن هذا كافياً، فهناك ما هو أشد منه وأنكى: الإنكليز واليهود. فمهما يبلغ ظلم أبي عايد وأضرابه، فإنه يهون أمام خطط الإنكليز واليهود. فمنذ سنوات وضعت سلطات الانتداب قانوناً خاصاً بالأرض المشاع سمّوه قانون «تسوية حقوق استملاك الأرض المشاع». فإذا وقع التنازع عليها بين أهل قريةٍ ما، أرسلوا مأمورين عن الدائرة لينظروا في المشكلة. وكما أثبتت التجارب في بعض القرى الأخرى، فإن الهدف من القانون ليس تحقيق الإنصاف وفض المنازعات. فبعد انتهاء التحقيق يقررون أن الأرض أملاك حكومية تحت تصرّف المندوب السامي الذي من حقه، حسب القانون، أن يتصرف بتلك الأرض على الوجه الذي يراه ويقرره. وهذا يعني شيئاً واحداً: أن تنتهي إلى أيدي اليهود! فهل هذا ما يريده الناس المتضررون من قسمة أبي عايد

وأصحابه؟ وأنهى مسعود كلامه بالقول:

- وين عاد نروح إحنا لما أرض القرية تبعتنا تصفي لليهود؟ شايف هذول الناس اللي بصموا عالمزبطة، والله ليوكلوك أكل ويتفّوا علينا. ومعهم حق. أنا عندي تتسجل الأرض الميري كلها لأبو عايد والمختار ولا يطلع منها شبر للإنكليز واليهود. وللعلم كل مأمورين التسوية أو أكثرهم من الموظفين اليهود، والباقي إنكليز. وإذا كان بينهم عربي بكون بس مظهر وشاهد زور، وفي العادة من أولاد الزعامات اللي مش خايفين على أملاكهم ولا سائلين بالفلاحين المقطعين. شو رايك عاد!

لم يجد أحمد ما يدفع به حجج أخيه القاطعة. ولم تكن قد خطرت في باله قبل الآن. ولم يكن في وسعه إلا أن يمزّق العريضة، ويبتلع كبرياءه، ويطوي صدره على شعور مؤلم بالقهر وقلة الحيلة.

أما أبو عايد فظن أن تهديده ووعيده هما ما ردع أحمد عن المضيّ في خطته.

(في انتظار طاقة القدر)

"حلّ موسم قطاف الزيتون وعصره. وكان يمثّل في حياة القرية ذروة العام كلّه. وعلى نحو ما، كان أيضاً محور التقويم السنوي الخاصّ بأهل الريف دون غيرهم. فالموسم يعلن نهاية عام من التوقع والعمل والانتظار والأحلام، وبداية عام جديد منها وكانت القرية في أثنائه تأخذ طابعاً احتفالياً أشبه بالطقوس القديمة قِدَم الأرض والزيت والزيتون، ويلف القرية جوّ مشبع برائحة الأساطير المختزنة في الوجدان الجمعيّ، كما يخزن الزيت في الجِرار العتيقة. كان ثمة روح من القداسة يشيع في المكان ويحيط بشجرة الزيتون القديمة. ويجد الناس أنفسهم يتصرّفون في أنماط ثابتة مكرورة من السلوك الجمعيّ، دون أن يعوا أنها، فضلاً عن وظائفها العملية، تنطوي على قيم رمزيّة تعبّر عن استمرارية الحياة وتعاقب فصولها، وتحافظ على صورة العالم كما يراه الريفي.

كان على الجميع أن يعملوا في قطاف الزيتون وحمله وعصره. أما صغار الفلاحين الذين لا أرض لهم فيعملون لغيرهم لقاء أجر زهيد أو حمل من الزيتون، وأما أصحاب الأرض الصغيرة، فبعد أن يقطفوا زيتونهم فإنهم ينتقلون للعمل عند مُلّاك الأراضي الكبيرة بالأجرة. وأما نساء القرية فيخرجن إلى «عمارات» الزيتون التي تم قطفها «للتبعّر» بلهجة أهل الريف، أي للبحث عن حب الزيتون القليل الذي غفل عنه قاطفوه، فتخلّف على أغصانه، فلا يردّهن عن ذلك أصحاب الزيتون،

ويعتبرونه صدقة تزكّي أرضهم. وتلك كانت عملية مضنية، ولكنها ضرورة لمعظم أهل الريف.

وعلى الرغم من الطابع الاحتفالي للموسم، فإنه لم يكن دائماً بهجة خالصة لجميع الناس. وفي كثير من الأحيان، كان على بعضهم أن يتذوق طعم الحصاد المرّ!".

من مذكرات علي صالح الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع أول الصباح وصل أبو أحمد مع أسرته كلها إلى أرضهم لقطف زيتونهم، وبدأوا بالعمل في ناحية من الأرض. لم يتنبهوا أولاً إلى أن أحمد قد تنحى عنهم وسار إلى الناحية المرتفعة حيث السلسلة الحجرية المحاذية لأرض أبي عايد. ولما رأوه أخيراً يقف هناك ويضرب كفاً بكف، أدركوا أن ثمة ما يدعو إلى القلق، فصعد الأب ومسعود إلى موضعه، وقبل أن يبلغاه تبيّنا المصيبة الواقعة.

كانت بعض أغصان الشجر هناك متقصّفة وقد اختفى حملها من الزيتون. وكان من الواضح أن ثمة من اعتدى على تلك الشجيرات، فسبقهم إلى قطفها على عجل، ودون أن يترفق بالأغصان. وقع المنظر عليهم كالصاعقة. وكان من الطبيعي أن تتوجه الشكوك إلى أبي عايد وجماعته. فلا بدّ أنهم حين قطفوا زيتونهم هناك البارحة، قد مالوا على شجرات أبي أحمد المحاذية، لا طمعاً في مزيد من الزيتون، ولكن نكايةً بالأسرة، وإمعاناً في الضغط عليهم لبيع الأرض. ومع ذلك فإنهم لا يملكون الدليل، ولو راجعوا أبا عايد لأنكر بشدة، ولن يجدوا شاهداً واحداً يجرؤ على قول الحقيقة. وأشد من ذلك أنه سيقيم الدنيا عليهم ولا يقعدها أن يتهموا رجلاً في مثل مركزه وغناه بالسرقة، ثم يحرمهم من عصر ما تبقى من زيتونهم في معصرته. وكالعادة كان مسعود هو من ذكّرهم بكل هذه الاعتبارات. وما كان في حاجة إلى جهد كبير ليقنعهم بها. فلم يملكوا إلّا رفع شكواهم إلى الله، وأن يعودوا إلى قطف

سائر الشجر قبل أن يتأخر الوقت.

ولكن المصيبة الأكبر كانت تنتظرهم في المعصرة نفسها.

فحين أتمّوا القطف ونقل أكياس الزيتون إلى المعصرة، فوجئوا بعُمّالها يخبرونهم أن دورهم في العصر سيكون بعد أسبوع من الآن! ولم يكن هذا اتفاقهم المسبق مع أبي عايد. فقد كانوا قد اتفقوا معه على هذا اليوم، ولولا ذاك لأخّروا القطاف حتى يأتي دورهم، خشية أن يفسد الزيتون في أكياسه، فيأتي زيته سيء المذاق، فلا يقدم أحد على شرائه.

ضربة أخرى مميتة وجّهها أبو عايد لهم. فأخذ أحمد يسبّ ويشتم حتى كاد يشتبك مع عُمّال المعصرة، لولا أن أباه قد جذبه عنهم. وإذ بأبي عايد مقبلاً على معصرته وهو يتساءل عن سبب الشجار. فابتدره أبو أحمد فوراً بالسؤال والشكوى، وذكّره بالاتفاق معه على موعد اليوم. ولكن أبا عايد احتج بأن ظروفاً قد استجدّت فألزمت تغيير الترتيب في المواعيد. إذ إن معصرة القرية القريبة قد تعطّلت، فجاءه الناس من القرى الأخرى، ومنهم أقارب وأصحاب وآخرون له مصالح معهم، وما كان بوسعه أن يردهم. وكلٌّ يطلب مصلحته.

قال الأب:

- ومصلحتنا احنا يا أبو عايد؟ وليش ما خبرتنا قبل، كان ما قطفنا اليوم.. هيك بخرب بيتنا.. خاف الله يا رجل.. رزقنا ورزق عيالنا وشقا السنة كلها.

أجاب أبو عايد بلا مبالاة:

- هذا اللي أجاك.. وكل واحد بوكل نصيبه.

ثم تابع مشيه نحو باب المعصرة. ولكن أحمد الذي بلغ به الغضب الآن جذبه بشدة:

- تعال، وين رايح.

صاح أبو عايد:

- إيدك عني يا ولد، والا والله بقطعها.

- مش أكثر من قطع الزرق يا قليل الدين، لا والله ما هي زي ما قلت.. انت غدرت فينا عن قصد منشان تخرب بيتنا.. مش بكفيكم انكم سرقتوا زيتوناتنا اللي على الحد؟

- إيش؟ هسع بتتهمنا بالسرقة يا قليل الحيا والترباي. ولك أنا بغرقكم بالزيت.. صحيح إنك ما بتستحي.

- لا والله أنت اللي ما بتستحي.. وهسع بالمليح بالعاطل بدنا نعصر.

- لا بالمليح ولا بالعاطل. ما دام وصلت تتهمني بالسرقة يا مقطّع، عليّ الطلاق بالثلاثة، كل ما تحلّ بتحرم، ما بتعصروا عندي.. ورّيني شو بطلع بإيدك.

- أيوه بدّي أورّيك.

وجذبه أحمد من جديد وقد همّ أن يبطش به. وكان عُمّال المعصرة قد خرجوا على أصوات المشادّة، فدفعوا أحمد عن أبي عايد وحالوا بينهما. وتدخل بعض الحاضرين الذين جاؤوا لعصر زيتونهم:

- يا جماعة صلّوا على النبي واخزوا الشيطان.. انتو كلكم أولاد بلد.

صاح أبو عايد وهو يسوّي ثوبه ويلهث:

- أولاد بلد! فشر! هذول مقطوعين من شجرة.. لا مال ولا رجال.

هَمَّ أحمد أن يهاجمه من جديد، فاعترضه رجال أبي عايد ودفعوه عنه، وصاح أحدهم مهدِّداً:

- ولك مالك أنت؟ أي والله لو رفعت إيدك ما بترجع محلها.

روح انقلع ولا تورينا وجهك.

تحرك أبو أحمد ومسعود وجذبا أحمد إلى الخلف تجنباً للشر، والأب يقول:

- الله على الظالم.. الله على الظالم.

وقبل أن يدخل أبو عايد معصرته، التفت إليهم وقال:

- احملوا زتوناتكم وحلّوا من هون.

سُقِط في أيدي أبي أحمد وولديه. فما عساهم الآن يفعلون وقد ضاقت عليهم الأرض وسُدَّت في وجوههم الأبواب؟

في أثناء المشادة والشجار، كان ثمة ثلاثة تجار من أهل المدينة، يرتدون الطرابيش يراقبون ما يجري بصمت. وحين انتهى كل شيء ورأوا يأس أبي أحمد وولديه. تقدموا أخيراً منهم، وقال أحدهم:

- الله يعطيكم العافية.. زيتونكم هذا للبيع؟

وبالطبع لم يكن أبو أحمد وولداه في موقف يمكنهم من المساومة على سعر عادل، وكان التجار يعلمون ذلك. فساموهم بأبخس الأثمان.

وعندما اجتمعت الأسرة في المساء تندب حظها العاثر في هذا الموسم، اختلطت الأصوات بين شتيمة أبي عايد والدعاء عليه، والدعاء لله أن يُحسِن عِوَضهم ويَخلِف عليهم بخير. واعترض أحمد بأن المسألة ليست مسألة حظوظ، ولكنها قضية ظالم ومظلوم، وقوي متجبر وضعيف مغلوب على أمره، وأن الحظوظ لن تتغير إلا عندما ينتصف المظلوم لنفسه. وأيّده مسعود، ولكنه أردف بأن الإنصاف لا يتحقق بمواجهات غير متكافئة، وإنما بخلق الأسباب التي تتغير بها الأحوال، وهو ما يحتاج إلى تدبير وبُعد نظر، مع الصبر والمصابرة والتوكل على الله. كان حسن وعليّ يستمعان والألم يعتصرهما على حال أسرتهما. وشعرا من جديد بأن دراستهما تضيف أعباء على الأسرة. فاقترحا من جديد أن يتركا الدراسة ويعينا العائلة في العمل. فهما الآن قادران على أعمال النكش والحصيدة و«درس» الحبوب في البيادر. وهنا قال أحمد إنه بسبب ما هم فيه من الشقاء والفاقة وظلم المتجبّرين من أمثال أبي عايد، فإن عليهما أن يكملا تعليمهما مهما يكن الثمن. نعم، هو كما قال مسعود: لا بد من خلق

الأسباب لتغيير الحال ومواجهة الظلم. وأهم هذه الأسباب هو العلم والتعلّم لمن لا يملك إرثاً من المال أو عزوة من الرجال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

كان حسن وعليّ، منذ تفتّح وعيهما على الحياة، قد سمعا رواية الأسرة عن أصولها في حمولة عريقة كبيرة تُعرف بحمولة السبعاوي، وأن لها تاريخاً مشرفاً تفاخر به، ويعيش معظمها في بلدتين أخريين منفصلتين في فلسطين. ولكنهما لم يفهما يوماً لماذا انقطعت صلة أسرتهما الصغيرة منذ زمن طويل لتعيش منفردة في هذه القرية الصغيرة، وتتعرض للاضطهاد والقهر دون سند أو ظهير. ولكثرة ما سمعا من تشكيك الناس بهذه الرواية، وقع في نفسيهما بعض الشك أيضا. والآن، وقد تعرضت الأسرة لما تعرّضت له من ظلم أبي عايد مع قلة الحيلة والمال والرجال، أحبّا أن يسألا من جديد عن تلك الحمولة التي تزعم الأسرة أنها تنتمي إليها، دون أن يشهدا أي زيارات تؤكد ذلك.

ولكل حمولة روايتها الشفوية التي تتناقلها من جيل إلى جيل، دون أن يقوم عليها شاهد ثابت. ومن الطبيعي أن تعمل المخيلة على تضخيم الأصول والمآثر أو حتى اختراعها، في معرض التفاخر في الأنساب، أو مدافعة التعالي والاستكبار من الوجاهات الكبيرة.

وكان أبو أحمد يجد بعض السلوى في أن يقصّ من أخبار حمولة السبعاوي، حتى لو كان كلامه مكروراً لا جدّة يه. وبدأ بالأصول البعيدة. فالحمولة حسب الرواية من أصول يمنية قحطانيّة، وكانت تعيش في جزيرة العرب قديماً، حتى انتدب صلاح الدين قبائل العرب هناك إلى التطوع للجهاد معه ضد الصليبيين. فخرجت قطعة عظيمة من القبيلة

إلى بلاد الشام، وكان لهم، حسب الرواية، بلاء في الجهاد مع صلاح الدين. ثم استقرت قطع منهم في مناطق متفرّقة من بلاد الشام: في فلسطين، والأردن، والبقاع. ثم كان لهم بلاء آخر في قتال الفرنسيس الذين جاؤوا مع حملة نابليون، ثم حاصروا عكا. وكان لهم أيام الأتراك العثمانيين صولات وجولات، وكانوا يحكمون على قرى وأقضية بأختام وصكوك. أما لماذا انقطعت أسرة الشيخ يونس عن أصولها في هذه القرية، فالرواية تقول إن حمولة السبعاوي دخلت في مقتلة كبيرة مع حمولة أخرى في بلدهم، وتغلبوا فيها ثم خشي قسم منهم الثأر، فخرجوا بعائلاتهم وتفرّقوا في البلاد. ولأمر مجهول، نزل جدّهم الأكبر في هذه القرية البائسة. ومع الزمن انقطع ما بينهم وما بين أصل الحمولة. ويذكر أبو أحمد أنه زارهم وهو صبي صغير مع أبيه وعرّفهم نفسه ونسبه فيهم. ولكنهم، وإن قاموا بواجب الضيافة والمجاملة، لم يُبدوا حماساً يشجِّع على معاودة الزيارة. كما لم يكن في وسعه أن يدعوهم لزيارته في القرية ليستعرض بهم نسبه وعزوته أمام أهل القرية، فيكفّوا عن تصغيره ووصمه ويحسبوا له حساباً. فأين ينزلهم عنده وليس عنده غير بيت وضيع صغير لا يتسع لأهله؟ ومن أين يأتي بنفقات الضيافة؟ وحتى لو فعل، فالأرجح أن يتجاهلوا دعوته، وليس عندهم من يعرف نسبه فيهم. وما هي إلّا كلمته وروايته. والله وحده يعلم بالمقاصد والغايات. هكذا كان الحال أيام والد أبي أحمد، وما يزال كذلك الآن. ثم لم يبقَ من عقب الجدّ الذي نزل القرية أول مرة، إلّا أبو أحمد، صالح الشيخ يونس. فقد ذهب من ذهب بالوباء، وهناك من خرج في «سفر برلك» مع الأتراك

ولم يعد، وهناك من مات دون أن يعقب ولداً. وثمة من آثر الانتقال إلى أماكن أخرى.

ثم قصّ أبو أحمد على ولديه السبب في تسمية الحمولة بالسبعاوي. ذلك أن أحد أجدادهم القدماء كان من أشجع الناس وأقواهم. وقد ظهر في نواحيهم سبع كاسر روّع الناس، حتى صاروا يتحاشون الخروج في البرية أو عبور الطرق بين القرى. وفي أحد الأيام، خرج جدّهم وقد تحزّم بسيفه، وكَمَن للسبع يومين، حتى ظهر له، فعاجله بالسيف وفلق رأسه شقين، واستراح الناس من شرّه. فلقّبه الناس بالسبعاوي، حتى صار اسماً للحمولة من بعده.

أطلق حديث الأب خيال الصبيين. ولكن مسعود أبى إلّا أن يرد الجميع إلى واقع الحال، فقال:

- وشو الفايدة إذا كان الناس هون ما بصدقوا هالخراف.. ولا بمنع أبو عايد أنه يستوطي حيطنا، وإذا كان حمولتنا نفسها ما بتعترف فينا.

تدخلت الأم قائلة:

- إن شا الله لما بصير حسن وعلي أفندية كبار، حمولتكم بتيجي تدوّر عليكم وبكبر روسها فيكم، وأبو عايد وأشكاله بصيروا يضربولكم سلام.. وهسّع قوموا يا أولاد ناموا منشان تفيقوا بكير عالمدرسة..

أيّدها أحمد. وهز الأب رأسه متشككاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج أحمد ومسعود يتمشيان في البريّة حتى جاوزا حدود القرية. وفجأة سمعا صوت صهيل وجلبة، وحين التفتا إلى ناحية الصوت رأيا شاباً يرتدي ثياب أهل المدينة وطربوشاً، ويمتطي حصاناً يحاول أن يسيطر عليه وهو ينتفض به ويميل يميناً وشمالاً ويرفع ساقيه فزعاً، كما يحدث حين يصادف أفعى أمامه. هرع الأخوان من فورهما بسرعة نحوه، ولم يكن بعيداً عنهما. وما هي حتى أخذ أحمد بلجام الحصان محاولاً تثبيته وتهدئته، بينما عمل مسعود على تلقي الشاب الذي سقط أخيراً عن ظهر الحصان قبل أن يسكن أخيراً. وما كان مسعود ليقدر على احتمال ثقل الشاب عند سقوطه ليمنع ارتطامه بالأرض تماماً، ولكن محاولته خففت من قوة الارتطام. وارتضت ساق الشاب، وظهر عليه الألم. أسرع الأخوان لتفقد ساقه وجسمه، ولكنه تحامل على نفسه، ووقف على ساقيه. وأكّد لهما أنه بخير، وأنه لا يوجد كسر أو ما يستدعي القلق. فهو طبيب على كل حال. ولكن، ما الذي يأتي بطبيب من أهل المدينة إلى هذه النواحي الريفية ليتجوّل بحصانه؟ عندئذٍ عرّف الشاب نفسه، بأنه الدكتور أكرم السويدي. ولم يكن اسم عائلة السويدي غريباً، فهي من العائلات المعروفة في حيفا وريفها. وكان أبرزهم والد هذا الطبيب، إذ كان من رجال الحركة الوطنية النشيطين، وكان حاكم صلح في حيفا. ولكنه كان يملك أرضاً واسعة وعزبة في تلك النواحي من الريف، إضافةً إلى عقاراته في المدينة. وكان هذا شائعاً في عائلات كثيرة ورثت إقطاعات من أيام الأتراك العثمانيين، واحتفظت بها أو بقسم كبير

منها حتى بعد أن استقرت في المدن وتقلّد أبناؤها مناصب إدارية هامة فيها. ولم تكن عائلة أبي أكرم السويدي تزور أرضها وعزبتها إلا في مناسبات قليلة، للاسترواح في المقام الأول، أو النظر في حال الزرع واستصلاح الأرض، ومراجعة من يتعهد لهم بذلك بطريق الضمان. وكان أبو عايد قد توصّل إليهم منذ سنوات فعهدوا إليه بهذه الشراكة. ولم يكن غرض أبي عايد لينحصر في الفائدة المادية التي تعود عليه منها، ولكنه كان يرغب أن يربط نفسه بالأسر الكبيرة المتنفّذة، فيعلو بهم فوق علوّه في قريته ونواحيها. إلا أن عائلة أبي أكرم السويدي كانت تتمتع بسمعة طيبة في المدينة والريف معاً، لما عُرِف عنهم من الكرم وحُسْن الخلق وطيّب النفس، فضلاً عن السمعة الوطنية المعروفة. وذلك بخلاف عائلة «العليّ» وزعيمها أبو عزمي الذي آثر أن يقيم في عزبته الكبيرة في الريف بين أراضيه الواسعة، التي ورث بعضها، واغتصب بعضها بالقوة والإكراه والسلاح، مستعيناً بعصبته القويّة ومجموعة من أعوانه المسلّحين، وعلاقته المعروفة بسلطات الانتداب البريطاني التي لم تحاول تجريده وأعوانه من السلاح، أو محاسبته على وضع يده على الأرض المشاع هنا وهناك، في مقابل خدماته المشبوهة، وكان آل العلي يحبون أن يصفوا أنفسهم بالأمراء. وكان بين عائلتي السويدي والعلي خصومات قديمة من أيام الأتراك، أدّت أحياناً إلى مواجهات دموية وثارات موصولة. حتى سكنت الصدامات بينهما بضغط من سلطات الانتداب. وأعان على ذلك انتقال عائلة السويدي إلى حيفا وحياة المدينة.

ومع ذلك بقيت الكراهية والعداوة وذكرى الثارات القديمة طيّ الصدور، لا سيّما في صدر أبي عزمي العليّ الذي كان معروفاً بقسوته وجشعه وتسلّطه، حتى إنه كان يرسل رجاله لطرد الفلاحات اللائي يخرجن للاحتطاب من بعض الأراضي التي وضع يده عليها، ومنها جبلان قريبان من القرية التي تقيم فيها عائلة الشيخ يونس. فلا عجب أن يجمع الناس على بغضه والخوف منه، وأن يقارنوا بينه وبين عائلة أبي أكرم السويدي المعروفة بالسماحة والكرم والعطاء.

ضحك الحكيم أكرم حين عرفه الأخَوان أحمد ومسعود بنسبته إلى أبيه، بعد أن قدّم نفسه لهما. وعلّق بأنه بعد شهادة الطب من الجامعة الأمريكية، وثلاث سنوات في الصحة والعيادة، ما زال الناس لا يُعرّفونه إلّا بأبيه! اعتذر له أحمد عن ذلك وقال مداعباً:

- يا سيدي.. زيّ ما بقولوا.. ذلك الشبل من ذلك الأسد.

ضحك أكرم من جديد، وقال متهكماً:

- أي شبل وأي أسد، هذا اللي ما بعرف يركب حصان؟ يمكن بتضحكوا عليّ في سركم.

قال أحمد:

- حاشاك.. يمكن شاف حيّة قام جفل منها. ترى الخلا مليان حيايا.

ردّ أكرم:

- شكراً لأنك وجدت لي عذر. رايح أستعمله لما جماعتي يسألوني.

- لا صحيح.. هذا بحصل مع أحسن الفرسان.

تدخل مسعود بلهجة الدعابة:

- يا سيدي، يا ريتنا حُكَما وما بنعرف نركب الخيل!

أجال أكرم بصره في الطبيعة وأخذ نَفَساً عميقاً:

- ومع ذلك هون في الريف أشياء إحنا محرومين منها في المدينة.

علّق أحمد بأسلوب عفوي:

- يا سيدي، اللي ما إله حاجة في الريف غير منظر الخضرة والجبال والميّة والهواء النقي، بقدر يقول اللي قلته.

هز أكرم رأسه متفهّماً وقال:

- بس الريف عند الفلاح، مش بسّ الخضرة والميّة و..

استدرك أحمد بنبرة اعتذارية:

- لا تواخذني.. ما كان قصدي.

- لا معك حق.. اللي قلته صحيح.. تعليقي كان ساذج. أظن إنه كلنا في المدينة بنعرف حال الفلاحين وبنحكي عنهم وبندافع عنهم ضد سياسات الإنكليز.. بس بالتأكيد مش زيّ اللي عايش فيه.

صافحهما شاكراً على المساعدة. وأخذ بزمام حصانه يجرّه ماشياً وهو

يعرج قليلاً ويغالب فيما يبدو وجع الرضّة في ساقه، فيما وقف الأخَوان يشيعانه بأنظارهما. وبعد أن ابتعد مسافةً منهما شاهداه يمتطي حصانه، ومضى به بطيئاً أول الأمر، ثم ما لبث أن حثّه وعدا به مسرعاً بمهارة فائقة أدهشت الأخَوين، على غير ما توهّما من فتى طبيب من أهل المدينة. فتأكدا الآن أن ما وقع له لم يكن عن ضعف في مهارات ركوب الخيل، وإنما كان عارضاً ألمّ بحصانه فأفزعه.

علّق مسعود متهكماً:

- يعني طلع مش بس حكيم قد الدنيا، وكمان فارس أشطر منا! يعني ما خلاّلنا شي نشوف حالنا عليه.

ضحك الأخَوان، وارتدا عائدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أيام السبت، كانت حيفا تعجّ بالفلاحين الذين يأتون من القرى المجاورة، لبيع ما يتيسر لهم من خضار الموسم وثمره وحبوبه، فضلاً عما تعدّه الفلاحات من مؤونة البيوت الثابتة كالجبن ورَصيع الزيتون والمربّى والزعتر والزبيب والتين المجفف.

وكان على كثير من هؤلاء الفلاحين أن يتحمّلوا غلظ بعض موظفي البلدية المكلفين بمراقبة الأرصفة التي يمنع مدّ البُسط عليها، فقد لا يكتفي أحدهم بإلقاء الأوامر برفع البسط والمغادرة إلى السوق المفتوح، حتى يمعن في الإهانة والشتيمة والتهكم على لهجة الفلاحين، وربما وصمهم تلميحاً أو تصريحاً بالتخلّف وضعف العقل والقذارة والفوضى، وغير ذلك من الصفات التي ألصقها أهل المدينة بصورة أهل الريف.

وفي المقابل وجد أهل الريف ما يَصِمون به أهل المدينة: البخل والجبن والاستغلال والماديّة المفرطة! وبالطبع فإن كلتا الصورتين كانت ظالمة. ولكن البون بين الريف والمدينة كان واسعاً حقاً. والأمر الوحيد المؤكد أن أهل المدن كانوا يَسْتَعْلون على أهل الريف، حتى لو كان المدنيّ فقيراً ومن العائلات البسيطة المغمورة، وكان الريفي من أصحاب الأراضي والعمائر. وقد عملت سلطات الانتداب بخبث على توسيع الهوّة بين الطرفين وإثارة النعرات بينهم، كما عملت على إثارة النعرات بين العائلات المدنية الكبيرة نفسها. وعلى الرغم من أن هذه السياسة الخبيثة لم تكن خافية على كل ذي عقل، وكانت عبارة «فرِّق تسد»

شائعة على ألسنة الناس في وصف سياسة الإنكليز، فإنها مع ذلك فعلت فعلها في واقع الحياة إلى حدّ كبير.

كاد «العبد» أن يفقد أعصابه حين أمعن موظف البلدية في الشتيمة والإهانة، وهو يدعو جماعة من الفلاحين، فيهم مسعود والعبد، بأن يرفعوا بضاعتهم على الفور من الرصيف الذي مدّوا بسطهم عليه، ويذهبوا بها إلى الأماكن المخصصة لذلك. وحين أخذ ينثر بعضها بعصاه، هَمَّ العبد به، لولا أن جذبه مسعود، مذكِّراً إياه بالعواقب الوخيمة التي يمكن أن تنتهي به إلى السجن، فضلاً عن مصادرة بضاعته.

ومع ذلك استطاع الصاحبان أخيراً بيع بضاعتهما قبل حلول العصر. وكان العبد حريصاً على العودة إلى القرية ليبلغاها قبل المساء. ولكن مسعود الذي كان شغوفاً بالاطلاع على أخبار السياسة وما يجري في البلاد، ويحب الاستماع إلى فصاحة الخطباء المفوهين ثم المقارنة بينهم، ألحّ على صاحبه أن يذهبا أولاً إلى نادي الشباب حيث يقام حفل خطابي وطني يشارك فيه عدد من الشخصيات الوطنية، كما يقول الإعلان. ولم يكن نادي الشباب بعيداً عن المكان الذي فرغا فيه من بيع بضاعتهما. اعترض العبد على الفكرة، بأنهما سيبدوان غريبين في ثيابهما الريفية المتّسخة بين أصحاب الطرابيش والبدلات وربطات العنق. قبل قليل فقط هزئ من أمثالهما موظف البلدية وكأنهم قادمون من بلاد أخرى، أو كأنهم من جنس آخر. ولكن مسعود المعروف بهدوئه ردّ بشيء من الانفعال:

- سبحان الله! قول إنك انت مستحي بحالك. إذا هيك وليش زعلت من موظف البلدية؟ احنا بنقرا وبنكتب وبنفهم اللي بِنْقال.. واحنا ولاد هالبلد غصبن عن اللي عاجبه واللي مش عاجبه. ومصايب الإنكليز أول ما بتنزل بتنزل على روسنا..

وصل الصاحبان متأخرين على كل حال، حين كان آخر الخطباء قد شرع في خطبته. وعلى الرغم مما قاله مسعود بثقة واعتزاز وتصميم، فإنه حين دخل مع العبد إلى صالة الاجتماع، لم يستطع أن يدفع الشعور بالحرج، إذ لم يكن في المكان غير الأفندية وأصحاب الطرابيش. وبدا له بالفعل أن منظره ومنظر صاحبه يلفتان الانتباه ويجتذبان بعض نظرات الفضول والاستغراب، حتى هَمّ أن يرجع بصاحبه، لولا ما ألزم به نفسه من الكلام معه. لكنه على أي حال آثر الوقوف وراء صفوف الجالسين، بدلاً من اختراقها للجلوس على أحد المقاعد الفارغة، ليتجنب لفت النظر أو الاحتكاك بالجالسين. وتجنب نظرة العبد وطيف الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على وجهه، وقد أدرك مغزى تصرّفه.

كان الخطيب يتحدث عن الجهود التي تبذلها الجمعيات الوطنية لإيقاف الأوضاع المتدهورة في البلاد في ظل سياسات الانتداب البريطاني:

- وقد أوضحنا في مذكرتنا للمندوب السامي أن استمرار الأوضاع التي تمر بها البلاد سيؤدي إلى نتائج لا تُحمَد عقباها، وأن الأسباب التي أدّت إلى أحداث العام الماضي في مظاهرة القدس الكبرى، ومظاهرة يافا الكبرى ما زالت قائمة، بل إنها تتفاقم يوماً بعد يوم. وحذرنا في المذكرة ذاتها من

أن تفاقم هذه الأوضاع سيؤدي إلى أن يفلت زمام الأمور من أيدي العقلاء، وأن ذلك سيضرّ بمصالح بريطانيا العظمى فضلاً عن مصالح الشعب الفلسطيني. وحددنا له مطالبنا الفورية العاجلة في البنود التالية:

أولاً: ضرورة إيقاف سيل الهجرة اليهودية المتعاظم إلى فلسطين، سواء أكان بالطرق الرسمية المعلنة، أم بالطرق السرية.

ثانياً: وقف السماح بتسليح المستعمرات اليهودية وما يجري فيها من التدريب.

ثالثاً: وقف عمليات انتقال الأراضي إلى اليهود، استناداً إلى بنود صك الانتداب المجحف والقوانين الأخرى الموضوعة لهذا الغرض، ومنها عمليات تسوية ملكية الأراضي، لا سيما الأراضي المشاع.

رابعاً: ضرورة العمل على إحياء مشروع المجلس التشريعي الذي وعد به الكتاب الأبيض في عام ١٩٣٠، كي يتسنّى للشعب الفلسطيني أن يشارك في الحكم من خلال ممثليه الأكفاء، وذلك عملاً بالمبدأ الذي رددناه سابقاً: (لا تشريع بلا تمثيل).

خامساً: العمل على تحسين وضع الفلاحين، حيث بينت المذكرة أن الفلاحين يعانون أكثر من غيرهم من وطأة الإجراءات الحكومية، لا سيّما الضرائب الباهظة المفروضة عليهم. وأشرنا في هذا البند إلى تقرير سمسون في عام ١٩٣٠ الذي اعترف بأن ثلث الفلاحين لا يملكون أرضاً،

وأن الأراضي الأخرى لو وُزِّعت على المزارعين لما كفتهم، وأوضحنا أن عملية انتقال الأراضي لليهود تضرّ أول ما تضرّ بمصلحة المزارعين الذين يعاني معظمهم من الفقر المدقع.

وأخيراً أكدنا على ضرورة معالجة أوضاع العُمّال وتفشي البطالة بينهم، نتيجةً لتفضيل العامل اليهودي في مشاريع الحكومة وأعمالها، إضافةً إلى العوائق التي تخْلقها سياسات الحكومة المالية أمام مشاريع الاستثمار العربية، مقارنةً بالاستثمارات اليهودية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مسعود وصاحبه أول الخارجين من الصالة، وقبل أن يبتعد شعر بيد تربت بلطف على كتفه. ولما التفت فوجئ بالدكتور أكرم السويدي. تبادلا التحية أمام استغراب العبد. وازداد تعجباً حين سأل الدكتور أكرم عن أحمد سؤال من يعرفه. ثم نظر إلى «العبد» وسأل:

- أخوك برضه؟

قال مسعود:

- زي أخوي. عبدالله الحَمَد.

ثم عرّف العبد بالحكيم أكرم وذكر باقتضاب لقاءهم السابق. وحين سأل الدكتور أكرم عن سبب مجيئهما من القرية، شرح له مسعود أنهما كانا يترزقان من بيع الخضار كما يفعلان بين الفينة والأخرى، وأنه حين علم بالمهرجان الخطابي أحب أن يحضر ليعرف المزيد عما يجري في البلاد من

أفواه أصحاب الرأي. هنا سأل أكرم عن رأيهما فيما استمعا إليه. فأجاب مسعود بأنهما لم يدركا إلا الخطيب الأخير. وعاد أكرم فسأل عن رأيهما في كلامه. وبدا على مسعود تعجبه من سؤال فلاح بسيط مثله عن رأيه في كلام الزعماء المتعلمين والخطباء المفوهين من أهل المدينة. ولكن الدكتور أكرم عاود السؤال قائلاً:

- لا بد إنه عندكم رأي.

عندئذٍ لم يجد مسعود بُدّاً من الإجابة:

- والله عاد إذا بدّك الصحيح يا حكيم، إحنا توقعنا نسمع إشي جديد.. إشي فيه فِعِل مش صف حكّي.

قال أكرم:

- يعني برايك اللي سمعتوه صف حكي؟

هنا تدخل العبد وتحدّث بلهجة أكثر حسماً:

- من يوم ما فتحنا عيونّا واحنا بنسمع هالخراريف. مذكرة للمندوب السامي.. أحوال الفلاحين.. حكي.. لا تواخذني، بس قدّيش بحس هذا الخطيب بأحوال الفلاحين؟ زي ما قالوها: اللّي بعدّ العصي مشي زيّ اللي بوكلهن، واللي إيدُه في النار مش زيّ اللي إيده في الميّة.

حافظ أكرم على ابتسامته الوديعة وقال مؤيِّداً:

- صحيح. هذا رايي أنا كمان.

تشجع العبد ليزيد:

- تلاقي زلمتنا هذا الخطيب عمره ما خطّى قرية إلّا لشمّة الهوا. دايرين على المندوب السامي.. المندوب الزفت.. والمصايب كلها جاي منه.. بحضروا حفلات وبوكلوا وبيشربوا وبعملوا زعامات على حسابنا.. وبالأخير احنا بنطلع من المولد بلا حمّص.

أضاف مسعود:

- وبعدين يقول لك: بدنا انتخابات وبرلمان زي بلاد برّة. لا تشريع بدون تمثيل! وشو الفايدة إذا كانت الكلمة الأولى والأخيرة للإنكليز.. استعمار وبرلمان من أولاد البلد؟ ما بتركب.

هز أكرم رأسه مؤيِّداً من جديد:

- تمام.. تمام.

وتابع مسعود:

- ولو فرضنا إنه الإنكليز وافقوا على هالطلب، الزعما تبعونا راح يتقاتلوا على الكراسي، وتولّع بينهم.. واحنا..

قاطعه العبد:

- وانت مصدق إنه الإنكليز بوافقوا أصلاً؟ بس بطمعوهم وبقولوا: رايحين ندرس طلباتكم، وبدنا أول نبعثها للحكومة في لندن منشان تدرسها.. وبعدها بِتجُرّ.. وجماعتنا هون بظلوا فاتحين بطونهم يستنوا..

وحتى لا يزعلوا الإنكليز ويضيعوا الفرصة، بقعدوا هاديين مؤدّبين، وإذا الناس بدها تثور على الظلم، بطلعوا يهدّوهم ويقولوا: اصبروا يا جماعة.. أعطونا فرصة.. لا تخربوها علينا. وهذا قصد الإنكليز من كل هالخرفيّات.. وعود كذابة وتسكيت للناس.. جربناها كثير معهم، وصرنا عارفين الطابق كلّه.

شعر العبد بأنه أسرف في الكلام، فاستدرك معتذراً:

- بدّك لا تواخذني يا حكيم.. يمكن..

قاطعه أكرم:

- لا أبداً. كل اللي قلتُه صحيح.

علّق مسعود:

- بس شو الفايدة! اللي بعرفوا يحكوا ويخطبوا همّه المتعلمين في المدن.. وهذول ما عاشوا في الفِلح ولا ذاقوا مراراته.. والفلاح اللي إيده في النار، مش قدّ الحكي والخطابة والزعامة.

ردّ أكرم بحماس:

- يمكن مش قدّ الخطابة والكلام الفصيح.. بس لو أنا حاولت أصوّر الأمور على حقيقتها، ما بعرف أحطها بكلام أوضح وأدقّ من هذا الكلام اللي سمعته منكم.. فعلاً القضية مش قضية خطابات ومذكرات وبيانات.. القضية قضية فِعِل.. هذا اللي بقوله دايماً..

في تلك الأثناء، كان الخطيب الذي استمع إليه الصديقان قد خرج، والتف حوله عدد من معارفه يهنئونه على خطبته وجهوده، حتى سمعه مسعود والعبد ينادي أكرم أن ينضمّ إليه.

استأذن أكرم من الشابين، ولكنه قبل أن يغادرهما جاملهما بالقول:

- أنا في الخدمة إذا احتجتوا لأي شي.

ثم ذكر لهما عنوان عيادته ومنزله الذي يقيم فيه مع أبيه وأسرته. وحين بلغ موضع الخطيب وأصحابه، سمعوا هذا يقدّم أكرم إلى أحد الأفندية الذين يقفون معه:

- ابني الدكتور أكرم.

إذن فإن الخطيب الذي انتقدوا كلامه دون تحفّظ، لم يكن إلّا أبا أكرم السويدي نفسه! طغى عليهما الشعور بالحرج، فانسلّا مبتعدين على عجل وخجل أولاً، حتى إذا غابا عن الأنظار، انطلق العبد بالضحك. نظر إليه مسعود مقطباً وقال:

- عليش بتضحك؟ على فضيحتنا مع الزملة؟ وحضرتك دمك حامي ونازل بهدلة و..

قاطعه العبد:

- وليش، أنت قصّرت؟ وبعدين يا خوي خليهم يسمعوا راينا فيهم، واللي عاجبه عاجبه، واللي مش عاجبه يروح يبلّط البحر.. قال زعما قال؟ مش

انت صاحب الفكرة نيجي ونسمع؟ لوم حالك.

نفخ مسعود بضيق، بينما استأنف العبد ضَحِكه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحق أن الدكتور أكرم لم يبدِ تأييده لكلامهما لمحض التأدّب والمجادلة، ولكن لأن الكلام وافق آراءه التي تمثل تياراً وطنياً، جلّه من الشباب الوطني المتعلّم، يخالف مواقف تيار من الزعامات التقليدية ينتمي إليه أبوه. فقد كان أولئك الشباب يرفعون شعار «الإنكليز أصل الداء ورأس البلاء»، فما كان للهجرات اليهودية إلى فلسطين أن تتوالى لولا سياسات الانتداب البريطاني الساعية إلى تنفيذ وعد بلفور. وفي المقابل، ليست وعودهم وكتبهم للزعامات الفلسطينية إلّا «مواعيد عرقوب» ومراوغات كاذبة، لا تهدف إلّا للتهدئة والمماطلة، كلما انفجرت الأوضاع ووقعت الصدامات والانتفاضات الشعبية. فلا جدوى من محاولات التفاوض السلمي معهم، إذ كيف يكون الخصم هو الحَكَم؟ فالأوْلى حشد القوى الشعبية وتنظيمها لمواجهة سلطات الانتداب بكل الطرق الممكنة، حتى إعلان الجهاد المقدّس إذا اقتضى الأمر، وفي هذا لن يكون الفلسطينيون وحدهم، فلا بد أن يؤدي ذلك إلى تدفق المتطوعين الأحرار من بلاد العرب. وإلى جانب ذلك، فمن الممكن استغلال النزاعات السياسية بين القوى الدولية والاستعمارية العظمى لصالح الثورة، وإمدادها بالمال والسلاح من خارج فلسطين.

ولطالما دخل الدكتور أكرم في جدالات مع أبيه وأصحابه حول هذا الأمر،

وكان يذكرهم دائماً أنه حتى لو لم يكن هناك مشروع صهيوني ترعاه بريطانيا، فإن وجودها الاستعماري في فلسطين حقيق بالمقاومة حتى الاستقلال، كما تفعل كل الشعوب التي ابتُليت بالاستعمار. وعلى الرغم من أن أباه كان على مذهب سياسي مختلف، فقد كان دائماً فخوراً بمواقف ولده. ولم يكن ليخفى عليه خبث الإنكليز ولا قوة حجة ولده في المقابل، ولكنه كان يرى في الوقت نفسه أنه يجب استنفاد كل الطرق السياسية لتغيير مواقف الإنكليز، وأن بريطانيا العظمى تقدّم مصالحها في المقام الأول، فإذا وجدت أن مصالحها في المنطقة العربية كلها باتت مهدّدة فيمكن أن تتراجع عن وعد بلفور، كما فعلت مع الكثير من وعودها السابقة. وكان الردّ حاضراً عند أكرم، فيذكر والده بقوة الحركة الصهيونية في الغرب الاستعماري والتحالف الاستراتيجي بينهما، وأن بريطانيا ومن معها لا يعملون من أجل المشروع الصهيوني وإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لخالص المودة والتعاطف، ولكن من أجل مصالحهم الاستعمارية والاستراتيجية في المنطقة كلها، التي تلتقي مع الأهداف الصهيونية. فلن يكون الوطن القومي الموعود للصهاينة إلا قاعدة متقدمة للاستعمار في المنطقة العربية كلها.

ولم يكن الجدال بين الأب وابنه لينتهي إلى نتيجة محددة، فإذا شعر الأب أنه وصل مع ولده إلى طريق مسدود آثر أن ينهي الجدال معلِّقاً الأمور على شرط المستقبل وما ينكشف مع الأيام. فيصر أكرم أن المستقبل هو حصيلة ما تصنعه الأطراف المختلفة الآن، فإذا بقي الأمر

على حاله، فالمستقبل قاتم لا محالة.

كان الجدال ما يزال جارياً بين أكرم وأبيه عقب عودتهما من الحفل الخطابي، حين طُرِق الباب. وإذ فتحه أكرم فوجئ بمسعود يقف هناك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

وصل مسعود بعد دخول الليل إلى بيت أسرته في القرية. وكان والداه وأخوه أحمد ينتظرون وقد اشتد بهم القلق لتأخره على غير العادة. فاختلطت أصواتهم بالسؤال عن السبب. ولكنه قابلهم بابتسامة واثقة، وأحب أن يضفي على الموقف بعض التشويق فقال:

- خير.. خير إن شا الله.. الصباح رباح.

ولكنهم أصرّوا على أن يقصّ عليهم خبره الآن.

والذي حدث أنه بعد أن أوشك مسعود والعبد على مغادرة حيفا عوداً إلى القرية، خطر لمسعود خاطر غريب. وفوجئ العبد حين أخبره أنه يريد أن يزور بيت أبي أكرم السويدي دون أن يفصح له عن السبب. وألحّ مسعود عليه أن يتابع طريقه إلى القرية وحده على الدابة التي جاءا بها. ولكن العبد أصرّ على انتظاره حتى يفرغ من حاجته الغريبة.

وهكذا وصل مسعود أخيراً إلى منزل أبي أكرم الفخم وطرق الباب. واستقبله أكرم الذي فوجئ بتلك الزيارة غير المتوقعة، ولكنه أحسن استقباله ثم قدّمه لأبيه. وتعمّد مسعود أن يُلحق باسمه عائلة السبعاوي المعروفين، على الرغم من أن اسم أسرته في القرية لا يتصل إليهم. وقبل أن يذكر حاجته بدأ يشكر أبا أكرم على جهوده الوطنية في الدفاع عن حقوق الفلاحين، لا سيما الكثرة التي لا تملك أرضاً أو تملك القليل منها كما ذكر في خطابه الذي تشرّف بالاستماع إليه. وهو ما

شجّعه على القدوم عليه في حاجته. وتحاشى هنا النظر إلى أكرم الذي استمع إليه وإلى صاحبه العبد قبل قليل ينتقدان الكلام ويشككان في صدقه وجدواه، ولاحَ على وجهه الآن طيف ابتسامة غامضة، وأدرك أن هذا الفلاح البسيط إنما أراد أن يحرج والده ويلزمه كلامه بأسلوب غير مباشر. والحق أن ذلك أعجبه منه. أما الحاجة التي جاء بها فهي أن يقسم أبو أكرم له ولأسرته قطعة صغيرة من أراضيه الكثيرة القريبة من القرية ليفلحوها عنه بالقسمة والضمان على الشرط الذي يرضاه.

وبالطبع ما كان أبو أكرم ليوافق على طلب ذلك الفلاح البسيط الذي لا يعرفه. وما حاجته إليه وقد درج منذ سنوات على أن يوكل أراضيه كلها هناك بأبي عايد، زعيم القرية وكبيرها! ولكن الدكتور أكرم تدخّل مزكياً مسعوداً وأخاه أحمد بأسلوب يوحي بأنه على معرفة طيبة بهما. وتعمّد أن يبالغ في تصوير جميلهما عليه حين جمح به حصانه في الأرض الخالية، وأنه لولا مساعدتهما فربما وقع له مكروه كبير دون أن يجد أحداً يسعفه في ذلك الوقت وذلك المكان. وقد فعلا ذلك دون معرفة سابقة، فلم يحملهما على ذلك إلا دواعي الشهامة والرجولة. ومثل هؤلاء يوثق بهم. ولعل الله قد ساقهما إليه في الوقت المناسب لأمر مقدور. ومسعود على أي حال لا يطلب إلا قطعة صغيرة على قدر ما يستطيعون تدبيره. ويبقى لأبي عايد سائر الأراضي. وله من أملاكه الخاصة ما يغنيه على كل حال. وإنما غايته الزيادة والوجاهة والتفاخر بعلاقته بدار السويدي. وإن كان أبوه يطلب ضماناً فهو يضمن بنفسه

هؤلاء الناس ويتحمل المسؤولية. ولم يفته أن يُلمِّح هو أيضاً إلى كلام أبيه في خطابه ذاك. وما زال به حتى وافق أخيراً، على بعض التردد والمضض، وكتب لمسعود صكاً بقطعة محدودة من أراضيه.

وحين خرج مسعود سعيداً بإنجازه، بقي في نفس أبي أكرم شيء مما وقع، وعاتب ولده على إحراجه. ولم يكن اعتراضه لضعف ثقته بأمانة ذلك الشاب المجهول وأهله. فهو لم يكن أكثر ثقة بأمانة أبي عايد الذي بقيت معظم أراضيه في يده. ولم يكن يعوّل كثيراً على الدخل الذي يأتيه من غلّة الأرض على كل حال في ظل الظروف الخانقة التي فرضتها سلطات الانتداب على الأرض والزراعة. ويغنيه عن ذلك وظيفته المرموقة وعقاراته في حيفا. ولكنه كان يرى الشراكة مع زعماء القرى والريف أجدى للعمل السياسي والوطني، حين تقتضي الحاجة حشد الناس الذين يرى أنهم تَبَعٌ لكبارهم وزعمائهم. أما أكرم فكان يرى أن عامة الفلاحين الذين لا يملكون الكثير هم وقود الجهاد والمقاومة، فإذا جدّ الجدّ وضاقت السبل بأهل البلاد لن ينتظروا آراء زعاماتهم، بل ربما ألزموهم اللحاق بهم، فهم أجدر بأن يبذلوا أنفسهم، إذ ليس عندهم ما يخشون خسارته.

عندما أخرج مسعود صك الضمان ولوّح به متباهياً، أضاء وجه أحمد بالسعادة، ثم انطلق بالضحك. ولم يكن ذلك فقط ابتهاجاً بإنجاز أخيه وما يمكن أن يعود به على الأسرة، ولكنه كان أيضاً تشفياً بأبي عايد الذي سوف «يطق» الآن في ثيابه، كما قال. ولكن هذا بالضبط ما جعل أباه لا

يبدي من الحماس مثل ما أبدى ولداه وأمهما. فقد كان يخشى أن أبا عايد لن يسكت عن ذلك، وسيجد طرقاً مختلفة للانتقام. ثم إن فلاحة أرض أبي أكرم تقتضي تكاليف معيّنة قبل أن تعود عليهم بغلتها وريعها. وهو ما لا تقدر عليه الأسرة الآن. أما الاستدانة لهذا الغرض فأمر غير مأمون. فالمواسم لا تأتي دائماً على رغبة الناس وآمالهم. وحساب الحقل ليس دائماً كحساب البيدر كما يقول المَثَل الشعبي.

زاد أحمد بذكر الحاجة إلى دابة مملوكة، إذ لا يسعهم بعد الآن التعويل على اقتراض دابة أبي العبد، على ما في الرجل من طيبة وسماحة نفس.

بينما كان الأب وولداه أحمد ومسعود يقلبون الرأي في ذلك الأمر وقد ذهبت نشوة إنجاز مسعود وجاءت فكرة ما يترتب عليه من مسؤوليات ثقيلة، يزيد من ثقلها حرصهم الصادق على ألا يخيبوا ظن أكرم وأبيه فيهم، وأن يثبتوا لهما أنهم أكثر أمانةً وصدقاً من أبي عايد، فوجئوا بأم أحمد تخلع إسورتها الذهبية الوحيدة التي ورثتها عن أمها، وتقدمها لهم ليستعملوا ثمنها في حاجتهم المستجدّة. تردد أبو أحمد وأحمد، وقد شعرا بأن ذلك يزيد من ثقل المسؤولية عليهما. ولكن مسعود كان أسرع منهما إلى القبول، ووعد أمّه أنه بتوفيق الله سوف يعوّضها عن ذلك بأحسن منها. فأجابت بردّها المعتاد على وعود المستقبل:

- بتجيبوا لنسوانكم إن شا الله. ما بدّي إلا أشوفكم مبسوطين ورافعين روسكم.

وكانت بالطبع تلمح إلى رغبتها في زواجهما. فقال أحمد:

- أي احنا هسّع متغلبين نشتري حمارة، تنقدر نتجوّز!

وكالعادة أيضاً ذكرت الأم أن الزوجة مقدم خير: تعمل وتساعد في عمل الأرض وتكتسب بعض النقود في أعمال «التعشيب» والقطف والحصاد عند الآخرين في المواسم. وطعامها من طعامهم، فلن تشترط أن تأكل اللحم والرز. أما الولد فلا يأتي إلا ورزقه معه! وعلّق أبو أحمد متبرماً كعادته:

- يا ستي، لوقتها الله بهوّنها.. لليش هالخرّاف الفاضي هسّع.. خلينا هسع نفكر..

قاطعته معترضة بلهجة قوية:

- لع، خرافك أحسن يا خوي!

تدخّل مسعود مبتسماً:

- إن شا الله يمّه لما بنتجوز بتكون حالتنا فوق وبنتجوز نسوان بالفعل من اللي بوكلن لحمة ورز.

علّق الأب من جديد:

- شوف هالخراف. اللي بكبّر فحجته بنفلخ، واللي بكبّر حجره ما بصيب.

قالت الأم:

- هاي كل خرافياتك يا هالزلمة. كل ما واحد أتطلع لفوق بتحب تطفسه. إيش ناقص أولادك، وليش ما يصيروا أحسن من أبو عايد والمختار واللي خلفوهم؟ يا ما ناس كانوا تحت وصاروا في العلالي. خلّي عندك أمل في الله.

هز الأب رأسه وقال مستسلماً:

- والنِّعم بالله.

أيّدها مسعود قائلاً:

- الناس أجناس يابا. فيه ناس صحيح بكَبْروا خطوتهم عالفاضي.. وفيه ناس بمشوا مزبوط وبوصلوا.. وفيه ناس لا بكبروا خطوتهم ولا بمشوا، وبظلهم واقفين مطرحهم.

كان مثل هذا الحوار بين الأبوين يتكرر كثيراً، فعلى الرغم مما جعل الله بينهما من المودة والرحمة اللتين تستعلنان في الفعل والسلوك، لا في الكلام، فقد كان كل منهما ينطق عن شخصية مختلفة. أما أم أحمد فكانت تنطق عن أحلام كبيرة لأبنائها، لا تخجل أن تسرح خارج حدود القرية إلى المدن الكبيرة وبيوت الحجر. وأما الأب فكان ينطق عن أحلام متواضعة لا تتجاوز طلب الستر والسلامة والعافية والاستغناء عن الناس وأن تحيط به أسرته الصغيرة. وكانت القرية حدود عالمه المألوفة، على ما فيه من نكد أبي عايد وأضرابه ومن ضيق العيش. فالذي تعرفه خير مما تجهله. ولذلك لم يكن غريباً أن يجد الأبناء في أمّهم السنديانة التي

يسندون إليها ظهورهم، والسّراج الذي يستضيئون به في تجوالهم اليومي في أرض الأحلام والطموحات المستعصية، وهي التي لا تفتأ تردد على أسماعهم، كلما اشتد الحال في القرية: «إن شا الله تبعدوا وتسعدوا يمّه». كانت مستعدة لاحتمال غيابهم، على قسوته، إذا كان سبباً في ارتقائهم وسعادتهم. كان كل من الأبوين يحب أبناءه على طريقته الخاصة. فكان من حب الأب أنه يريدهم أن يكونوا دائماً حوله، وكان من حب الأم أنها تريد أن يكونوا حيث تكون سعادتهم وتتحقق أحلامهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مخاوف أبي أحمد في محلّها. فحين تبيّن الأمر لأبي عايد جنّ جنونه. كيف توصّل هؤلاء «المقطّعين» لأبي كرم السويدي بجلال قدره حتى رضي أن يُقطِعهم حقلاً من أراضيه، بل مما صار مع الزمن بمثابة حق له؟ ومن؟ مسعود؟! هذا الذي كان بخلاف أخيه الأكبر يبدو من النوع الهادئ المسالم الذي «تأكل القطة عشاءه»! فعلاً «يا ما تحت السواهي دواهي»، ولا يغرّنك الملمس الناعم، فكذلك جلد الأفعى، وهؤلاء «الغربيّة» طينة واحدة! وكان أكثر ما أغضبه أن يستقووا بالعلاقة مع أبي أكرم ويتصرفوا باعتبارهم من المحسوبين عليه. ومن يدري؟ ها هو قد قطع لهم حقلاً صغيراً هذا العام، فلربما قطع لهم في الأعوام القادمة غيره. ولعلهم يتباهون الآن بين الناس بأنهم غلبوا أبا عايد! لا، لن يتركهم يهنأون بهذا حتى يوقفهم عند حدّهم مهما يكن الثمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن أبا زيد الهلالي كان مستعداً للمواجهة، وقد امتطى جواده السابق الأصيل، وهز سيفه، وطلب النزال، ثم صاح في جنده أن يهجموا على أعداء الله، مستعيراً ما حفظه عن طارق بن زياد:

- البحر من ورائكم وال... لع.. اليهود من أمامكم، والإنكليز من ورائكم.. الموت ولا العار!

ردّد جيشه، الذي لم يكن غير جندي واحد، بصوت صبي لم يبلغ الحلم:

- الموت ولا العار. امضِ ونحن من ورائك يا أبو زيد.

صحح عليه أبو زيد من فوره:

- يا أبا زيد.. مش أبو زيد.. منادى مضاف.. صرت ناسي!

لو سمعك الشيخ..

قال الجندي مقاطعاً:

- أنا عارفها.. بس انت اللي ناسي يا أبو زيد! جواز إعراب الكنية على الحكاية وبقاء الواو في كل المواقع الإعرابية.. جاء أبو زيد.. رأيت أبو زيد..

قاطعه أبو زيد متضجّراً:

- آه.. صح.. عارف.. ما أكثر حكيك. هذا وقتُه؟ هسّع وقت الحرب والقتال.

غلب عليهما الضحك. ثم تهيأ أبو زيد من جديد وهتف وهو يتعالى بجسمه على جواده «السابق الأصيل»:

- الموت ولا العار!

ردّد الجندي الوفي الشجاع من ورائه:

- الموت ولا العار!

- المنيّة ولا الدنيّة.

- المنيّة ولا الدنيّة.

وهز أبو زيد عنان جواده «السابق الأصيل» ليكرّ به على الأعداء، ولكنه خذله وثبت في مكانه، مُنْهِياً بذلك تمثيلية الأخوين حسن وعليّ ومعيداً إياهما من أرض التخيّل الجميل إلى أرض الواقع البائس. فالحمار الذي اشترته الأسرة كان أقلّ خيالاً وأكثر رضاً بواقعه من فارسه حسن وتابعه عليّ!

- محروق أبوه من حمار.. والله لو راكب خشبة!

وضحك الأخوان من جديد. وحين أمن الحمار على نفسه من الكر والفرّ في جحيم المعارك، مشى بهدوء على هواه براكبيه. وقال حسن متعلّلاً:

- في يوم من الأيام مش رايح أستنظف أركب حمار، حتى لو كان حمار قبرصي.. لازم حصان أصيل، وبعدين أتومبيل أبو أربع عجال.

ردّ عليّ:

- إحنا الأوتومبيل ما بنشوفه في السنة مرّة هون، وأنت صرت بدك أوتومبيل؟

- ليش اللي بيجو بالأوتومبيل أحسن منّي؟

- انت عارف قدّيش حقّه؟ يا دوب قدر أبوك يشتري هالحمارة، وانت بتفكر بالأوتومبيل؟

صمت حسن، وذهب ببصره إلى الأفق البعيد حين كان رفّ من طيور

السنونو يتموّج فيه تموّج أحلامه ومشاعره. ثم أطلق تنهيدة عميقة:

- آ آخ.. لو بس تنفتح لي طاقة القدر.

سأل عليّ:

- علمك فيه حدّ عمره شافها؟

أجاب حسن:

- بقولوا هذا الهبيلة خليل.. أبو ريالة.. انفتحت عليه مرة بالصدفة.

- خليل أبو ريالة الهبيلة اللي الأولاد بلحقوه بالحجارة وبطبلوله بالتنك؟ إذا كان هيك وانفتحت له طاقة القدر، كيف لو ما انفتحت له؟

- ما هو عشان هيك انهبل وارتبط لسانه.

- عشان انفتحت له طاقة القَدْر؟

- ما هي طاقة القدر هذي ما بتفتح في السماء إلا دقيقة وبتسكر على طول. عاد إذا بقى الواحد مش محضّر حاله وما لحقش يدعي بتروح عليه.

- وأبو ريالة هاذ فتحت عليه وما دعا؟

- لما شافها في السما ارتبط لسانه وما عرف شو بدّه يدعي من كثر اللي في باله. وما لحّق يصحى على حالُه حتى سكّرت.. قام من يومها انهبل زي ما بتشوفه. هيّه قليلة؟ يعني لو الله فتح عليه ولحق يدعي كان

هسّع تلاقيه صار ملك. إيش ما بتدعي لما تنفتح الطاقة عليك، الله بستجيب.. بس عاد الواحد بدّه يسرع كثير.

سكت عليّ متفكراً، ثم عاد يسأل أخاه:

- طب لو انفتحت عليك انت.. شو بتدعي؟

تريّث حسن لحظة ثم أجاب:

- إنه الله يرزقني جبل ذهب.. عشان نصير أغنى من كل الناس، ويصير المختار وأبو عايد واللي زيهم يبوسوا إيدينا..

- بس إذا الله رزقك جبل ذهب، الناس بتندلّ عليه.. وإذا سلمت من الناس، ما بتسلم من الإنكليز. يعني مفكر الإنكليز بخلولك إياه؟

- إذن بدعي كمان أنه الله يخلّيني أقوى من كل الناس ومن الإنكليز حتى ما حدّ يقدر يقرّب ناحيتي.

- على هالحال بتقدر هيك تطردهم لحالك من البلاد، وتخلصنا منهم.

- مزبوط.

أبى عليّ إلا أن يفسد الحلم حين قال:

- بس عاد لمّا بدّك الله يرزقك جبل ذهب، وبعدين انه الله يقويك وتصير أقوى من الإنكليز والعالم، بتكون طاقة القدر سكّرت!

- عاد هيك لازم أدرّب نفسي أدعي بسرعة.

صمت عليّ لحظة ثم قال:

- رمضان قرّب.. وطاقة القدر ما بتفتح إلّا في ليلة القدر.. شو رايك لما ييجي رمضان..

قاطعه حسن:

- هذا اللي قاعد بفكّر فيه.. في آخر عشر أيام من رمضان.. بطلع أنا واياك في كل ليلة ننطر في الأرض.. وبنظلنا نتطلع على السما.. بلكن على الله.. وحتى ييجي رمضان، بنظلنا ندرب حالنا على الدعا بسرعة.

في هذه اللحظة سمعا صوت أحد زملاء المدرسة:

- شو.. هذي حمارة مين؟

أجاب حسن بفخر واعتزاز:

- حمارتنا.. مُلك.

قال الصبي متهكماً:

- الله يخليلكم إياها.. ويخلّيكم إلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاث ضربات متتالية وموجعة على الرأس كافية لتصرع الرجل القويّ، فكيف بالذي يحاول جاهداً الوقوف على ساقيه! أما الأولى فحين خرجت خضرة لتخبز العجين في الطابون المبني خارج البيت، لتجده مدمّراً بفعل فاعل. وأما الثانية فحين صحا أهل البيت على دخان كثيف، ليجدوا الحطب المركوم على حائط «الحوش» الصغير مشتعلاً. وأما الثالثة القاصمة فحين وجدوا الحمار المربوط خارج البيت يتلوى على الأرض ويرفس بقوائمه حتى نفق أمام أعينهم بعد احتضار مؤلم طويل. ولم يبقَ شك أنه نفق مسموماً، وأن كل هذه المصائب المتوالية من تدبير أبي عايد.

عندئذٍ لم يعد أبو أحمد قادراً على كبح جماح ولده الأكبر. فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزّبى. فانفلت على وجهه يبحث عن أبي عايد وهو ينتفض من الغضب، حتى وجده بين آخرين. فأخذ بتلابيبه يهزه هزّاً شديداً ويصيح:

- آخرتها معك يا قليل الدين.. قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق.. شو أعمل فيك هسّع.

أسرع الناس فحالوا بينهما، ودفعوا أحمد بعيداً عنه.. وصاح أحدهم مقرّعاً:

- شو صار لك يا زلمه.. انجنيت؟

ردّ أحمد وهو يلهث:

- آه انجنيت.. هو خلاّلنا هالزملة عقل؟ يا ناس.. يا عالم لوينتا بدّه يظلّه ورانا.. طابونّا وهدّه.. وحطباتنا وحرقهن.. وفي الأخير الحمارة اللي اشتريناها بالموت وسمّها.. وشو ظلّ؟ وبعدين بتقولوا انجنيت؟ طبعاً بدّي أنجن وبدّي أدبّ عالموت.. ما هو ما ترك إلنا إشي نخاف عليه.. خرّب بيتنا الله يخرب بيته.

تدخل أحدهم:

- استهدي بالله يا أحمد.. عيب الزملة زي أبوك.

ردّ أحمد:

- فشرت عينه يكون زيّ أبوي.

تحدث أبو عايد لأول مرة:

- فشر ولا أتشبه بأبوه. ولك يا مقطّع بتمد إيدك على سيدك وسيد سيدك. هذي كبيرة.. والله لتندم عليها. أنا بعرف كيف أأدبك وأأدب اللي خلفوك. قال خربت بيتهم.. ولك انتو عندكم بيت حتى أخربه؟

كان أبو العبد قد وصل على التصايح، وقد أدرك طرفاً من المشادّة. فجذب أحمد برفق:

- امشي معي يا ابن أخوي.. الله عالظالم.

وحين ابتعد به، ربّت على كتفه بمودة وعطف:

- يا ابن أخوي هذول شرانية وما بخافوا الله.. وانتو واحنا مش قدهم. الله بعوّض في اللي راح.. بتخاف بكره يعملوا فيك عملة، ولا من شاف ولا من دري.. ما هو العَمْلات اللي عملوها فيكم ما فيه شاهد عليها، ولو كان فيه ما بتجرّأ يشهد. وبعدين يشهد لمين؟ ما هو حاميها حراميها.. استهدي بالله وتعال عندنا نغسل لك وجهك.. ما انت زي النار. والحمارة تبعتنا إلنا وإلكم. كيس واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتأخر أبو عايد في تنفيذ تهديده. فبعد يومين فقط، وحين كان أحمد عائداً وحده من عمل الأرض، خرج عليه عايد، أكبر أبناء أبي عايد ومعه عدد من الشباب وصاح به:

- انت بتتجرأ وبتغلط على أبوي وبتمد إيدك عليه؟

حاول أحمد تجنبهم ومتابعة سيره، ولكن عايد جذبه من أعلى ثوبه، فدفعه أحمد بسرعة ولطمه لطمة عنيفة في صدره كاد أن يسقط بها على الأرض، وما هي حتى اندفع إليه الآخرون من كل جانب. دافع عن نفسه ببسالة، وكان شديد القوة. ولكن كثرتهم غلبت عليه، حتى أهوى أحدهم بعصا على رأسه فشجّه وسال دمه.

- يا وَرَدي.

وَلْوَلَت الأم حين رأت ولدها يدخل مترنحاً وقد تلطخ وجهه وثوبه بالدم، وهرع الجميع إليه يسندونه حتى أجلسوه.

- عملوها أولاد الحرام الله يقطع إيديهم واجريهم.

تحامل أحمد على نفسه وقال مهدّئاً أمه وأخته التي كانت تبكي بصمت بينما كان مسعود يتفحّص الجرح:

- يمّه أنا مليح.. لا تخافي..

قال مسعود:

- الجرح مش عميق.. اركضي يا خضرة هاتي ميّة وخرقة نظيفة.

لم يكونوا في حاجة إلى السؤال والجواب ليعلموا أن هذا من فعل أبي عايد وجماعته.

بعد هنيهة طرق الباب. وظهر أبو العبد وولده العبد وقد هرعا ليطمئنا على أحمد. فالأخبار في القرية الصغرة لا تلبث طويلاً حتى تبلغ الأسماع.. الأخبار السيئة بصفة خاصة.. أما الحسنة فقد يخفيها أصحابها خشية العين.

أمرت الأم ابنتها خضرة أن تعد الشاي للضيفين. وبينما توزع اهتمام الجميع بين أحمد والضيفين، انسلت الأم خارجةً بعد أن التقطت في طريقها عصا طويلة من حطب البيت الجديد.

لم يدرِ أبو عايد وولده الأكبر كيف يتصرفان إذ انهالت عليهما أم أحمد بالعصا على مرأى من الناس. فحتى أبو عايد لا تبلغ به الخسّة أن يضرب امرأة ولو دفاعاً عن نفسه، إلا أن يحاول تحاشي ضرباتها ما وسعه ذلك،

وما كان ليسعه ذلك وقد بدا أنها فقدت عقلها وأمدّها الغضب الجارف بقوة لم تكن هي نفسها تعرف أنها تمتلكها. ولم يملك الرجل إلّا أن يصيح بالناس أن يزيحوا عنه المرأة المجنونة التي لم تجد في بيتها رجالاً يواجهونه عوضاً عنها! وما كان ذلك إلّا ليزيدها غضباً وشراسة، حتى جذبتها بعض النساء اللواتي خرجن على الصياح والجلبة.

بعد تلك الحادثة المؤلمة، حسم حسن رأيه فيما يجب أن يدعو به إذا انفتحت له طاقة القدر: القوة فقط لكي يتمكن من التغلب على أبي عايد وحمولته كلها، فلا يستطيع أحد منهم أن يرفع عينيه في أسرته. وذلك على أي حال يختصر الدعاء قبل أن تنغلق الطاقة وتضيع الفرصة الثمينة. ولكن علياً أبى من جديد إلّا أن يصعّب عليه الأمر، فذكّره أن زمنهم زمن «البواريد» والرصاص، وأن طلقة واحدة تقتل جملاً فكيف بإنسان مهما تبلغ قوته. وإذن فلا بد أن يردف حسن دعاءه الأول بدعاء آخر: ألا يؤثر به الرصاص! ولكن هذا يردّه إلى المشكلة الأولى: أن تنغلق الطاقة قبل أن يفرغ من الدعاء، وهي التي لا تنفتح إلّا كومضة الضوء. وهذا يعيده بدوره إلى مطلب التدرب على الدعاء السريع!

كانا يجلسان على سلسلة حجرية وهما يتحاوران حول الموضوع. ذهب حسن ببصره في الفضاء، ولاحق من جديد سرباً من السنونو الذي يبدو أنه يأتي على ميعاد أحلامه وكأنه ينبجس منها، ثم إذا غفلت عينه عنه لحظة قصيرة لم يجده. وبعد لحظات من الصمت والتأمّل قال بلهجة مختلفة هذه المرة:

- في يوم من الأيام.. في يوم من الأيام.

نظر إليه أخوه عليّ مستطلعاً، فأردف:

- حتى لو ما فتحت طاقة القدر.. لازم نطلع من هالقرية، نتعلم ونصير كلنا أفنديّة.. ونبني بيت في المدينة.. وبعدين لما نزور القرية توقف الناس وتتطلع علينا..

هزّ عليّ رأسه، ونظر في الأرض، واكتفى بالهمس:

- على الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"سواء أكانت طاقة القدر أم الدراسة والجهد والعمل، فقد كان على الأحلام أن تنتظر وقتاً. والانتظار جزء كبير من حياة الريفي التي تدور حول المواسم منذ كنعان: موسم الزيتون، موسم القمح، موسم الذرة.. موسم البطيخ.. ولكنه كان انتظاراً من نوع خاص، فالعمل هو من صنع يديه وجهده وكده، ولكن في غياب العلم والوسائل والإمكانات كانت النتيجة بقدر كبير محكومة بقوى أخرى خارج قدرته وسيطرته. وإذا كان هذا حاله مع حسابات الحقل التي لا تتفق دائماً مع حسابات البيدر، فلسوف تظهر الأيام أن هذا ينطبق على مستقبل قضيته الوطنية في غير مرحلة واحدة من مراحلها.

ولكن، على الرغم من قسوة الأحوال، كان الصغار يجدون دائماً ما يشغل أيامهم ويكسر رتابتها اليومية، إلى جانب الواجبات المدرسية الثقيلة وكد الحصول على رضا المعلم، وهي في العادة غاية صعبة المنال. وكان أخي حسن بارعاً كعادته ومستعداً دائماً للمجازفة. وكانت براعته تتجلّى في استدراج غيره للمراهنة معه على القليل الذي عنده والكثير الذي عندهم، في تلك الألعاب التي يحوز فيها الفائز على أدوات اللعب نفسها، كالإصابة بالبنانير (القلول) و«المقاتي». أما المقاتي فهي قضبان خشبية مشذبة وعريضة وثقيلة بقدر ما، ولها طرف مدبّب. وكان البعض يتفنن في صنعها وتجميلها، يعينهم على ذلك الكبار، وكان الفرق بين ما يملكه الصبيان منها، من حيث حُسْن الصنعة والمنظر والكثرة،

كالفرق بين سعة الحال وضيقه. ولا تصلح لعبة المقاتي إلا حين توحل الأرض في الشتاء، إذ يكون على أحد المتباريين أن يقذف «المِقْتا» بقوة كما يقذف الرمح على مسافة معينة، لتنغرز في الأرض الطريّة الموحلة. ثم يكون على المتباري الآخر أن يقذف أحد مقاتيه مُسدِّداً إياها لتنغرز لصق الأولى وتسقطها بقوة الرمي. فإذا نجح في ذلك فاز بـ «المقتا» الطائحة وصارت حقاً له.

ومن الطبيعي أن يحجم صاحب المقاتي المتميزة الكثيرة عن التباري مع حسن الذي لا يملك مثلها جودةً وحُسْناً. ولكن حسن كان يملك تلك الموهبة الخاصة لإيهام خصمه واستدراجه، حتى يطمئن أنه لا يُحسِن اللعب والإصابة، وأنه زاهد بالغنيمة، وزاهد بما في يده، ولا يطلب غير التسلية وإن خسر ما عنده. ومقاتيه على أي حال لا يمكن أن تنافس مقاتي الآخر في دقة الإصابة مع سوء صنعها وخفّتها، مهما يجتهد صاحبها في الرمي. فإذا لم تكف كل هذه الطرق، أضاف إليها ما يستفز معاني الشجاعة والرجولة في نفس خصمه، حتى يشعر هذا بأنه متهم بالجبن والعجز والبخل معاً. وقد يزيد على ذلك بدعوة الآخر إلى التجربة باللعب دون جائزة على الإصابة. ثم إذا نجح في استدراج الفتى الآخر إلى ذلك، تعمّد الإخفاق. ولكنه كان أشدّ ذكاءً من أن يجعل تعمّده مكشوفاً، فكان يبالغ في التحفز والنظر والتركيز والاجتهاد في الرمي، فإذا أخطأ الهدف بعد ذلك نفخ وسب وشتم وأظهر الخيبة. حتى إذا طمع الفتى الآخر بالفوز تحوّل اللعب على «الأُخيذ» كما درج القول، وتعني

«الأخذ»، أي أخذ اللاعب ما يصيب من المقاتي. وهنا يظهر حسن ما كان يخفيه من مهارته. فلا ينقضي اللعب إلا وقد حاز ما عند خصمه.

كل تلك المهارة في الإيهام والاستدراج واللعب حتى الفوز، كان يمكن أن توصف بموهبة فطرية على الاحتيال، لولا أنه كان يكافئها في طبيعته طيبة وشهامة وتعاطف. لم يكن ليتنازل عن حقه المكسوب إذا وجد في خصمه عناداً وتحدياً واحتجاجاً. ولكنه إذا ظفر بحاجته، ورأى في خصمه خضوعاً للنتيجة واستسلاماً وأسفاً شديداً على خسارة ممتلكاته القيِّمة التي كان يتباهى بها، لحق به، فعرض عليه أن يردّ له نصفها، فإن لم يكن ذلك كافياً ليجبر خاطره، أعادها كلها حباً وكرامة. وحسبه من اللعب حقاً أنه أثبت أنه الأفضل!

هكذا كان أخي حسن. وهكذا سيكون دائماً في صغره وشبابه، وفي قليل الأمر وكثيره.

وما لم تأتِ به كلفة المال أو صناعة اليد من أدوات اللعب، كانت توفره الطبيعة والخيال مجاناً. فالتسابق في إسقاط أكبر عدد من حبات الجمّيز بالحجارة كان يتصور في أذهاننا كالتسابق في جمع المال. وسرعان ما نندمج في منطق الخيال حتى نتعامل مع ما نسقط منها ونجمعه وكأنه مال مكسوب يمكن التفاخر بعدده، بل ربما كذلك التشاجر عليه. ففي غياب المتع التي تُشتَرى بالنقود، وجهلنا التام بما يمكن المقارنة به، كانت تلك تبدو لنا متعاً حقيقية، كأنْ نغافل ناطور الحقل لقطف بعض حبات الثمر التي لا يمكن مقاومة إغوائها. ولأمر ما لم نكن نعدّها سرقة، وإن

تعامل معها الناطور كذلك إذا لمحنا نقترف الجريمة. فمنهم من يكتفي بصيحة رادعة من مكانه، ومنهم من يخف للمطاردة ورمينا بالحجارة. ولم يكن ذلك ليقلّل من متعتنا بتذوق الغنيمة مع النجاة!

وإذا كانت للحقول نواطيرها، فليس لأعشاش الطيور من يذب عنها ويحميها، إلا صعوبة التسلق إليها على رؤوس السرو السامقة. ولكن، لا شيء يثبط عزيمة حسن، فالغنيمة على قدر المشقة والتحدي. فإن وجد العش خالياً، أو أن بيضه لم يفقس بعد، أو كانت فراخ الطائر ما تزال دون سن الذبح، فثمة طرق أخرى للظفر بالطيور: الصيد بشعبة «المقليعة» المطاطية التي يُقذِفُ بها الحصى على الطير الغافل في مكانه على أغصان الشجر، أو نصب الفخ المموه في الأرض وقد غرز في سنّه دودة مغرية مما تطلع الأرض. ثم يتفنن في استدراج طائر «الركش» نحو الفخ بالصفير والغناء. لكأني الآن أسمع صدى صوته يتردد بتلك الأغنية القاتلة:

«يا رَكَشِه

يا مْنَقْوَشِه

صحن القَعّود

مَلَان دودْ

يا ريرا، يا ريرا، يا ريرا»».

وبالطبع فإن طائر الركش ما كان ليعرف أن هذا النشيد المغوي ليس

أكثر من نذير بالموت؛ وأن الدودة التي يبحث عنها لطعامه، يمكن أن تجعل منه طعاماً للفتى حسن وأخيه عليّ. صحيح أنها أصغر من أن تسدّ جوعاً بنفسها، ولكن زيت الزيتون الذي تقلى به يكتسب من طعم اللحم ونكهته، فيطيب للتغميس بخبز التنور.

كان علينا أن ننتظر طويلاً حتى تنأى بنا الدنيا عن تلك المطارح إلى مدن الإسفلت والإسمنت الذي لا يعشش فيها اليمام ولا تصهل فيه الخيول ولا يطوف في أجوائها دخان القرى ورائحة «الطوابين» ولا ينبجس منها العشب، لندرك في وقت متأخر قيمة الاتصال المباشر بمصادر الطبيعة الأولى. ولعلّها هي التي جعلتنا نبحث في متاهات المعارف المعقدة عن الحقيقة البسيطة، دون التواء أو ادعاء أو استعراض مصطنع.

ثم مع تطاول الزمن وغياب المشهد القديم، صارت تلك الصور الريفية الجميلة أول ما يضيء في الذاكرة، فنقع في وهم أشدّ بُعداً عن الحقيقة من أوهام الطفولة البريئة، حين يتواطأ الحنين على طرد صور الشقاء الذي كان يحاصرنا من كل جانب، في ذلك الفردوس المفقود!".

من مذكرات علي الشيخ يونس

بين نار الطغاة.. وجحيـم الغـــزاة

(وسوى الروم من ورائك رومٌ

فعـلـــى أي جـــانبيـــك تــميـــلُ)

المتنبي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا، لن يكف أبو عايد، وإن مضت شهور على آخر تعدياته على الأسرة، حتى ظنّوا أنه قد سكن عنهم. فها هو يعمل مع رجاله على تغيير الحدّ بين أرضه وأرضهم المحاذية، ليقضم قطعة منها. وحين واجهه أبو أحمد وولداه الكبيران أحمد ومسعود زعم أن الحدّ الجديد هو الصحيح. ثم هدد وتوعّد من يحاول أن يردّ السلسلة الحجرية الفاصلة إلى موضعها السابق، أنه سيواجه رجاله «شرّيبة الدم» فمن شاء فليذهب إلى المحاكم بصك الأرض ليثبت حقه فيها. فإن لم يكن لديه صك كما هو حال أبي أحمد ومعظم الفلاحين فليأتِ كل طرف بشهوده. وبالطبع كان مطمئناً أن أحداً لا يجرؤ على الشهادة ضدّه. وفوق ذلك كان يعلم أن أبا أحمد، صالح الشيخ يونس، لا يملك تكاليف المحاكم.

ولكن، حتى لو كانوا يملكونها، فثمة ما هو أشدّ وأنكى فيما يكبّل أيديهم. وكان مسعود كالعادة من ذكّر أهله بذلك. الإنكليز أولاد الحرام الذين يتلقطون مثل هذه النزاعات. فإذا لم يكن هناك صك يثبت الملكية، وضعوا أيديهم عليها، وفي الوقت المناسب يُملِّكونها لليهود المهاجرين!

نفخ أحمد وهو يتميز غيظاً:

- يعني نشوف قطعة من أرضنا اللي شقينا فيها تروح لأبو عايد قُدّام عنينا ونبلع حجر؟

قال مسعود:

- شو بيدنا؟ حجر أبو عايد ولا أحجار الإنكليز واليهود.

علّق الأب:

- هوه من قليل الله مركب الإنكليز واليهود علينا؟ ما هو من عطالة الناس اللي زي أبو عايد.

قال أحمد:

- بس عاد ما بتصيب العاطل لوحده. وإن سكتنا هالمرّة رايح يقرط الأرض شويّة شوية.

أطلق أبو أحمد تنهيدة عميقة حارة:

- زي ما قال المثل.. عُقّال بلا جهّال ضاعت حقوقها.. وجهال بلا عقّال راحوا قطايع، وقلة الزلام بتذلّ الزلام.

بعد لحظة تفكير، رفع أحمد رأسه وقال:

- ما ظلّ غير شورة واحدة.

اتجه الجميع إليه بأبصارهم مستطلعين..

- ما فيه غير تطلع يابا تلفي على حمولتنا دار السبعاوي في بلدهم.. تعرِّفهم بحالك.. وتشرح إلهم المشكلة.. بلكن يبعثوا معك أكم زلمة وهيك بنثبت للناس هون إنه احنا ورانا عزوة كبيرة.. بلكن أبو عايد يراجع حاله. شو قلت؟

أطرق الأب لحظات متفكراً، ثم قال بدون حماس:

- إذا كان لا بد أنت روح.. أنا زلمة كبير، إذا انكسفت مالي طاقة عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حسن أكثر الجميع حماساً وتلهفاً. أخيراً ينقطع الشك في انتماء أسرته إلى حمولة السبعاوي القوية المعروفة حين يرى أهل القرية بأم عينهم خيّالة الحمولة تدخل القرية رافعي الرأس متحمّلين بسلاحهم.. عشرة خيالة.. ربما عشرون.. بل مائتان.. ومضى يبثّ الخبر بين أقرانه واعداً ومتوعداً.. ولم يتراجع حماسه ولا ثقته أمام سخرية البعض وتكذيبهم، ولا لقول حمدان ابن المختار: «عدّي ارجالك عدّي. من الأقرع للمصدّي». فما هي حتى يأتي المدد وتخرس الألسنة وتنحني الرؤوس لنسل الأبطال الذين حاربوا مع صلاح الدين، وشاركوا في قهر الفرنسيس عند أسوار عكا، وتمكّن جدّهم الأكبر من قتل الأسد الذي روّع الناس، فاكتسب بذلك لقب السبعاوي، وأورثه لحمولته.

وبينما كان حسن يشيع الخبر، ثم يمضي وقته في الانتظار والترقب، كان أحمد يعرِّف نفسه لوجهاء آل السبعاوي، ويقصّ عليهم الرواية الشفوية التي تناقلها آباؤه عن أصولهم في الحمولة، والظروف القسرية التي أفضت بهم إلى الانقطاع عنها في قريتهم، وسقوط اسم الحمولة من أسمائهم. وكانت الرواية التي قصّها عليهم تتوافق بقدر كبير مع التاريخ الشفوي الموروث عن الحمولة. ولكنه لم يرَ منهم حماساً مبشِّراً، على الرغم من أنهم أحسنوا استقباله وضيافته ومجاملته. فالذين خرجوا من

قرية الحمولة الأصلية تلك، بعد حوادث الدم والثأر منذ مائة عام أو يزيد، خرجوا قطعة واحدة كبيرة، ونزلوا خربة «أبو موسى» وغلبوا عليها، وعمّروها. فصارت الحمولة مقسومة بين القريتين. وظلوا على صلة، يتزاورون ويتكافلون في السراء الضراء وفي الأفراح والمآتم والديات. فما الذي حمل جدّ هذه الأسرة الصغيرة أن يشذّ عن الجماعة، وينزل وحده تلك القرية المنقطعة بلا عزوة ولا سند؟

ثمة حلقة مفقودة في الحكاية. لم يقلها زعيمهم أبو مصطفى بصراحة جارحة، ولكنه أبطنها بكلامه، ولم تفت على فهم أحمد الذي تساءل أمامهم: إن لم تكن أسرته من آل السبعاوي حقاً، فلم اختار آباؤه الانتساب إليهم على انقطاع الصلة بينهم، من دون الحمائل الأخرى المعروفة؟

واكتفى الحضور بالصمت وتبادل النظرات الحائرة.

نعم، ربما كانت هذه الأسرة ترجع إلى حمولة السبعاوي أخيراً، ولكن الحمولة لن تدخل الآن في صدامات لا تعرف عواقبها من أجل أسرة صغيرة متنحية عن الأصل منذ زمن بعيد، ولا تملك معها إلا شهادتها الشفوية الموروثة عن أصلها فيهم. ولم يحصل أحمد في النهاية إلا على الضيافة الحسنة، وكلمات طيبة، وتلك العبارة الشائعة التي لا تعني غير التملّص من أي موقف ملزم: «إن شا الله ما بصير إلّا الخير».

حين مضى أحمد على دابته مثقلاً بالخيبة، سمع صوتاً من ورائه ينادي:

«يا ابن عمّي». توقف والتفت. كان هذا مصطفى ابن زعيم الحمولة. اهتزت مشاعر أحمد للعبارة التي ناداه بها نداء القريب للقريب. وبدا مصطفى محرجاً إذ أطرق لحظة قصيرة ثم نظر إلى أحمد بمودة وقال بنبرة تشي بالاعتذار:

- بدك ما تلوم الناس يا خوي.. زي ما أنت عارف، البلاد قايمة قاعدة من عمايل الإنكليز واليهود والناس ما لها همّ غير اللي بصير في البلاد، وشو بدّه يصير بكره. والكل خايف على المستقبل. وما بدهم في هالظروف يبلشوا ببعض.

هز أحمد رأسه متفهّماً:

- ما قصّرتو.

مدّ مصطفى يده بزوّادة لأحمد، وقال:

- الطريق طويلة قدّامك.

ثم قدّم له بندقية خرطوش قديمة، مما يُستعمَل في الصيد:

- هذي هديّة مني إلك.. بس..

قاطعه أحمد:

- بارك الله فيك، ما بتلزمني.

- ما بتعرف. رايح الليل ينزل عليك وانت في الطريق.. لا يطلع عليك ضبع.. ترى الحمار لما يشمّ ريحة الضبع بتربس محلّه، وكل العصي ما

بتحركوا..

- هيه جاي من الضبع يا ابن عمّي؟

أضاف مصطفى:

- بعدين فيه مستعمرات لليهود.. ما بتعرف مين تبطلعك منهم. خذها واتوكل على الله.. النبي قِبل الهدية.. اللهم صلِّ وسلم عليه.

- اللهم صلِّ عليه.

- بس لما بتوصل البلد خبيها مليح لوقت العوزة.. انت عارف الإنكليز مع السلاح، خصوصاً لما يصير عملية قريبة.

ثم مدّ مصطفى يده وصافح أحمد بحرارة. وحين بدأ بالابتعاد هتف من خلفه:

- ما تنساش تسلِّم لي على أبوك والعيلة.. الدم ما بصير ميّه يا ابن عمّي.

ازداد أحمد تأثراً بكلام الشاب الشهم، وعوّضه ذلك كثيراً عن شعوره بخيبة الأمل من إخفاقه في مهمته

أما أبو أحمد فقد أظهر الارتياح لإخفاق المهمة، إذ إنه قضى وقت الانتظار يضرب أخماساً بأسداس، ولا يستقر على حال. فماذا عساه يصنع بضيوفه؟ أين ينزلهم وبيته لا يكاد يتسع لأصحابه؟ وكيف يقوم بحق ضيافتهم وطعامهم وشرابهم على ما هو عليه من القلّة وضعف الحال؟ هل يبيّض وجهه أمام أهل القرية بقدوم رجال من حمولته، ليسوِّد وجه

في المقابل أمام ضيوفه؟ ولم تستطع أم أحمد أن تهدّئ من خاطره بالقول إن الرجال الغانمين لا يزورون إلا وهم يحملون معهم مؤونة وهدايا في العادة كيلا يثقلوا على مضيفهم: أكياساً من الرز والسكر والذبائح ونحو ذلك. كما أن وجهاء البلد إذ يعرفون بقدومهم فلا بد أن يتعاقبوا على استضافتهم، بل كذلك إنزالهم في دورهم الأكثر اتساعاً ومتاعاً. فهم يعرفون مقامهم. ومقام المضيف من مقام الضيف. هذا ما درج عليه أهل الجاه واليسار.

ولكنّ هذا كله قد انتهى الآن. ولكنه لم ينتهِ عند حسن. فمن الطبيعي أن يكون الأكثر حماساً وتلهفاً على وصول «خيالة الحمولة»، هو الأشد شعوراً بالخيبة. فأين يذهب بوجهه الآن من الصبية الذين أخذوا يلاحقونه بالهزء والسخرية أكثر من السابق، فلا يجد إلا أن يرجمهم بالحجارة التي يتعمّد ألا تصيب بقدر ما تطرد وتردع. وبينما كان يجلس على سلسلة حجرية مع أخيه عليّ وقد بدا عليه الوجوم والغمّ، ولم يجد عليّ ما يواسيه به، رفع رأسه وقال كمن يحدِّث نفسه:

- أقول لك! احنا اللي لازم نجد ونجتهد حتى نصير في العلالي، والناس تكبر فينا.. حتى آل السبعاوي هذول همّه اللي ييجوا تايتعرفوا علينا ويتباهوا فينا.. بس وقتها أنا اللي مش رايح أتعرف عليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما العمل الآن وقد سُدّت السُّبُل. هل تُسلِّم الأسرة بذهاب قطعة من أرضها لأبي عايد؟

إن لم تبقَ شجرات الزيتون التي اغتصبها أبو عايد لأصحابها الذين زرعوها وتعهدوها حتى نمت واستوت على سوقها، فلن تكون لمن اغتصبها زوراً وبهتاناً.

هكذا حدّث أبو أحمد نفسه.

وبعد صلاة العشاء انسل إلى الأرض. ثم وقف عند إحدى الشجرات المغصوبة، واستخرج سِكينه في ضوء القمر. وكان قد بيّت في نفسه أن يقشر لحاء الجذع في دائرة كاملة حوله حتى ينقطع وصول الغذاء إلى فروعها فتجف وتموت بعد حين. وإذْ غرس رأس السكين في موقع من الجذع، أحسّ كأنه غرسه في بطنه. كيف يقتل غرس يديه الذي كبر على عينه، وأمضى أعواماً ينتظر نموّه حتى يطرح ثمره. سحب السكين قبل أن يجرّها على الجذع، وتراجع وهو يرتعد. وانسحب بسرعة كأنه يفرّ من نفسه!

وحين عاد إلى البيت مكفهر الوجه ودموع القهر في عينيه، وسُئِل عما أخرجه وألمّ به، لم يزد على أن استرجع قصة النبي داود مع المرأتين اللتين تنازعتا أمامه على طفل ادعته كل منهما لنفسها. فلما تظاهر بأنه سيقطعه قسمين بينهما، صاحت إحداهما فزعةً بأنها تنزل عنه للأخرى. فعلم أنها أمّه بحق!

حارت الأسرة في مغزى كلامه. وأبى أن يشرح أو يزيد. ولكن صوته المخنوق كان يعبِّر عن غصته. وطالما أن الحال يستدعي قصص الأوّلين،

فلم يجد أحمد إلّا أن يقتبس من خطبة طارق بن زياد المأثورة التي تعلّمها في المدرسة، ثم تكررت على سمعه، فقال: «الإنكليز واليهود من أمامكم، وأبو عايد وأمثاله من ورائكم».

ثم استدرك قائلاً:

- بس يا حيف. ما عندنا عسكر ولا خيل ولا سيوف زيّ اللي كان عند طارق بن زياد. والنتيجة قهر من قدامنا وقهر من ورانا..

فجأة لمعت عينا مسعود الذي كان يجلس متنحياً صامتاً وقد وضع رأسه بين راحتيه. وكان شعوره بالقهر والعجز ممتزجاً بالشعور بالذنب. فالإنجاز الذي كان فخوراً به، حين رجع من عند أبي أكرم السويدي بصك الأرض التي رضي أن يضمّنهم إياها، قد تحوّل إلى كابوس. فكل ما وقع على الأسرة من أفعال أبي عايد منذ ذلك الحين، كان انتقاماً لتجرؤ هؤلاء «الغربيّة المقاطيع» على مزاحمته على أرض أبي أكرم، ولو بقطعة صغيرة، حتى خطر له أن يردّ الصك ويلغي الاتفاق، لولا إصرار أخيه أحمد على المضيّ فيه حتى لو لم يخرجوا منه بشيء إلا كرامتهم، وألا يُظهِروا الانكسار. وهو أنكى عليه من أي ثمن آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سدّد أبو أكرم السويدي بندقية الصيد وأطلقها. سقط طائر السمّن وهرع بعض رجاله لالتقاطه. وكان صياداً ماهراً. قال أبو عايد الذي كان يرافقه كالعادة حين ينزل في عزبته:

- ضربة البيك ما بتخيب.

كانت لهجته في مخاطبته ومجاملته تختلف تماماً عن لهجته في خطاب الآخرين. فالناس مقامات. التفت إليه أبو أكرم وتفحّصه بنظراته قبل أن يقول:

- المهم يا أبو عايد.. زي ما قلت لك أنا ما بدّي مشاكل في هالناحية. وما تقول لي هذول ناس فقرا ومقطوعين وما بطلع بإيدهم يعملوا مشاكل.. أولاً لازم تتذكر إنه صار بيني وبينهم علاقة ومعاملة. وبتوقع منك إنك تحترم هذي العلاقة.. وثانياً ما فيه حدّ غريب في بلده. هون والا هناك كلها فلسطين.

همّ أبو عايد أن يعلّق، فكفّه أبو أكرم بحركة من يده وتابع:

- بعدين أنا قاضي. شغلتي إني أنصف الناس بغض النظر عن مقاماتهم. ولا تقول لي أنا ما ظلمتهم.. يعني انتظرت كل هالسنين وشفتهم بزرعوا وبشتغلوا في الأرض، والآن بس اتذكرت إنه حدّ أرضهم داخل في أرضك؟ مش أبو عايد اللي بصبر كل هالوقت عن حقّه. وإذا احنا بدنا نظلم بعض ونعتدي على أراضي بعض، وليش نلوم الإنكليز؟ وإذا كان الفقر والقلّة تخلّي الناس غير معتبرين زي ما وصفت هالجماعة، معناها ثلاثة أرباع أهل فلسطين غير معتبرين!! واحنا عاملين حالنا حاملين قضية البلاد وأهل البلاد، بلاد مين يا أبو عايد؟

ثم ذكّره بأن هذه الناحية كانت دائماً محسوبة على آل السويدي منذ

أيام الأتراك، واعتاد الناس فيها أن يحتكموا إليهم فيما يشجر بينهم من منازعات وأن يرضوا بوساطتهم، ويستعينوا بهم في النوازل الشديدة. وفي المقابل كان أهل الناحية يساندونهم في النزاعات القديمة بينهم وبين آل العلي.

رجع أبو عايد إلى بيته ينفخ حنقاً. إذ لا يسعه الآن إلا أن يمتثل لأمر أبي أكرم ويعيد الحد إلى مكانه الأول. لم يخيِّب أبو أكرم أمل مسعود حين رفع شكواه له. وأثبت من جديد ما عُرِف عنه من النزاهة والإنصاف ونصرة المظلوم ما وسعه ذلك. ولكن، لئن رجعت الأرض المغصوبة إلى أصحابها، فإن أبا عايد ما كان ليرتد عن غيّه. وقد زاده انتصاف أبي أكرم لأسرة صالح الشيخ يونس إصراراً على إفشال شراكتهم الصغيرة معه، في الوقت المناسب!

هذه المرّة بدا على عايد عدم الارتياح لوعيد أبيه المتجدّد. صحيح أنه حين علم أن أحمد قد تعرّض لأبيه بالإهانة والدفع أمام الناس، تغلّب عليه الغضب فكان منه ما كان من الاعتداء على أحمد مع عدد من الشباب. ولكنه في أعماق نفسه كان يشعر أن أباه جاوز الحدّ في عداوتهم والعدوان عليهم دون وجه حق. فإن لم يردعه عن ذلك الخشية من عواقب الظلم، فليردعه أن الجماعة أقل من أن يشغل نفسه بعداوتهم والتدبير عليهم. فإن عجز عنهم في نهاية المطاف كانت سبّة عليه، وإن تمكن من كسرهم وإخضاعهم فلا يرفع ذلك من قدره. والآن يسمع أباه يتوعد بالتدبير لحرق محصول الجماعة من أرض أبي أكرم

بعد حصاده، فيحاول أن يثنيه عن ذلك. فلا يتورّع أبوه عن شتمه، بل كذلك شتم أبي أكرم نفسه الذي يحسب أن طربوشه ولباسه الإفرنجي يعطيه الحق في إلقاء الأوامر عليه! ولكن ما حيلته وقد عرف هؤلاء قيمة التعليم مبكراً فجمعوا بين خير المدنية وخير الريف، مع الزعامة هنا وهناك. ولكن، لئن فات أولاده الكبار ذلك، فلسوف يحرص على أن يتابع حمدان الصغير دراسته حتى يصير إلى ما صار إليه أمثال أبي أكرم السويدي وولده الطبيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

انقضت شهور الربيع وحلّ الصيف ومعه موسم الحصاد. وانتهت السنة الدراسية، وحصل عليّ على المرتبة الأولى. وما كان بوسع المعلم أن يؤخّر مرتبته بسبب تفوقه المشهود، فلم يجد إلّا أن يشرك معه عارف ابن المختار في المرتبة الأولى بغير استحقاق، وعلى ذلك جاء حسن في المرتبة الثالثة. وقريباً سيكون على الأسرة أن تواجه قرار إدخالهم مدرسة المدينة على ما هم فيه من فاقة. ولكن عليهم الآن أن يجمعوا حصادهم من الذرة التي حصدوها من أرض أبي أكرم السويدي في البيدر، تمهيداً لدرسها وتذريتها. وعليهم أن يتناوبوا على البقاء في البيدر حتى يتم لهم ذلك، خشية اللصوص وأولاد الحرام!

في تلك الليلة، أصرّ حسن وعليّ على النوم في البيدر، على الرغم من محاولات أحمد أن يثنيهما عن عزمهما ليحلّ هو أو مسعود محلهما. وكان يخشى أن يتحالف عليهما الخلاء والعتمة وأصوات الليل فيخافا ثم يتركا الغلّة بلا رقيب. وربما بدر منه ما يوحي بذلك، حتى ضاق حسن بمخاوفه ورأى فيها شكاً في شجاعته، وهو الذي بدأ الزغب الخفيف يخط شاربه، فكان يتفقده في المرآة كل يوم راجياً أن ينمو بسرعة ليكون شاهداً آخر على فتوّته!

لم يتركهما أحمد حتى أوصاهما أن يحصّنا نفسيهما من هوام الأرض التي تكثر في الصيف لا سيّما العقارب والثعابين.. ومن الشياطين كذلك:

«بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو

السميع العليم».

«أعود بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة».

«أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق».

«أعوذ بكلمات الله التامات من همزات الشياطين وأن يحضرون».

وذكرهما كذلك أن يقرآ آية الكرسي والمعوذتين. فإذا قالا ذلك كلّه لم يضرهما شيء بإذن الله.

والحقيقة أنهما كانا قد تعلما هذه التعويذات من قبل، وكانا يرددانها بين الفينة والأخرى، بخاصة حين ينامان وحدهما على سطح البيت، أو يجد أحدهما نفسه يسير وحده في الليل. ولكن، هذه هي أول مرة ينامان على البيادر في الخلاء. ولم يدرك أحمد أنه من حيث أراد تحصينهما وحمايتهما كان يزرع بعض الخوف في نفسيهما!

كانا يستلقيان على ظهريهما وينظران في السماء المرصعة بالنجوم صامتين، حتى همس حسن لأخيه:

- أوعى تكون قاعد بتعدّ النجوم.

سأل عليّ:

- ليش؟

رفع حسن جسمه قليلاً ونظر إلى أخيه وقال محذراً:

- أوعى. ما سمعتش شو بقولوا؟ اللي بعدّ النجوم بطلع له تواليل.

سأل علي:

- ليش؟

- شو بعرفني ليش؟ هيك بقولوا.. وأنا بقول لك.

فجأة فزّ عليّ من مكانه وأشار إلى جهة في السماء وصاح:

- شفته؟ شفته؟

- هناك.. هناك.. شهاب!

- آه.. آه.. سبحان الله.

ثم شرح حسن بأسلوب عفوي عارض:

- الله العليم جنّ.. شياطين..

التفت إليه عليّ وقد تغير وجهه، وحاول أن يخفي خوفه:

- شو قصدك جن؟ هذا شهاب.

- فاهم.. بس زي ما قرينا في القرآن.. شياطين بطيروا هناك تايتسمّعوا على الملائكة.. بقوم بضربهم شهاب وبطردهم!

أطرق عليّ متفكراً بضع لحظات، ثم همس:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. يعني فوق وتحت..

قال حسن باللهجة العارضة نفسها:

- هون في الخلا والخرايب بالذات.. بس ممكن في أي مطرح كمان. احنا ما بنشوفهم، بس همّه بشوفونا.. عشان هيك بقولوا لما بتكب ميّة سخنة قول بسم الله أول، أحسن ما تصيب واحد منهم وانت مش داري بقوم بضربك..

بعد لحظات عاد عليّ يسأل:

- يعني عمره ما واحد شافهم؟

- بقولوا محمود السعيد طلع له واحد. قال طلع عالخلا في الليل تايتمشّى (يقضي حاجة).. قام شاف واحد لابس أبيض وواقف عند رجم حجارة ما بتحرك. قال له محمود السعيد السلام عليكم.. قام ما ردّش.. عوّد عليه بالسلام، وبرضه ما ردّش ولا تحرك من مطرحه.. لما قرّب عليه فقده ما لاقاه.. فصّ ملح وذاب.. قام محمود السعيد رمى الإبريق اللي بإيده ورجع يرمح على طول عزمه من الخوف.. وظلّ بعدها أسبوع في البيت يرجف وما..

قاطعه عليّ:

- طب فكنا من هالسيرة.

- شو، خفت؟

أجاب عليّ مكابراً:

- خفت؟ خفت؟ يمكن انت اللي خفت.

تواطأ الاثنان على الصمت التام. ولكن أصوات الليل: صرصرة الجنادب والصراصير الطائرة، وحفيف العشب الجاف، ونقيق الضفادع، وحتى زعيق طائر بعيد، كلها بدأت تتحول إلى أصوات مريبة ثم تختلط مع كلام الجن الغامض الغريب! ولكنّ كلاً منهما أخذ على نفسه ألا يبوح للآخر بما وقع في سمعه ونفسه، كيلا يُتَّهم بالجبن والخوف وغلبة الأوهام.

بعد وقت، قام حسن من مكانه. سأل عليّ مغالباً رجفة صوته:

- وين؟

أومأ حسن بحركة من يده وقال:

- بدّي.. علمك. أعرّد

يعني أن يتبول بلهجة أهل الريف.

قال عليّ معترضاً:

- هسّع؟

- وألا وينتا برأيك؟ لما أموت وتطلع روحي؟ حصلت يا خوي وما عليها عتب. ما سمعت المَثَل: إيش بنزّل الملك عن ظهر حصانه؟

يعني بذلك حاجة التبوّل أو قضاء الحاجة.

مشى بضع خطوات ليتوقف فوراً إذ سقط حجر طائر بالقرب منه. هل تحوّل الجن الآن من القول إلى الفعل؟

تجمّد حسن في مكانه، وحين توالت الحجارة المرجومة، عاد إلى موضع أخيه. ولكنه بقي واقفاً ينظر في فراغ الليل إلى الجهة التي ظن أن الحجارة قد جاءت منها، ثم تحامل على نفسه وصاح:

- مين هناك؟ مين اللي براجم علينا حجارة؟

كان عليّ قد استسلم للخوف عند هذا الحدّ فقال بصوت لم يحاول إخفاء رجفته:

- ومين اللي بدّه يراجم علينا حجارة في هالوقت؟ هاظ جنّ.. أو أقول لك.. عمورة.. وَنَس.. هسع اتذكرت، سمعتهم بقولوا فيه واحد انقَتَل في هالناحية قبل عشر سنين.. هذي عمورته بتطلع في الليل. أنا يا خوي بدّي أروِّح..

قال حسن:

- نروّح؟ ونخلّي البيدر بدون حد يُنْطُره؟ وشو يقولوا عنا في البيت؟ ما سمعتش أخوك أحمد، أنا يا خوي من هالمراح فيه براح.. والله ما بروح لو تطلع مية عمورة. روح انت إذا بدّك..

تردد لحظة قبل أن يتابع بصوت أقل ثباتاً:

- وجيب أخوي أحمد.

انطلق عليّ راكضاً، وبعد أن ابتعد، تخلّى حسن عن رباطة جأشه المدّعاة، وخذلته ساقاه على الرغم منه، فجلس يتمتم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله.. بسم الله.. بسم الله.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..» ثم تلا سور الناس.. وأتبع ذلك بالقول مخاطباً ما يستشعر حضوره ولا يراه:

- إذا كنت مسلم، سقت عليك الله وجاه الله... وإن كنت كافر أعوذ بالله منك ومن شرّك.

وصل أحمد ومسعود مهرولين.. واستعجل أحمد الكلام قبل أن يصلا إليه ليطمئنه:

- هذا أنا وأخوك مسعود.. لا تخاف.

رد حسن من فوره، وقد ذهب عنه الخوف الآن:

- ومين قال إني خايف؟

قال مسعود:

- عليّ بقول..

قاطعه حسن:

- قريت عليه.. والحمد لله، ما قريت عليه شوية حتى راح.

سأل أحمد:

- مين هوّه؟

- أنا عارف؟ اللّي هوّه.

- طيب ياللّا قوم وارجع مع أخوك مسعود، وأنا بكمّل الليلة هون.. ياللّا..

وقف حسن، وأخذ ينفض رجليه، ولما رأى أخوَيْه يحدّقان به قال ليدفع عن نفسه التهمة:

- شو مالكم؟ من القعدة نمّلت رجليّ.. غريبة هذي؟ كل الناس تنمّل اجريها.

قال مسعود:

- احنا ما قلنا شيء.. ياللّا.

بعد أن مشى بضع خطوات مع مسعود، توقف. سأل مسعود:

- ما لك هسّع؟

قال متردداً:

- بدّي.. أعرّد!

ثم استدرك بسرعة كيلا يقع في نفس أخيه أن الخوف هو السبب:

- أنا من قبل ما يصير إشي بقيت بدّي أسوّيها.. بس لما صارت الحجارة تصلنا وقفت..

قال مسعود وقد فهم المغزى:

- يا زلمه روح اعملها وخلّصنا من هالمراجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن مسعود الذي كان على يقين أن قصة رجم الحجارة لم تكن غير أوهام وتخيّلات تراءت لصبيّين أفزعتهما عتمة الليل في الخلاء، لم يخطر له أن مراجل حسن هي التي أنقذت الغلّة في تلك الليلة من ذلك النفر من الشياطين الذين استأجرهم أبو عايد لحرق المحصول حين يغيب عنه أصحابه، لقاء «بريزة» (عشرة قروش) وعلبة دخان لكل منهم. وما الحاجة إلى شياطين الجن، مع وجود ما يكفي من شياطين الإنس؟ ولكن إصرار حسن على البقاء في منطقة البيادر قريباً من الغلّة، حتى وصل أخواه الكبيران، أفشل التدبير.. في تلك الليلة على الأقل. وعاد شياطين الإنس إلى كبيرهم أبي عايد خائبين، وطلبوا منه أن يمهلهم يوماً آخر. وأخذ الرجل يرغي ويزبد. كيف يعجزون عن طرد صبي صغير كي يخلو لهم المكان؟ كانت تلك فرصة سانحة لن تتكرر. وما هي حتى يأتي دور الجماعة في «دَرْس» المحصول وتَذْرِيَتِه وجمعه، ثم نقله للبيع. وعندئذٍ تكون الفرصة قد فاتت.

وعده الأشقياء بأنهم سينفذون المهمّة، وأن عيونهم ستبقى على البيادر حتى تسنح الفرصة، فلا بد أن تخلو من الرقيب لأي سبب، ولو لساعة أو بعض ساعة! فما هي إلا «ولعة» واحدة وينتهي كل شيء.

ما كان ليخطر لأبي عايد أن الفرصة التي ستأتي ضحى اليوم، ستجعل نجاح تدبيره أخيراً أقبح من الهزيمة والإخفاق، وأن الشيطان البريطاني الأكبر بنفسه سيكون حليفه على غير اتفاق!

فما إن صار الضحى حتى تسامع أهل القرية بالمنادي يصيح في الطرقات أن يخرج كل من يحب الله ورسوله ودينه ووطنه إلى مسجد البلد. فالإنكليز واليهود يذبحون إخوانهم في قضاء عكا، ويد الله مع الجماعة.

وصل العبد ومسعود مهرولين بالخبر إلى أحمد عند الغلّة في البيادر. فقفز من فوره متناسياً أي أمر آخر. وفي الطريق إلى المسجد شرح له العبد أن يهود إحدى المستعمرات القريبة من عكا قتلوا ثلاثة من العرب الذين اقتربوا منهم وهم يتدربون على السلاح. ولما سمع أهالي المنطقة بالخبر هبّوا للثأر لإخوانهم، فوجدوا قوات الانتداب البريطاني يطوّقون المستعمرة، ولم يتريثوا حتى أطلقوا النار وقتلوا ثلاثة أو أربعة من الشباب، غير الذين سقطوا جرحى، أو الذين قبضوا عليهم وحملوهم إلى السجن. وها هم أهل القرى قد بدأوا في التدفق إلى عكا استجابةً لدعوة التظاهر.

كان خطيب المسجد يحرِّض الناس على نصرة إخوانهم والخروج إلى عكا، على أن يردف الراكب منهم من لا دابة له، ومن كان عنده عدد من الدواب فليحمل عليها غيره، ومن لم يقدر على الخروج فليعطِ دابته لغيره، وعلى الموسرين أن يسهموا في تجهيز المتطوعين بالمؤونة.

حين لمح أبو عايد أحمد ينضمّ إلى أبيه وإخوته في المسجد، بدا عليه التوتر الشديد وتصبب عرقه، ومالَ على ولده عايد وهمس له. فخرج عايد من فوره مسرعاً، وإذ صار خارج المسجد أخذ يركض بأقصى سرعته متجهاً نحو البيادر. ولكنه على الرغم من ذلك وصل متأخراً، وحين رأى النار مشتعلة في غلة الجماعة خلع عقاله وضرب به الأرض، ونزل على ركبتيه وأخذ يدق الأرض بقبضته ضيقاً وأسفاً.

بينما كان القوم في المسجد ما يزالون يتداولون في تدابير الخروج إلى عكا وقد اختلطت الأصوات وعلا اللغط، سُمِع أحمد يصيح بأعلى صوته:

- الله أكبر على الظالم.. الله أكبر على الظالم.

توقف اللغط واتجهت إليه الأبصار، وقد ظن الجميع أنه يكبِّر على الإنكليز حتى همّ بعضهم أن يكرر الهتاف من ورائه لولا أن رأوه يخترق الجمع ميمماً صوب أبي عايد والشرر يتطاير من عينيه، وأدرك البعض بسرعة أنه يريد به شراً، فوقفوا بينهما. حاول أحمد أن يتفلت منهم ليصل إليه بينما كانت الشتائم تتدفق من فمه على غير هدى، وبدا كأنه قد فَقَدَ عقله. ولما يئس من الوصول إليه، صاح في الناس:

- يا ناس.. عالم.. الغلّة تبعتنا.. حرق الغلة تبعتنا عالبيادر.. كل شقانا وتعبنا.. غير سواد الوجه مع الزلمة اللي ضمّنا الأرض.. خرّب بيتنا الله يخرب بيته.

لأول مرة يتحدث أبو عايد مدافعاً عن نفسه بصوت ضعيف متقطع:

- يا جماعة أنا معكم هون من أول ما بدينا نتجمّع.. كيف بدّي..

قاطعه أحمد:

- يعني أنت بدك تحرقهم بإيدك؟ خليت الناس مجمّعة هون وتاركة مصالحها وقلوبها مولعة عالإنكليز، راحوا زعرانك ولعوا النار في الغلّة. الله أكبر عليك.. الله أكبر عليك..

تدخّل خطيب المسجد، فذكّرهم أنهم في بيت الله، وأنهم اجتمعوا في بلاء عظيم يعمّ البلاد والعباد، ودونه المال والغلال. فهل يتركون الآن عدو الله الذي قتل إخوانهم ويوشك أن يذهب بالوطن كلّه، لينشغل بعضهم ببعض؟ وقد كانوا قبل قليل يتداعون للإقبال على الموت في سبيل الله. وهل يعبأ من كان مستعداً لبذل روحه في سبيل قضيته بما وراءه من متاع الدنيا؟ فليمضوا الآن فيما اتفقوا عليه، ثم يكون لكل حادث حديث.

فعل كلام الشيخ فعله في نفس أحمد الذي ظل يلهث بشدة، ولكنه قال:

- هو الله سلّط علينا الإنكليز واليهود ليش؟ ما هو من قليلين الدين والضمير اللي ما بخافو الله... يا ناس.. الظلم عاطل من وين ما أجا.. بس كل ظالم فيه اللي أظلم منه.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. ماشي.. كل شي بوقته.. وإلنا حساب ثاني يا أبو عايد.

مرّت هنيهة صمت بعد خروج أحمد ووالده وإخوته، إلا من بعض الهمس. وبدا أبو عايد زائغ البصر وقد رأى أنظار الاتهام تتجه إليه. ثم

رفع صوته قائلاً:

- يا جماعة.. عليّ مونة الناس اللي بدها تطلع على عكا.. والتوصيلة كمان.. لا دواب ولا ما يحزنون.. هسّع ببعث عايد يدبّر باص من الباصات اللي بتشتغل على خط القرى تبعتنا.. وكلّه على حسابي..

هتف المختار:

- نصّ عليك ونصّ عليّ.. ويد الله مع الجماعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«الإنكليز هم رأس الداء وأصل البلاء». كرّر الخطيب الشاب على أسماع المئات الذين تجمّعوا أمام دار البلدية في عكا. فما كان الصهاينة ليقدروا على شيء بغير إرادتهم ودعمهم، فلم يكتفوا بفتح باب الهجرة لهم حتى تركوهم يتسلحون ويتدربون على السلاح تحت أعين سلطات الانتداب وحمايتهم، حتى بلغ بهم أن يطلقوا النار على أولئك الشهداء، بينما يمنعون الفلسطينيين من التسلح والدفاع عن أنفسهم، ولا يتورعون عن إعدام من يجدون عنده سلاحاً منهم، وفي أثناء خطبته الحماسية، غمز من طرف الزعماء الذين يريدون التفريق بين الإنكليز والصهاينة، وما زالوا يوهمون الناس أن الضغط السياسي السلميّ على الإنكليز يمكن أن يغيِّر سياستهم.

لم يكن في كلام الخطيب الشاب جديد لا يعرفه الحضور. ولكن أسلوبه الذي جمع بين بلاغة القول ولغة الجسد، أشعل المزيد من الحماس في الجمهور، وعلت هتافاتهم بالموت للإنكليز والصهاينة، حتى صعد المنبر خطيب آخر مكتهل. فحيا الجمهور وأثنى على روحهم الوطنية، واستعدادهم للتضحية بأرواحهم في سبيل الوطن والقضية. وترحّم على الشهداء الذين وعد ألا يذهب دمهم هدراً. ولم يفت أحمد الذي كان يقف بين الحضور متأهباً بسمعه وبصره وفؤاده، أن يستشعر من نغمة صوت الخطيب، أن هذه ديباجة عامة يقدّم بها الخطيب للرأي الآخر المعهود عند نفر من الزعماء، من ضرورة التروّي وعدم الاندفاع وإعطاء

الفرصة لذوي الرأي ليتعاملوا مع المصيبة بما يجنب الناس ما هو أعظم. فتحفزت حواسه كلّها وتصاعد غضبه حتى قبل أن يصل الخطيب إلى تلك المعاني. وكان قد بدأ يحيي الحضور بأصنافهم: «من تجار لم تلههم تجارة ولا بيع عن نداء الحق والواجب، ومن عمّال بارك الله في أيديهم وسواعدهم تركوا أعمالهم وأرزاق أبنائهم وتدافعوا إلى هذا الحشد الكريم، ومن فلاحين هجروا مزارعهم وغلالهم استجابةً لداعي الوطن الجريح...»، عندئذٍ ارتفع صوت أحمد مقاطعاً دون أن يأبه بمركز الخطيب:

- إيش اللّي دشّروا مزارعهم وغلّتهم، ومش عارف إيش. هو ظل للناس رزق في الفِلح يا بيك؟ لا والله ما دشرنا إشي نخاف عليه. الإنكليز إذا ما قتلونا بالسلاح، بقتلونا بالفقر والجوع.

تعالت أصوات التأييد لأحمد فوقف عريف الحفل يلوّح بيده ليسكت الجمهور. وتابع الخطيب كلامه، وكان كما توقع أحمد فأثنى أولاً على حماسة الشباب وغيرتهم الوطنية كما عبّر عنها الخطيب الشاب. وأكّد حاجة الوطن إلى تلك الروح التي لا يعْدِلُها إلا حاجة الوطن إلى الحكمة والتعقّل والرأي. وإنما تصان الأوطان بهذا وذاك، إلا أن الرأي مقدّم كما قال الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ

هو أوّلٌ وهي المحلّ الثاني

وذكّرهم أن تقديم الرأي وضبط النفس في ثورة الغضب، يحتاج من العزيمة أكثر مما يستدعيه «إشهار السيف» واقتحام المهالك. ثم أهاب بهم أن يتركوا الفرصة للزعماء وأصحاب الرأي ليكملوا مشاوراتهم، حتى تتم معالجة الأمور على النحو الذي يحقق الهدف ويعجّل في نتائج التحقيق في الحادث، وفي ضوء ذلك يجري اتخاذ الإجراءات اللازمة على نحو منظم مدروس. وبذلك يفوّتون على العصابات الصهيونية إخفاء جريمتهم البشعة. فليس أحب إليهم من أن يتعجل الناس إلى الصدام والعنف، فيختلط الحابل بالنابل وتنقلب التهمة من الظالم إلى المظلوم. وأنهى كلامه بالقول:

- وأعلم أني سأقول قولة لن توافي الرضا في بعض النفوس المتحفزة، ولكني سأقولها على أي حال ضَنّاً بدماء شعبنا التي تقتضي المصلحة أن ندخرها إلى الوقت المناسب كيلا تذهب سدىً قبل حصول القدرة والأسباب. فنحن بعد لا نملك ما نواجه به سلاح الحكومة. وكما يقول إخواننا الفلاحون: العين ما بتلاطم مخرز.

هنا صاح أحمد من جديد:

- وبنقول كمان: ضربوا الأعور على عينه، قال: ما هي عورة عورة! همّه خلولنا عين نخاف عليها؟ ما هم طفوها الله يطفي نارهم. والا اللي قال للقرد: الله يسخطك، قال: أكثر من هالسخطة؟ يا بيك أنا مش متعلم زيك وزي اللي خطبوا، بس هذي شغلة ما بدها قراية ولا كتابة ولا اجتماعات ولا مشاورات.

وافق كلام أحمد مشاعر معظم الحاضرين، فارتفعت أصوات التأييد من جديد. ولم يدرِ في تلك اللحظة أن شخصيته القيادية الفطرية قد بدأت في التكشف واجتذاب الكثيرين من الحضور حولها، لا سيما جمهرة الفلاحين -وهم الأكثر- والعُمّال وشباب المدينة الوطني. فهؤلاء لم يتجمعّوا اليوم لسماع الخطب العصماء وكلام السياسة وضبط النفس الذي عهدوه وحفظوه من بعض الوجاهات والزعامات التقليدية.

وقف أحد الوجهاء وقد بدا عليه الضيق وخاطب أحمد:

- يعني أنت حضرتك بدك تفهم أكثر من الزعما اللي مش عاجبينك.

تولى أحد الشباب الردّ عليه:

- خلّيه يحكي يا بيك.

علت أصوات الآخرين بالتأييد. واتجهت الأنظار كلها نحو أحمد الذي تابع قائلاً:

- الزعماء على عيني وراسي. بس همّه مش زي حالاتنا: أحرث وادرس لبطرس. من الصبح لهسّع واحنا بنسمع ناس بقولوا: اليهود أول، وناس

ثانيين بقولوا: الإنكليز أول. وأنا مش شايف الشغلة بدها تفلسف ومضيعة وقت.. اليهود والإنكليز بخَرْج واحد، واحنا ما جينا نسمع حكي. إذا ما كان معنا سلاح، معانا الله. واحنا أهل البلد، يعني لو ولّعناها في كل مطرح همّه الإنكليز بدهم يطوقوا على مين ومين؟ واللي طلعوا في ثورة البراق قبل أكم سنة ما قعدوا يسألوا هالأسئلة. عالأقل ورّوا الإنكليز واليهود إنه احنا مش نايمين، ولازم يحسبوا حساب قبل ما يعملوا عملة جديدة.. واحنا أرواحنا مش أغلى من أرواح اللي أعدموهم في الثلاثاء الحمراء، هون في سجن عكا: فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير. الله أكبر عالظالم.

ردد الحضور الهتاف: الله أكبر عالظالم. وفي هذه اللحظة وصل أحد الشباب مهرولاً يصيح:

- يا جماعة.. يا عرب.. يا مسلمين.. بقولّك كان فيه باص جاي من الطيرة وفي نص الطريق نزل عليهم الطخ من التلّ.. يهود مسلحين.. ومش معروف قدّيش اللي انْصابوا..

لم يكن الحضور بحاجة إلى أكثر من هذا. وما هي حتى وجد أحمد نفسه مرفوعاً على الأكتاف، ينتقل من كتف إلى أخرى، بينما كانت المظاهرة تجوب طرقات عكا الضيقة حتى اشتد تضاغط الناس. وارتفعت الحناجر بالهتافات يقودها أحمد:

فلسطين عربية

فلتسقط الصهيونية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فليحيا وطن الأحرار

وليسقط الاستعمار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالروح بالدم

نفديك يا فلسطين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هَبّت النار في روس الجبالِ

في فلسطين بفديك بروحي ومالي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة بدأ الهتاف بالتخافت تدريجياً حين رأى المتظاهرون صفاً من البوليس الإنكليزي يقفون متأهبين ببنادقهم على بُعد. لم يكن عددهم كبيراً. ذلك لأن العرب العاملين في قوة الشرطة كانوا يستنكفون عن الخروج في مثل هذه المهمات. وكان عملهم يقتصر على الأمور الجنائية وبعض الأعمال المكتبية.

ولم يكن الإنكليز أنفسهم يكلفونهم أكثر من ذلك، ولا يسلحونهم وقت الحاجة بغير الهراوات. وإلى جانب ذلك، ففي ذلك اليوم كان الإنكليز قد

اضطروا إلى توزيع شرطتهم على أماكن متفرقة بسبب ظروف الاضطرابات. وإذ كانوا يعلمون أنه لا قِبَل لهم بأعداد الناس، فقد تلقوا الأوامر أن ينذروا المتظاهرين أولاً ويهددوهم بإطلاق النار إذا لم يتفرقوا، فإن لم يفعلوا كان عليهم أن يطلقوا النار في الهواء أولاً، فإن اندفعت الجموع إليهم على الرغم من ذلك فلهم أن يسددوا على أن يحاولوا تعطيل الهدف دون قتله ما أمكن ذلك، فإن لم ترتدع الجموع بعد ذلك وتابعوا اندفاعهم كان عليهم أن يخلوا المكان، حتى تصل قوات الجيش وتتعامل مع المتمردين.

وكانت أعداد من المتظاهرين قد تسلحت بالعصيّ والسكاكين والحجارة. وإذ نزل أحمد عن كتفي من كان يحمله، تبيّن له لأول مرة أنه عايد نفسه! بينما صاح أحدهم:

- ريح الجنة يا شباب.

واندفعت الجموع على الرغم من طلقات الإنذار التي تحوّلت بسرعة إلى التسديد. وارتفع الهتاف:

- الشهيد حبيب الله.

وبينما انشغل بعضهم بسحب المصابين، تابع الآخرون اندفاعهم، وفوجئ شرطة الإنكليز بجموع أخرى تتدفق من الطرق الجانبية ومن خلفهم، فآثروا الانسحاب على عجل، والحجارة تلاحقهم.

وفي غمرة الفوضى والتدافع تنبّه أحمد إلى أن عايد قد أصيب بكتفه على

الرغم من أنه كان يتابع التقدم مترنحاً. وما كان لأحمد أن يتركه على تلك الحال. فحمله على ظهره ودخل به إحدى الطرق الجانبية الضيقة، بينما استطاع الآخرون الوصول إلى مركز الشرطة الذي صار فارغاً، فاقتحموه ودمروا محتوياته ونهبوا ما وجدوا فيه من السلاح، قبل أن تصل تعزيزات من الجيش وتنتشر في الطرقات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بيت أبي عايد، كان عايد متمدداً على الفراش وقد لُفّ كتفه بالضماد. ولحسن الحظ لم تخترق الرصاصة عظمه. وكان أحمد قد دخل به أحد البيوت، وجيء له بطبيب على عجل. وإذا كان أبو عايد قد وجد نفسه في موقف شديد الحرج حين عمد أُجَراؤُه إلى حرق محصول الجماعة بينما كانوا في الجامع يتداولون في أمر الجريمة التي ارتكبها اليهود والإنكليز، فقد صار الآن في وضع أشد حرجاً إذ علم أن عدوّه أحمد هو من تولّى إنقاذ ولده وحمله.

كان يتمشى واجماً صامتاً. ثم قال كمن يحدِّث نفسه:

- بس الحمد لله، الجرح ما كانش خطير على كل حال.

رمقه عايد عابساً وقد أدرك أنه يريد أن يقلّل من فضل أحمد. حاول أبو عايد أن يتحاشى نظرات ولده المفعمة باللوم والشعور بالذنب. وقال عايد:

- بس لوما اللي عمله، كان يمكن أظل أنزف حتى يتصفّى دمّي.. ولو

ظلّيت مرمي حتى وصل الجيش الإنكليزي وفرض منع التجوّل، كان قبضوا عليّ.. هذا إذا ظليت عايش.. وهاذا بعد كل اللّي عملناه في هالمساكين.. كأنه الله أراد ينتقم منا.. أو يعلمنا درس. يابا شو بدّك في طول السيرة.. اللي عملناه فيهم إشي بخزي.. لا برضاه الله ولا رسوله.

قال أبو عايد متبرّماً:

- عاد احنا كنا عارفين إنه هالشغلة بدها تصير في هالوقت؟

رد عايد:

- يابا هذي الشغلة حرام وظلم في هذيك الساعة والا في غيرها.

سقط في يد أبي عايد، وقال:

- عاد شو نعمل؟ هيك صار.

تريث لحظة ثم تساءل:

- فكرك لو أعطيتهم..؟

قاطعه عايد وقد فهم وجهة السؤال:

- ونفضح حالنا؟ بعدين هذولا الناس نفوسهم كبيرة.. أي نعم، ما وراهم مال ولا رجال، بس ما حطّوا واطي لحدا. وأحمد هذا هو اللي كان على راس المظاهرة، والناس وراه، وأنا.. أنا كمان وراه. وإيش ما قال كانت الناس تسمع.. بدّك أكثر؟ ما شفت حالي إلّا حامْلُه على أكتافي.. نسيت كل شي وحملته على أكتافي في نصّ المظاهرة.. يعني بقى فوق راسي.. شو

رأيك؟ المقطّع زي ما بتسمّيه فوق راس عايد ابن أبو عايد، لما صار الحزّ واللز.. نسينا كل إشي، وما ظلّ غير البلاد والإنكليز واليهود، الله يذلهم. وإذا فيه «غُربيّة» فهمّه هذول.. الإنكليز واليهود!

أراد عايد بكلامه الأخير أن يمعن في تأنيب أبيه. وكان له ذلك. فلم يجد أبو عايد إلّا أن ينفخ قائلاً:

- وشو طلع بإيدكم في الأخير؟ الإنكليز واليهود بعدهم في مطرحهم قاعدين على قلوبنا.. والإنكليز ما بنسوا ثارهم.. هسّع بدهم يزيدوا في عمايلهم وينزلوا في الناس يمين وشمال.. واحنا ما طلع إلنا من هالشغلة غير أنك تصاوبت، ودار صالح اليونس بدهم يحملونا جميل فيك.

هز عايد رأسه يائساً، وأشاح بوجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف أحمد ومسعود والعبد مع آخرين على أطراف القرية بينما كان صوت إطلاق النار يتناهى إلى أسماعهم من وراء التلال. وكان قد بلغهم أن مجموعة من الشباب قد هاجموا إحدى المستعمرات اليهودية القريبة بما توفر لديهم من السلاح، وأن الإنكليز قد أسرعوا إلى تطويق المنطقة. وما زال تبادل إطلاق النار المتقطع مستمراً منذ العصر. وما إن أقبل المغيب حتى توقف كل شيء. فعاد الشباب إلى بيوتهم.

كانت الأسرة قد أوَت إلى الفراش بُعَيْد صلاة العشاء، على عادة أهل الريف في النوم والصحو المبكرين، عندما استيقظ أفرادها تباعاً على طرق خفيف متكرر على باب الحوش.

خرج أحمد بالسّراج، ولحق به أبوه ومسعود اللذان وقفا على المصطبة بينما مضى أحمد إلى الباب، وسأل عن الطارق. فجاءه الجواب المفاجئ بصوت خافت حذر:

- أنا ابن عمكم.. مصطفى السبعاوي.

انشغل البيت كله بالزائر الذي جاءهم بغتةً على غير ميعاد، والذي كانوا يتمنون قبل ذلك، بلا طائل، أن يأتيهم أمثاله من حمولة السبعاوي ليثبتوا نسبهم فيهم، فيكون لهم عزوة وسند بهم. وها هو الآن يطرق عليهم ابن شيخ الحمولة بنفسه، ويخاطبهم خطاب القريب. ولكنها لم تكن زيارة طوعية مرتبة على نحو ما كانوا يرجون، وإنما كانت زيارة

أملتها ظروف قاهرة. فقد كان مصطفى مع الشباب الذين هاجموا المستعمرة، واشتبكوا مع اليهود المسلحين فيها. وما لبث العسكر الإنكليزي أن وصلوا وضربوا طوقاً حول المستعمرة، وانتشروا في المنطقة. واستطاع مصطفى أخيراً أن يتسلل خارج منطقة الاشتباك ليجد نفسه قريباً من هذه القرية. فذكر أحمد وأسرته. وحين رأى ناطوراً في أطراف القرية أخفى بندقيته وسأله عن بيت أبي أحمد السبعاوي، ولما بدا الرجل حائراً في اسم العائلة، تذكر ما عرفه من أحمد، حين زارهم، بأن الاسم العائلي الذي يعرفون به هو «الشيخ يونس». فدلّه الرجل على البيت. واعتذر لهم بأنه لا يريد توريطهم معه، وأنه سيغادر مع مطلع الفجر. فقال أحمد بحماس صادق:

- انت هون في بيت أهلك وجماعتك. اللي بصير عليك بصير علينا. وحتى لو ما كنا قرايب.. بكفّي إنكم كنتوا تقاتلوا ولاد الميتة.. احنا مش أحسن منكم.. إذا كنت متأسّف على شيء فهوه إني ما كنت معكم.

أضاف مسعود بأن الإنكليز لا بد أنهم قطعوا الطرق الآن، وأقاموا نقاط تفتيش فيها. فلا يحسن به التعجّل في الخروج حتى يجد طريقاً آمناً. ثم التفت إلى أخويه الصغيرين حسن وعليّ اللذين كانا يجلسان في ركن الغرفة يحدِّقان في الزائر العزيز، وقال بلهجة حازمة:

- انتوا الاثنين أوعوا تجيبوا السيرة لحدّ. ترى هاذي ما هي مزحة.. تلاقي الإنكليز بدوروا على الشباب في كل هالنواحي. فاهمين؟

أيّده أبوهم بنظرة قوية وهزّة رأس.

كانا أكثر أهل البيت انفعالاً بقدوم الزائر الذي انتظرا مجيئه طويلاً. وظنّ حسن، بخاصة، أنه صار بوسعه أن يقيم الحجة على الصبيان الذين سخروا من ادعاءاته بقرب قدوم جماعة من حمولة السبعاوي عليهم. والآن حين جاءهم أخيراً ابن شيخ الحمولة نفسه، ينبغي عليهم أن يتكتموا على الأمر فلا يهمسون به لأحد. فتحوّل فرحه في لحظة واحدة إلى شعور ثقيل بالقهر، أشدّ من القهر الذي شعر به حين عاد أخوه الأكبر أحمد خائباً من زيارته إلى الحمولة لطلب المساعدة، فكان عليه أن يتحمل استهزاء الصبيان الآخرين وتكذيبهم لادعاءاته!

وكان في نفس عليّ مثل الذي في نفسه. ولما اختليا على سطح البيت ليناما هناك في تلك الليلة المقمرة، وقف حسن على حافة السطح وسرح نظره في القرية الغارقة في النوم، وأطلق نفثة حرّى. قال عليّ:

- عارف.

قال حسن دون أن يلتفت إليه:

- عارف إيش؟

- نفسك تصرّخ.. إحنا مش بس من دار السبعاوي، إحنا فينا مجاهدين..

مرت لحظات صمت أخرى، ثم همس عليّ:

- يعني برايك فيه حدّ من هالبلد ممكن يقر للإنكليز لو عرف مين

عندنا؟

التفت حسن إليه متفحصاً وقال:

- اللي حرق غلتنا والدنيا مولعة عالإنكليز واليهود بعملها. عالأقل إذا خاف على حاله من المسؤولية، زي المختار وأبو عايد.

في الصباح الباكر وصلت الأخبار أن الإنكليز قد انتشروا على الطرقات المحيطة بالقرية وجاراتها القريبة. فأصرّت الأسرة على مصطفى ألا يغادر البيت في الوقت الحاضر، فاضطر إلى الخضوع لرأيهم مكرهاً. فهو لا يريد أن يعرِّضهم للمساءلة والخطر. ومن جانب آخر فهو لا يريد أن يثقل عليهم وقد رأى ضعف حالهم.

وقبل أن تُضحي الشمس، سمعوا طرقاً على باب الحوش. وخرج أحمد وحده ليرى الطارق، بينما توارى الآخرون داخل البيت. فوجئ أحمد بعايد يقف أمام الباب. ردّ تحية الزائر بصوت متردد وملامح مضطربة، ولم يبادر إلى دعوته إلى الدخول. وانتظر أن يقول شيئاً في سبب قدومه. وفي تلك اللحظة خرج أبو أحمد ووقف على المصطبة ينظر. قال عايد محيياً:

- العواف يا أبو أحمد.

- بالغانم.

شعر عايد بالحرج، ثم شرح أنه قد جاء ليؤدي واجب الشكر على ما صنعه أحمد له في مظاهرة عكا، وأن ذلك يبقى دَيْناً في رقبته لا يمكن أن

ينساه، وأن أباه كان يرغب في المجيء معه لولا أنه انشغل ببعض زوّاره. ولكن، إذا كان ما يزال في نفوسهم شيء مما حصل سابقاً فإنه يعتذر عن نفسه وعن أبيه، ويتفهم إذا لم يكونوا راغبين في استقباله. وحين همّ أن يستدير راجعاً، سمع صوت أم أحمد التي خرجت لتنقذ الموقف الحرج وهي تحمل فراشاً ألقته على المصطبة. ودعته إلى الدخول، وتابعها على ذلك زوجها وولدها أحمد.

لم يكد يجلس، حتى دخل حسن وعليّ من باب الحوش مندفعين وهما يلهثان، وأخبرا الجميع أن الإنكليز قد دخلوا القرية يفتشون البيوت بيتاً بيتاً، وقد قسموا أنفسهم بين المختار وأبي عايد للتعريف على الناس.

كان مصطفى يستمع من الداخل. وهنا قرّر مغادرة البيت قبل وصول الإنكليز، مهما تكن المخاطرة بنفسه، كيلا يورط العائلة معه، على الرغم من محاولات أم أحمد أن تثنيه عن عمله بالهمس وإيماءات اليد.

فوجئ عايد بظهور مصطفى. واتجهت أنظار الأسرة إليه تتفحص ردة فعله، بينما أخذ ينقل بصره بين مصطفى والآخرين. ثم بدا كأنه تفهّم الموقف. ونهض أحمد وأمسك بذراع مصطفى يشدّه، وهو حائر فيما يجب فعله. أيهما أسلم له وللجميع: أن يتركه يغامر بالخروج في ذلك الظروف، أم يبقيه مع خطر انكشاف أمره إذا وصل الإنكليز للتفتيش والسؤال؟ وقبل أن يحسم رأيه، سُمِع طرق قوي على الباب، ومعه صوت أبي عايد نفسه، وحين ظهر كان معه جنديان إنكليزيان، طلبا خروج أهل البيت جميعاً إلى الحوش. أما أبو عايد فاصطدم بصره بمصطفى أولاً، ثم

أخذ يُنقّل بصره بين مصطفى وعايد وسائر الحضور. وكان عايد أشدهم توتراً وقلقاً من أن يرتكب أبوه الجرم الأكبر، وهو الذي صحبه الإنكليز للتعريف بالحاضرين الذين وقفوا جميعاً صامتين كأن على رؤوسهم الطير. ولم يخرج أبو عايد من دهشته وسهومه إلا حين طلب منه أحد الجنديين أن يعرِّف بالقوم.

بدأ برب الأسرة: أبي أحمد، صالح الشيخ يونس، ثم أولاده أحمد ومسعود وحسن وعليّ، ثم أم أحمد فخضرة. ثم أشار إلى ولده وقال:

- ابني عايد.

ثم أعقب موضحاً:

- أصحاب.. هوّه وأحمد ومسعود! جاي يزورهم.

بقي مصطفى الذي توقف عنده نظر أبي عايد والجنديين، وتابع أبو عايد بعد لحظة صمت خاطفة:

- وهاذا ابن أختي عبدالله.

كادت ملامح الانفراج من موقف أبي عايد أن تَشي بهم أكثر من ملامح التوتر والقلق التي سبقت ذلك. ولعل عايد كان أكثرهم سعادة بموقف أبيه. أما حسن وعلي، فقد تجاوزت مشاعرهما حد الانفراج إلى فرح صاخب مكتوم، إذ لم تسْلم الأسرة وضيفها من الإنكليز فقط، ولكن الذي كتمه أبو عايد عنهم، صار الآن مكشوفاً له، وسيعرف قريباً أنه ابن شيخ حمولة السبعاوي.. أخيراً، تحققت رغبتهما المحبطة بطريقة لم تخطر

لهما على بال. ولكن أبا عايد لم يكتفِ بالادعاء أن مصطفى ابن أخته، حتى طلب من ولده أن يرجع مع ابن عمته إلى البيت، وأن يتجنبوا الزيارات في ظل الظروف الراهنة.

بعد التعريف قام أحد الجنديين بتفتيش البيت، بينما بقي الآخرون خارجه، وحين فرغ طلب من رب البيت أن يدخل فيتأكد من أن البيت لم ينقص شيئاً. فتمتم أبو أحمد ساخراً:

- خالصة.. يعني شو فيه حتى يتاخذ.

لم يفهم الجندي، ولكنه لم يغادر مع صاحبه حتى أنذر أهل البيت بأن السجن والغرامة هما عقوبة من يتستّر على أحد من المخرّبين، أو يتأخر في التبليغ عنه.

وحين خرجا مع أبي عايد، تابع أبو أحمد تعليقه الساخر:

- قال شوف إذا نقص إشي من البيت بعد التفتيش! ميخذين البلاد كلها وبدهم يسلموها لليهود، بس الجماعة ما بمدّوا إيديهم على أغراض البيت.. الخشة تبعتنا! يا «خبيبي» خذ كل اللي في البيت، وحلّ عن البلاد!

ولكن سائر العائلة كانت منشغلة بالتفكير بما فعله أبو عايد. وقال مسعود:

- أنا مش مصدق عقلي.. قصدي أبو عايد.. يعني الزلمة لما وصلت للإنكليز طلع فيه خير!

علّق أبو أحمد:

- هوه قليل اللي عمله أخوك أحمد لابنه؟

أردف أحمد متشككاً:

- ويمكن برضه خاف على ابنه لأنه كان عندنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يقصّر أبو عايد في تكريم مصطفى في بيته، وأصرّ على استضافته عنده، على أن يتولّى بنفسه تدبير عودته الآمنة إلى أهله في صحبة عدد من رجاله. وذكر أنه زار مضافة أبيه قديماً حين كان يقضي بعض المصالح في قريتهم.

لم يفرغ الإنكليز من البحث والتفتيش في تلك القرى حتى فرضوا غرامة عامة على كل منها على سبيل العقاب الجمعي والرد. وأوكلوا بالمخاتير جمعها من الناس وتسليمها للسلطات في مهلة محدّدة. وحين ذهب أبو أحمد إلى المختار ثقيل الصدر، ليدفع ما عليه، فوجئ به يخبره أنه ليس عليه شيء. وبقدر ما أراحه ذلك فقد أثار فضوله وسؤاله. ولكن المختار أبى أن يُفصِّل في الأمر. كل ما قاله إن مجموع المبلغ المطلوب قد تمّ تأمينه، وأن الدنيا لا تخلو من الخير، وعلى القويّ أن يحمل الضعيف في مثل هذه الظروف.

أنهت أم أحمد تساؤلات الأسرة وتخميناتها بالقول:

- فلتونا من كثر الحكي.. دبّرها صاحب التدبير.. الله شايف حالنا بس

قولوا الحمد لله.

ما لم تعرفه الأسرة أن الذي دفع عنهم نصيبهم من الغرامة، لم يكن إلا أبو عايد نفسه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هسّع ضميري ارتاح من طرف صالح اليونس. واحدة بواحدة. زلمتهم مصطفى مقابل جميلة أحمد عليك.. ومصاري الغرامة مقابل الغلّة اللي حَرَق... انحرقت. وهيك ما ظل إلهم إشي عندي.

ظهر الامتعاض على وجه عايد. فقد ظنّ أن أباه سيفتح صفحة جديدة من الود مع الجماعة بعد كل ما جرى، وبعد أن تأكّد له أنهم من آل السبعاوي حقاً وصدقاً. ولكن أبا عايد كان له رأي آخر في هذا الأمر. فالجماعة ترددوا على آل السبعاوي غير مرّة يدّعون أنهم منهم ويطلبون معونتهم بلا طائل. وعندما وجد مصطفى نفسه مطارداً من الإنكليز بالقرب من القرية تذكرهم، فاضطر إلى الالتجاء إليهم بدعوى القرابة تلك.

وحتى لو كان ادعاؤهم صادقاً، فإن لكل قمح زوانة، وكما قال المَثَل: «لو فيها خير ما رماها الطير». والحمايل الكبيرة كالشجرة، فيها الفروع الخضراء المثمرة، وفيها العروق الجافة المهملة!

أراد أن يسهب في ضرب الأمثلة، ولكن عايد الذي فَقَدَ صبره، فضّل الخروج دون أن يخفي امتعاضه وتبرمه الشديدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مدرسة عكا

بواكير النبوغ

١

حان الوقت الآن للحسم في موضوع تسجيل حسن وعليّ في مدرسة المدينة. وكرر الأب اعتراضاته السابقة، مذكِّراً إياهم بما لا يحتاجون إلى التذكير به. فكيف له أن يوفر نفقات ولدين اثنين: أجرة السكن ونفقات المعيشة في المدينة؟ وبالحسابات المادية كان محقاً. ولكن أحمد لم يتراجع عن إصراره وإلحاحه مؤكداً أنه ومسعود سوف يضاعفان من عملهما في أراضي الآخرين، ويتتبعان أعمال الحكومة في مدّ الطرق في المنطقة ليعملوا فيها بالأجرة اليومية كلما سنحت الفرصة. وتكتفي الأسرة بما تنبت أرضهم حتى لو اضطروا للعيش على الزيت ورصيع الزيتون و«كراديش» الذرة. ثم إنه قد تحدّث مع عايد الذي صارت بينهم صحبة، واتفق معه على أن يسكن حسن وعليّ مع أخيه حمدان ومع عارف ابن المختار في غرفة واحدة، وبذلك تتوزع أجرة السكن على الأربعة، فلا يتكلّف أحدهم إلّا قروشاً. أما الطعام فسوف يوفرون لهما مؤونة الأسبوع من البيت: كراديش وخبز وفطائر وزيت وزيتون وزعتر، ومثل ذلك مما يتيسّر. ومن طلب العلا سهر الليالي، وتحمّل المشقة. وأخيراً قال أحمد:

- يابا احنا الكبار راحت علينا. وهذول آخر اثنين في العيلة، إذا راحت عليهم راحت علينا كلنا للأبد. ولما بتعلموا وبصيروا ما هو إلهم وإلنا.. بنشلوا العيلة كلها معهم. وانت شايف الأرض، ما عادت تجيب إشي مع ضرايب الإنكليز. وما قدامنا إلا التعليم.. وهاي عارف ابن المختار

وحمدان ابن أبو عايد رايحين مدرسة المدينة.. وأولادنا أشطر منهم بمية مرّة.. مش حرام؟

قاطعه الأب:

- أشطر منهم والا مش أشطر منهم.. هذولاك وراهم رزق.. واحنا شو ورانا؟

ردّ أحمد:

- يابا، ما هو لأنه ما فيش ورانا رزق، ما قدامنا غير التعليم.

نفخ الأب وهزّ رأسه يميناً وشمالاً:

- أنا عارف كيف هاي صارت؟ لأنه ما فيش ورانا رزق لازم نعلّم الأولاد، وحتى نعلّم الأولاد لازم يكون ورانا رزق! فهموني إياها.. بعدين يا خوي، كيف أنا بدّي أحط أولادي مع ابن أبو عايد وابن المختار وهمّه طول عمرهم شايفين حالهم علينا.. بكره إخوتك بشوفوهم بتمصرفوا على أكلهم وشربهم وثيابهم، وهمّه يا دوب يلاقوا اللقمة وهالثوب المقطّع.. كيف بدهم يشعروا؟

قال أحمد:

- المهم النتيجة يابا.. لما أولادنا بتفوقوا على الكل في المدرسة، هذولاك اللي رايحين يغاروا منهم.

والحقيقة أن أبا عايد لم يوافق على أن يسكن ولده حمدان مع حسن

وعليّ تكرماً منه ليخفف النفقات على دار الشيخ يونس. ولكنه كان يعلم تفوق حسن وعليّ واجتهادهما، فكان يرجو أن يفيد ابنه منهما وأن تدفعه الغيرة إلى تقليدهما. كما أنه كان يقرّ في نفسه لعائلة الشيخ يونس بالاستقامة والتديّن، وحتى لو أراد ولداهما أن يلهوا في المدينة، فإنهما لا يملكان القدرة على ذلك. ومن شأن هذا أن يردع ولده عن العبث، إن لم يكن لشيء فخشية أن يكشف ولدا صالح الشيخ يونس خبره. أما المختار فلم يكن أمامه إلا أن يضم ولده إلى ولد أبي عايد.

"كان الجدال حول مستقبل تعليمنا قد أصبح أمراً مكروراً في البيت. وكنت وحسن نجلس وننصت صامتين بينما يتابع الكبار نقاشهم. ولم أكن أقدِّر حتى تلك الساعة مدى خطورة القرار الذي يمكن أن ينتهوا إليه، وأثره في مصائرنا. بل ربما داخلني العجب أحياناً من شدة إصرار أخي الأكبر. وكان عليّ أن أنتظر سنين أخرى حتى أتبيّن القيمة العظمى لذلك الإصرار. وهو ما سيجعلني مديناً له إلى آخر عمري الذي شهد تنقلّي بين الأمصار والأقطار والألسنة والألوان، وحملني إلى مآلات وعوالم بعيدة لم يكن حتى خيالي ليصل إليها في تلك القرية الصغيرة التي ستغيب يوماً عن الوجود، لتحضر أبداً في الذاكرة والأحلام، وهي تعبق برائحة الزنبق الجبلي وأقراص الزعتر، وخبز الطابون الطازج، ودخان الحطب المحروق، وتستعيد سماءها وغيومها ونجومها وسلاسلها الحجرية وزيتونها وسنديانها وحقولها التي عرفت أول الفلاحين وأول المحاريث".

أخذا يتمشيان صامتين إلى جانب إحدى السلاسل الحجرية. وفجأة بدا أن حسن التقط حصاة من الأرض، ثم حرّك يديه وراء ظهره، ثم مدّ قبضتيه المضمومتين أمام عليّ وقال:

- مين بدّك؟

بدا عليّ حائراً، فأوضح حسن:

- نقّي واحدة. مين الإيد اللي فيها «الصرارة»؟

سأل عليّ:

- ليش؟

أجاب حسن بإلحاح:

- بس انت نقّي واحدة.

بعد تردد أشار عليّ إلى إحدى القبضتين وهو لا يدري مقصد أخيه. فتح حسن قبضته تلك، وكانت فيها الحصاة! فقال:

- خلص.. نصيبك.

- أي نصيب؟

- المدرسة!

قبل أن يسأل عليّ من جديد وقد زادت حيرته، تابع حسن:

- أبوي ما بقدر يعلّم اثنين في المدينة.. يمكن يوافق على واحد بس.. القرعة طلعت نصيبك.

قال عليّ وقد فهم الآن:

- ما بروحش عالمدينة لحالي.

ردّ حسن بإصرار:

- بدّك تروح غصب عنك.

لم تكن الفكرة مقبولة عند عليّ. فهو يعلم مدى رغبة أخيه في متابعة دراسته، ولطالما تحدّث لعليّ عن أحلامه في ذلك، ثم انطلق منها للحديث عن المستقبل الذي ينتظره هناك، للخلاص من القرية الضيقة الكئيبة.. لم تكن أحلامه تتوقف عند المدرسة في عكا أو حيفا.. ولا حتى في القدس حيث أعلى مدرستين في البلاد: الكلية العربية والكلية الرشيدية اللتين لا يصل إليهما إلا نخبة الطلبة في فلسطين كلها.. وإنما كان ينطلق بأحلامه بعد ذلك إلى مصر لدراسة الطب، أو ربما إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. وكان قد سمع عنهما من أخويه الكبيرين أحمد ومسعود في سياق كلامهما عن بعض الكبراء والزعماء المعروفين وأبنائهم.. مثل أبي أكرم السويدي.

التقط عليّ حصاة نقلها بين يديه بعيداً عن نظر أخيه، ثم مدّ قبضتيه:

- هسّع دورك.

حاول حسن أن يتجاهل الأمر متابعاً مشيه، ولكن علياً اعترضه مصرّاً على طلبه، حتى اضطر حسن فاختار إحدى القبضتين، ولما فتحها عليّ كانت فيها الحصاة. واحدة بواحدة. وليس بعد التعادل إلا ثالثة، و«الثالثة نابتة» كما يقال. وأصرّ حسن أن يكون هو من يجريها من جديد. هذه المرة، كانت الحصاة في القبضة التي اختارها عليّ. فقال حسن:

- خِلْصَت..

ما لم يلحظه عليّ أن حسن كان قد جعل حصاة في كل من قبضتيه، فأيهما اختار أخوه فسيجد الحصاة، وتكون القرعة له.

على كل حال، لم تأبه الأسرة حين أخبرهم حسن بالقرعة ونتيجتها، إلّا مسعود الذي أبدى بعض القبول بفكرة الإنفاق على صبي واحد في مدرسة المدينة سواء أكان علياً أم حسن، وإن كان يميل إلى أن يكون عليّاً لأن حسن أكبر منه وأقوى وأقدر على المشاركة في أعمال الفلاحة. وهو على أي حال حل وسط بين موقف أحمد وأمه اللذين بقيا مصرّين على ذهاب الولدين معاً إلى مدرسة المدينة، وبين موقف الأب الذي لم يبدِ موافقته حتى الآن على ذهاب أي منهما. وكانت الأم تدرك أن ذهاب عليّ دون حسن سوف يورث الثاني أسىً عميقاً لن يفارقه طوال عمره بعد ذلك. كانت تدرك أيضاً أن ممانعة الأب ليست بسبب التكاليف المرهقة في المقام الأول، ولكن لأنه بطبعه لا يحب أن يفارقه أولاده لأي سبب، حتى لو كان سبباً ذا منفعة كبيرة للجميع. وقد جهر بذلك حين

رأى إصرارها فتساءل كيف يهون عليها مفارقة ولديها إلا أن يكون قلبها كالحجر، وأضاف متبرماً:

- علمي مش هيك النسوان.

وكان جوابها حاضراً وقد استفزها الكلام:

- علمي مش هيك الزلام. اللي بشوفك معصّب وخلقك طالع بقول: بوكل الحجر.. بس قلبك زي العصافير. يعني بتكون مبسوط لما أولادك بظلهم قدامك لا فوقهم ولا تحتهم؟ لع يا خوي، يبعدوا ويسعدوا.. أما متعوس على متعوس بصيروا كلهم متاعيس.

احتد الجدال، حتى نهض الأب وهو ينفخ ومضى خارجاً يتمتم:

- اعملوا اللي بدكم إياه.. ما أنا خلص خرّفت.. أنا مش وجه سعد. البركة في أمكم اللي أجت من السرايا!

وإذ خرج انطلقت الأم بالكلام وقد ساءتها عبارته الأخيرة الهازئة. فأعادت على أسماع أولادها ما سمعوه منها عشرات المرات.

- يعني قصده إني مقطوعة من شجرة، لا أب ولا أم ولا إخوة؟ الناس بتموت بس السمعة ما بتموت.. روحوا على بلدنا واسألوا عن إخوتي.. الناس بعدها بتضرب فيهم المثل.. كانوا فرسان البلد.. هو شو قتلهم وهمّه شباب إلا المراجل.. ما كانوا يحطوا واطي لحدا حتى الحاكم التركي.. بقيت صغيرة بس بتذكّر.. وهوّه لولا إني كنت يتيمة كان أبوكم بوخذني؟ قال سرايا قال.. مش مهم إنه الواحد يكون من أولاد السرايا..

المهم إنّه ما يخاف من أهل السرايا ويظل رافع راسه.. وبعدين الشاطر هو اللي بعمل سرايا لحاله! حطّوا هذا بروسكم.

صمتت هنيهة وقد تحوّلت ملامح وجهها من الغضب إلى الحزن. ثم استأنفت بلهجة أخرى:

- لا يكون إلكم فكر.. أبوكم قلبه طيب.. بطلع خلقه بس قلبه طيب.. هذا طبعه.. حتى لو كان مقتنع بالحكي بقدرش يطلعها من لسانه. لازم يصيح ويزعل، بس في الأخير برضى.. خلص اتوكلوا على الله.

وقد كانت مصيبة..

ولكن بينما كانت الأم وسائر الأبناء لا يرون في القرية إلا الكدح والفقر والقهر ومكائد أبي عايد، فإن أبا أحمد كان قادراً دائماً على الفصل بين القرية ومن فيها وما يجري فيها. فهي ليست أبا عايد ولا المختار. إنما هي الأرض التي نبت فيها وما يزال ينام ويصحو على أصواتها وروائحها وألوانها، فإذا أنكرها أنكر نفسه.

أما الخير والشر والغنى الفقر ففي كل مكان آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من أن عكا أبعد من حيفا عن القرية ببضعة كيلومترات، إلا أن الخيار وقع عليها، فهي أصغر وأقلّ صخباً من حيفا، وأجرة البيوت والغرف فيها أقلّ، وكذلك الضغط على المدارس.

أوشكت الشمس على المغيب ولم يعد أحمد بعد من رحلته إلى عكا لتسجيل الولدين اللّذين مكثا ينتظران على أحر من الجمر. وكان الأب أكثر منهما قلقاً مع اضطراب الأوضاع في البلاد. فذكره مسعود أن عملية التسجيل تحتاج إلى وقت ومعاملات، وقد يضطر أحمد إلى المبيت هناك. ولكن هذا لم يخفف عن الأب. فأين عساه يبيت وليس لهم أقارب ولا معارف هناك. وأخيراً بعد صلاة العشاء، انفتح باب الحوش ودخل أحمد يتصبب عرقاً وقد بلغ منه الجهد. فأقبل الجميع عليه مستطلعين، وابتدره الأب بالسؤال:

- هاه، سبع ولا ضبع؟

أجاب أحمد:

- لا سبع ولا ضبع.. بس خلوني ألقط نفسي أول.. عارفين الباص ما بوصّل لعندنا.. قطعت ثلث الطريق مشي.. نشفوا ريقي الله ينشف ريقهم.

سأل مسعود:

- مين؟

كانت خضرة قد جاءت لأخيها بكأس ماء، فاحتسى منه، ثم شرح لهم أنه

قضى النهار متنقلاً بين مدير المدرسة ومدير المعارف. فقد كانت المقاعد قد اكتملت بعدد الطلبة المسجّلين. وبعد أن رأى مدير المدرسة إلحاح أحمد طلب منه أن يأتيه بموافقة خاصة من دائرة المعارف، لكن مدير المعارف من جانبه ردّه من جديد إلى مدير المدرسة ليأتيه منه بإشعار يفيد أن ثمة مجالاً لإضافة الولدين. وقد شك أحمد أن المدير يدخّر بعض المقاعد الاحتياطية لمن هم أوْلى برأيه من فلاحين بسطاء لن يلبثوا على الأغلب في المدرسة غير صف أو صفين، ثم مرجعهم إلى الحقول، إن لم يكن لشيء فلأنهم لن يتحملوا تكاليف الإقامة في المدينة. وحين نفد صبر أحمد جلس على الأرض في غرفة مدير المدرسة قال: «من هالمراح ما فيه براح. مش قايم من هون حتى يتسجّل الأولاد». عندئذٍ كشف المدير عن موقفه. فما حاجة الولدين إلى دراسة صف أو صفين آخرين وقد تعلّما ما يكفيهما من القراءة الكتابة والحساب، فلن يحتاجا إلى تحصيل المزيد من العِلْم في عمل الفلاحة الذي سيعودان إليه في آخر الأمر. ولن ينال أهلهما من ذلك غير النفقات المرهقة.

على أن أشدّ ما أثار غضب أحمد ذلك الكلام المكرور عن حاجة الوطن إلى الفلاح حاجته إلى المعلم والمحامي والطبيب، وأن عمل الفلاح لا يقل أهمية عن تلك المهن الأخرى. عندئذٍ رفع أحمد صوته بلهجة صارمة دون أن يأبه بالعواقب:

- يا خوي عال.. ما دام ما فيش فرق شو راي الأفندية يبعثوا أولادهم يشتغلوا بالفلح.. واحنا بدنا نعلم أولادنا تايصيروا محامين والا دكاترة

والا أساتذة.. مليح هيك؟ بعدين مين شريكنا حتى يستكثر علينا نعلم أولادنا؟

كان حسن وعليّ ينصتان بقلق في انتظار النتيجة المؤجّلة، حتى تدخل مسعود بالسؤال عنها. نظر أحمد إلى حسن وعليّ، وبدت على وجهه مسحة من الأسف والضيق، قبل أن يشرح. فبعد الأخذ والردّ نظر المدير في الأوراق ثم رفع رأسه وقال إنه لا يستطيع أن يقبل إلّا واحداً منهما: وهو عليّ. ذلك أن حسن أكبر بسنة من الحدّ المقرر. وأضاف أحمد أنه لو كان يعرف ذلك لغيّر في شهادة تقدير السنّ، إذ لم يكن ثمة شهادة ميلاد أصلية. ولكن، قدّر الله وما شاء فعل. ولم يسعه بعد ذلك أن يجادل المدير الذي رفض الاستماع إلى كلمة أخرى.

اتجهت أنظار الأسرة إلى حسن الذي وقف منقبضاً منكس الرأس قبل أن يمشي خارجاً إلى المصطبة الخارجية. همّت الأم أن تلحق به، ولكن أحمد كفّها عن ذلك بحركة من يده.

لم تكن عكا تبعد عن القرية أكثر من عشرين كيلومتراً. ولكن الوداع كان صعباً على الجميع. وعملت الأم وخضرة على إعداد زوادة لعلي تكفيه أسبوعاً من عمل البيت ومؤونته: زيت وزيتون وزعتر وبصل وبعض البيض المسلوق، والسكر والشاي، وعدد من الأرغفة التي أوصَتْه أمه أن يحافظ عليها ملفوفة كيلا تجف، وألا يصيبها البلل فتتعفن. ومن باب الاحتياط أعدت له أيضاً بعض «القراقيش» الجافة، فهي تدوم أكثر من الخبز دون تعفن، وصرّت له ثلاثة قروش أعطاها إياها أبو أحمد لتكون

مصروف الأسبوع، ولكن خضرة التي كانت تدخّر قرشاً معها، أضافته إلى النقود دون أن تُعلم أحداً.

وكان على أحمد أن يصحبه إلى عكا على حمار استقرضه من أبي العبد. عانق أمه وقبّل يدها قبل أن يخرج، واحتضنته خضرة بحرارة ودموعها تسيل بغزارة وشيّعته الأم بدعاء متّصل. وحبست دموعها حتى خرج من البيت فانخرطت في بكاء أدهش خضرة نفسها. فقد كانت تبدو أشد تماسكاً من الجميع، وتبث القوة فيمن حولها. ولكن القوة لا تعني ضعف العواطف بقدر ما تعني القدرة على كبحها وعدم الاحتكام لها في المواقف المصيرية. وهكذا كانت هذه السنديانة القديمة. على أنها لم تكن تبكي لفراق عليّ فقط، وإنما كذلك لبقاء حسن خلفه! وتلكم هي المفارقة!

أما حسن فانتظر خارج البيت ليودع أخاه، وقد تنازعه الشعور العميق بالأسى على نفسه وأحلامه المنكسرة، وعلى فراق أخيه الذي قاسمه الأحلام ومدارج الطفولة ومطاردة الفراشات وصيد القنابر والرغيف الساخن ودفاتر المدرسة وقسوة المعلم. وبينما بكى عليّ وهو يعانقه، فما كان حسن بالذي يستسلم لرغبة البكاء وإن غدا قلبه الآن فارغاً. كان ثمة شيء ما يتكسّر في داخله.

وخرج أبو أحمد ومسعود يشيّعان أحمد وعليّاً إلى أطراف القرية. وإذ بدأ الأخيران يبتعدان توقفا والتفتا على وقع أقدام حسن راكضاً بأقصى سرعته نحوهما. ظل يلهث وهو يمدّ يده إلى عليّ بقلم رصاص جديد

وممحاة:

- كنت محضّرهم للمدرسة.

لم ينتظر لحظة بعد ذلك، فانفتل وركض بالسرعة نفسها مبتعداً عنهما، بينما كان عليّ يلاحقه بنظرات ساهمة حزينة، حتى رآه يقفز عن إحدى السلاسل الحجرية ويغيب خلفها.

"لم أتوقع أن تكون مفارقة القرية والأهل مؤلمة إلى ذلك الحد. لقد قُدِّر لي بعد ذلك بزمن أن أسافر وأغترب في أنحاء العالم، وأن أقطع آلاف الأميال في الرحلة الواحدة، إلا أن تلك الرحلة الأولى إلى مدرسة المدينة التي يمكن أن نبلغها على الأقدام ظلت محفورة في وجداني بوصفها الأقسى في وقتها، وإن كنت أدين لها بكل ما تحقق لي بعد ذلك على طول العمر. ففي تلك الساعة لم يكن ليخطر لي أني أخلِّف إلى الأبد مرحلة من مراحل حياتي، وأن هذه الخطوة ستكون بداية طريق طويل أبعد من كل ما تصل إليه خيالات الطفولة في تلك القرية الصغيرة. لقد بدا لي في تلك اللحظة أني لا أُنتزَع من أسرتي الصغيرة فقط، وإنما أيضاً من السلاسل الحجرية وروائح الطوابين وأشجار الصبّار الشائكة التي تحد الأراضي والمنحدرات، وفخاخ الصيد وأغاني الأعراس والحصادين وعزيف «اليرغول» وناي الراعي وموسيقى السنابل الجافة حين تمرّ عليها يد الريح الحانية قبيل الحصاد.. وسائر تلك الأشياء التي لن تكف في قابل الأيام عن زيارتي في أحلام النوم وتردّني إلى الطفل الذي كنته، ثم إذا فتحت عيني من النوم بقيت تحيط بي للحظات من التيه قبل أن

ينقشع ضباب الوهم عن واقع آخر وزمن آخر ومعه ركام من التجارب الطويلة التي وطّأت لها تلك الرحلة الأولى إلى المدينة ومدرستها!

ولكن أشدّ ما كان فيها على نفسي فراق أخي حسن، وهو ما أورثني غصّة لا تفارقني أبداً. فقبل الآن كنا نقتسم الأشياء نفسها: الثوب والدفتر والفِراش وهديل اليمام، وصهيل الخيول، ونباح الكلاب، وصياح الديوك.. وضوء القمر الريفي الذي يبدو في القرية على مرمى حصاة نطلقها من شعبة الصيد المشتركة.. كذلك أشباح الجن والأرواح التائهة التي يبدو أنها تفضِّل ليل القرية وشعابها على ليل المدينة وشوارعها الإسمنتية.. والغيوم التي كنا نتأمّل أشكالها ونحن متمددان على ظهورنا في البيادر.. أما حسن فكان لا يفتأ يرى فيها خيولاً بيضاء تتصدّر وجه السماء، وحين كنت أعجز عن رؤية ما يرى كان يلح عليّ أن أمعن النظر، ثم يجتهد في الإشارة إلى حدودها على نحو ما يراها، أو الأصح على نحو ما يرسمها ويشكّلها، وقد أزعم أني اهتديت إليها أخيراً كي أتخلص من إلحاحه. وفي يوم ما، وبعد تردّد، باح لي بما يشبه الاعتراف الخجول أنه يرى فتاة رائعة الجمال ينتشر شعرها على مدّ الغيوم! وهذه المرّة لم يلحّ عليّ بأن أجدها حيث وجدها!

نعم، كان أوسع مني خيالاً.. أو ربما أجرأ مني خيالاً!

والآن، علينا أن ننفصل كما ننفصل من الطفولة نفسها.. وكنت أدرك أن في نفسه من الغصّة أكثر مما في نفسي، ولكنه حافظ على تماسكه.. فحتى في تلك المرحلة المبكرة من العمر، كان ذلك الفتى النبيل حريصاً على

التمسك بما يعتبره معياراً للرجولة، فلا يُري دمعته لأحد أبداً".

من مذكرات علي الشيخ يونس

بلى، لم يكن حسن ليُري دمعته لأحد من الناس.. ولكن الزيتونة الخالدة التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار لا تفشي الأسرار، ولا تحتكم إلى معايير البشر، وإنما إلى حكمة الأرض الطيبة والمطر والفصول المتعاقبة. فلا بأس أن يستند حسن إلى جذعها، حين غاب عن أنظار أخويه أحمد وعليّ، ليسرّ لها بدموعه الساخنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان فراق القرية والأهل صعباً فإن أيام عليّ الأولى في مدرسة عكا ضاعفت شعوره بالوحشة. ففي القرية لم تكن رثاثة ثيابه الريفية تستدعي تنبّه الكثيرين إلّا من القلة التي تملك أن تعيّره بفقر أسرته بين الفينة والأخرى من أمثال حمدان ابن أبي عايد وعارف ابن المختار اللذين صارا الآن شريكين في الغرفة المستأجرة. أما الآن فأينما توجه شعر بأن الأنظار تتجه إليه. فما الذي جاء بهذا الصبيّ الذي يرتدي «قمبازاً» مهترئاً ونعلاً مثقوباً إلى مدرسة المدينة؟ وما حاجته إلى متابعة الدراسة في المدينة إن لم يكن أهله قادرين على شراء ثياب لائقة؟ وحتى التلاميذ الآخرون القادمون من الريف، الذين حافظوا على ثيابهم الريفية، كانت هيئاتهم تدل على مستوى الأسر التي جاؤوا منها. ومنهم من آثر ارتداء البنطال والقميص على طريقة أهل المدينة، فلا تكشف أصوله الريفية غير لهجته، ولم يكن هؤلاء أقل استعلاءً على عليّ من التلاميذ الآخرين من أهل المدينة، ويتجنبون مخالطته في المدرسة كيلا يحسبوا معه. وكان حمدان وعارف أكثر هؤلاء حرصاً على النأي عنه بين التلاميذ، على الرغم من أنه يشاركهم السكن نفسه، فإذا عرف أحد زملائهما أنه يعيش معهما في الغرفة نفسها، زعما له بأن أبويهما قبلا بذلك من باب التفضّل والإحسان، لتخفيف النفقة على أهله.

والحقيقة أنهما كانا في غرفة السكن الواحدة أكثر بُعداً عنه وأشدّ نكاية به منهما في المدرسة، وقبل ذلك في القرية. فكان أن اختصّا نفسيهما

بالمساحة الكبرى من الغرفة، وألزماه ركناً محدوداً منها يضع فيه فراشه وكتبه ودفاتره ومؤونته، وهي على أي حال قليلة وتافهة مقارنةً بما توفر لديهما. وبينما كان يتعيّش على المؤونة التي جاء بها من بيته، ويكتفي برغيف واحد في اليوم مع ما تيسّر من الزيت والزيتون والزعتر ونحو ذلك، فقد كان بوسعهما أن يشتريا حاجتهما من المدينة: الخبز الطازج والكعك بالسمسم والفلافل والحمص والفول المدمّس مما لم يكن قد تذوقه حتى الآن، فضلاً عن أنواع الفواكه، وحلوى المدينة التي لم يجرّب معظمها أيضاً. وقد يأتيان باللحم المفروم مرتين أو أكثر في الأسبوع ليصنعا به «قلاية» مع البندورة والبصل على «بابور» الكاز الذي لا يملك عليّ مثله. وكانا يأكلان معاً دون أن يشاركاه طعامهما أو يدعواه إليه.

وحتى لو دُعِي فإن تعففه يمنعه من القبول. فإذا جلسا للطعام تشاغل بالدراسة وحلّ الواجبات المدرسية مستديراً عنهما. والحقيقة أن روائح الطعام الزكية لا سيما الفلافل الساخنة وقلاية البندورة، كانت تهاجم حواسه بقسوة مؤلمة، وتكاد تصرفه عن الدراسة، وتبعث فيه الجوع الذي يحاول تناسيه وكبته. وأنكى من ذلك أنهما لم يكونا ليكتفيا بتناول الطعام حتى يتباريا في وصف لذته بينما يبالغان في إطلاق صوت المضغ والتلذذ، كأنهما يريدان إغاظته. فإذا فرغا من الطعام تداعيا إلى الخروج والتجول في المدينة وعلى شاطئ البحر، دون أن يُعَنّيا نفسيهما برفع الأطباق وغسلها وتنظيف آثارهما. وهنا فقط يمكن أن يدعواه للخروج معهما للتنزه. وما كان ذلك رغبةً في صحبته حقاً، وإنما ليصرفاه عن

الدراسة التي لا يحسدانه على غيرها. ولما كانا يعلمان أنهما لا يستطيعان منافسته فيها، بل لا يريدان أن يبذلا من الجهد مثل ما يبذل، فلا أقل من أن يحاولا صرفه عنها فيكونوا سواء. ولكنه بالطبع كان يعتذر، حتى إذا خرجا أسرع إلى طعامه وقد بلغ منه الجوع. والجوع كما يقال سيد الطهاة، وإن كان طعامه جافاً من مؤونة بيته. ويحاول في هذه الأثناء أن يصرف نظره عن بقايا الطعام الشهيّ الذي خلّفه زميلاه، فلا تراوده نفسه على الإصابة منه على الرغم من أنه يعرف أن مصيره إلى القمامة! بل الأرجح أن يتولّى بنفسه التخلّص منه والتنظيف من ورائهم! وما كان يفعل ذلك حباً وكرامة بالطبع، ولا خضوعاً لأوامر حمدان وعارف، وإنما كان ذلك خضوعاً لهوسه الشخصي بالنظافة والترتيب اللذين لا يكافئهما إلا كسل زميليه عنهما، فلا يباليان بالفوضى التي يخلفانها. وقد يلقيان أنفسهما على الفراش بعد عودتهما من النزهة وينامان إلى جانب أطباق الطعام التي أكلا منها. فإذا نبّههما إلى ذلك ردّا عليه بفظاظة أنه أمر يخصهما وأنهما لا يجدان في ذلك مشكلة وليسا في عجلة من الأمر، وما لا يُعمَل اليوم يُعمَل غداً، فإذا كان الأمر يزعجه إلى ذلك الحد فليتولَّ الأمر بنفسه أو فليبحث لنفسه عن سكن آخر، وكذلك كانت أغراضهما متناثرة في المكان على غير ترتيب، وكانا لا يرتبان فراشهما بعد النهوض من النوم. أما هو فكان يشعر بالاختناق في تلك الفوضى، ولا يحسن الدراسة أو حتى النوم فيها، فيجد نفسه مضطراً لتولّي مهمة الترتيب والتنظيف وشطف الغرفة ومسحها وهو يشعر بالقهر. وقد أدركا ذلك منه، فركنا إليه واستغلّاه أقبح

استغلال. ولأول مرّة يشعران بأن وجوده معهما في الغرفة نفسها، كان خيراً لهما في آخر المطاف.

إن لم يكن هذا كافياً، فثمة ما هو أشدّ وأنكى. فإذا عجزا عن إغرائه بالخروج معهما ليصرفاه عن الدراسة وحلّ الواجبات، لا سيما مسائل الرياضيات، فلا أقل من أن ينسخا حلوله بعد عودتهما. وقد حاول أن يقاوم ذلك، وعرض عليهما أن يشرح لهما الدرس بدلاً من النسخ والغش الذي نهى الدين عنه. ولكنهما كانا ينزعان منه دفتره قسراً وهما يتضاحكان، وكان يخشى أن يتمزق الدفتر وهو يتجاذبه معهما، فيفلته أخيراً. على أي حال، فإن ذلك قد ينجيهما من عصا المعلم مؤقتاً، ولكنه لن ينفعهما في الامتحان. ثم إنه لا يستطيع أن يقيم على حراسة دفاتره كل الوقت. فهو يخرج إلى جامع الجزّار في كل جمعة ليؤدي الصلاة. وقد تضيق نفسه بالمكوث في الغرفة بين الفَيْنة والأخرى، فيخرج وحيداً إلى سور عكا وأزقتها أو إلى شاطئ بحرها، فيستغلّان فرصة غيابه للنقل عن دفاتره دون اعتراض أو منازعة. ولكن الأقبح من ذلك أنهما عمدا مرتين في غيبته إلى تمزيق أوراقه بعد أن فرغا من النسخ عنها، إمعاناً في الأذى والنكاية. فلما واجههما أقسما متضاحكين أن ذلك ليس من فعلهما، وإن لم يصدّق فليضرب رأسه بالحائط إن شاء، أو يشرب البحر، وهو قريب على كل حال، أو فليغادر. فالباب يتسع لجمل! فكان عليه أن يتجرّع مرارته، وينكب على إعادة حل الواجب في ضوء فانوسه الضئيل الذي كان حريصاً على الاقتصاد في إشعاله ليوفر من ثمن الكاز. وكان يمكن أن

يتكرر هذا مرات أخرى لولا أن عايد سمع أخاه حمدان يتفاخر ضاحكاً بذلك الفعل، فصفعه بشدة وذكّره بجميل أحمد عليه حين أصيب في مظاهرة عكا. وحذّره أن يعود إليها أبداً، وإلا ناله منه عقاب شديد، وأنه سيتتبع أخبارهم من أحمد نفسه. وعلّمه درساً في معنى الرجولة والشهامة، وأن ما يفعله مع صاحبه ابن بلدهم لا يدلّ إلا على النذالة والحسد والعجز عن المنافسة الشريفة. أما تلك «المراجل» فلسوف تسقط مرة واحدة وتتحول إلى «مسخرة» إذا جاءت نتائجه مخيبة في نهاية العام، ورجع عليّ ابن صالح الشيخ يونس بشهادة مشرفة. عندئذٍ، من عساه أن يتشفى في الآخر ويهزأ به ويستعلي عليه؟ الدراسة هي الميدان الآن يا «حميدان»، وليست التفاخر في المال والنسب والزعامة، أو التعارك في البيادر!

لم يتدخل أبو عايد في تلك المواجهة بين عايد وأخيه. فلم يكن يعنيه كثيراً حديث الشهامة والنذالة، ولا الإشفاق على ابن صالح الشيخ يونس الأصغر. ولكنه أيّد ابنه عايد في كلامه الأخير عن الدراسة والتنافس فيها.

وما كان عليّ ليفصح لأهله عما يكابده في عكا من زميليه في السكن، ولا ما يلقاه في المدرسة من نظرات الازدراء من البعض، أو نظرات الرثاء من آخرين، لمظهره الرثّ. ولم تكن مواهبه الدراسية قد برزت بعد في صفوف الدرس. فقد كان الخجل يصرفه عن التصدّي للإجابة في تلك الأيام الأولى. فكان عليه أن يكتفي بالإجابة في نفسه وهو مطأطئ الرأس، ويُخفي نفسه عمداً وراء التلميذ الذي يجلس أمامه كيلا يتنبّه

إليه المعلم، بينما يتقدّم للإجابة عن الأسئلة الصعبة سامي، أنجب تلاميذ الصف، والذي يحظى بتقدير جميع المعلمين والتلاميذ بسبب تفوقه الذي لا ينازعه عليه أحد. وكان فخري، أستاذ العربية، يتفنن في طرح الأسئلة الملتبسة التي ينصب فيها أفخاخاً خفية، فيما اعتبره مراجعة عامة قبل الدخول في دروس الصف الجديد. «ما علامة المضارع؟». ترتفع بعض الأيدي، ويختار الأستاذ فخري أكثرها ارتفاعاً وإلحاحاً. ويجيب صاحبها بثقة بالغة: «إنه يدلّ على الزمن الحاضر». ثم تتلاشى ثقته بنفسه بالسرعة التي انبعثت فيها، حين ينقبض وجه الأستاذ فخري ويقول:

- هذه ليست علامة يا مغفل..

يتطوّع آخر بالجواب:

- يأتي مرفوعاً ومنصوباً ومجزوماً حسب الحالة الإعرابية.

ليس هذا أيضاً. فالسؤال في بطن السائل ليس عن العلامة الإعرابية! وهنا مربط الفرس الذي لا يتنبه إليه إلا سامي الذي يتعمّد المعلم ألا يلجأ إليه إلا عند يأسه من الآخرين وإمطارهم بألفاظ الإهانة والتحقير: تيوس، حمير، مغفلون. ويجيب سامي:

- العلامة التي يعرف بها المضارع أنه يمكن أن يأتي بعد لم الجازمة. يضرب، لم يضرب. ولا يكون ذلك مع الماضي مثلاً.. أو..

يقاطعه الأستاذ فخري كيلا يستبق الإجابة عن الأسئلة التالية:

- عفارم.. تعلّموا يا بغال.. والآن ما علامة الماضي؟

يرتفع الآن عدد أقل من الأيدي مع التردد والحذر، وقد أدرك التلاميذ طبيعة الأفخاخ التي تبطنها الأسئلة. أجاب أحد التلاميذ بنبرة مترددة بين التقرير والتساؤل:

- حركة الفتحة! مبني على الفتح!

يتصاعد تعبير الاستياء على وجه المعلم، ويمعن في الإهانة.

- هذه علامة إعرابية يا ابني.. يا حمار!

يضحك التلاميذ. فهم وإن فاتهم الجواب المطلوب، فلم تفتهم المفارقة المضحكة في خطاب المعلم للصبيّ إذ جعله ابنه أولاً، ثم وصفه بالحمار! وهل يكون أبو الحمار إلا حماراً! عمّهم الأستاذ فخري بالشتيمة. فما بالهم يضحكون على خيبتهم، وهم ليسوا أكثر فلاحاً من صاحب الإجابة، وقد نزلت الأيدي كلها الآن. ولم يبقَ غير سامي:

- يتميز الماضي بدخول التاء المتحركة، وهو الضمير الفاعل، مثل أكَلَ، أكلتُ، أكلتِ، أكلتَ.. ومثله ضمير الجمع الفاعل: أكلنا، أكلوا، أكلتم، أكلنَ. كذلك لحوق تاء التأنيث الساكنة به، فنقول: سألَ، سألَتْ.

وعلى هذا النحو مضت المراجعة وأسئلتها: ثناء على سامي، وشتائم للآخرين، أو معظمهم. ولكن، ما لم يسمعه المعلم هو الإجابات الدقيقة المطابقة التي كان عليّ يستبق سامي بها، مع إضافات أخرى، ولكنها تبقى محبوسة في صدره، وقد يهمّ برفع يده ثم يردّها قبل أن ترتفع

بحيث يراها المعلّم، وقد يتمتم أحياناً بالجواب بينه وبين نفسه، حتى تنبّه إلى ذلك جاره في المقعد: وفيق. وحين تكرّر ذلك من عليّ فوجئ بوفيق يلكزه مشجِّعاً. ولكن عليّ لم يستطع التغلّب على خجله وتردده، على الرغم من أن ذلك صار أثقل عليه من مناكفات حمدان وعارف. فليس أشدّ على النفس من أن تكون مسبوقاً وأنت السابق، مجهولاً وأنت العارف، غائباً عن النظر وأنت الشاهد.

وحين خرج إلى ساحة المدرسة لحق به وفيق يلومه ويستحثّه:

- يا زلمة مالك خايف وخجلان! أي والله لو كنت أنا عارف الأجوبة لسمّعت صوتي لكل المدرسة. أقول لك! إذا ما بدّك تجاوب اكتب لي الجواب على ورقة وأنا بجاوب. بس اكسر عين هذا اللي شايف حاله على الكل: سامي بيك! هه! يعني مش بس شايف حاله إنه من عيلة غنية، كمان إنه أشطر واحد.

ردّ عليّ بدون حماس:

- بس هوه شاطر.

- ما اختلفنا.. بس شايف حاله.. يا ارض احفظي ما عليكِ.. إذا كنت قدها ورّيه إنك زيّه وأحسن منّه.. عليش خايف؟ يعني عمنّك ابن فِلح و.. حالتك على قدّك، لا تآخذني.. يا حبيبي كلنا في الهوا سوا. لا تقول مدني ولا تقول فلاح.. هوه كل المدنية زي سامي وأهله؟

كان وفيق ابن عامل فقير من عكا، يعمل بالأجرة اليومية حيث يتيسّر

العمل: في أعمال البناء وفي تزفيت الطرق وفي تفريغ البضائع في الميناء، ونحو ذلك. فيعمل يوماً ويتعطل أياماً. أما سامي فكان من أسرة نابلسية الأصل تعمل في مجال التجارة في عكا.

لم يخفف كلام وفيق كثيراً عن عليّ، ولم يستطع التغلّب على خجله وعزلته في تلك الأيام الأولى في عكا. وحين جاء أحمد ليعود به إلى القرية آخر الأسبوع أقبل عليه عليّ إقبال الخائف الذي لقي أخيراً من يعتصم ويستأمن به، فأطال احتضانه وفي الطريق إلى القرية لحظ أحمد انقباض أخيه وطول صمته وكأن شيئاً يعتمل في صدره ويتردد في البوح به. فكان إذا سأله أحمد عن أحواله في السكن والمدرسة، أجاب باقتضاب وبغير حماس. ثم تغلب على تردده وفاجأ أحمد بالقول إنه يريد أن يترك المدرسة ليبقى مع أهله في القرية ويشارك في العمل معهم، شأنه في ذلك شأن حسن. توقف أحمد بالحمار ونزل عنه وحدّق في أخيه بنظرة فاحصة عميقة ووجه عابس، فأشاح عليّ بوجهه متحرّجاً.. ولكن أحمد طلب منه بلهجة آمرة أن ينظر إليه. ثم ما لبثت ملامح أحمد أن تحولت من العبوس والاستنكار إلى الترفق والتعاطف.

- أنا عارف.. شاعر بالوحدة بين طلاب وأساتذة كثار.. ما بعرفوك ولا بتعرفهم.. لأول مرة بعيد عن أهلك والقرية التي عشت فيها وتعوّدت عليها. واللي بجهله الإنسان بخاف منه حتى يتعوّد عليه.. بعد وقت بصير الجديد هو الطبيعي.. ومين عارف؟ يمكن ييجي عليك وقت تصير ما تتحمل تقعد ساعة في الفِلح.. بتصير أفندي وبتتجوز مدنية وبتعيش

في بيت حجر مرتب وبتنام على تخت وبتوكل رز ولحمة.. ويمكن يصير عندك أتومبيل. وإذا هسّع شايف حالك أقلّ من زمايلك وهذا هو اللي كرّهك بالمدرسة وعكا، حط براسك إنك تصير أعلى منهم كلهم..

ودق على رأس أخيه بإصبعه ثم أشار إلى أحد الجبال، وتابع:

- الشطارة مش إنك تفتح عينيك على رأس الجبل.. الشطارة إنك تطلع من الوادي حتى تصل راس الجبل بجهدك وهمتك. وبعدين تقعد تخرّف أولادك وين كنت ووين صرت. فاهم شو بقول لك وَلَه!

أطرق عليّ، واستأنف أحمد مبتسماً مداعباً:

- بس لما تصير هناك مش تنسى أهلك وأخوك أحمد؟

هز عليّ رأسه. ثم استعاد أحمد ملامحه الجادّة وقال بنبرة حازمة:

- وإذا عمرك بتقول لي خلّيني أبطّل المدرسة، بدّي أقطع راسك وأرميك للضباع! سامع يا ولد؟

اعتلى أحمد الحمار من جديد، مردفاً علياً خلفه.. وبعد وقت رفع صوته بإحدى الأهازيج:

أوف.. أوف

لو يقطعوا لي راسي وإيدي واصبعي

والحسك والشوك يبقى مضْجَعي

هيّن عليّ يقطعوا راسي بسيف

ولا أسير برفقة غشيم ومدّعي

إيه إيه إيه يا هي.

يا نفس هيمي واطمعي بمبدا الشريف

وللخير وفعل الخير أنا قلبي رفيف

ويا نفس في حب التآخي والرّقي

اتقدمي ولا تيأسي ولا ترجعي

إيه إيه إيه يا هي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤

لن ينسى عليّ أبداً تلك اللحظة التي ظهر فيها نبوغه لأول مرة. كان ذلك في درس الرياضيات. ولم يكن ذلك بإرادته. فبينما كان التلاميذ منشغلين بحلّ المسألة التي أعطاهم إياها المعلم منذ ثوانٍ فقط، تنبه إلى أن علياً يجلس صامتاً مطرقاً لا يفعل شيئاً. فاقترب منه وسأل بغلظة:

- إيش ولَه؟ مالك فاتح ثمك ومدلّي ذنيك؟ ليش مش عمّالك بتحلّ؟ والا..

قاطعه عليّ بصوت خفيض دون أن يرفع رأسه:

- خلّصت..

- قصدك حليتها؟

هز عليّ رأسه، وقال المعلم ساخراً:

- حلّيت؟ ما الحقتش أنقلكم السؤال.. والا فتح رباني.. هه! هات أشوف.

وأمسك بدفتر عليّ ونظر فيه. وهنا تغيّر وجهه من تعبير الاستهزاء إلى التعجب والإعجاب. ثم أعاد الدفتر، وسأل:

- شو اسمك يا ولد؟

- علي صالح الشيخ يونس.

- عفارم يا علي.. بس خبّي دفترك عن التيوس اللي حواليك لحتى يخلّص الباقيين.

ضجّ صدره بالفرح، وإن اختلط ذلك بالحرج حين رأى سائر التلاميذ وقد لووا أعناقهم ينظرون إليه، حتى صاح بهم المعلم عبدالمنعم، بأن ينظروا في دفاترهم ويتابعوا الحل.

أكسبه ذلك الموقف بعض الثقة وشجعه على أن يغالب حرجه في درس القواعد مع الأستاذ فخري الذي كان يراجع مع الصف المعرب والمبني في الأفعال. ولم يبادر عليّ إلى التقدّم للإجابة عن الأسئلة الأولى، حتى سأل المعلم الذي يحب دائماً أن يلقي على التلاميذ سؤالاً من الدقائق التي يرجح أن تستعصي عليهم، ثم يتلذذ بعجز الجميع عن الإجابة، حتى أنجبهم: سامي، ربما ليستعرض أمامهم معارفه:

- الآن بدّي أسأل سؤال يحتاج إلى دقة وتفكير. قلنا إن المضارع مُعْرَب يأتي مرفوعاً ومنصوباً ومجزوماً، وتلحق به علامات هذه الحالات.. السؤال: هل المضارع معرب دائماً؟

عمّ الصمت. وجالَ المعلم ببصره في التلاميذ جولة سريعة، ثم توقف ببصره عند سامي الذي بدا عليه الحرج لأول مرة وهو يكدح بذهنه. وفجأة سُمع صوت خفيض من مكان آخر يقول:

- لا.

تطاول المعلم برأسه باحثاً عن مصدر الإجابة.. وتطوّع وفيق بأن يومئ له نحو عليّ الذي بقي مطرقاً في مكانه، حتى سأل المعلم:

- إيش قلت؟ ارفع صوتك يا ولد.

استدعى عليّ صوته من مكان بعيد:

- المضارع يمكن أن يأتي مبنياً في حالات معينة.

- متى؟

- إذا اتصلت به نون التأنيث يُبنى على السكون مثل: يدرسْنَ، يَحْصُدْنَ. أيضاً إذا اتصلت به نون التوكيد فيبنى على الفتح مثل: «لَيُنْبَذَنّ» كما في قوله تعالى: ﴿كَلَا لَيُنْبَذَنّ في الحُطَمة﴾.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه المعلم فخري، بينما ران الصمت من جديد والتوت الأعناق نحو عليّ. ثم قال المعلم:

- إيش اسمك يا ولد! ارفع راسك.

- علي صالح الشيخ يونس.

أعقب ذلك بروز موهبته المبكرة في الكتابة. إذ دخل الأستاذ فخري يحمل رزمة دفاتر الإنشاء وألقاها على المنضدة. وبعد وصلة من التوبيخ على تدنّي المستوى العام، تلاها شرح لمقوّمات النص الإنشائي الجيد، اختار بعض النصوص الجيدة ليلقيها أصحابها على مسامعهم. وكان الموضوع «رحلة إلى الريف». وبدأ بسامي الذي تفنّن بوصف مشاهداته مع أسرته لمنظر الأرض في فصل الربيع وقد اكتست «حلّة سندسية» بديعة، وكانت السهول المعشبة تتموّج مع النسيم العليل كالبحر الأخضر. ولم ينسَ الحديث عن زقزقة الطيور بالأنغام الرائعة مختلطة مع خرير الجداول ومزامير الرعاة وثغاء الحملان. ووصف حال الفلاح

الذي يعمل في الأرض ليطعم الجميع من كدّ يده المباركة في الأرض الطيبة، وهو يردّد الأهازيج الشعبية، مُتَسَرْبلاً بثوب القناعة والرضا والهناء..

وأنهى نصه بالقول: «فما أجمل الريف، وما أجمل حياة الفلّاح!».

أثنى الأستاذ فخري على اللغة الجميلة السليمة، ونبّه التلاميذ إلى ما فيها من الخيال والتشابيه والأساليب البلاغيّة. فاستطال سامي شبراً في مقعده من أثر الثناء. ثم نادى المعلم باسم علي صالح الشيخ يونس وأعطاه دفتره ليلقي نصّه، قائلاً:

- خلونا نسمع الآن لنموذج ثاني مختلف تماماً!

بدأ عليّ بالعنوان: «الحياة في الريف». اعترض سامي فوراً بأن الموضوع والعنوان «رحلة في الريف» فكفّه المعلم بحركة من يده. وكان الردّ على اعتراض سامي في السطر الأول:

«لم أخرج في رحلة إلى الريف، لأنني من سكان الريف. الريف جميل بمناظره وبطبيعته، جميل بخضرته ومائه وطيوره. يزوره الناس للتمتع بتلك المناظر الخلابة. ولكن ابن الريف نفسه المقيم لا يتمتع بها كغيره من الزوار العابرين. لماذا؟ لأنه يعيش حياة مليئة بالشقاء والفقر، فهو يعمل طول النهار لقاء قروش قليلة لا تكفي لحاجته وحاجة أهله. وإذا مرض فإنه لا يجد طبيباً يعالجه، وحتى لو وُجد الطبيب فهو لا يقدر على أجرته. كثيراً ما نسمع أهل المدينة يتحدثون عن سعادة الفلاح وعن

حياته القانعة الراضية. وكيف يمكن أن يكون سعيداً وراضياً بحياة الشقاء والفقر والمرض، إلّا أن يكون معتوهاً؟ وما هو كذلك. لا، إن حياة الفلاح ليست جميلة كالطبيعة التي تحيط به. وكل ذلك بسبب الإنكليز الذين يستعمرون بلادنا، فيرهقون الفلاحين بالضرائب الكثيرة المختلفة كي يضطروا إلى هجر أراضيهم. وهدفهم أن يعطوا أرضنا لليهود، تنفيذاً لوعد بلفور المشؤوم...».

وإذ انتهى من قراءة نصّه، ارتجل عبارة خاتمة استوحاها من خاتمة نص سامي: «فما أجمل الريف، وما أشقى حياة الفلاح».

رانَ الصمت بعد أن فرغ عليّ. واتجهت الأنظار إلى المعلم في انتظار تعليقه، كان سامي أكثرهم ترقباً لردة فعل المعلم الذي اكتسى وجهه بتعبير غامض، قبل أن يخاطب عليّاً:

- اسمع يا ولد شو بدّي أقول لك.. واسمعه كويّس وحطه في راسك. أنا عمري ما توقعت من طالب بسنك يكتب بهذي الطريقة.. ولولا إني صرت عارف وضعك وأحوال أسرتك لقلت: فيه شخص ثاني كبير ومتعلم كتب لك الموضوع. في يوم من الأيام إذا أتيح لك تكمّل تعليمك، راح يكون لك مستقبل كبير. هذي موهبة من الله.. احفظ كلامي واتذكره!

لم يتسامق عليّ بجسمه في مقعده بفعل الثناء، كما فعل سامي من قبله، بل ازداد حياءً وأطرق برأسه. أما سامي، فقد تطامن بجسمه عن الشبر الذي تسامق به قبل قليل، وحاول جهده أن يخفي ضيقه وغيرته.

أما حمدان وعارف فغاص كل منهما في مقعده، وقد اشتعلت نار الحسد والحقد في صدره، حتى ليكاد أن يبديه. أخيراً، وبدون عراك جسدي، تلقيا من عليّ الانتقام الأشد الذي انتصف به لنفسه منهما، ولن تعوضهما عن ذلك الوفرة التي كانا يعيشان فيها ولا التباهي بالحمولة والمال في مقابل القِلّة التي كان يعيش فيها رفيقهما في السكن.. ابن «الغربيّة المقطّعين»!

من الآن فصاعداً، ستتوالى إنجازات عليّ المدرسية، وستتلاحق نتائج اختباراته لتؤكد نبوغه وتفوّقه، ويصبح حديث المعلمين والتلاميذ، وتصير أسماله البالية حجةٌ له لا عليه. والذين كانوا ينأون بأنفسهم عنه، أخذوا بالتقرّب إليه، وصار إذا مرّ بجماعة من التلاميذ سمعهم يهمسون باسمه ويشيرون إليه.

أما سامي، فكان عليه أن يغالب شعور الغيرة وقتاً، قبل أن يتغلّب عليها معدنه الطيب ومنبته الحسن وأخلاقه الحميدة، فيؤثر صداقة عليّ، حتى دعاه إلى بيته. ولكن علياً كان أشد خجلاً من أن يقبل الدعوة، واكتفى بالخروج معه في جولة عبر أزقة عكا وعلى شاطئ بحرها. واشترى سامي لنفسه ولعلي شطيرتي فلافل، وكانت ألذ ما أكل عليّ في حياته حتى تلك اللحظة. ولسوف يبحث عن ذلك الطعم بعد ذلك في تجواله وأسفاره في البلدان، فلا يجد مثله، إلى أن يقتنع أخيراً أنها كانت لذة الذائقة الأولى التي لم تضعفها ألفة الحواس.

منذ ذلك الحين بدأ يدرك حكمة أخيه أحمد. فمع الوقت لم تعد عكا

مجهولاً يخيفه، ولا مدينة عظمى يتيه فيها، ولا سكاناً يتهيأ له أنهم يتلفتون إلى ثيابه الريفية الرثة ويسخرون من لهجته التي تتحوّل فيها القاف إلى ما يشبه الكاف، والكاف إلى مزدوج من التاء والشين: «تشيف الحال؟». وفي المقابل لم يعد يشعر بالاغتراب عن لهجتهم المدنية التي تؤنث المذكر: «شُفتهِن»، هِنّه (هم)، وتقول: «إسّه» أي الآن، بدلاً من «هسّع» في لهجته. ولسوف يأتي وقت يجد نفسه فيه وقد تسللت في كلامه بعض الكلمات بالنطق العكاويّ، فيسخر منه أهله وأصحابه، إلى أن تتغلّب على لسانه لهجة مهجّنة أقرب إلى الفصحى، بتأثير محمولها الثقافي والمعرفي المتراكم.

أما الآن، فقد بدأ يألف طرقها وأزقتها وحركة الناس فيها وأصواتها وروائحها، وصار يجلس بين الفينة والأخرى على سورها القديم ويراقب البحارة وصيادي السمك والمراكب التي يسمّونها «الشخاتير» هناك. ويشعر أن السور الذي ما زال يحتضن عكا منذ عصور، ويصدّ عنها عوادي الغزاة، يحتضن أحلامه أيضاً، تلك التي كانت تسرح مع «الشخاتير» عبر البحر حتى ما بعد الأفق البعيد.

اجتمعت في نفسه خضرة الريف وزرقة البحر العكاوي، فإذا كان مع إحداهما استرجع الأخرى في خياله، وحنّ إليها. ولسوف يمتزجان كثيراً في أحلامه. ولكن هذا الامتياز بجمع أجمل ما في الريف وأجمل ما في عكا، لن يخفف من شعوره بالأسى أن حسن ليس شريكه فيه، وعلى نحو ما لن يتحرر يوماً من شعور غامض بالذنب، كأنه قد استأثر بما كان حلماً

مشتركاً مع أخيه! وكان إذا زار القرية هرول أحدهما إلى الآخر وذهبا في عناق حار طويل. ثم يُلزمه حسن أن يحدِّثه عن عكا وتفاصيل حياته فيها. وقد يسأله عن فتياتها، فلا يجد ما يجيب به، إلا أن ينظر إلى أخيه نظرة استنكار لا تصدّه عن السؤال مرة وأخرى على كل حال. ثم استأذن حسن أهله في أن يزور أخاه في عكا ويبيت عنده ليلتين أو ثلاثاً. واعترض أحمد بأن ذلك سيصرف عليّاً عن دروسه. ولكنه وافق في آخر الأمر حين توسّطت أمّه في الأمر. وما كان أحمد ليردّ لها طلباً. وبينما كان عليّ يخرج إلى المدرسة، كان حسن يخرج ليتمشى وحده في المدينة. ولما رجع إلى القرية بدا أكثر وجوماً وشروداً. وأدرك الجميع أن الزيارة قد بعثت في نفسه المزيد من الأسف والأسى على ما فاته من متابعة الدراسة مع أخيه. ولم يكرر تلك الزيارة بعد ذلك.



(بوادر الانفجار)

نزل الخبر كالصاعقة على أهل البلد!

أبو عزمي العلي وضع يده على الأرض المشاع التابعة للقرية بقوة السلاح. أرسل رجاله المسلحين وطردوا من كان يعمل فيها، وضربوا الأسافين على حدودها وأنذروا الناس ألا يقترب أحد منها بعد الآن.

لم يكن الأمر غريباً، فقد فعل أبو عزمي مثل ذلك من قبل مع بعض القرى المجاورة، ولم يجد من يعترضه. فالجميع يعلمون أنه إذا لم توقفه حكومة الانتداب، فلا أحد يقدر عليه وعلى حمولته الكبيرة المتحكمة ورجاله. ولم يكن خافياً أن حكومة الانتداب تُغْضي الطرف عن أفعاله لتكسبه وحمولته إلى جانبها، وإلا فكيف تسمح له ولرجاله بحمل السلاح وترويع الآخرين، وهي التي يمكن أن تحكم بالإعدام على من تجد عنده شيئاً من ذلك؟ كما أن أمثال أبي عزمي يشغلون أهل البلاد بالعداوات والصراعات الداخلية فيما بينهم، عن مواجهة سلطة الانتداب وسياساتهم الغاشمة، وما يصبّ في سياستهم المعروفة: «فرِّق تسُد». ويعلم الناس أيضاً أنهم إذا احتكموا إلى الإنكليز في نزاعات من هذا النوع على الأرض، أو وقع بينهم صدامات تستدعي تدخلهم، فذلك هو عين الطلب. إذ ينتهي الأمر بأن تضع حكومة الانتداب يدها على الأرض المشاع، ثم لا يمنعها شيء من إعطائها لليهود في الوقت المناسب.

وبالطبع لم يكن المختار وأبو عايد وأمثالهما سعداء بالذي جرى. فهؤلاء أكبر المستفيدين من الأرض المشاع التي كانوا يختصّون أنفسهم بأحسنها

على الرغم من استغنائهم بأراضيهم الخاصة. وكانوا يخططون لتقسيم الأرض هذه السنة بين أهل القرية قسمة نهائية بحيث تتملك كل عائلة حصة ثابتة منها، ويكون لهم منها نصيب الأسد. ولكن القوة مراتب، وما من قوي إلا وهناك من هو أقوى منه. ولا قِبَل لأبي عايد والمختار بمواجهة أبي عزمي العلي، بل حتى مراجعته. وكان عليهما أن يقرّا بهذه الحقيقة أمام أهل القرية حين لجأوا إليهما بوصفهما زعيمي البلد وأحرى الناس بأن يدافعا عن حقوق القرية وناسها. ولكن لا حياة لمن تنادي. ونالهما من شتائم الناس أكثر مما نال أبا عزمي.

ولكن، لئن سكت زعماء القرية فلم يسكت أحمد ومن استطاع أن يجمعهم حوله ويبث فيهم روح التمرد والشجاعة، من «المشحّرين المقطّعين»، على الرغم من مناشدات أبيه المشفق عليه من نقمات أبي عزمي العلي الذي لا يقدر عليه إلا الله والإنكليز إن شاؤوا.. ولا يشاؤون. فالعين لا تلاطم مخرزاً، وإذا كان أبو عايد وأضرابه لا يجرؤون عليه وهم كبار البلد فهل يقدر على ذلك من هو أقل منهم مالاً ونفراً؟

خرج أحمد وأصحابه أولاً إلى عرين الأسد.. مضافة أبي عزمي العليّ في عزبته. ولم يكلف الرجل نفسه أن يعتدل من ضجعته على الأريكة، وقد وضع طربوشه جانباً. وكان يلف نفسه بعباءة فاخرة مقصّبة فوق ثيابه المدنية. وأخذ يستعرض الوفد بنظرات مشبعة بالتعالي والازدراء وقد علم سبب قدومهم. وحين بدأ أحمد بالكلام قاطعه قائلاً:

- وانت حضرتك شو صفتك حتى أعرف مع مين بحكي؟..

أجاب أحمد بأنه واحد من أهل البلد الذين يشقون من الموسم إلى الموسم ليعيلوا أنفسهم وأهليهم، وأنهم يستعينون بحصصهم السنوية من الأرض المشاع لسدّ بعض الحاجات، فالحصاة يمكن أن تسند جرّة مائلة.

قال أبو عزمي:

- علمي إنه المخاتير والوجهاء همه اللي بحكوا عن أهل البلد. ليش ما أجا المختار بنفسه؟

- انت عارف ليش يا بيك.

- آ آه.. لأنه بعرف مين هوه أبو عزمي العلي..

ثم حرّك إصبعه مشيراً إلى أحمد:

- بس انت اللي مبيّن عليك بعدك غِرّ وجاهل.. وبدّك تعمل مراجل قدام أصحابك.

لأول مرة اعتدل في جلسته وازداد وجهه عبوساً وهو يحدّق في أحمد:

- اسمع يا ولد خصم الحكي... أرض مشاع.. يعني ما إلها أصحاب.. ولقْيَت أصحابها.. وأنا صرت صاحبها.. واللي مش عاجبه يركب أعلى خيله.. أو يروح يتشكّى.. وغير هيك ما فيه حكي.. ياللا، ورّوني عرض اكتافكم..

بينما كانوا يخرجون من عنده، أبى إلا أن يشيّعهم بإهانة أخيرة:

- لا والله أزلام! هه! عدّي ارجالك عدّي.. من الأقرع للمصدّي.

لم تزد تلك الإهانات أحمد إلا عزماً وتصميماً. وكانت قد برزت مواهبه الفطرية في القيادة والتأثير، واكتسب ثقة الشباب:

- يا جماعة إذا كان الواحد منا ما فيه وراه حمولة مثل حمولة عزمي العلي، فاحنا المظاليم في هالبلد إذا وقفنا مع بعض بنسوّي حمولة.. سموها حمولة المظاليم.. يا جماعة اللي بقبل الظلم بصير شريك الظالم.. وشو اللي شجّع أبو عزمي؟ لو لقي من أول يوم مين يوقف بوجهه كان بحسب احساب للخلق. زي ما بقول المَثَل: يا فرعون مين فرعنك، قال: ما لقيت حدا يردني.

- وبعدين إذا اليوم بدنا نخاف من أبو عزمي، كيف بدنا بكرا نجاهد الإنكليز؟ ولعاد ليش دايرين ننتقد الزعما ونقول ما فيه طريقة نواجه فيها الإنكليز إلا النار والبارود. وإيش هوه أبو عزمي العلي إذا قارناه بالإنكليز؟ والله والحق فوق الجميع.. ويد الله مع الجماعة.

أيّده صديقه العبد، واستطاعا معاً أن يقودا مجموعةً من الشباب، تسلّحوا بالعصيّ والفؤوس، وخرجوا إلى الأرض المشاع ليجدوا عدداً من رجال عزمي العلي يعملون فيها. أمرهم أحمد أن يحملوا أشياءهم ويغادروا من فورهم. وما هي حتى دخلوا معهم في مشاجرة حامية، تغلب فيها أحمد وجماعته، ووقعت إصابات في الطرفين.

ضرب أبو أحمد كفاً بكف، وأخذ ينفخ ويحوقل ويستغفر، ولم يكن

ليخفى على أحد أن هذه الواقعة ستكون لها عواقب وخيمة وأن أبا عزمي سيرد بقوة. فالآن لم تعد الأرض المشاع وحدها هي طلبه، ولكنها في المقام الأول هيبته. فإذا تجرّأ عليه هؤلاء «المقاطيع» فلسوف يتجرّأ عليه خصومه الكثيرون من الحمائل الأخرى المعروفة! ما الذي حققه أحمد وأصحابه أو ما الذي كانوا يرجون تحقيقه؟ فها هو أبو عزمي قد أنزل رجاله المسلحين إلى الأرض يحرسونها على مدار اليوم والليل. ولن يترددوا في إطلاق النار على كل من يخبط فيها. «وكأنك يا أبو زيد ما غزيت»!

وعلى الرغم من أن أم أحمد بقيت صامتة هذه المرة، وغلب عليها الخوف على ولدها، فلم يجد أبو أحمد غيرها ينفّس عن غضبه فيها، فاتهمها بأنها هي التي زرعت في عقل ولدها أفكار الزعامة والمراجل، «ولو على خازوق»، بقصص إخوانها الفرسان الذين ذهبوا جميعاً في عز الشباب، وخلّفوا ذِكْراً طيباً، وإن لم تمهلهم الشجاعة والإقدام ليعقّبوا ذرية. فهل هذا ما ترجوه لولدها: ذِكْراً طيباً وعمراً قصيراً؟ ولكنها أيضاً أم مسعود. فإن صحّ كلام أبي أحمد فلماذا لم تؤثر قصص الأم فيه تأثيرها في أحمد؟ فقد حاول مسعود منذ اللحظة الأولى أن يثني أخاه عن عزمه على المواجهة، مذكِّراً إياه من جديد أن الإنكليز ينتظرون فرصة من هذا النوع ليضعوا أيديهم على الأرض، ثم تذهب لليهود. وأن تكون في يد أبي عزمي العلي، على ظلمه وتجبره، أهون من أن تَحُول إلى اليهود. على الأقل تبقى في أيدٍ عربية، ولا نعين الإنكليز واليهود على خططهم في

تنفيذ وعد بلفور، واغتصاب الوطن كلّه، وليس فقط الأرض «الميري» في قرية صغيرة منسيّة!

وكان أحمد يدرك وجاهة رأي أخيه وصعوبة الردّ عليه، إلا بالكلام المعتاد عن أن الظلم ظلم، ومن يعجز عن الأقل يعجز عن الأكبر، ومن يألف الخضوع والجبن من المتجبرين من أهل البلد، فالأحرى أن يألفه من العدو الغازي. ثم لا يجد بعد ذلك إلّا أن ينفعل على أخيه الذي لا يفتأ يحرجه بتلك الحجة ويسدّ الأبواب عليه. فصاح به:

- هذا اللي أنت شاطر فيه كل ما دق الكوز بالجرّة ما عندك غير هذي الحجّة، منشان تتهرب من المسؤولية.. أنا داير أقنع الناس وبحمِّسهم حتى طلعوا معي، وأخوي ابن أمي وأبوي بتخلّف عني!!

ابتلع مسعود الإهانة، واكتفى بالقول:

- قصدك إني خوّيف وجبان؟ يعني اللي يستعمل عقله وبحسب حساب لبعيد، وبقدِّر الفايدة والضرر، بصير جبان؟ أيْ نعم، خايف على أخوي ما بنكر.. ولو كنت مقتنع أنه فيه فايدة كان خرست واحتسبت الأمور لله. بس.. على كل حال، الله يسامحك.

وقد صحّت مخاوف العائلة على أحمد. ففي طريقه إلى «عمارة» الزيتون الخاصة بالعائلة، خرج عليه عدد من «بوارديّة» أبي عزمي العليّ الذين كانوا يترصدونه. وساقوه مرغماً إلى عزبة سيدهم. وهناك شدّوه إلى جذع سنديانة قديمة وأوثقوا ذراعيه حوله.

- المراجل قتّالة.

قالها أبو عزمي وهو يهز سوطاً قصيراً بيده. ثم انهال به على ظهره. كتم أحمد ألمه إلا من انقباضات وجهه القسرية. فبالغ أبو عزمي في شدة ضرباته كي يستخرج منه آهة واحدة أو كلمة رجاء واعتذار. ولكن ذلك لم يحدث على الرغم من تطاول الضرب. ولم يملك أبو عزمي إلا أن يشعر في داخله بالإعجاب بهذا الفتى الذي لا يشبهه في القوة والعزيمة إلا بقدر ما يفارقه في المنزلة والموقف، حتى تمنّى لو كان أحد رجاله.

بينما أخذت الأم تدهن له ظهره المتسلّخ بالزيت، تكومت الأخت خضرة على نفسها في ركن الغرفة تذرف دموعها بصمت، ووقف مسعود ينظر منقبضاً وقد هيمن عليه الشعور بالعجز. وجلس حسن مطوقاً ركبتيه بذراعيه وقد استند برأسه عليهما، تتنازعه مشاعر الأسى والغضب، ثم يفزع إلى خياله فيخرج ببندقيته ويثأر لأخيه. أما الأب فآثر الجلوس على المصطبة الخارجية وحده يدخّن ولا يجد ما يواسي به نفسه إلا الدعاء على الظالم الذي لن يُعْجِز الله وإن ظنّ أنه قادر على خلقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكأنّ تلك الأرض المشاع كانت ساحة مصغّرة لاستعراض مراتب القوة واختبار المواقف تمهيداً للتطورات الكبيرة التي سيشهدها الوطن في السنوات القليلة المقبلة.

كان أبو عايد والمختار وأضرابهما يتحكمون في الأرض المشاع على وفق

أهوائهم ومصالحهم، حتى وضع أبو عزمي يده عليها، فانقمع هؤلاء وتصدّى ضحاياهم لأبي عزمي وإن لم يقدروا عليه، وها هم الإنكليز بعد شهرين فقط يضعون أيديهم على الأرض ويرسلون مسّاحيهم وموظفيهم لتحديدها وتسييجها. واختفى «بواردية» أبو عزمي كأنه لا شأن له في الأمر. وأنحى باللائمة على أولئك الذين حاولوا التصدّي له حتى بلغ الأمر أسماع الإنكليز فانتهزوا الفرصة. و«العين لا تلاطم المخرز». هذا ما تذرّع به أبو عايد والمختار لتجنب المواجهة مع أبي عزمي، وهذا ما يتذرع به الآن أبو عزمي بإزاء الإنكليز.

أما الذي واجه بعينه مخرز أبي عزمي، فهو يستعد الآن لمواجهة مخرز الإنكليز وهو يعلم أنه لن يكون بوسعه أن يحملهم على التراجع. ولكن رأي أحمد أنه لا يجوز التسليم للإنكليز بلا مقاومة على قدر الوسع، وأنهم يجب أن يعرفوا أن الناس ليسوا أمواتاً، وأن الذي يقاوم الاستيلاء على قطعة أرض، أحرى به أن يقاوم الاستيلاء على الوطن. وما هو شرارة الآن سيكون حريقاً بعد حين يعمّ البلاد كلّها.. فالثورة قادمة لا محالة. أما الآن فإن التصدّي للإنكليز على أرض القرية المشاع سيجعلهم على الأقل يحسبون ألف حساب قبل أن يسلّموها لليهود في القريب العاجل ليقيموا عليها إحدى مستعمراتهم. وعلى كل حال فإن بطش الإنكليز لم يمنع من قيام ثورة البراق قبل بضع سنين فقط.

- وأرواحنا مش أغلى من أرواح فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم اللي شنقوهم في سجن عكا. ودم الشهيد ما بروح هدر ولو بعد

حين.. مثل البزرة اللّي بتزرعها في الأرض. وزي ما بنعرف: الشهادة إحدى الحسنيين.. يعني ما فيه خسارة في كل الأحوال.

تنادى الشباب وقد حميت نفوسهم، وتسلّحوا بالهراوات والفؤوس، وخرجوا مسرعين يقودهم أحمد وقد اصطحب بندقية الخرطوش التي أهداها له مصطفى السبعاوي. وحين وصلوا إلى الأرض المشاع وجدوا فيها عدداً من موظفي الإنكليز، وبعضهم من اليهود، فانهالوا عليهم بالحجارة أولاً، حتى اضطروا إلى التفرّق، وأخذ الشباب يطاردونهم، وعمد بعضهم إلى أدوات المساحة فحطموها. وما هي حتى شُوهدت عربة جيب عسكرية محملة بالجنود تقترب بسرعة هائلة.. وتنادى الشباب: عسكر، عسكر. قفز الجنود من العربة العسكرية وتفرقوا بأسلوب منظم، وبدأوا بإطلاق النار في الهواء. وتفرّق الشباب واستتروا وراء الصخور الضخمة والسلاسل الحجرية والسواتر الطبيعية. ولأول مرة يجرّب أحمد بندقية الخرطوش فأطلق النار. وردّ الإنكليز بزخات من العيارات النارية صوب مكانه. وزحف العبد نحوه:

- ياللا يا خوي.. خلينا ننسحب بسرعة قبل ما يطوقوك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطفت الأم البندقية من يد أحمد، وناولتها لخضرة لتلقيها في البئر. وعندما علّق أحمد بأن ذلك سيخرّبها، قال الأب:

- وين بتشور علينا نخبيها؟ ما بيجي الصبح غير والإنكليز مطوقين البلد،

ما دام صار فيها ضرب نار.

صمت أحمد بينما خرجت خضرة بالبندقية، وتأمل أباه الذي امتنع هذه المرة عن الجهر بشكواه واعتراضاته المعهودة، لا قبل الواقعة ولا بعدها. قال أحمد:

- عارف شو بدّك تقول يابا.

بقي الأب مطرقاً لحظات قبل أن يردّ بصوت هادئ:

- يابا، إذا سمعتني بخرّف وبحاول أهدّيك، لا تحسب إن أبوك جبان والا بحب الجبن.. أيْ نعم، أنا قلبي عليكم وما بحب شوكة تدقّ باجريكم.. بس لما تيجي لأولاد الحرام الإنكليز واليهود، ما بظل عندي حكي.. الجهاد الله فرضه على الناس. واحنا ما إلنا كلام على كلام الله.. بس الدم غالي يابا.. وإذا بدّه ينزل لازم ينزل بحق.. وزي ما انت قلت: هذي بدها ثورة تولّع في الجبال.. وفي كل البلاد، وحينها أنا بحط البارودة بيدك، وبحتسبك لله.

هز أحمد رأسه، ثم طلب من أمه أن تعدّ له زوّادة.

نعم، آن أوان الرحيل عن القرية في الوقت الحاضر. وأيّده أبوه خشية عليه من العواقب المحتملة لما وقع في الأرض المشاع. وعلى كل حال، فإن قرار أحمد الرحيل إلى حيفا كان يدور في باله قبل ذلك. فالعمل في الأرض لم يعد مجزياً، فليجرّب حظه في العمل في حيفا حتى يفرّجها الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مثل كل المدن الكبيرة العامرة بالنشاط، لم تكن حيفا مجرّد الهادار والكرمل وشاطئ البحر والميناء وسكة الحديد، والشوارع التجارية النشطة والسيارات ودور السينما والمراكز الثقافية والأحياء الراقية وأماكن التنزه المختلفة، فقد كانت تضم طبقات مختلفة من الأغنياء ومتوسطي الحال والعُمّال الفقراء. وبسبب نشاطها التجاري كانت تجتذب أعداداً كبيرة من الفلاحين الذي هُجِّروا قسراً من أراضيهم، مثل سكان وادي الحوارث، وأولئك الذين ضاق بهم الريف فانتقلوا إلى حيفا بحثاً عن فرص العمل في الميناء وسكة الحديد وأشغال البلدية بالأجرة اليومية، حتى تكونت من هؤلاء ضاحية من بيوت الصفيح البائسة التي تفتقر إلى أدنى الخدمات، وظروف الحياة الكريمة.

وكان من الطبيعي أن ينضم أحمد إلى جملة هؤلاء، وأن يخرج في كل يوم باحثاً عن أي عمل متاح، فكان يجده يوماً ولا يجده أياماً. وعلى الرغم من أنه صار جار البحر الحيفاوي الأزرق الممتد، فقد كان يشعر بالاختناق في ثيابه المدنية الجديدة: البنطال والقميص. ووجد أن القرية على ما فيها من ضيق الحال واضطهاد الوجهاء، أرحب من حيفا وأحنّ قلباً. فإن لم يجد عملاً في يومه فلربما اكتفى برغيف خبز، أو نام على جوع. ولم يكن من السهل عليه أن يصنع أصدقاء له في تلك البيئة غير المتجانسة. ولقد تسوء أخلاق البشر مع الفقر والتنافس على فرص العمل القليلة. وبالطبع راودته نفسه على العودة إلى قريته، لولا أن

يقال: عاد بخفي حنين، وأن يتشفّى به أمثال أبي عايد. وتذكر نصائحه لأخيه عليّ حين راوده على ترك المدرسة. على أن أشد ما لقيه في حيفا أن رأى بعض سفن المهاجرين اليهود تُنزِل ركابها في الميناء تحت نظر الإنكليز وحراستهم. والأنكى أن يراهم يحتفلون بالوصول ويعانق بعضهم بعضاً وقد أضاءت وجوههم وعود وطن جديد ليس لهم، بينما يكابد المهاجرون والمهجَّرون في داخل وطنهم القديم ما يكابدون من الفقر والبؤس، وانكسار الأحلام.

اعتاد في وقت فراغه أن يجلس في «مقهى فلسطين» في ضاحية الصفيح تلك. ولم يكن غير غرفة من الصفيح وضع أمامها بعض المقاعد، يتعاقب عليها روّادها لشرب الشاي ولعب الورق وتبادل الأخبار عن فرص العمل في أشغال البلدية. وكان يجلس وحيداً متنحياً عن الجميع فلا يتبادل بعض الكلام إلا مع موسى، صاحب المقهى، الذي لحظ أدبه وحُسْن خلقه ووحدته، فأحب أن يؤنسه ويظهر له المودّة. وكان موسى من أهل حيفا نفسها، فكان يتطوع بأن يرشده إلى الأماكن التي يمكن أن يجد فيها عملاً، وإن كان قد نصحه أيضاً بأن يعود إلى قريته، فهي أرحَمُ به من مدينة تعج بالعاطلين عن العمل من أمثاله القادمين من القرى. وحذّره من الاقتراب من فوزي «السفّاح» الذي يرتاد المقهى بين الفينة والأخرى فلا يغادرها إلا بعد أن يختلق بعض المشاكل وكأنه لا يأتي لغيرها. وكان يبدو فخوراً باللقب الذي أطلقه عليه الآخرون: السفاح. فإذا أقبل على المقهى توتر الجوّ. ولم يكن بوسع موسى أن يطرده

ويتخلّص من شرّه مرة واحدة. فقد كان الشاب ضخم الجثة مفتول العضلات، لا يخيفه شيء ولا يتوانى عن البطش بكل من يعترضه. وما كان رواد المقهى ليستطيعون تجنبه، فقد كان يختار الطاولة التي يريد، ويفرض نفسه على من يجلس إليها. ثم يلزمهم لعب الورق معه. وكان لا بد أن يكسب دائماً، إن لم يكن بالمهارة فبالغش والترهيب. وقد رأى أحمد بأم عينه أمثلة كثيرة من «بلطجته» وقسوته. وحين همّ بطريقة عفوية أن يفرّق بينه وبين أحد ضحاياه، أومأ إليه موسى أن يمكث مكانه.

ولكنَّ تجنب الصدام مع فوزي السفاح ليس بالأمر السهل، وهو الذي يبحث عمن «يكبّ» عليه شرّه. وكان أول احتكاك بينه وبين أحمد حين كان هذا يقف في صف طويل من العُمّال في أحد مواقف تجمّعهم، في انتظار أن يختار منهم موظفو الأشغال حاجتهم. وكالعادة كان المشرفون من الإنكليز واليهود، وكانت الأفضلية عندهم للعامل اليهودي، فيصطف العُمّال اليهود في صف خاص بهم، ويصطف العرب في صف آخر. فإذا فرغوا من الصف اليهودي دون أن يستكملوا العدد المطلوب ذهبوا إلى الصف العربي فأخذوا منه حسب الدور بقدر الحاجة.

وفي ذلك اليوم كان أحمد رابعاً في صفه، ثم فوجئ بفوزي الذي وصل متأخراً يتجاوز الدور حتى صار أمام أحمد. لم يعترض بقية العُمّال خشية الصدام مع فوزي، ولكن أحمد لم يتردد في أن ينقر على كتفه ويطلب منه العودة إلى مكانه. التفت إليه فوزي بنظرة صارمة رادعة، ثم تحوّل

بوجهه عنه. وإذ همّ أحمد بأن يراجعه من جديد، كان المشرف الإنكليزي قد عدّ الأربعة الأوائل في الصف ليلحقوا بالعُمّال الذين تم اختيارهم. وسقط في يد أحمد الذي فقد فرصة العمل ذلك اليوم. وما كان ليشكو للمشرف الإنكليزي الذي لن يأبه لاعتراضه على كل حال. فابتلع غضبه ومضى راجعاً مع الآخرين.

ولكن فوزي الذي خطف منه دوره ولقمة عيشه ذلك اليوم لم يغفر له أن تجرّأ على مجرد الاعتراض.

فلما جاء المقهى عصر اليوم التالي توجّه إلى طاولته وجلس قبالته بلا استئذان، وأخذ يتلاعب بالورق ويعيد تصفيفه، وهو يتفحّص أحمد مع ابتسامة ماكرة. ثم قال:

- شو رايك؟ طابق شدّه عن شاي!

أشاح أحمد عنه وآثر تجاهله أولاً. تقدّم فوزي بصدره نحوه وقال:

- إيش البيك شايف حاله علينا؟ لما المساكين اللي زينا بحكو معك، بتكلف خاطرك وبترد عليهم.. هيك الأصول.. الأدب.. الذوق.

صاح موسى من مكان قريب:

- يا فوزي سيبك من الشاب.. خلّيه بحاله.

أجاب:

- وأنا شو عامل للشاب؟ بس بدّي ألعب معه طابق شدّة.

ثم سأل:

- شو بحب البيك يلعب؟

نظر إليه أحمد عابساً وقال:

- روح دوّر لك على واحد غيري.. أنا ما بلعب شدّة.

- بعَلمك.. شو عليه؟

- طيب إذا خلصت من التسلاي تبعتك قوم اتوكّل على الله.

- بس أنا ما خلّصت التسلاي تبعتي.

- أنا خلّصت.

وانحرف أحمد بكرسيّه عنه، واحتسى من كأس الشاي الذي كان بيده.. تصاعد غضب فوزي ورفع جسمه منحنياً فوق الطاولة، ومدّ يده ليجذب أحمد من صدره وهو يصيح:

- ولك يا حمار لما بحكي معك لا تدير..

لم يكمل العبارة إذ جاءه ما لم يتوقعه أبداً، فقد قذفه أحمد بما تبقّى من كأسه من الشاي الفاتر في وجهه. مسح فوزي وجهه بكم قميصه وتفجّر غضبه وقد نهض الآن في مكانه، وضرب الطاولة بقدمه، بينما صاح موسى من جديد:

- يا جماعة اخزوا الشيطان. كلكم معتّرين وأولاد بلد ودايرين على لقمة

عيشكم.. عيب.

تواجه الشابان مستعدين للعراك، بينما أخذ فوزي يخلع حزامه الجلدي واتجهت أنظار الجميع إليهما، وكلهم إشفاق على ذلك الشاب الجديد الصموت من نقمة «السفاح». وما هي حتى انهال عليه فوزي بحزامه. حاول أحمد أن يتجنب الضربات ما وسعه ذلك. والتمعت في ذاكرته صورة الجلد الذي تعرّض له من أبي عزمي العليّ، فتأججت النار في صدره، وانبعث في نفسه الغضب المركوم من كل الذين تعرضوا له بالأذى حتى انتهى به الأمر إلى هذا المكان البائس: أبو عايد وأبو عزمي والإنكليز.. كلهم اجتمعوا الآن في خصمه الحاضر: فوزي، على اختلاف المراتب. وأمدّه الغضب بقوة جارفة. فما لبث أن التقط طرف الحزام، وتحوّل الأمر إلى تجاذب بين الخصمين بطرفي الحزام. ولأول مرّة يجد فوزي ندّه، على غير ما كان يتوقع. فقد استنفد كل قوته في الشد حتى انتفخ وجهه وجحظت عيناه، دون أن ينجح في زحزحة قدمي أحمد أو إفلات الحزام من يديه، بل شعر أن قدميه هو توشكان على التزحزح. وفجأة أفلت أحمد الحزام بقصد، فارتد فوزي إلى الخلف ووقع على الأرض، وقبل أن يستقيم واقفاً أسرع أحمد إليه بلكمة هائلة طرحته من جديد، وسال الدم من طرف فمه، وإذ تحسسه ورأى أثره على يده جن جنونه، وزاد من غضبه أن رأى الناس قد تحلّقوا في المكان يرقبون. هيبته ولقبه الآن على المحكّ. فقفز مسرعاً وارتد على أحمد بالحزام من جديد، ولم يدرِ بعدها كيف استطاع أحمد أن يمسك بالحزام ويلتف به

بسرعة هائلة خلفه، ويطوِّق به عنقه ويضغط بشدة. حاول فوزي أن يحرّر نفسه بلا طائل، ثم بدا أنه بدأ يختنق وقد تنفخ وجهه واشتد احمراراً، ثم شعر بيديه ترتخيان وبساقيه تخذلانه. وحين بدا أنه يوشك أن يفقد وعيه، رفع أحمد يديه عنه، فنزل إلى الأرض على ركبتيه ووجهه إلى الأرض وهو يشهق بأنفاس سريعة تتخللها سعلات مبحوحة. ومضى أحمد مبتعداً، بينما أسرع موسى بكأس ماء إلى فوزي الذي استدعى آخر ما في جسمه من قوة ليضرب بيده كأس الماء فيطيره من يد موسى.

لماذا لم يشعر بلذة الفوز على السفاح ولا استخفَّتْه نظرات الإعجاب والاحترام من الآخرين الذين شهدوا العراك أو بلغهم خبره وتشفّوا بهزيمة فوزي الذي طالما استقوى عليهم؟ بل داهمه شعور بالندم وبعض الإشفاق على خصمه وخصمهم؟ ولكن، هل هو خصمهم حقاً؟ ربما كان «بلطجياً» بعض الشيء، ولكنه في آخر الأمر ليس إلا عاملاً مثلهم يكدح من أجل رزقه، ويعيش بينهم في أكواخ الصفيح، ويقف في طابور العُمّال العرب منتظراً أن يصل إليه الدور إذا بقيت فرصة للعُمّال العرب بعد الفراغ من طابور العُمّال اليهود. وإذا أسعفه الحظ، كانت أجرة يوم في أشغال الحكومة «شلناً» واحداً، بينما يتلقى العامل اليهودي ثلاثة «شلنات» مقابل العمل نفسه. أما المشرفون فهم في الغالب من الإنكليز واليهود.

لا، ليس فوزي أبا عايد ولا أبا عزمي العليّ ولا الإنكليز، حتى يتشفى منه أحمد. وحتى لو كان في النفس منه شيء، فسيذهب قريباً وقد سقط

عنه لقب السفاح وكفّ شرّه عن الآخرين بعد تلك الواقعة. ويبدو أن القوة غير المتجبّرة والتي لا تستعرض نفسها تثير من إعجاب الخصم أحياناً ما تثيره في الآخرين، فلم يبدُ على فوزي بعد ذلك ما يوحي بالحقد والرغبة في الثأر، بل على الضد من ذلك بدا أنه يحاول التقرب من أحمد بصمت، فإذا كان في العمل تقدّم ليشاركه فيما يبدو أنها مهمة شاقة، وإذا جلسا في فسحة الغداء تعمّد أن يجلس قريباً منه، وربما قذف له بعض ما في زوادته على قلة ما فيها. ولم يمر وقت طويل حتى صارا يجمعان زوادتهما ويأكلان معاً. وفي الأثناء يتهامسان بما ينطوي عليه صدراهما من كره المستعمرين الإنكليز والصهاينة، وينتهي الكلام عادة باتهام الزعماء المتهاونين.

«لا صداقة إلا من بعد عداوة»! لعل هذا المَثَل الشعبي قد اختُرع لمثل حالة أحمد وفوزي. وبعد أن توثقت الصلة علم أحمد أن فوزي من أصول بدوية في وادي الحوارث من قضاء بلدة طولكرم. وكان إقطاعاً لعائلة لبنانية من أيام العثمانيين، ومرهوناً لأحد الدائنين الفرنسيين، فلما عجز الورثة عن أداء الدَّيْن عُرض للبيع بالمزاد، فوقع البيع للصندوق القومي اليهودي، وانتهى الأمر بتهجير جزء كبير من سكانه بعد مقاومة حثيثة أسهم فيها فوزي. وها هو الآن في حيفا يرتدي البنطال ويتلقط عيشه من العمل هنا وهناك، بعيداً عن المراعي المفتوحة وأصوات الطبيعة المألوفة. ويطوي صدره على نقمة جارفة كان يفرغها في العراك.

والحقيقة أن أحمد بما حُبِي به من قوة النفس وروح القيادة، مع

الشهامة وحُسْن الخلق، ما لبث أن اجتذب حوله مجتمع العُمّال الذين يخالطهم، كما كان في قريته بين الشباب وبسطاء الفلاحين الناقمين على أحوالهم. وإن لم يكن في وسعه ووسعهم الآن أن يفعلوا الكثير للتصدّي لسلطة الانتداب الإنكليزي وسياساته العامة، فلا أقلّ من فعل شيء لمواجهة الظلم الذي يتعرّضون له في موقع العمل في أشغال الحكومة، حيث يجري تقديم العامل اليهودي في فرص العمل والأجر.

ففي صباح أحد الأيام، بكّر أحمد وفوزي مع شلّة من العُمّال إلى موقع العمل قبل وصول العُمّال اليهود، وسدّوا الطريق إلى الموقع وهم يحملون الهراوات. وحين بدأ العُمّال اليهود في التوافد وجدوا أمامهم سدّاً من الشباب الذين أمروهم بالعودة من حيث جاؤوا. وما هي حتى تحول الموقف إلى شجار عنيف وسقط بعض الجرحى، حتى وصلت الشرطة وأحاطت بالمكان.

لم يكن من الصعب على الشرطة التي قبضت على أحمد ومجموعة من أصحابه أن تعلم أن أحمد هو قائد المجموعة. ولم تكن المشاجرة نفسها بالأمر الكبير الذي يستدعي قلق الشرطة. فمثل هذا يحدث في كل يوم. ولو كانت مشاجرة بين أبناء العرب لما شغلوا أنفسهم كثيراً بها. ولكنها كانت ضد العُمّال اليهود والمشرفين على العمل. ومن يدري، ربما كان وراءها تدبير أكبر يمكن أن يهدّد الأمن. فبين الفينة والأخرى تظهر منشورات باسم منظمات سرية، وقد يلحق بها بعض الأعمال التي توصف بالإرهابية، مثل مهاجمة بعض الدوريات العسكرية أو زرع

المتفجرات، أو إطلاق النار على بعض المستعمرات اليهودية. ولذلك شدّد الضابط الإنكليزي التحقيق مع أحمد بصفة خاصة. وبالطبع أنكر أن يكون وراءه أي تنظيم أو خطة أكبر مما وقع.

وحين يئس الضابط من الحصول على أي معلومات عن مؤامرة مدبّرة، عمد إلى الأسلوب المعتاد في سياسة «فرِّق تسد»، فذكّره أن الزعماء الذين يعيشون في المدن ويتمتعون بالمال والضِّياع والدُّور الكبيرة والمصالح التجارية، يستغلون الفلاح المسكين، وبينما يرسلون أبناءهم إلى المعاهد في الخارج ليكونوا أطباء ومحامين وموظفين كباراً، فإنهم يدفعون بالفلاحين البسطاء لتنفيذ أعمال التخريب التي تجرّ عليهم السجن أو الموت بلا طائل.

هَمّ أحمد أن يرد عليه بأن بعض الزعماء المهادنين هم جزء من المشكلة، وأن الناس لا ينتظرون أوامر زعمائهم ليقاوموا ظلم الإنكليز وخططهم. ولكنه آثر الصمت. وأخيراً، نادى الضابط الجاويش وهزّ له رأسه هزّة موحية يفهمها. فقاد أحمد إلى غرفة أخرى حيث كان ينتظر شرطيان آخران، وقيّدوا يديه بحلقتين مثبتتين في الجدار، ثم انهالوا عليه بالهراوات وسُيور الجلد، ولم يتوقفوا حتى فَقَدَ وعيه.

لم يدرِ لماذا جرّوه ودفعوه إلى داخل زنزانة جديدة صغيرة معتمة هذه المرّة، غير العنبر الذي كان فيه مع أصحابه الذين قُبِض عليهم معه. ونزل فوراً إلى الأرض. كانت عيناه منتفختين من أثر التعذيب فلا يحسن فتحهما لينظر حوله في عتمة المكان، حتى فوجئ بصوت يقول:

- أهلاً وسهلاً.

التفت جهة الصوت، وتحامل على نفسه ودقّق النظر بقدر الاستطاعة، فرأى شبح شخص متكوم على نفسه في زاوية الغرفة.

في اليوم التالي عرف أن صاحبه في الزنزانة اسمه سعدي. وبدا منذ اللحظة الأولى أنه خفيف الظلّ. ولم يكن أحمد راغباً في تبادل الحديث. ولكن سعدي ابتدره بالكلام:

- كيف صبّحت اليوم؟

أجاب أحمد متهكماً:

- فوق الريح.

أطلق سعدي ضحكة قوية. فعلّق أحمد متعجباً:

- وإلك نفس تضحك؟

ردّ سعدي من فور:

- زيّ ما إلك نفس تمزح.. فوق الريح!

وعاد إلى الضحك.

قال أحمد:

- العتب على اللي سأل. كيف صبّحت اليوم؟ هه!

سأل سعيد:

- ليش خصّوك بالقعدة معي من دون أصحابك؟ لازم تكون الزعيم تبعهم. خافوا تظل نفوسهم قوية وأنت بينهم.. بدهم يكسروك ويكسروهم، وينفردوا فيهم واحد واحد.

مرّت هنيهة صمت، ثم سأل أحمد:

- وأنت ليش خاصّينك في هالزنزانة:

أجاب سعدي مبتسماً:

- ما عدت وحدي.

- قصدي قبل..

قاطعه سعدي:

- مش محرزة القول.

- مش محرزة القول وحاطينك هون؟ أوعى لتكون جريمة عرض والا..

قاطعه سعدي بضحكة أخرى، وتابع أحمد:

- لا تكون جاسوس حطوك مخصوص منشان تطلّع كلام مني؟

ازداد سعدي ضحكاً وقال:

- وفيه عندك كلام مخبّا؟ إذا كنت أنا جاسوس بتكون هيك وقعت حالك. سيبك من هالحكي وتعال نسلّي حالنا شويّة، ما احنا قاعدين قاعدين، جيرة الله عليك.. هاه.. انت فلاح.. شو بتحفظ مواويل وعتابا وميجنا؟

نفخ أحمد متضجّراً.. كيف لهذا السجين «المعتّر» أن يجد في نفسه الرغبة في الغناء.

قال سعدي:

- بلاش.. أنا حافظ.. بس إذا أخطيت بتصلحني..

تأهب وهمهم قليلاً ليصلح حنجرته، ثم صعد صوته مبحوحاً وجميلاً في آن:

«زهر البنفسج يا ربيع بلادنا».

توقف ليجاوبه أحمد كالعادة في غناء هذا الموال المعروف. ولكن أحمد لم يفعل. فجاوب سعيد بنفسه مردداً بنغمة أخرى مع مدّات أطول:

«زهر البنفسج يا ربيع بلادنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرّ على أحمد شهر منذ أن دخل السجن دون أن يزور أهله في القرية.

وتعلّل أهله بأن «الغائب حجته معه»، والتردد على القرية ليس سهلاً في موسم الأمطار وجريان السيول.

وفي هذه الأثناء كانت الزنزانة قد قرّبت بين أحمد وسعدي ونشأت بينهما مودّة صادقة. والحقيقة أن خفة ظل سعدي قد أسهمت في التخفيف عن أحمد الذي صار أكثر تفاعلاً مع قصصه الطريفة. وقد يخرج عن جدّه أحياناً فيشارك في الضحك. ومع ذلك ظلّ سعدي ممتنعاً عن الإفصاح عن الجريمة التي سجن فيها. ولم يجد أحمد إلا أن يحترم رغبته تلك، وإن بقي حائراً في الأمر. فلا يبدو هذا الشاب اللطيف الشهم من النوع الذي يرتكب جريمة مخلّة بالشرف. وكان يرى الشرطة تأتي كل بضعة أيام وتخرج به، فقدّر أنهم يخرجون به لجلسات المحاكمة. فإذا عاد لم يجد وجهه متغيّراً، وما هي حتى يتابع الحديث وقصّ الطرائف على مجرى عادته، وكأن شيئاً لم يكن.

في نهار ذلك اليوم البارد، كان سعدي مسترسلاً في قصّ نكاته:

- وبقول لك كان جحا يجرّ حمار.. شافوه اثنين من الحراميّة.. قام واحد فك رسن الحمار وجحا غافل عنه، وحط راسه محل راس الحمار في الرّسن.. واللصّ الثاني جرّ الحمار ومشى فيه.. ولما وصل جحا للبيت أتطلع لاقى الزلمة في الرسن. قال له: مين انت؟ صار الزلمة يعيّط ويقول: «يا سيدي أنا واحد جاهل غلبت أمي كثير.. قامت دعت عليّ الله يمسخني حمار، والله استجاب دعاها وباعوني في السوق.. ببركتك يا سيدي رجعت إنسان». ونزل على إيد جحا يبوسها.. صدق جحا وخلاه

يروّح. ثاني يوم نزل جحا على السوق، شاف حماره، قام قرّب عليه وهمس في ذانه: شايفك ما تعلّمت ورجعت عذبت امك.. روح الله لا يقيمك.. والله ما بشتريك..

ضحك سعدي على طرفته، بينما اكتفى أحمد بالابتسام.. وتابع سعدي:

- طب خذ وحدة غيرها..

ولكنه لم يتم النكتة الجديدة إذ سُمِع صوت سحب المزلاج الخاص بباب الزنزانة، ثم تحريك المفتاح.

ظهر شرطيان.. وتقدم أحدهما وبيده بذلة قطنية حمراء ومدّ يديه بها إلى سعدي الذي نهض من مكانه وتناولها منه، ونظر فيها بوجه ساكن الملامح، ثم ابتز من نفسه ابتسامة وقال بنبرة حاول أن تكون مرحة:

- الأحمر لوني المفضل.

خرج الشرطيان وأقفلا الباب..

كان أحمد يراقب حائراً مندهلاً، وبدا أنه احتاج إلى هنيهة قصيرة قبل أن يدرك أنها بذلة المحكومين بالإعدام، فيضع رأسه بين يديه وهو يردد متفجعاً:

- يا الله.. يا الله.. يا الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن ارتدى البذلة الحمراء دار على نفسه وقال مخاطباً أحمد:

- كيف؟ زابطة عليّ؟!

بقي أحمد مطرقاً كالمصعوق، واستلّ الكلام من جوفه بصعوبة:

- ليش ما قلت لي؟ ليش؟

أجاب سعدي:

- منشان تبطل تسمع نكتي؟

- يعني أنا بصعب عليّ أسمع نكتك لما أعرف إنك محكوم بالإعدام، وانت المحكوم ما بصعب عليك تنكّت؟

اكتسى وجه سعدي بمسحة من الحزن، ولكنه حافظ على ابتسامة باهتة، وقال:

- لو خبرتك لما صدر الحكم كان صرت تنظر لي كأنك بتشوف جثة قدامك.. ومين بحب يشوف موته في عينين صاحبه قبل ما يموت؟ أما بعد الموت..!! ما فيش حزن على الدنيا.. فيه بس نور وراحة وريح الجنة، إن شاء الله شهادة. والشهيد زي ما قال النبي ﷺ هوّه الوحيد اللي بتمنى يرجع للحياة، بس منشان يستشهد من جديد، من حلاوة الشهادة.. هيك سمعت الشيخ عز الدين القسام بقول في دروسه في جامع الاستقلال.. عمرك حضرت دروسه يا خوي يا أحمد؟

هز أحمد رأسه بالنفي. فقال سعدي:

- إذن، فاتك كثير.. وصيتي إلك يا اخوي يا أحمد إنك تصلي عنده

وتحضر دروسه.. علم ودين ووطنية وعمل.. مش بس كلام على طريقة الزعما، ولا على طريقة بعض المشايخ اللي بدهم الستيرة، وبختصروا الدين في أحكام الوضوء والطهارة، وبتناسوا أن الجهاد ضد الاستعمار والصهيونية ذروة سنام الإسلام. لا يفوتك القسام يا خوي يا أحمد.. هذا نصير البسطاء والمعثرين اللي زينا، وما برتاح إلا بينهم، ولا بعوّل إلا عليهم لمقاومة الإنكليز والصهاينة.. بقول هاذولا ناس ما بخافوا على شيء وراهم.. لا مال ولا ضياع ولا وظائف عالية..

كان أحمد ينصت مطرقاً مستغرقاً في الأفكار. وأخيراً رفع رأسه ونظر متأملاً في سعدي، وسأل السؤال الذي تجنبه قبل الآن:

- القسام.. الجهاد.. شهيد!!

لأول مرة يكشف سعدي الحقيقة:

- حطيت لُغُم في طريق سيارة للجيش الإنكليزي.

هز أحمد رأسه ساهماً، ثم خرج صوته:

- شهيد إن شاء الله.. يا هنيّالك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا ليل خلّي الأسير تا تزهر اجراحو

راح يفيق الفجر ويرفرف جناحو

تايتمرجح المشنوق في هبة رياحو

شمل الحبايب ضاع واتكسروا اقداحو

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا ليل وقّف تافَضّي كل حسراتي

يمكن نسيت مين أنا ونسيت آهاتي

يا حيف كيف انقضت بإيديك ساعاتي

لا تظن دمعي خوف، دمعي على أوطاني

وعاكمشة زغاليل في البيت جوعاني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل تنفيذ حكم الإعدام، سُمِح لسعدي بقلم وورقة ليكتب وصيته بناءً على طلبه. ثم أودعها أمانةً مع أحمد ليوصلها إلى والده في بلدة «سخنين» شمال فلسطين، بعد خروجه من السجن. وأذن له أن يقرأها بنفسه بعد التنفيذ.

أمر مدير السجن بإخراج جميع الموقوفين في قضايا سياسية، أو لها علاقة بأمن حكومة الانتداب واليهود الصهاينة، ليشهدوا عملية الإعدام، فيرتدعوا.

كان آخر ما هتف به سعدي قبل أن يتدلّى على حبل المشنقة:

«الله أكبر، فلسطين عربية».

سادت لحظات صمت ووجوم حتى سكنت حركته، ثم هزّ أحمد المكان

بهتاف قويّ صارخ: «الله أكبر. وفلسطين عربية»، وردّد جميع الموقوفين الهتاف بصوت جمعي هادر، لم يوقفه إلا هراوات الشرطة الذين ردّوهم إلى زنازينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

لحضرة الوالد العزيز محمد أحمد عبدالرحيم. أبدأ بتقبيل أياديكم الطاهرة عن بُعد. ثم أعلمكم يا والدي أنه حين تصلكم هذه الرسالة، سأكون قد انتقلت إلى رحمة الله تعالى في يوم الأربعاء الواقع في ١٤ أيار ١٩٣٥. أرجوك يا والدي أن تحتسبني لله تعالى، أنت وأمي الحبيبة وكل العائلة، وأن تدعوا جميعاً لي بأجر الشهادة، ولا ينوح أحد عليّ. وأرجو أن تطلب من جميع أقاربنا ومعارفنا أن يسامحونا، وأن يقرأوا الفاتحة وسورة يس على روحي. وأوصيكم بالصبر، فإن الله مع الصابرين. دمي في رقبة الظالم، وأجري عند الله. وإلى أن ألقاكم في جنة الله إن شاء الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ابنكم وابن فلسطين البار: سعدي.

ملاحظة: أرجو أن تكرموا حامل رسالتي هذه، فهو شاب طيب وشهم».

رفع أحمد رأسه عن الرسالة، وهمس لنفسه:

- أنا صاحب الدم يا سعدي.. أنا صاحب الدم.

طوى الرسالة ووضعها في جيبه. ثم استند بوجهه إلى حائط الزنزانة.. وإذ تذكّر الموّال الذي دعاه سعدي إلى ترجيعه معه، في أول أيام صحبتهما في الزنزانة، فامتنع عن المشاركة، خرج صوته الآن ضعيفاً متهدجاً مبحوحاً:

«زهر البنفسج يا ربيع بلادنا».

ولم يستطع أن يردّده مرّة أخرى كما تقتضي الطريقة المألوفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يطل مكوث أحمد في السجن بعد إعدام سعدي. وقضى شهرين آخرين في حيفا قبل أن يقرر الرجوع إلى حياته السابقة في القرية. وما أبقاه في حيفا ذلك الشهرين إلا تعلّقه بدروس القسّام في جامع الاستقلال. وكان يذهب دائماً في صحبة موسى، صاحب المقهى، وفوزي - السفاح سابقاً. وكانت الصحبة قد توثقت بينهم، حتى إنّ موسى دعاهما إلى بيته المتواضع في أحد الأحياء الفقيرة في حيفا. ولكنه على تواضعه كان شديد النظافة على نحو ملحوظ.

وفي يوم العودة إلى القرية، وقف يودّع صاحبيه. فقال موسى:

- بتذكّر أول ما أجيت عندنا؟ وقتها نصحتك ترجع للقرية.. إسّه إذا فيه إشي أقدر أعمله حتى تغير رايك، أنا مستعد. على الأقل بدك تزورنا من وقت لوقت.. إحنا صرنا صحاب بينا عيش وملح.

قال أحمد:

- بالتأكيد.. ما بخون العيش والملح إلا كل خوّان.

احتضن أحدهما الآخر بحرارة. ثم تحوّل أحمد إلى فوزي الذي قال ممازحاً:

- شو رايك بطابق شدّة قبل ما تمشي؟

ابتسم أحمد، بينما ضحك موسى وبعض الحضور مستذكرين واقعة العراك بينهما.. وتابع فوزي:

- طيب مباطحة إيدين، خليني أستدّ.

ربّت أحمد على كتفه، ثم احتضن أحدهما الآخر، وقال أحمد:

- زيّ ما وعدتني.. ما تخلّي درس من دروس القسام يفوتك.

قال فوزي باللهجة المرحة نفسها:

- من يوم ما صرت أحضر دروس القسام وبطلت ألعب شدّة عن شرط، انقطع نصيبي من الشاي على حساب الأجاويد. مع السلامة يا خوي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤

سبق عليّ أخاه مسعوداً الذي جاء به من عكا في نهاية العام الدراسي، واندفع داخل البيت يلوّح بشهادته ويصيح:

- الأول.. جبت الأول.

أطلقت الأم زغرودة جاوبتها خضرة. وضجّ البيت بالفرح. ولكن أحمد الذي كان أكثرهم فخراً بإنجاز أخيه، تعمد السيطرة على ردّة فعله، وقال:

- ويعني شو الغريب حتى تقعد تنطنط؟ طب لو ما جبت الأول كان قطمت رقبتك.. بس قول لي: شو جابوا جماعتك؟

أجاب عليّ:

- عارف ابن المختار جاب العاشر.. وابن أبو عايد سقط.

هنا لم يكتم أحمد سروره المضاعف:

- سقط سقط؟ يعني بالمرّة؟.

هز عليّ رأسه مؤكداً الخبر.. وأطلق أحمد ضحكة قوية.

تدخّلت الأم معاتبة:

- التشفي مش مليح يمّه!

هنا سُمِع صوت مسعود يقول متهكماً:

- قال مشي مليح التشفّي.. هوه فيه أحلى من التشفي بالظالمين؟

عاد أحمد إلى الضحك وقال:

- نفسي أشوف وجه أبو عايد هسّع.

وبالفعل، إذا كانت فرحة أحمد ومسعود قد تضاعفت بتفوق أخيهما والنكاية بأبي عايد، فقد كان شعور أبي عايد بالقهر مضاعفاً للسببين.

- ليش يا ربي.. ليش يا ربي؟ وين أودّي وجهي؟ ابن صالح الشيخ يونس الأول، وانت ساقط يا هامل!! ريتك تسقط من راس جبل.. تفووه عليك وعلى اللي ربّوك.. ولك يا حمار، يا حيوان، شو اللي ناقصك؟ اللي عايش على الكراديش ومش لاقي فرشة ينام عليها يجيب الأول.. وانت.. انت.. والله بدي أدفنك اليوم..

كان حمدان يستمع مطرقاً، حتى اندفع نحوه أبوه ليصفعه، فتراجع إلى الخلف وقد تحامى بذراعيه أمام وجهه. وأسرع عايد فحالَ بينها قائلاً:

- يابا مش مليح هيك.. هذا اللي طلع بإيده.

- الله يكسر إيده زي ما كسر خاطري.. روح انصرف من وجهي، ما بدّي أشوف زقمك يا سويد الوجه.. تفووه عليك..

"كان من الواضح أن تجربة أحمد في حيفا قد تركت آثاراً عميقة في نفسه وسلوكه، وحتى في أسلوب كلامه. وبدا أن التجربة قد أنضجته بضع سنين فوق عمره.

كان لا بدّ لشاب له تلك المواهب الطبيعية أن يصبح شيئاً مذكوراً على نحوٍ ما، وأن يمتد ظلّه إلى ما وراء القرية الصغيرة، كما ستثبت الأيام القابلة. ولم يكن من الصعب أن نستشف أن ما يتحدّث به عن تجربته في حيفا، ليس كل ما يطوي عليه جوانحه. كان ثمة شيء ما يتحرّك في دخيلة نفسه دون أن يبوح به!

ثم جاء الخبر الذي اهتزت له فلسطين كلها، ومنها بيتنا الصغير.. خبر استشهاد القسّام مع مجموعة من المجاهدين في أحراج يعبد بالقرب من بلدة جنين، في صدام دموي مسلح غير متكافئ مع العسكر الإنكليزي.

ترى هل كان أحمد عضواً في الحلقات الجهادية السريّة التي نعلم الآن أن القسّام كان قد عمل على تنظيمها؟ هل كان أحمد منتظماً في إحدى اللجان الخمس التي نظّمها القسام للتدريب العسكري، والدعوة، والتموين، والاستخبارات، والعلاقات الخارجية مستفيداً من تجاربه السابقة في مقاومة الانتداب الفرنسي، في الساحل السوريّ الذي وُلِد ونشأ فيه؟ أم كان أحمد من تنظيم الأنصار الذي جعله القسام رديفاً للأعضاء المجنّدين؟ هل كان ذلك هو السرّ الذي حرص على كتمانه؟

يمكن أن يكون ذلك. وما كان أحمد ليعلن به حتى بعد استشهاد القسام وردود الفعل العنيفة التي أعقبته واجتاحت البلاد بأسرها.

على أن حزن أحمد على القسام لم يكن أكثر من أسفه على أن فاته حظ الجهاد معه في معركة «يعبد». كان هذا ما لا يتردد في الإفصاح عنه".

امتنع أحمد عن الذهاب إلى حيفا أو عكا أو القدس، للمشاركة في التظاهرات الشعبية التي أعقبت استشهاد القسّام، وحضور المهرجانات الخطابية التي تكون معها. وكان رأيه أن تلك الخطابات لم تعد ذات جدوى، وأن دم القسّام أبلغ منها جميعاً، وأن الناس إذ يصفقون لأولئك الخطباء المفوّهين يختلط عليهم الأمر، فلا يدرون هل يصفقون احتفاءً ببلاغة الخطيب أم تمجيداً للشهيد الذي يدور عليه الكلام. ولو أن القسام قبل استشهاده ذهب إلى أولئك الخطباء والزعماء وأطلعهم على خطته للجهاد، لأنكروا عليه، بحجة أن الوقت ما يزال غير مناسب. ولربما لم يستحوا من شيبته وتاريخه الجهادي في سوريا وفلسطين واتهموه بالتهوّر. ثم إذا ما استشهد قادوا المظاهرات ودبّجوا الخطابات، كأن بعضهم على الأقل يخشى أن يطفئ دم القسام ذكرهم بين الناس. وما الذي فعله هؤلاء، وقد وصل إلى فلسطين هذه السنة وحده ستون ألف مهاجر يهودي، غير تقديم مذكرات الاحتجاج إلى الخصم والحكم، مقرونة بالتحذير من العواقب الوخيمة المحتملة على حكومة الانتداب نفسها، ومن الغضب الشعبي العارم الذي يمكن أن يتحوّل إلى ثورة مسلحة لا تنتظر توجيهات الوجهاء وزعماء المدن. وفي هذه صدقوا! فها هو دم القسام يومض بالنار القادمة.

كان أحمد يرتجف وهو يتحدث بين الغضب والأسى. وكان مسعود الأكثر تروياً والأقلّ اندفاعاً، هو الذي ذكّره بأن موقفه من الزعماء والوجهاء

ورؤساء الأحزاب وجمعيات الشباب الوطني، ينطوي على بعض المبالغة والظلم. فهم ليسوا على مذهب واحد، وفيهم من لا يشك أحد في وطنيته واستعداده للتضحية.

وربما كان القسام على صلة وتعاون مع بعضهم. فالحصول على السلاح يحتاج إلى المال وشبكة منظمة من العلاقات مع مصادر خارجية، لا يقدر عليها إلا زعماء ونشطاء وطنيّون من ذوي الخبرة في الشؤون السياسية والظروف الإقليمية.

وبالطبع، كان مسعود محقاً، وكذلك كان أحمد في توقعاته عما سيعقب استشهاد القسام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(لمن الكلمة الآن)

ما لبثت الشرارة التي أطلقها القسّام أن تحولت إلى ثورة عامة سوف تمتد بضع سنين بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩، وسوف تُعرَف باسم «ثورة فلسطين الكبرى»، وأحياناً «ثورة الريف الفلسطيني» لأن قوامها الرئيس كان من الفلاحين، وإن التفّ جلّ الناس حولها في المدن والقرى. وتزامن مع بداياتها المسلّحة إعلان «الإضراب الكبير» الذي عمّ البلاد كلها، وتحوّل إلى عصيان مدني شامل استمر ستة شهور كاملة. ونشط الشباب الوطني في المدن في إدارة الإضراب والتظاهرات ودعم الثورة المسلحة من خلال اللجان القومية التي أنشأوها. وكما كان متوقعاً فرض الإنكليز إجراءات مشدّدة وأصدروا قانون طوارئ جديد شديد الصرامة. وتصاعدت الصدامات المباشرة في المدن، والعمليات العسكرية في مناطق الريف ضد المستعمرات الصهيونية وطرق الجيش البريطاني.

لقد صحّ رأي القسّام في أن يسبق عامة الشعب زعماءه في إعلان الثورة، ليجد هؤلاء أنفسهم مضطرين إلى اللحاق بهم بالدعم والمال والمساندة والعمل السياسي. وهكذا كان، إذ تم تأسيس اللجنة العليا التي تولّت القيادة السياسيّة بما يواكب الثورة المسلّحة وعلى وفق غاياتها.

وكان الدكتور أكرم السويدي شعلةً من النشاط الدائب في مركز اللجنة القومية في حيفا، وإن بقي يشعر بالتقصير لأنه لم ينضم إلى فصائل الثورة المسلّحة مع الفلاحين. وحين أفصح عن ذلك لأبيه الذي كان فخوراً بجهوده، ذكّره أبوه أن هناك الكثير من الفلاحين الذين لا يجدون سلاحاً

للانضمام إلى العمل المسلّح حتى تصل دفعات جديدة منه، أما عمله في المدينة في المجالين الوطني والطبي فليس ثمة كثيرون مؤهّلون له مثله، وأن المجاهدين الذين يضحون بأرواحهم لا يمتلكون المؤهلات التعليمية التي تحتاجها الإدارة السياسية. والعمل العسكري في نهاية الأمر وسيلة لتحقيق الغايات السياسية. وكان أكرم متنبهاً إلى تلك المفارقة التي ستكون لها آثار هامة على مسيرة الحركة الوطنية، فجلّ الذين يحملون السلاح من عامة الفلاحين، يفتقرون إلى التأهيل التعليمي الكافي للإدارة السياسية، لتبقى هذه في أيدي النخبة المدنية والزعامات التقليدية التي تتباين مواقفها، وتتدخل فيها أحياناً المصالح الشخصية والمنافسات العائلية الموروثة، وطبيعة العلاقة مع سلطات الانتداب البريطاني. ولكن الشباب الوطني الذين حاولوا التجرّد من عبء الزعامات التقليدية ليشكّلوا طبقة سياسية جديدة أكثر وعياً واندفاعاً، عملوا على سدّ الفجوة بين الطرفين ما وسعهم ذلك. وكان أكرم من أكثرهم نشاطاً وإخلاصاً.

أما أحمد صالح الشيخ يونس، فقد لقي أخيراً نفسه وقدره والهوية التي سيتعرّف بها حتى آخر يوم في عمره: المجاهد «أبو صالح»، ليصبح بعد حين القائد أبو صالح (أو الكايد أبو صالح كما ينطقها أهل الريف) - قائد فصيل حطين. وكان من المقدّر أن تغيّر الثورة حياته تغييراً حاسماً، بل أن تغيّر من حياة الفلاح الفلسطيني على الجملة، وأن تمتد آثار ذلك التغيير إلى المستقبل البعيد. فالجبال التي صارت مأوى الثوار ستعيرهم

من شموخها، والرصاص الذي يطلقونه سيصبح صوتهم الذي لا يعلو عليه صوت: لا صوت أبي عايد، ولا صوت أبي عزمي العلي، وأمثالهما، ولا صوت خطابات الأفندية والوجهاء ومذكراتهم للمندوب السامي! ومن الآن، سيكون قادة الثورة المسلّحة هم الذين يوزّعون شهادات الوطنية أو شهادات الخيانة على الكبار والصغار سواء، وسيكون حكمهم قاطعاً ونهائياً، لا يملك أحد إلّا أن يمْتثل له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تمشي في الخلاء بحذر، وتتلفت حولها بين الفينة والأخرى، وهي تحمل على رأسها صرّة كبيرة ببعض المؤونة، حتى إذا وصلت رجم حجارة سمعت صوتاً لم تكن تتوقعه: «هون ياختي»، وبرز لها العبد من وراء الرجم. كادت توقع الحمل عن رأسها لوقع المفاجأة، فأسرع العبد وتلقّاه قبل أن يسقط. والتقت عيناهما في نظرة مباشرة خاطفة، فتراجعت بأسلوب عفوي، ووضعت يدها على صدرها مع شهقة نَفَس مسموعة. فاعتذر العبد أن يكون ظهوره المفاجئ قد أخافها. غلب عليها الحياء، ولكنها استطاعت أن تستدعي صوتاً متقطعاً لتسأل عن أخيها أحمد الذي اعتادت أن تلقاه دون غيره ليتسلّم منها المؤونة التي تجمعها من البيت ومن بيت «أبو العبد» وعدد آخر من البيوت في الخفاء. أجابها العبد بأن أحمد قد انشغل بأمر ما فأرسله بدلاً منه. وقد يتكرر ذلك من الآن فصاعداً. مرّت لحظة صمت قصيرة قبل أن تتنبه إلى نفسها فتلتف للرجوع:

- طيب، سلِّم على أخوي.

- الله يسلمك.

مشت بضع خطوات قبل أن تقول بتردد:

- ديروا بالكم عحالكم.

قال العبد:

- وانتِ.. قصدي.. إن شا الله الطريق أمان..

- الأمان بالله.

وتابعت السير، بينما شيعها بأنظاره لحظات أخرى قبل أن يمضي في طريقه. وبعد أن ابتعد ما ظنّها مسافة كافية، تغلّب على تردده وتوقف ليلتفت من جديد جهتها، وفي اللحظة نفسها استدارت تنظر صوبه، فأسرع كل منهما إلى الإشاحة ومتابعة السير وقد غلبهما الحرج الشديد. كان قلبها يخفق بشدة وساقاها تهتزان تحتها، حتى إذا ابتعدت مسافة كافية نزلت جالسة على الأرض. ولم يفت الحجر والشجر والعشب الجاف معنى الارتباك الذي وقع بينهما، فأجالت النظر حولها على خشية وحياء وشعور بالتأثم. هل يليق ذلك بفتاة مثلها؟ لم تكن تملك اللغة التي تساعدها على فهم مشاعرها أو وصفها أو التعامل معها. نعم، إنها تعرف معنى كلمة الحب، فالأغاني الشعبية الريفية تحفل بها، ولا حرج في الاستماع إليها، بل في المشاركة في غنائها في الأعراس والمناسبات. وكذلك لا تخلو منها الحكايات الشعبية التي يمكن أن يبطن

بعضها إشارات جنسية، أو يشي برغبات حسيّة مطمورة. أما أن تختبر الفتاة بعض تلك العواطف بصمت فذلك مما يختلط عندها ببعض مشاعر الإثم وكره الذات. وما الإثم إلا ما حاك في الصدر وخشي صاحبه أن يطّلع عليه الناس!! بل في حال الفتاة المحترمة، بنت الناس، فإنها تخشى أن يطّلع عليها المحبوب نفسه! هل أدرك العبد معنى ارتباكها؟ هل سمع ضجيج قلبها؟ وما عساه يقول فيها؟ ولكنه أظهر ارتباكاً أيضاً، فهل كان ارتباكه من نوع ارتباكها؟ أم محض الحياء والتأدب في حضرة الأنوثة في أرض خالية، ما كان ذلك اللقاء ليكون فيها لولا ضرورات الثورة التي تلزم بتجنب الرقباء! والحقيقة أن تلك المشاعر لم تكن بنت الساعة. فلطالما داهمتها كلما طرق باب البيت وسمعت صوته يتحدث مع أخيها أحمد، أو صادفها في إحدى طرق القرية، فيغضي كل منهما عن الآخر حياءً وحرجاً، وربما أشاح بوجهه عنه. وقد تكون المبالغة في تجاهل الحضور في الخارج تعبيراً عن الحضور في داخل النفس! فإذا انفردت بنفسها أو انشغلت بعمل البيت، تمثلت لها صورته بين الفينة والأخرى، فتغالب نفسها على طردها، فإن نجحت في ذلك نَعِمت، ولو مؤقتاً، بذهاب حرّ الشمس اللاسعة، وشقيت بانطفاء نورها!

وها هي الآن تتصارع فيها كل تلك المشاعر المختلطة الملتبسة، ولم تجد غير الحجر والشجر والعشب، تشاركها أنفاسها الحارّة. وتهدِّئ خواطرها، وتحنو عليها حنو الأمّ التي لا تحتكم لغير فطرتها الأولى، وطبيعتها الأصلية الخالدة.

ومع الزمن سوف تتعلم خضرة من الأرض، أن تحرر عواطفها من عبء التأثم الذي اكتسبته من الناس، ولسوف تعيرها مشاعر الحبّ النقي المكتوم، لغة خاصة تصالحها مع تلك العواطف. فإذا كانت أحلام النوم تأتيك على غير خيار منك، ولو كان بعضها مخجلاً، فكذلك عواطف الحب التي تدخل بك إلى عالم آخر غير منظور مليء بالخضرة وشقائق النعمان والأقمار وصهيل الخيول وعزيف النايات، بعيداً عن مقالة الناس وعيونهم المتطفلة الباحثة عن خطأ ما، يتحوّل إلى تهمة ساخطة، وحكاية ماتعة في الوقت نفسه!

ولكن، لن يلحظ أحد شيئاً يفضي إلى مثل هذا، فهي لا تنفرد بتلك المهمّة. ثمة أخريات من كل الأعمار يخرجن في أوقات أخرى بمثل ما تخرج به من المؤونة. ولن يلحظ أهلها أنها قبل أن تخرج تحرص على ارتداء ثوب نظيف وخرقة مطرّزة، وقد تخفي عقداً من الخرز الأزرق تضعه حول عنقها بعد أن تخرج بعيداً عن أنظار أمها، وقد تجرؤ أحياناً على وضع طيف من الكحل الخفيف الذي لا يلفت النظر. ولكن أمها ستلحظ أحياناً أنها تعود ساهمة شاردة منقبضة. إلا أن هذا لا يستدعي السؤال. فالإنسان يتقلّب في مزاجه لكل الأسباب، وحياة الريفي القاسية مليئة بتلك الأسباب على كل حال. ولا سبيل إلى أن تعلم أم أحمد أن سبب انقباض ابنتها في تلك المرات هو أن الذي كان في انتظارها لتسلم المؤونة لم يكن العبد الذي منعه مانع من واجبات الثورة. فإذا لقيته في مرة تالية ضجّ صدرها بالفرح حتى لتكاد أن تبدي به، وقد تتجرأ على

السؤال عن غيابه في المرة السابقة. وكفى بمجرد السؤال تعبيراً عن مشاعرها. وكانت مشاعره قادرة على التقاط المعنى:

- لولا الظروف يا بنت عمّي ما توخّرت!

يقولها بنبرة خاصة توحي بالمعنى الذي في نفسه. وكفى بجوابه تعبيراً عن مشاعره! فتلك حدود التعبير التي لا يجوز تعدّيها. فالحياء يضرب عليهما ستار الخفاء. وهو ليس الخفاء عن الآخرين فحسب، بل كذلك عن الذات.

على أن الخفاء ليس غريباً على خضرة، إذ تكاد أن تكون خفية عن نفسها وعن أهلها، فلا تحضر لهم إلا حين يغيب ظلها عن البيت وقتاً أطول من المألوف. فهي الابنة والأخت المتفانية في خدمة الجميع بصمت يشبه صمت الأرض التي تعطي بلا ضجيج أو ادعاء أو مِنّة أو تذمّر.

تشارك أمها في أعمال البيت، وإخوتها وأباها في عمل الأرض، دون أن يسمعها أحد تشكو أو تتذمّر. وتصغي إلى ما يدور بينهم من حوار أو جدال دون أن تشارك فيه حتى حينما يشتد وترتفع الأصوات وتختلف المواقف والآراء. فليس لها سلطة الأم القوية، كما ليس لها شيء من سلطة الذكور. كل ما تستطيعه هو أن تذرف دموعاً صامتة حين تجد العائلة نفسها في مأزق أو يلم بأحد أفرادها ضيق أو مرض، فتتمنى لو كان ذلك بها لا بأي منهم. ولم تكن لتستدعي في ذلك كلّه معاني التفاني

والتضحية. وما حاجة فتاة أميّة مثلها إلى تلك المفردات والمعاني والأسماء التي ما نشأت أصلاً إلا لوصف أمثالها. أما هي ومن حولها فقد بدا ذلك التفاني منها أمراً مسلَّماً به، كالأرض الطيبة التي نبتت فيها. فقط، عندما تغيّبها الظروف القاهرة في المستقبل الكئيب عن عيون أهلها، مع غياب الأرض نفسها، سوف تكف عن أن تكون أمراً مفروغاً منه، لتحضر في ذاكرتهم ومخيلتهم كما لم تكن حاضرة معهم برسمها وشخصها، ولسوف يستدعون كل مفردات الحب والعطف والمديح والحنين ليحيطوا بها صورتها البهيّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حيّ الصفيح في حيفا، كان فوزي يقف مع بعض الشباب يتحدثون في أمر الإضراب والثورة، حين اقترب منه صبيّ صغير، وأخذ يجذبه من بنطاله، انحنى عليه فوزي، فهمس الصبي في أذنه. ثم مشيا معاً مبتعدين. وحين اختفيا وراء منعطف قريب، كان رجل واقفاً في انتظاره وقد تلثم بحطّته. وانفلت الصبي مبتعداً. كشف الرجل عن لثامه للحظة قصيرة فخفّ فوزي يحتضنه بحرارة. ولم يتلبثا طويلاً في المكان، حتى انتقلا إلى بيت موسى. وبعد أن شربوا الشاي. قال موسى لأحمد:

- بالتأكيد ما تركت الجبال وبارودتك منشان تشرب شاي عند صاحبك موسى وتضيّع وقتك مع هذا الهامل.

وأشار إلى فوزي، الذي رد قائلاً:

- الله يسامحك.

قال أحمد ممازحاً:

- ليش، بعده هامل؟

قال فوزي:

- يا جماعة والله العظيم تبت من يوم ما شفت القسّام، الله يرحمه ويحسن إليه، والا الشغلة العاطلة لما بتلزق بالواحد عمرها ما..

قاطعه أحمد:

- يعني لو بعرف إنك بعدك هامل، كان دوّرت عليك في هالظروف؟ الثورة بحاجة لكل أزلام البلد.

قال فوزي:

- دخيلك يا اخوي يا أحمد.. أنا كنت بدوّر على طريقة حتى أصل إلكم وأجاهد معكم.. أنا راجع معك..

رد أحمد:

- إحنا بدنا إياكم هون.. السلاح بصلكم لعندكم.. بدنا أصحابنا في المدن يجمعوا إلنا معلومات عن الإنكليز.. تحركات الجيش والبوليس.. لازم يعرف الإنكليز إنه إيد الثورة طويلة، بتوصلهم قدام بيوتهم وأماكن عملهم. واللي بتعامل معهم بكون زيهم مين ما كان يكون.. الدنيا ما بتخلى من أولاد الحرام. وهسّع يا فوزي فيه إلك مهمة عاجلة..

وأخرج مسدساً وسلّمه لفوزي قائلاً:

- دم سعدي اللي أعدموه قدّام عينينا.. بتتذكره..!

هز فوزي رأسه وهو يقلِّب المسدس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوقت مساءً حين اقتربت السيارة التي تُقِلّ مدير سجن حيفا من منزله. وإذ نزل منها تابع السائق انطلاقه بها. وفي الوقت نفسه كان بائع متجوّل يرتدي الكوفية والعقال، ويلف طرف الكوفية حول فمه، يقترب

من المكان وهو يحمل على ظهره كيس قطّين (التين الجاف) وينادي على بضاعته:

- قطّين.. عسل يا قطّين..

تعجب مدير السجن من وجود بائع متجوّل يجرؤ على كسر الإضراب الذي عمّ البلاد، دون أن يخشى ردود فعل الناس الذين يمكن أن يعتدوا عليه ويتهموه بالخيانة ويقذفوا ببضاعته إلى الأرض، ثم يدوسوا عليه وعليها معاً. وكان البائع قد صار محاذياً لباب المنزل الخارجي قبل أن يدخل منه مدير السجن. وتوجّه إليه البائع بعرض بضاعته:

- قطين.. fig .. very good.. good كابتن.

لم يغالب الكابتن فضوله فسألك

- انت مش إضراب زي عرب؟ مش خايف من عصابات.

أجاب فوزي وقد تعمد أن يخفي وجهه عنه، فتشاغل بإنزال حمله وفتح الكيس، فيما بدا أنه يريد أن يكشف له بضاعته:

- بدنا نعيش يا بيك.. شوف يا بيك.

ولكن ما رآه الكابتن لم يكن تيناً جافاً.. وإنما كان مسدساً، وكان آخر ما سُمِع منه: Oh, my God وإذ حاول استلال مسدسه، كان فوزي أسرع منه، وانطلقت بضع طلقات وارتدّ الكابتن بجسمه إلى البوابة وقد تفجّر صدره. وانطلق فوزي راكضاً بسرعة هائلة.

سوف يتكرر هذا من الآن فصاعداً: فدائيون يرتدون الكوفية والعقال، ينبثق أحدهم من عماية المألوف والعادي اللذين لا يشيان بالنذير، وما هي حتى يترك صريعه وقد تجمّد تعبير الصدمة المفاجئة على وجهه الخامد، بينما يختفي الفدائي في غابة أشباهه. ومع أن كل شرطة المستعمرين كانت هدفاً مشروعاً، فإن تلك العمليات استهدفت على نحو خاص أولئك الذي عُرِفوا أكثر من غيرهم بالقسوة والتنكيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن ليخطر في بال أبي عايد يوماً أن يقف هذا الموقف. فها هو ابن «الغربيّة» المقطّعين الذين طالما تعرّضوا لظلمه وازدرائه: أحمد الشيخ يونس، يرسل أحد رجاله الثوار إليه وإلى المختار وسائر وجهاء القرية للقائه في موضع معيّن، فلا يمتنع أحد. ثم يقف أمامهم معتمراً سلاحه وحزام الرصاص، في جمع من إخوانه المجاهدين، ليلقي عليهم أوامره - أوامر الثورة وتوجيهاتها. فلا يملك أحد إلا أن ينصت لصوته القويّ الحازم الذي أعارته إياه الثورة المقدسة، وهو يذكِّرهم بأنهم مسؤولون أمام الله وأمام الثورة والخلق، وأن عليهم واجبات ينبغي أن ينهضوا بها: جمع التبرعات وتدبير المؤن حسب التعليمات والإشراف على تنفيذ أوامر الثورة واللجان القومية وتعميماتها، والتوقف نهائياً عن تأدية الضرائب للإنكليز مهما تكن العواقب، والامتناع عن التعامل مع سكان المستعمرات الصهيونية بالبيع والشراء، ومراقبة الالتزام بالإضراب. وأخيراً فإن عليهم أن يفتحوا عيونهم جيداً والتبليغ عن أي شخص يشكّون في عمالته للإنكليز وينقل لهم تحركات الثوار.

كانت لهجته قاطعة حازمة وهو يلقي عليهم الأوامر. وعلى الرغم من أن أبا عايد كان فخوراً بالثورة، ويتابع أخبار عملياتها بحماس واعتزاز، فإنه كان يتمنى لو كان الذي يحدِّثهم نيابة عن الثورة في تلك الساعة، أي رجل غير أحمد الشيخ يونس. ولم يستطع أن يتغلّب على شعوره بالامتعاض أن الثورة مكّنت أحمد أخيراً من أن تكون له اليد العليا

والصوت الآمر الناهي. فبقي صامتاً ساهماً وهو يتلقى مع غيره الأوامر والتوجيهات. وزاده ضيقاً أن يرى المختار يتملّق أحمد، ويؤكد له أنهم جميعاً لن يدّخروا جهداً في دعم الثوار ومدّهم بكل ما يقدرون عليه، والتزام أوامر الثورة دون تردد. أفما كان يكفي منه أن يستمع ويهز رأسه مؤيِّداً دون كل ذلك الكلام عن أن الثورة والثوار فوق رأس الجميع؟

أحمد الشيخ يونس فوق رأس الجميع باسم الثورة؟ هذا ما لا يستطيع أبو عايد ابتلاعه بسهولة، إلا أنه لا صوت يعلو الآن على صوت السلاح وحامليه. فللثورة أحكامها، ومن يعلو في مدارج القتال ضد الغزاة، يعلو بالضرورة بين أهله وقومه. وسيكون على أبي عايد وأمثاله أن يسمعوا النساء يغنين باسم القائد أبي صالح وإخوته المجاهدين، وأن يطلقن الزغاريد له إذا ظهر في القرية على حين موعد من مواعيد الثورة.

وحين أفضى أبو عايد لولده الأكبر ما يحوك في نفسه من هذا الأمر، ذكّره ابنه بتلك المعاني عن الثورة ورجالها وموازينها الجديدة. والحقيقة أن عايد كان راغباً في الالتحاق بالثورة. ولكن أباه ألحّ عليه أن ينتظر، ولم تكن له حجة إلا أن الثورة في أوّل أمرها، ولا يعلم أحد مآلاتها ولا الرؤوس الكبيرة التي تديرها. فالأوْلى التروّي حتى يطمئن الناس أنها تؤتي أُكُلها وأن تضحياتهم من أجل غاياتها لن تذهب سدىً ولن تتاجر بها بعض الزعامات بالتواطؤ مع الإنكليز الذين يحكمون نصف العالم بالقوة العسكرية!

والحقيقة أن عايد لم يقتنع بهذه الحجج، ولكنه خضع لرأي أبيه، ولو إلى حين.

وفي المقابل لم تُخْفِ أم أحمد سعادتها وفخرها بابنها، حين قصّ عليهم مسعود خبر ذلك اللقاء بين أحمد ووجهاء القرية، وكان حاضراً مع آخرين. فهتفت أمام زوجها:

- سامع؟ سامع؟ ابنك بعطيهم أوامر، وهمّه بهزوا روسهم.. أبو عايد والمختار.. من اليوم وطالع لازم تمشي في البلد رافع راسك ومعنقر عقالك.. والا شو؟ هيك بتبين الزلام، مش بالمضافات والعلالي وعماير الزيتون.. كل نسوان البلد بقولِنْ: ابن أم أحمد..

كالعادة لم يستخفّه كثيراً ما استخّفها. فقد كان يتنازعه الفخر بولده والخوف عليه فقال بنبرة حائرة:

- إن شا الله بس توقف عند نسوان البلد، وما يطير صيته لعند الإنكليز، يروحوا يحطوا جايزة على راسه من دون الخلق. ما همّه بخصّوا اللي بعرفوا انه إله اسم وراي في الثورة.

قالت الأم:

- الله الحامي.. الله الحامي.

وتغيّرت ملامح وجهها إلى الشرود والوجوم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يعلق على إحدى كتفيه بندقية، وعلى الكتف الأخرى ربابة، ويمشي واثقاً في الوادي أدنى الجبل، حين خرج عليه العبد من مكمنه وصاح به وهو يوجه إليه بندقيته أن يقف مكانه ويعرِّف نفسه. لم يبدِ الشاب أي اضطراب لظهور العبد المفاجئ وبعد لحظات كان الاثنان يصعدان الجبل إلى معسكر أبي صالح.

- أخوكم حَمَد.. حمد العربيات من السلط.

قال أحمد مرحِّباً:

- يا هلا ويا مرحبا بالنشمي.. وأنا أخوك أبو صالح.. أحمد الشيخ يونس.

ثم أردف مبتسماً وهو يسلّط نظره على البندقية والربابة:

- طيب، البارودة وبنعرف شو لازمتها.. والربابة؟

أجاب حمد:

- الربابة بتحكي عن حال صاحبها يا خوي يا أبو صالح.. اللي ما بقدرش يقوله بلسانه.. لما بزعل ولما بفرح ولما بحِنّ وبشتاق.

سوف تثبت الأيام أن هذا الشاب الصموت القادم من السلط هو من أنبل الرجال وأكثرهم شجاعة وإخلاصاً ورباطة جأش، بدون ضجيج ولا ادعاء ولا استعراض. ولم يكن وجهه ولسانه ليبوحا بما يعتمل في صدره. إنما تنوب ربابته عنه في التعبير عن مشاعره لمن يحسن السماع. فهي

رديف بندقيته، يحسن استعمال كل منهما بالقدر نفسه، قد توزّع عالمه بينهما. وكان في داخله شاعر ذو قلب رقيق، لا يسعفه حجاب الأميّة في التجلّي بلغة الشعراء المثقفين، ولكنه مع ذلك قادر على اختراق ذلك الحجاب بلغة الأرض والمطر والحصّادين. ولكن قلب الشاعر الرقيق كان في الوقت نفسه قلباً شجاعاً ثابتاً حين يدعو داعي القتال.

قادم من السلط من أجل فلسطين كما يُقْبِل بعض الإنسان على بعضه. لا، لم يقدُم لمساندة إخوانه الفلسطينيين كما يحدث في فزعات ذوي القربى! فهي حربه بقدر ما هي حربهم، وقد أخرجه إلى القتال ما أخرجهم. فليس لهم في الأرض المباركة أكثر مما له، وليس له فيها أقل مما لهم! ولم يكن ليخطر له غير ذلك وهو ينحدر من جبال السلط ويقطع النهر ميمماً وجهه نحو فلسطينه وقلبه وعقيدته. والحق أنه لم يحاور نفسه في هذه المعاني، إذ لم تكن عنده موضوعاً للتفكير والنظر، وإنما كانت عينه التي يبصر بها ولا يراها.. أمراً مسلَّماً به كلون جلده ونبض قلبه وانتظام أنفاسه.

وما هي حتى يصير من أقرب الناس إلى أحمد ومستودع سرّه، والأخ الذي لم تلده أمّه.

لم يكن قد مضى غير أسبوع على وصول حمد العربيات حتى خرج مع أحمد ومجموعته لأول معركة يشارك فيها.

كانت ناقلتان لجنود الانتداب تسيران في طريق ريفي حين فوجئ

ركابهما بكوم من الحجارة يعترض الطريق، فتوقفتا أمامها. وما هي حتى انهمر عليهم وابل من رصاص الثوار. ودارت معركة استمرت زهاء ساعتين قُتِل فيها عدد من الجنود البريطانيين وجُرِح آخرون، وحين وصلت التعزيزات التي طلبها جندي اللاسلكي، كان الثوار قد انسحبوا من أرض المعركة. ولكن الإنكليز قرروا تمشيط المنطقة وملاحقة الثوار قبل أن يبتعدوا. وحين وصلوا إلى مسافة غير بعيدة عن موضع القتال تناهى إلى أسماعهم صوت ناي يصدح بلحن شجيّ. وتقدّم بعضهم بحذر نحو الموضع. كان ثمة شاب يسند ظهره إلى سلسلة حجرية. ويرتدي «القمباز» الريفي وفوقه معطف واسع من فرو الخروف ينضم على صدره وبطنه بحزام بدائي. توقف عن العزف إذ أحسّ حركة الجنود الذين سرعان ما أحاطوا به وهم يشهرون السلاح. لم يبدُ عليه الخوف وهو يجيل بصره فيهم. وصاح به الملازم الذي يقود المجموعة بعربية مكسّرة متسائلاً عما يعمل هنا. أجاب الشاب:

- قاعد.. حرام!

تمعّن فيه الملازم، وسأله عن اسمه فأجاب:

- سليم.

- عصابات أنت؟

أجاب الشاب بنبرة التعجب، وكأنه لم يفهم السؤال:

- إيش؟

اضطر الملازم لاستعمال كلمة أخرى:

- ثوار؟

قال الشاب بنبرة تهكمية:

- أنا؟ بيش يا خوي؟ بهذي؟

وهز نايه أمام الملازم. فسأله عن اسمه، وعرف أن اسمه سليم.

تحيّر الملازم في هذا الشاب الذي لم يُبدِ حتى الآن أي اضطراب من الموقف، حتى إنه لم ينهض من مكانه، ولم يدرِ كيف يفسر ذلك: أهي ثقة البريء الساذج أم ثبات الشجاع المتمرّس. فسأله كيف يبقى جالساً في هذا المكان يعزف بنايه وقد كان يسمع أصوات الرصاص غير بعيد. فأجاب الشاب بأنه لا شأن له بما يجري هنا أو هناك، وأنه اعتاد سماع إطلاق الرصاص بين الفينة والأخرى وأنه يحب الانفراد بنفسه في الخلاء بعيداً عن الخلق. وحين ألحّ الملازم عليه بالسؤال عما إذا رأى ثواراً في المنطقة، أصرّ الشاب بأنه لم يرَ أحداً. وهنا علت نبرة الاستنكار في كلامه وبدا عليه التبرّم وهو يقول بصوت ثابت قويّ:

- المنطقة مليانة جبال وديان وعماير زتون.. هو أنا حامل ناظور وواقف أراقب الثوار بالنيابة عنكم؟ ياخي صدّق أو لا تصدّق.. أنا مالي شغل لا معكم ولا مع الثوار.. عاد فكّوا عني أو اعملوا اللي بدكم اياه. ليش كثر الحكي؟

هل كان يمكن أن يتحدّث بتلك النبرة القوية المشوبة بالتحدي لو كان

متورطاً حقاً؟

لكي يقطع الشك باليقين، أمره الملازم أن يقودهم إلى قريته، فلم يتردد الشاب، فمضى بهم عبر أحد الوديان ثم صعد بهم تلّة من التلال القريبة، وبعد أن انحدروا منها توقف فجأةً مديراً ظهره عنهم. صاح به الملازم متسائلاً عن سبب توقفه. وفجأة انهار الشاب إلى الأرض مرّة واحدة. ركض الملازم إليه فوجده قد فارق الحياة. وهنا فقط اكتشف بأنه كان مصاباً، وكان يخفي جرحه بمعطفه. فتأكد أنه كان من الثوار الذين هاجموا القافلة، وأنه كان ينفذ خطة لتضليل الجنود البريطانيين حتى يعطي الفرصة لإخوانه للابتعاد والاختفاء!

بعد سيل من اللعنات، لم يستطع الملازم إلا أن يلقي على جثة الشاب نظرة عميقة مفعمة بالإعجاب. ولسوف يصل خبر الشاب الذي تحامل على نفسه وصبر على جرحه إلى الصحافة. ومنها صحافة أعدائه. «العربي الاسبرطيّ» هكذا وصفته صحيفة Palestinian Post اليهودية والناطقة بالإنكليزية. ولم يكن أحمد وأصحابه أنفسهم يعلمون أنه كان مصاباً حين تطوّع بإعاقة الإنكليز وتضليلهم.

لم يستثنِ الجند أحداً حين نادوا بخروج أهل القرية جميعاً: رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى البيادر، ثم جعلوا الرجال في ناحية والنساء والأطفال في ناحية أخرى قريبة. ولم تُجْدِ اعتراضات المختار وأبو عايد وهما يُدفعان بأعقاب البنادق كغيرهم. وذكّرهم أبو عايد أنه على معرفة بنائب الحاكم. ولكن ذلك لم ينجِه من الإهانات والدفع. فإذا كان هو والمختار

يريدان تجنب العقوبات التي ستُفرَض على القرية كلها فعليهما أن يبوحا بأسماء الثوار من أهل القرية، سواء أكانوا ممن انقطعوا للعمل «التخريبي» في الجبال، أو ممن يصفونهم بالأنصار، وهم الذين يخرجون للمشاركة في «التخريب» ويعودون إلى القرية ليتابعوا حياتهم وأعمالهم فيها. وحين جوبه بالصمت والإنكار، أشار الضابط إلى بعض الجنود، وما هي حتى عادوا يحملون جثة ملفوفة بغطاء ووضعوها أمام الناس وكشفوا عنها. وهنا انطلقت صرخة متفجّعة من أم سليم، وأخرى من أبي سليم، وركض الاثنان نحو جثة ولديهما، فتلقاهما الجند بالبنادق وردوهما بقسوة بالغة. نزلت الأم على الأرض وهي تولول وتلطم وتنوح باسم ولدها، وتقدمت أم أحمد وأخريات وانحنين عليها يواسينها ويذكِّرنها بالله والصبر وأجر الشهيد. بينما تابع الأب اندفاعه نحو جثة ولده غير آبه بالجند وبنادقهم وهو يستمطر عليهم اللعنات والدعوات بأن ينتقم الله منهم. فأشار الضابط أخيراً بتركه، فانحنى على جثة ولده يقبّل جبينه ويبكي. وكان الجميع يراقبون بوجوه منقبضة عابسة حزينة، ويتمتمون بالترحم على الشهيد ولعن الإنكليز ومن والاهم.

ولكن الإنكليز لم يأتوا بجثة سليم إلا للتأكد من أنه ينتمي إلى هذه القرية، ليعقب ذلك انتقام جماعيّ يكون رادعاً للجميع. فقد توجه عدد من الجنود وتوزعوا على بيوت القرية الخالية الآن، وقلبوا ما فيها من الفراش والمتاع القليل وقدور المؤونة وحطموها. وما هي حتى سمع أهل القرية من مكان تجمعهم أصوات انفجارات هزّت المكان. فقد

تخيّر الجند بعض البيوت على نحو عشوائي، وفجّروها بالديناميت. وتعالى دخان التفجيرات في فضاء القرية.

وفي هذه الأثناء كان عدد من رجال القرية وشبابها الذين اختارهم الجند عشوائياً يتعرّضون لأنواع أخرى من العذاب. فبعد أن سخّروا بعضهم لقطع ألواح من الصبّار الشائك ومدّه على الأرض، دفعوا الآخرين إلى خلع نعالهم والمشي عليها، وهم ينخزونهم بحراب بنادقهم. وكان من بينهم أبو أحمد الذي كان كغيره يتقفز من وخز أشواك الصبر ويتأوّه مرغماً وقد بدا عليه الوهن والألم الشديد. ولم يستطع مسعود أن يحتمل رؤية أبيه على تلك الحال، فانفلت راكضاً نحوه وهو يصيح، وتلقاه الجند بأعقاب البنادق ووخز الحراب، ثم ألقوه على الأرض وأخذوا يركلونه بشدّة بالغة. وهنا تحوّل أبوه إليه دون نظر في العواقب، فتلقى من الضرب والركل والوخز مثلما تلقى ولده، دون أن يأبه الجند بسنّه ووهنه. بينما كانت أم أحمد وخضرة تولولان من مكانهما، وهَمّ حسن من مكانه أن ينضم إلى أبيه وأخيه وقد ثار الدم في عروقه، لولا أن جذبه بعض الرجال وردّوه بقوة، وطوقوه بأذرعهم وهو يحاول التفلّت، وهمس بعضهم أنه ليس بوسعه أن يفعل شيئاً إلا أن يزيد الأمر سوءاً، وأن الصبر من شِيَم الرجال. أما عليّ فكان ينظر كالمصعوق متجمّداً في مكانه.. وقد ضجّ رأسه بالطنين. على أن عقوبة مسعود لم تتوقف عند الركل والوخز. فقد مُزِّقت ثيابه لينكشف صدره وظهره، وألقي على ألواح الصبّار، وضغط الجند ببساطيرهم على صدره

إمعاناً في الأذى.

ولم يكتفِ الجند بكل إجراءات العقاب الجماعي تلك، والتي ستصبح سياسة مكرورة، حتى أنذروا المختار بضرورة جمع غرامة جماعية قدرها مائة جنيه وتسلميها في غضون ثلاثة أيام، وإلّا تعرضت القرية لمزيد من العقوبات.

عاد الناس إلى بيوتهم لينظروا الخراب الذي أحدثه الجند فيها. أما الذين فقدوا بيوتهم بالتفجيرات، فتوزعوا بين العراء وبيوت الأقارب والأصدقاء والأجاويد الذين فتحوا لهم بيوتهم وأقسموا عليهم أن ينزلوا فيها، حتى يتعاون الجميع على إعادة بنائها من الطين والتبن.

وبات مسعود تلك الليلة محموماً يهذي، بينما تتناوب أمه وأخته على مسح جسمه بالخرق المبلولة. أما الأب فقضى ليلته ساهراً يوزّع وقته بين التسبيح والتدخين والدعاء وتحصين ولده بما تيسر له من القرآن والأدعية، مخفياً أوجاعه من آثار الدفع والضرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصوت متلجلج، اعتذر المختار أبو عارف لأحمد عن عدم تمكّنه هذه المرة من جمع المعونة الشهرية على مجرى العادة، إذ إن الغرامة التي فرضها الإنكليز على القرية لم تُبقِ في أيدي الناس ما يجودون به. وهم قبل ذلك يعانون من استمرار الإضراب الكبير الذي يوشك أن يمضي عليه الآن خمسة أشهر.

وحلف له بالطلاق أنه اضطر إلى استيفاء العجز في الغرامة من جيبه. وبدا أحمد متفهماً حتى الآن. ولكن، لم يكن هذا كلّ ما عند أبي عارف من الكلام. وبدا أكثر تحرجاً وتردداً وهو يتقدّم بالديباجة المعهودة عن انتماء الجميع للثورة وأنها فوق رأسه ورؤوس الآخرين. والكل يقدِّر أبطالها الذين يضعون دماءهم على أكفّهم في سبيل الله وفي سبيل الوطن. وهنا أدرك أحمد أن وراء تلك الديباجة ما وراءها فاستعجله في الإفصاح بشيء من الضيق ونفاد الصبر. فذهب أبو عارف بنظره إلى أبي عايد الذي يرافقه في العادة في مثل ذلك الموعد المضروب في مكان ما من البريّة، وكأنه يدعوه إلى الكلام المتفَق عليه. ولكن أبا عايد أشاح عنه. فاضطر المختار إلى عرض الموضوع متلعثماً ومُطرِقاً حتى يتجنب مواجهة نظرات أحمد الصارمة. فتمنّى على أحمد أن يبتعد بعملياته القتالية عن القرية ما أمكن ذلك، حتى لا تتعرض إلى مثل ما تعرضت له من العقوبات الجماعية الباهظة، فيثقل الأمر على الناس، ثم لا يجدون ما يدعمون به الثورة.

كان ردّ أحمد صارماً. فالمناطق مقسّمة بين مجموعات الثوار. وكلٌّ يعمل في حدود منطقته، إلا أن تأتي الأوامر من القيادة العليا بتحرُّك مجموعة ما لدعم مجموعة أخرى حسب مقتضى الحال. وحيث يكون الهدف المناسب تكون العملية. وإذا تعمّدت كل مجموعة الابتعاد عن القرى القريبة منها فأين تذهب الثورة وأين يذهب الثوار؟ فالبلد مليئة بالقرى. ثم ذكَّره بأن الثورة لا تكون بغير تضحيات من الجميع. وها هو

أبوه وأخوه لم يسلما من عقاب الإنكليز مع سائر أهل القرية.

في طريق العودة من ذلك اللقاء، لبث المختار وأبو عايد صامتين شاردين وقتاً يتلفتان في كل اتجاه، ثم أخذ أبو عايد يحوقل ويستغفر، ولما أكثر من ذلك ضاق به أبو عارف ذرعاً وقد استشعر أنه يغالب شيئاً في نفسه، فسأله عن الأمر. فأجاب متبرّماً ومتهكماً:

- يعني المختار أبو عارف بعلوّ قدره صار عليه يتأتئ ويحط راسه في الأرض وهو يحكي مع أحمد صالح الشيخ يونس؟ شو صار في الدنيا يا ناس؟

أجاب المختار:

- يعني نظلنا نعيد ونزيد!! صار في ثورة وثوار.. وناس حاملة السلاح بتقاتل الإنكليز وبتضحّي بأرواحها، عني وعنك وعن كل البلد! هذا اللي صار.. وبعدين يا خوي، ما سمعت صوتك بلعلع قدامه! ليش ما وريتنا مراجلك في الحكي مع أحمد صالح الشيخ يونس؟ لما تطلعت عليك منشان تحمل عني درت وجهك وعملت حالك أعمى وطرش! وبعدين يا خوي، إذا مش عاجبك إنه أحمد صالح الشيخ يونس يتأمّر فيك وفينا، خذلك قطعة سلاح واطلع مع الثوار وصير قائد وتأمّر أنت زي ما بدّك!

لم يجد أبو عايد ما يردّ به، سوى العودة إلى الحوقلة والاستغفار. وفجأة انطلق المختار بالضحك، فالتفت إليه أبو عايد مستطلعاً.. فاستأنف المختار بمزيد من التهكم والسخرية:

- شو رايك المرّة الجاي في موسم الزيت والزتون تفش غلّك في الزلمة وعيلته وترفض تعصر لهم زتوناتهم في معصرتك؟

وتابع الضحك من جديد، بينما غَذّ أبو عايد سيره متقدّماً عليه، وهو يتمتم:

- كلّه من الإنكليز. كلّه من الإنكليز الله ينتقم منهم.

هتف المختار ممعناً في النكاية:

- ما هذا اللي بعمله أحمد والثوار.. بنتقموا من الإنكليز.

علّق أبو عايد دون أن يلتفت:

- الظاهر من الإنكليز.. ومنّا!

واستدرك على نفسه:

- أستغفر الله.. أستغفر الله.

ردّ المختار:

- أيوه استغفر يا خوي.. جمعت حالك مع الإنكليز.. ارفع راسك وعنقر عقالك. هه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"لم يكن تصاعد الإجراءات القمعية من حكومة الانتداب إلا اعترافاً ضمنياً باتساع نطاق الثورة وعملياتها مع استمرار الإضراب الكبير الذي

بات أقرب إلى العصيان المدني الشامل. وكان الإضراب موجعاً للطرفين. ولكن الذي لا يملك الكثير لا يخسر الكثير. كذلك كان حال جلّ الشعب الفلسطيني بسبب سياسات الانتداب، إلا قلة من أصحاب المصالح التجارية والاقتصادية الكبيرة. وكان قدوم نوري السعيد من العراق إلى القدس مرتين للتوسّط بين الإنكليز واللجنة العربية العليا شاهداً آخر على تعاظم قوة الثورة. ولكن مساعيه باءت بالفشل، إذ لم يقدّم الإنكليز إلا بعض الوعود الغامضة على عادتهم، ومنها تشكيل لجنة ملكية تأتي من بريطانيا لدراسة الظروف التي أدّت إلى انفجار الأوضاع، ثم تضع التوصيات المناسبة لمعالجة تلك الظروف. واشترطت لذلك أن تتوقف الثورة وينتهي الإضراب مسبقاً. والحقيقة أنه لم يكن ليسع اللجنة العربية العليا إلا التمسك بمطالب الثورة وفي مقدّمتها وقف الهجرة الصهيونية فوراً وعمليات تمليك الأراضي للحركة الصهيونية، وتسليح عصاباتها وغير ذلك من السياسات الرامية إلى تنفيذ وعد بلفور. وقد أدركت الزعامات السياسية كلها أن التراخي في المطالب السياسية لن يُفضي إلا إلى تراجع دورها في الساحة الوطنية وانحسار التأييد الشعبي لها مع التفاف الناس حول الثورة التي كان قوامها من الفلاحين. وعلى ذلك لم تفلح سياسة الجزرة الموعودة، وبقي التغليظ في سياسة العصا. فأشاع الإنكليز أنه قد تقرّر استقدام الجنرال المعروف جون ديل، أحد أبرز جنرالات الجيش البريطاني، ومدير العمليات والاستخبارات العسكرية سابقاً ليتولى بنفسه القضاء على الثورة في أيام معدودات، مع استدعاء قوات إضافية وطائرات ودبابات ومعدات عسكرية أخرى من

مصر. وكان ذلك شاهداً آخر صارخاً على قوة الثورة.

ولكن قبل أن يصل الجنرال ديل، سبقه إلى البلاد قائد عسكري عربي فذّ جمع بين الدراسة العسكرية النظامية، والخبرة الطويلة في القتال الثوري ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا، والاستعمار البريطاني في العراق. ذلك هو فوزي القاوقجي ابن مدينة طرابلس وقد تمكن من العبور إلى فلسطين مصطحباً معه مجموعات من المتطوعين المدرّبين المتمرسين من العراق وسوريا، وانضم إليه عدد آخر من المتطوعين من شرق الأردن.

وإضافةً إلى المشاركة في الثورة، فقد كان الهدف نقل الخبرات القتالية والتنظيمية إلى الثوار الفلسطينيين، وفتح معسكرات للتدريب تحت إشراف القاوقجي وأعضاء المفرزة العراقية المحترفة التي جاءت معه. ولم يطل الوقت حتى ظهرت آثار هذا التطور في أداء الثورة وعملياتها. وكانت معركة بلعا في مستهل أيلول عام ١٩٣٦ شاهداً قوياً على ذلك، إذ تمكّن الثوار من إلحاق الهزيمة بجيش الاحتلال البريطاني الذي حشد لها عدداً من الدبابات والمصفحات والمدفعية، مدعومة بطائرات حربية. وتمكن الثوار من قتل عدد من الضبّاط والجنود وإسقاط ثلاث طائرات، ولم تعترف سلطات الانتداب إلا بجزء من تلك الخسائر. وكان من الطبيعي أن يجن جنون السلطات بهذا التطور في قدرات الثوار. وأشدّ ما أرّقهم منها ارتفاع الروح المعنوية في أوساط الشعب الذين شجعتهم انتصارات الثورة على التحاق العديد منهم بها، والأنكى مشاركة المتطوعين العرب من مناطق مختلفة، وهو ما يهدّد بأن تصبح فلسطين

بؤرة المقاومة العربية ضد الوجود الاستعماري البريطاني في المنطقة كلها".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

أخيراً وصل الجنرال «ديل» تتقدّمه نياشينه والتعزيزات العسكرية التي استقدمها الانتداب من مصر، والدعاية الإنكليزية الضخمة التي تعهّدت بالقضاء على الثورة في خمسة عشر يوماً.

واستقبله الفلسطينيون بأغنية ساخرة من شعر شاعرهم الشعبي نوح إبراهيم الذي غدا صوت الثورة والشعب المقهور:

يا حضرة القائد دِلّ

لا تظنّ الأمّة بتمِلّ

لكن إنت سايرها

بلكي على يدّك بتحلّ

ودبرها يا مستر دل

إن كنت عايز يا جنرالْ

بالقوّة تغير الحالْ

لا تعتقد أكيد

طلبك صعب من المحال

لكن خذها بالحكمة

واعطينا الثمن يا خال

ونفّذ شروط الأمّة

من حريّة واستقلال

ودبّرها يا مستر دِل.

وصاحب وصول الجنرال، اجتماعات نظّمتها سلطات الانتداب مع وجهاء الريف لتحذيرهم من دعم الثوار والتستر عليه، وإلا نالهم من العقوبات ما ينال الثوار أنفسهم بعد انقضاء أمرهم القريب. وقد وقع التهديد في صدور بعضهم، حتى أعادت عليهم نفوسهم الأمّارة السوء تلك الحجة القديمة الجديدة بتحكيم العقل والمنطق. فتلك هي الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، فكيف لحفنة من الثوار الفلاحين الذين يتناوبون على بنادق قديمة أقل منهم عدداً أن تهزم كل تلك الدبابات والرشاشات والطائرات الحربية تحت قيادة الجنرال الكبير. ولو كان ثمة رجاء في ذلك لكانوا أول من يضحون بأرواحهم وأموالهم في سبيل الوطن!

ولكن الثورة ما لبثت أن أنْسَتهم وساوس الشيطان بوعيد مضاد شديد الحزم والصرامة. وتولّى أحمد نقل تحذيرات الثورة لوجهاء منطقته ومنهم المختار وأبو عايد. وخاطبهم هذه المرة بنبرة آمرة قاطعة منذراً بعواقب وخيمة لكل من تسوّل له نفسه التعاون مع الإنكليز أو التهاون في تقديم الدعم والمؤونة المقرّرة للثوار، أو في الامتثال لتعميمات الثورة وأوامرها. وأفاد بأن الثورة قد شكلت شبكة استخبارات واسعة تراقب وتأتي بالمعلومات. وعلى الرغم من أن أحمد صالح الشيخ يونس قد

تقمص عبر الشهور الماضية صورة الثورة في مظهره وثيابه وسلطته وسلاحه والعمليات التي قادها أو شارك فيها، إلى جانب المجموعة المسلحة التي تحيط به وأسلوب كلامه وخطابه، فإن أبا عايد من دون الناس لم يستطع أن يتحرّر من المقارنة بالصورة السابقة وما آلَ إليه الحال من انقلاب الواقع والمواقف بينه وبين ابن «الغربيّة المقطعين»، فلا أراضيه ولا أمواله ولا عزوته الكبيرة تكافئ الآن سلطة السلاح والثورة التي اكتسبها أحمد منذ وضع دمه في كفه في سبيل شعبه ووطنه هذه المرة بدلاً من الدفاع عن أسرته ومواجهة الاضطهاد الذي كانت تتعرّض له من بعض شعبه، كما كان الحال قبل الثورة. ولذلك عاد أبو عايد من ذلك اللقاء الحاسم يغالب مشاعره الموزعة بين كره الإنكليز والصهاينة وبين غيظه من تأمّر أحمد عليه وعلى أمثاله، دون أن يسعه إلا الصمت والإطراق والامتثال. ألا لعنة الله على الإنكليز والصهاينة، فلولا تسلّطهم على البلاد والعباد، لما كانت ثورة ولا ثوار ولا الثائر أحمد الشيخ يونس يأمر وينهى ويراقب ويحاسب.

لم يستطع أن يكتم مشاعره أمام ولده عايد، بينما كان يتمشّى في باحة بيته بعصبية وهو يتمتم ويدمدم وينفخ عن صدره وسيجارته. ولم يحاول عايد هذه المرة أن يعلّق أو يدلي برأي.

فاكتفى بهز رأسه يميناً وشمالاً، وكتم امتعاضه وخرج. والحقيقة أنه كان أشد امتعاضاً من نفسه. فإذا كان أحمد صالح الشيخ يونس قد علا وكبر بانضمامه المبكر إلى الثورة فما الذي يفعله هو هنا الآن وهو الفتيّ

القوي؟ أليس هو الذي كمن لأحمد قبل زمن مع بعض جماعته وأوسعوه ضرباً حتى كادوا أن يجهزوا عليه، انتقاماً لأبيه من تجرؤه عليه؟ أم هي كما قال القائل: أسد عليّ وفي الحروب نعامة؟! فما باله الآن يتدارى من عيون النساء ويشعر بالحرج والتصاغر، بينما يتهيأ الثوار لمواجهة الجنرال ديل وعساكره؟ ولأول مرة يشعر بالغيرة من أحمد.. نعم، من ابن «الغربيّة المقطعين».



لم تخطئ الدعاية الإنكليزية كثيراً في تقدير المدّة التي سيقضيها الجنرال ديل في فلسطين ليفرغ من مهمته، فقد زاد عليها يومين فقط، فبعد سبعة عشر يوماً من وصوله، خرج من فلسطين مذموماً مدحوراً!

بدا ذلك أشبه بالمعجزة. وهو بالفعل ما اعتقده البعض أو أحبّوا أن يعتقدوه. كيف لأولئك الثوار الفلاحين البسطاء الذين يتناوبون أحياناً على البنادق أن يهزموا واحداً من ألمع جنرالات الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس بكل جنده المدرّبين وآلياته ودباباته وطائراته الحربية، إلا أن تكون الملائكة قد دخلت الحرب معهم! هكذا تحدّث بعض الوعاظ والمشايخ الذين كانوا شبه عوام، وعُدّتُهم من المشيخة لحية طويلة وعمامة، ويحفظون من قصص الأولياء وكراماتهم أكثر مما يحفظون من القرآن ومتون الفقه! وذلك ما يجتذب السامعين على كل حال.

ولكن جغرافيا المكان التي تنطبع فيها روح أصحابه من زمن كنعان،

ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم، تحالفت مع حماسهم الطاغي وإيمانهم العميق، فعرفوا كيف يستدرجون القوات الإنكليزية إلى مصائد الجبال والوديان. فكانت معركة «جبع» أول مواجهة ينتصرون فيها نصراً مؤزراً على الجنرال الكبير، أعقبتها معركة «بيت أمرين» بالنتيجة نفسها:

هزّ الرمح بعود الزّين

وانتو يا نشامى منين

واحنا رجال فلسطين

والنِّعِم والنعمتين

في بلعا ووادي التفاح

صارت هجمة وضرب سلاح

يوم وقعة بيت امّرين

تِسْمع شَلْع المَراتين

وكان لتلاحم أهل القرى مع الثوار أثر عظيم في حسم تلك المعارك. ولم ينتهِ شهر أيلول من عام ألف وتسع مائة وستة وثلاثين حتى كانت أسطورة الجنرال ديل قد انتهت معه. وغادر بلا رجعة يجرّ أذيال الخيبة، تلاحقه قصيدة نوح إبراهيم:

ما دمت رجل خبير

وقائد عسكري كبير

فهّم لندن باللي صار

واللّي بعدو راح يصير

ودبّرها يا مستر دِل

جيت فلسطين الحرّة

حتى تقمع الثورة

ولمّا درست الحاله

لقيت المسألة خِطْرة

بدنا تَفَهّم بريطانيا

حتى تكفينا شَره

وتصافي الأمّة العربية

بمنع البيع والهجرة

ودبّرها يا مستر دِلْ

وقد علمت لندن بالذي صار، وأدركت أن عليها أن تُجرّب طرقاً أخرى غير أسلوب الحسم العسكريّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمّت البهجة فلسطين كلّها، واحتفل الناس في كل مكان، وازدادوا ثقة بثوارهم، وتخلّى الكثيرون من «الأفندية» عن شكوكهم السابقة بقدرة الثورة على مواجهة الإنكليز.

ولم تكن قرية الثائر أحمد صالح الشيخ يونس أقل حماساً واحتفالاً بالنصر المبين. ودخلها بطلهم أبو صالح في مجموعة من الثوار الذين شاركوا في تلك المعارك، دخول الأبطال الفاتحين. وقد أكسبتهم نشوة النصر ثقة زائدة جعلتهم لا يحسبون حساباً لغارات الإنكليز، وهم يدخلون القرية بين تكبير الرجال وزغاريد النساء، وهم يهزون بنادقهم. وكان على رأس مستقبليهم المختار وأبو عايد! وكيف لأبي عايد أن يتخلّف عن استقبال البطل أبي صالح في «عزوته» الجديدة من إخوانه الثوار، فيبوء بغضب الناس وازدرائهم؟ بل كان عليه أن يجاريهم في الهتاف ولو بتحريك شفتيه فقط:

هبّت النار والبارود غنّى

تسلم لنا يا حامي ظعنّا

«حامي ظعنّا».. هكذا صار أبو صالح الذي لم يكن وأسرته قادرين على حماية زيتونهم وحطب الدار الذي أحرقه رجال أبي عايد في يوم ما، والحمار الذي ما فرحوا بشرائه حتى وجدوه مطروحاً يرفس بأقدامه قبل أن ينفق مسموماً. ولكن الدنيا تتغيّر، والآن زمن آخر.. زمن البارود الذي يقول أكثر مما تقول «عزوة» العشيرة والمال:

بارودنا بارودنا

يلمع بزنود جنودنا

والبزر يقرع في الحديد

ورجالنا باسها شديد

يوم الوغى ننخى بها

تحلّق الناس في ساحة القرية أمام المسجد يهزجون ويهتفون، وقد صفّت المقاعد «للغانمين» يتصدّرهم أبو صالح كما أصرّ المختار، وإلى جانبيه جلس المختار وأبو عايد، يليه مباشرة أبو أحمد: صالح الشيخ يونس، كما أصرّ المختار أيضاً. فمن أوْلى من والد البطل في الجلوس مع وجوه القوم في صدر المجلس؟ وبالطبع كان أبو أحمد أكثر الناس فخراً بولده الذي عوّضه بسلاحه عن قلّة المال والعشير، وجعل المختار يرسل الهدايا تباعاً إلى بيته من الجبن والزيت والزيتون المخلل، وأخيراً أهداه حصاناً هجيناً لحرثه وحمل زيتونه.. إلى معصرة «أبي عايد».. نعم، معصرة أبي عايد التي تتولّى عصره ساعة وصوله!

ومع ذلك لم يسع أبا أحمد أن يتحرّر من غرابة الموقف الذي يجد الآن نفسه فيه متصدراً إلى جانب أبي عايد. ولأمر ما تجنّب كل منهما أن يلتفت إلى الأخر وآثرا تصويب النظر على حلقة الدبكة أمامهما. وابتز أبو عايد من نفسه ابتسامة باهتة حين أطلقت إحدى النساء زغرودة تتغنى بأحمد صالح الشيخ يونس:

هي يا أبو صالح ويا برج عالي ما هزّوك

هي وبضرب الطوب والمدفع ما هزّوك

هي وسبع باشات والوالي ما هزّوك

هي حتى المندوب السامي ما تحسب له حسابْ

لولولولو...

وجاوبتها النساء الحاضرات، وبينهن أم أحمد وخضرة اللتان كادتا أن تطيرا من الفرح المتضاعف بالنصر على الجنرال، وبعودة أحمد سالماً غانماً، وبالعز والجاه اللذين اكتسبهما لنفسه وعائلته الصغيرة. وكانت خضرة ترى ظل العبد بطرف عينها واقفاً على بُعد بين أصحابه وهو يحمل بندقيته ويهزها مع إيقاع الدبكة، وقد توشح بحزام الرصاص. ولكنها غالبت نفسها طويلاً على النظر إليه حتى غُلِبت عليها من غير حول ولا قوة، وقد ظنت أن أحداً لن يلحظ نظرة خاطفة سريعة في زحمة المكان وحركته وضجيجه. ولكن واحداً فقط التقط تلك النظرة، وهو العبد نفسه الذي كان في الوقت نفسه يرسل إليها نظرة ظنّها أيضاً تعبر دون أن يلحظها أحد. وحين التقت نظراتهما عن بُعد للحظة خاطفة اهتز كيانها، وأغضت على عجل وتحوّلت ببصرها إلى حلقة الدبكة التي لم تعد تراها حقاً. وإذ أخذ قلبها يختلج في صدرها كعصفور في فخ الصيد، خشيت أن يعلو ضجيجه على ضجيج الدبكة والزغاريد والأزجال وصوت «اليرغول».

أما حسن فحاول أن يجذب أخاه علياً إلى حلقة الدبكة، ولكن هذا قاوم بشدة حتى انفلت من قبضة أخيه الذي اندفع أخيراً وحده إلى الحلقة وانضم إلى «الدبيكة». وكان قد أتقنها حتى تفوّق بها على الكثير من أهل الخبرة الطويلة. وما هي حتى انخرط فيها بخفة ونشاط لافتين وهو يلوّح بعصا رفيعة، وقد جعل ذراعه الأخرى خلف ظهره وأخذ يتقفز متردداً بين الصعود والهبوط على ركبتيه، وبين طرف الحلقة وأمامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن البهجة العامّة لم تطل كثيراً عند شطر من الناس، لا سيما أهل السلاح والشباب الوطني. فما عجز عنه السلاح ومواهب الجنرال ديل. لا تعجز عنه السياسة البريطانية التي يحار الناس في وصفها بين الخبث والدهاء.

في مقر اللجنة الوطنية في حيفا، أخذ الدكتور أكرم يهز الصحيفة ويتقلب بين القراءة والشتائم. بيان من الملوك العرب موجّه إلى الشعب الفلسطيني يدعوهم إلى الإخلاء للسكينة والهدوء وإنهاء الإضراب العام والعمليات العسكرية، لإعطاء الفرصة للحكومة البريطانية «الصديقة» لمراجعة الأوضاع والتوصل إلى حل سياسي عادل يرضي الجميع، بعد أن تعهدت بذلك لحكام العرب. ولم ينسَ أولئك الحكام أن يؤكدوا للشعب الفلسطيني أنهم سيواصلون دعمهم ومساعدتهم في تحقيق أهدافهم الوطنية، مؤكدين حُسْن نيّات الحكومة البريطانية وعزمها على الوفاء بتعهداتها!

لم يكن كل الحاضرين على رأي الدكتور أكرم السويدي في التشكيك بتلك المزاعم والتعهدات. بل رأى بعضهم أن أهداف الإضراب الكبير والثورة المسلحة قد تحققت أو توشك أن تتحقق. فقبل شهر فقط كان نوري السعيد في البلاد مبعوثاً من العراق للتوسّط في الأزمة القائمة مع سلطة الانتداب، ولم يتوصل إلى شيء، وأبت سلطة الانتداب أن تعطيه وعداً رسمياً، فعاد يجرجر أثياب الفشل. والآن، وبعد خيبة الجنرال ديل، ها

هم الحكام العرب أنفسهم يتعهدون بحل عادل توافقوا عليه مع الحكومة البريطانية نفسها في لندن. وما كانوا ليقدّموا هذه التعهدات لولا ثقتهم بالتعهدات البريطانية لهم. وما كان هذا كله ليكون لولا عزائم الثوار وتضحياتهم!

صاح أكرم مذكِّراً الحضور بتاريخ التعهدات والنيّات البريطانية وما يصحبها من كلام عام غامض ملتبس يحتمل كل التأويلات.

كذلك كان رأي أحمد صالح الشيخ يونس، وجُلّ الثوار وقادتهم. ولكن القيادات الوطنية العليا في البلاد استجابت لنداء الحكام العرب، ودعت إلى الهدوء، على الأقل حتى يتبين صدق النيّات البريطانية.

ثم جاءت الضربة التالية من داخل فلسطين نفسها حين أصدر أصحاب بيارات البرتقال الكبيرة الذين صنعوا ثرواتهم الطائلة من تصدير البرتقال إلى الخارج من ميناء يافا بصفة خاصة، نداء إلى قادة الحركة الوطنية بإنهاء الإضراب الكبير الذي أتمّ الآن زهاء ستة شهور، وأضرّ بمصالح الشعب الفلسطيني مع إغلاق المصالح التجارية وتوقف أنشطة التصدير. وها هو موسم البرتقال قد أقبل. وقد استطاع الصهاينة في هذا الوقت أن ينشئوا ميناءً بديلاً في تل أبيب يصدِّرون منه برتقالهم من البيارات والأراضي التي استولوا عليها بمساعدة الانتداب. فما مصلحة العرب في الاستمرار في وقف التصدير والعمل في ميناء يافا لتصدير برتقالهم الذي يعمل فيه آلاف العُمّال، إلا أن يزداد الصهاينة غنىً وقوة، ويزداد الفلسطينيون فقراً وشقاءً!

انتهى الإضراب أخيراً. ولم تكن نهايته بعد ستة شهور كاملة هي الأمر العجيب، وإنما كان العجيب استمراره كل ذلك الوقت، مع كل ما تحمّله الشعب من الفاقة من أجل الغاية الوطنية العظمى! ومع هذا التحوّل في الوضع العام، تعرّض القائد فوزي القاوقجي لضغوط عظيمة من الخارج والداخل لمغادرة البلاد. وهكذا كان.

ولكن ماذا عن الثورة والثوار؟

لا، لن يلقوا سلاحهم، ولن ينزلوا من الجبال إلى قراهم. ولكنهم في الوقت نفسه سيستجيبون جزئياً لدعوات الزعامات الوطنية المعروفة، فيكتفون ببعض المناوشات هنا وهناك، حتى ينجلي الموقف البريطاني عن نتائجه العملية، ويكون لكل حادث حديث.

لجنة ملكية تشكلها الحكومة البريطانية لزيارة البلاد ودراسة الأوضاع والتشاور مع القادة العرب. هذه هي الخطوط الأولى. فيك الخصام وأنت الخصم والحكم، كما ردّد الدكتور أكرم على مسمع أبيه الذي كان كالعادة أقرب إلى التفاؤل وحُسْن الظن واستنفاد الطرق السياسية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحب أحمد أن يداعب صاحبه حمد العربيات وهو يجلس إلى جانبه في مقرهم في الجبل، فقال:

- زي ما أنت شايف يا خوي يا حمد. هديت الدنيا. ما بدّك ترجع عالسلط تتجوّز وطفة؟

نظر إليه حمد متفحصاً، ثم قال:

- لما ترمي أنت البارودة اللي معك، وتنزل تدوّر على نصيبك.

قال أحمد:

- نصيبي في هالبارودة.

قال حمد:

- واللي سمعك. والا مفكّر إنه إلك في هالبلاد أكثر مني؟

وأخذ يدندن على الربابة. وتابع أحمد:

- ووطفة؟ لوينتا بدها تظل تستنّى؟

- يا خوي يا أحمد أجلت الجيزة واشتريت بمهرها هذه البارودة. والبارودة زي الأرض يا خوي، بتنشرى وبتتورث، بس ما بتنباع.. عيب عالزلام. ووطفة إذ كانت بتريدني زي ما بريدها بتستنى، والا الله يسهّل عليها.

أحب أحمد أن يجاريه:

- قولتك. النسوان كثار. وإذا صار ما صار بنجوزك من هالبلاد.

جر حمد قليلاً على ربابته وقد ذهب في التفكير وسرح بصره في الجبال ثم قال:

- النسوان كثير.. بس فيه وطفة واحدة.

ذلك المقاتل النبيل قليل الكلام، كان عاشقاً حقاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما توقع الدكتور أكرم، ومثله كثيرون، جاء تقرير اللجنة الملكية البريطانية أخيراً، بعد شهور من المداولات والاتصالات والاجتماعات، مخيباً للآمال، حين تم إعلانه في صيف عام ألف وتسع مائة وسبعة وثلاثين، موصياً بتقسيم فلسطين!

«هبّت النار في روس الجبال»، ونهض السلاح من غفوته القصيرة، واشتعلت الثورة من جديد أشد مما كانت.

وكان حادث اغتيال أندروز، حاكم لواء الجليل في آخر أيلول من عام ألف وتسع مائة وسبعة وثلاثين إعلاناً صارخاً بتجدد الثورة. وهذه المرة وجدت الزعامات السياسية التقليدية نفسها مضطرة إلى اللحاق بالثوار، فاتخذت موقفاً سياسياً صلباً ضد نتائج اللجنة الملكية، وإلى جانب الكفاح المسلح. وانتقل بعض قادتهم إلى دمشق ليتولّى من هناك إمداد الثورة بالسلاح والمال، مستفيداً من التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا. ولم تنقضِ الشهور الأولى من عام ألف وتسع مائة وثمانية وثلاثين حتى كانت الثورة قد بلغت مستوى غير مسبوق من القوة والخبرة والتنظيم. وقد أدرك قادتها الآن أن عليها أن تفرض سلطتها بين الناس، بدلاً من سلطة الانتداب.

أما أحمد صالح الشيخ يونس، فقد غدا قائداً لأحد فصائل الثورة.

وسيعرفه الناس منذ الآن بالقائد أبو صالح.. قائد فصيل حطين.

دعا وجهاء القرى التي تقع في نطاق سلطته، ومخاتيرهم، إلى معسكره، وكان بينهم بالطبع أبو عايد الذي ما كان ليجرؤ على التخلف. ثم خرج إليهم القائد أبو صالح في كوفيته وعقاله، وهو يعتمر بندقيته وحزام الرصاص، يحف به نفر من رجاله. وقف مباعداً بين ساقيه وقفة صارمة منتصباً كالجبال التي تحف به. وخاطبهم بأسلوب حازم آمر لم يعهدوه من قبل:

- مختصر الكلام. المخترة والوجاهة كانت إرث ورثتوه. المهم من اليوم وطالع كيف تحافظوا عليه. واحنا بس اللي بنقرر إذا كنتوا بتستحقوه. المخترة والوجاهة مسؤولية قدام الثورة، مش قدام الإدارة البريطانية. هاذ لازم يكون واضح من اليوم. مرّ وقت بعد وقف الإضراب ظنيتوا أن الثورة خمدت. ورجع بعضكم يتخوّف من الإنكليز ويجاملهم. بقول: بعضكم مش كلكم. هسّع ما عاد فيه مجال عندنا للمداراة والتهاون. فلسطين اللي بنجاهد فيها إلكم فيها أراضي ومصالح أكثر من اللي بدافعوا عنها. أقل ما فيها تدعموا الثورة بكل اللي بتقدروا عليه. ومن اليوم، المشاكل اللي بتصير في القرى ما بتروح لمحاكم السلطة، بدها تيجي عندنا. صار عندنا محاكم تبتْ فيها. أما المرابين أولاد الحرام صار ممنوع يخبطوا في القرى ويطالبوا بديونهم. صارت ديونهم ملك للثورة. اللي بخالف هذا الأمر بدنا نقطع رجله، وانتو مطالبين تبلغوا عنه فوراً. ومن اليوم وطالع أنتو بتيجونا.. احنا بنجيكم في حالة واحدة، لما بدنا

نعاقب واحد خان دينه ووطنه وضميره!

ثم أشار إلى جهة ما وقال:

- هاظ.. شايفينه؟

كان ثمة رجل موثق إلى شجرة سنديان. وأكمل أحمد:

- حاكمتُه الثورة حسب الأصول، وثبت عليه ثبوت قطعي تهمة التجسس لصالح الإنكليز.

وما إن أنهى عبارته حتى استلّ بندقيته وأطلق عليه النار. ثم عاد ينظر في أولئك المخاتير والوجهاء. وقال:

- بتأمّل إنه كلامي صار واضح إلكم!

واستدار مبتعداً.

وهذه المرّة جاءت الهدية إلى بيت صالح الشيخ يونس السبعاوي من... أبي عايد!

حمار قبرصيّ متين، عريض الظهر!

حاول أبو أحمد ردّه ولكنّ أم أحمد شدّت رسنه وربطته بعناية، وقالت بحزم:

- بدل الحمار اللي سمُّه! مش مِنّة ولا جميلة.

وأخذ مسعود يضحك مع حسن وهما يتحسسان الحمار. وحبكت

الطرفة مع حسن فقال:

- الشعرة من ط..

نهره أبوه قبل أن يكمل:

- عيب.. منين تعلمت الحكي الوسخ.

قال حسن دون أن يتوقف من الضحك:

- من الناس كلها.. المليح والعاطل.. الكبير والصغير.. وحتى النسوان.. ما هو مَثَل يابا.. مَثَل.. يعني وقفت عليّ؟ بلاش يا سيدي.. «الشعرة من دُبُر الخنزير حلال»، هيك بتمشي؟ وعلى كل حال، زي ما بقولوها: «هيك مزبطة بدها هيك خِتم».

هنا شاركت أم أحمد في الضحك، وهز أبو أحمد رأسه يميناً وشمالاً بامتعاض. وقال معترضاً:

- أخوكم ما حط دمّه على كفّه منشان حمار من أبو عايد.

علّق مسعود:

- لع، حاشاه. بس هذي على البيعة.. الخوف قطّاع الرقاب.. واللي بطخّ على الإنكليز بيقطع قلوب الظالمين اللي منا وفينا.. يعني بصيب عصفورين بحجر..

قال حسن:

- أو حمارين!

وانطلق في الضحك من جديد.

أما أبو عايد، فلم يكن يضحك، وما كان له بعد أن رأى أحمد يأمر وينهى ثم يقتل ذلك الجاسوس على أعين الحضور دون أن يرفّ له جفن. ولكن ولده عايد سيأتيه بما هو أشد على نفسه، حين أخبره على نحو قاطع أنه سيلتحق بالثورة، وأنه ليس حرفاً ناقصاً، ولا تنقصه القوة والشجاعة، وأنه بات يخجل من المشي في طرقات القرية، ويشعر بأن النساء ينظرن إليه بازدراء: هؤلاء يأكلون خير البلد، ويتركون «المعتّرين» يحاربون عن الوطن وعن الجميع. أطرق أبو عايد متفكراً، وحين لم يجد ما يصدّ به ولده عن عزمه، قال فجأة:

- إذا كان لا بد، مش فصيل حطين!

ردّ عايد:

- مالُه فصيل حطين؟ سمعته زي الذهب. وهو الفصيل اللي بغطّي منطقتنا.

ثم تنبه للقصد، فقال:

- قصدك القائد أبو صالح؟ ما بدّك..

قاطعه أبو عايد وقد استعظم أن يشير عايد إلى أحمد بذلك اللقب:

- وانت برضه.. القايد أبو صالح؟ إي والله صار القايد أبو صالح في آخر

الزمن!

أجاب عايد:

- والا شو هوّه؟ القايد أبو صالح.. حبّيت والا ما حبّيت.. يابا.. انسَ القديم.. الدنيا تغيّرت.. القايد أبو صالح مش الشاب اللي ربطناله عند «الدبّة» وضربناه حتى نهنهناه. ولا ابن الغُربيّة المقطعين اللي اعتدينا على عمارة الزيتون تبعتهم، وحرقنا حطباتهم، وخربنا طابونهم، وفي الأخير سمّينا حمارهم اللي اشتروه بشقاهم.. وانت بتعرف هيك، والا ليش أهديتهم حمار قبرصي أغلى من الحمار اللي راح عليهم. القائد أبو صالح هسّع سمعه في كل البلاد، والناس بتحلف باسمه، والنسوان بزَغْرتن وبغنين إله. كنا نقاتله، وهسّع بنقاتل وراه عدو فلسطين كلها: الإنكليز واليهود، حتى لا نصير كلنا «غُربيّة ومعتّرين»!

صمت أبو عايد هنيهة، ثم بدا كأنه تنبّه لشيء:

- أبو عزمي العلي.

قال عايد:

- ماله؟

التفت إليه أبو عايد وتابع:

- ما سمعت؟ عمل فصيل لحاله و..

قاطعه عايد:

- قصدك إذا كان لا بد، بنضمّ لفصيلُه تحت قيادته.. زعيم ابن زعما.. وأصحاب المقامات بلفوا على بعض. سبحان الله، حتى في الثورة فيه مقامات. حتى انت يابا، طول عمرك بتقول الزلمة شُرّاني وقتيل قُتلا.. وجماعته اللي عمل منهم فصيل هسّع بقوا يقشطوا الناس ويضربوا الحطّابات لما يطلعن يحطبن في الجبل اللي حط إيده عليه بالزور والقوة.. صرت ناسي إنه هوّه اللي حط إيده على الأرض الميري قبل ما أجا الإنكليز وحطوا إيدهم عليها، وخلّى أولاد الحراثين ينزلوا يدافعوا عنها وقعد هوه ينش ذبّان في السرايا تبعته؟ هسّع صار ثائر قائد فصيل؟ طب عليّ الحرام ما عملها إلا منشان الزعامة لما شاف أولا الحرّاثين بصيروا أكبر منه في الثورة، وبحلّوا وبربطوا وبؤمروا وبنهوا وما حدّ بقلهم لا. وهَيْهم قطعوا اجرين المرابين عن القرى. وما عاد واحد يتجرأ يقرّب على المستعمرات اليهودية منشان يبيعهم شيء. واللي بينهم مشاكل بروحوا فيها لقواد الثورة منشان يفصلوا فيها بدل المحاكم الرسمية، ومنشان هيك التحق فيهم شباب متعلم من أهل المدن وبشتغلوا تحت أوامرهم! تحت أوامرهم يابا.. والقايد أبو صالح، أيوه القايد أبو صالح، بشتغل معه محامي من حيفا، اسمه محمود، محامي كبير معروف، ترك مكتبه وقعد مع أبو صالح.. وحتى الدكتور أكرم السويدي.. أكرم السويدي يابا، عرفت إنه عرض على أبو صالح إنه يتفرّغ معه تحت أمره.. بس أبو صالح قال له: المصلحة إنك تبقى في عيادتك في حيفا ومع اللجنة القومية هناك. فيه خلايا فدائية في المدن بتقوم بعمليات ضد الضباط الإنكليز، ويمكن يعتازوه في حيفا.. وإذا

اعتازوه في الجبال ببعثوله.. وقال: حاضر، تحت أوامركم. هاظ أكرم السويدي يابا.. وهسّع مستكثر على ابن أبو عايد يجاهد تحت أمر القايد أبو صالح:

هَمّ أبو عايد أن يقول شيئاً، فقاطعه عايد بلهجة حاسمة:

- خلص يابا.. أنا قررت، ما في قوة في الدنيا بتخليني أغيّر رأيي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان الخوف هو الذي أملى على «أبو عايد» أن يهدي أسرة «أبو أحمد الشيخ يونس» ذلك الحمار القبرصيّ، فإن صيت القائد أبو صالح في الثورة والاعتزاز باسمه هو الذي ذكّر وجوه آل السبعاوي بأن لهم قرابة منسيّة منقطعة عنهم منذ زمن طويل في تلك القرية الصغيرة.

كان مسعود هو الذي فتح الباب على طرقات الزوار الأربعة الذين لم يرهم من قبل. وكان هندامهم يدلّ على أنهم من «الغانمين»، وقد جاؤوا معهم بحمير محملة بالأكياس والأوعية. نقّل مسعود بصره فيهم حائراً، وقال:

- هلا بالغانمين.. اؤمروا.

ابتسم كبيرهم وقال:

- لا يؤمر عليك ظالم. موش هاذا بيت أبو أحمد السبعاوي؟

«السبعاوي!»، لا أحد ينسبهم إلى هذا الاسم. وازداد مسعود حيرة فيهم، واكتفى بهز رأسه، حتى أخرجه القادم من حيرته مبتسماً:

- أنا عمك أبو مصطفى السبعاوي. وهذول أعمامك..

وأشار إلى أصحابه.. وتابع:

- جينا نطلّ عليكم.. والظفر ما بطلع من لحمه.

كان أبو أحمد قد أقبل من الداخل، فهتف مرحِّباً:

- يا هلا.. يا هلا.. زارتنا البركة.. شرفتونا.. شو هالمفاجأة الحلوة..

وهنا سُمِع صوت زغرودة من أم أحمد..

واعتنقهم أبو أحمد، وكذلك فعل مسعود، وزاد على ذلك بتقبيل يد أبي مصطفى الذي سحب يده بسرعة مستغفراً الله.

كانوا قد أحضروا معهم مؤونة كبيرة وهدايا كيلا يثقلوا على مضيفهم. وما إن عرف المختار وأبو عايد ووجوه البلد حتى تلقفوهم بدعوات الغداء والعشاء والمبيت، وتنافسوا على ذلك بأيمان الطلاق.

أخيراً تأكد للمشككين أن أولئك «الغربيّة المقطوعين» هم من آل السبعاوي المرموقين، وها هم شهود الحمولة وزعماؤها قد جاؤوا بأنفسهم بعد أن امتنعوا عن ذلك دهراً ولم يستجيبوا لنداءات أبي أحمد وأسرته حين كانوا أحوج إلى «عزوتهم» ودعمهم وإثبات أصولهم فيهم. ولكن هذا زمن آخر.. إنه زمن الثورة.. زمن القايد أبو صالح الذي صار على آل السبعاوي الآن أن يثبتوا نسبه فيهم.. أو.. نسبهم إليه!

أسرة أبو أحمد كلّها انتفشت بتلك الزيارة وطالت بها قاماتهم! إلا شخصاً واحداً.. حسن! حسن الذي تجنب حتى الجلوس معهم، أو ذكرهم بين أقرانه الذين طالما كذّبوه حين كان يقسم لهم إيماناً مغلّظة أن أسرته تعود إلى آل السبعاوي. ولكن آل السبعاوي خذلوهم في ذلك الزمان الذي بدا الآن قديماً وإن لم يكن كذلك. فعهد إلى نفسه وعلى سمع أخيه عليّ أن يكبروا بأنفسهم ويصيروا شيئاً مذكوراً، فإذا جاءهم

بعد ذلك آل السبعاوي متقرّبين متزلّفين أنكرهم كما أنكروا أسرته من قبل. وها قد جاء اليوم بأسرع مما كان يقدِّر، وهو عند عهده. الآن حين صار أخوه أبو صالح.. القائد أبو صالح، سند من لا سند له، وعزوة من لا عزوة له؟

هكذا كان حسن: روحاً متوثبة عزيزة، تستعير كبرياءها من نداء الأرض القديمة ومن جذوع السنديان وتلال الزعتر البريّ وسلاسل الصخر. وروح كهذه تورث صاحبها قلباً شجاعاً ونفساً طموحاً.. ومعذّبةً في آن.

(عرس الدم)

١

إذا كانت الثورة قد غيّرت أحمد صالح الشيخ يونس حتى رفعته وجعلته القائد «أبو صالح»، فإنها لم تغيّر من خُلقه وشهامته وطيبة نفسه. وفي المقابل فإن الثورة لم تغيّر شيئاً من شخصية «أبو عزمي العلي» الذي بقي مستعلياً متكبراً. ولم يكن أحد ليشك في شجاعته وإقدامه اللذين يلتبسان بالتهور أحياناً، حتى اشتهر عنه أنه يدير معاركه مع الإنكليز قائماً ويأبى أن ينبطح على الأرض مع جماعته. ولكن عنفه في مواجهة الإنكليز لم يقلل من عنفه مع الفلاحين ومع كل من يخالف أوامره.

وهو على كل حال لم يشكّل فصيله بالتفاهم مع قادة الثورة، ونصّب نفسه قائداً بنفسه. فمن هو أبو كمال، عبدالرحيم الحاج محمد، القائد العام للثورة، كي يأخذ موافقته وينتظر أوامره؟

على أن القيادة العامة سكتت عن كل ذلك، طالما أن الرجل يوجِّه سلاحه ضد المستعمِر، ولم يظهر منه حتى الآن ما يتعارض مع أهداف الثورة. ولكنها وجهّت «أبو صالح» للتنسيق معه حتى لا يقع التعارض في نشاطهما في المنطقة نفسها.

لم يتخلّ عن عجرفته حين أرسل إليه أبو صالح لترتيب لقاء بينهما. فأبى إلا أن يأتيه في مكانه وفي الموعد الذي يحدّده هو. ولم يتردد أحمد. فالقصد هو قطف العنب لا مقاتلة الناطور!

لم ينهض من مقعده حين دخل عليه أحمد في نفر من جماعته، وبادره

بالتحية:

- العواف يا أبو عزمي.

هز رأسه هزّة خفيفة وهو يرمق أحمد محافظاً على عبوسه الملازم لهيبته. أشار له بالجلوس، ثم قال بنبرة موحية:

- وقت طويل مرّ على آخر مرة شفتك فيها!

لم يفت أحمد أنه يلمح إلى المواجهة القديمة التي وقعت بينها، وانتهت بجلده حتى تسلّخ جلده. كظم أحمد غيظه القديم، واكتفى بالقول:

- الوقت يمرّ بسرعة.

ردّ أبو عزمي وهو يومئ برأسه إلى أحمد:

- صحيح.. والدنيا بتتغيّر بسرعة!

ثم تابع وهو يومئ إلى مرافقي أحمد:

- بدنا نحكي لوحدنا.

وإذ خرجوا، علّق أحمد:

- ماشي يا أبو عزمي.. بس أنا بثق بجماعتي أكثر ما بثق بنفسي.

- بس أنا ما بعرف جماعتك مزبوط.

هذه المرة اختار أحمد أن يردّ بلهجة موحية:

- هذول من يومن بدت الثورة وهمّه فيها.. يعني..

قاطعه أبو عزمي وقد فهم التعريض:

- الأمور بخواتيمها يا أبو صالح، مش أولها!

أحب أحمد أن ينهي هذه المقدمات المزعجة، فدخل في موضوع اللقاء:

- خصم الحكي يا أبو عزمي.. الإيد على الإيد قوة. والقيادة العامة كلفتني أتفاهم أنا واياك على التنسيق و..

قاطعه أبو عزمي:

- القيادة العامة كلفتك؟ بس أنا ما استلمت منها شيء.. على كل حال، مزبوط.. الإيد على الإيد قوة.. وما دام هذا رايكم ليش ما تنضمّ انت وفصيلك إلي.

قال أحمد مغالباً ضيقه:

- المصلحة مش ننضم إلك ولا تنضم إلنا.. كلنا في الثورة.. بس على الأقل ننسّق بيننا، ونخطط لعمليات مشتركة كبيرة.

- ما فيش مانع.. وأنا عندي خطط جاهزة.. يا مرحبا بيكم.

هز أحمد رأسه وصمت هنيهة بينما كان أبو عزمي يرمقه مترقباً. ثم قال أحمد:

- وفيه شغلة ثانية.. في الواقع شغلتين.. الشغلة الأولى بتتعلق بجمع

المال. بتعرف إنه القيادة العامة نظمت الأمور بحيث ما يصير تعديّات ومخالفات وإثقال على الناس. واللي صاير عندك إنه جباية المال للثورة مش قاعدة بتصير تحت إشراف القيادة ولا فيه ورق ولا دفاتر ولا..

قاطعه أبو عزمي محتداً وقد نهض من مقعده:

- عال والله.. ما ظلّ إلا هذا.. دفاتر وشهود وتوقيعات وأختام على أبو عزمي.. شايفيني بجمع المصاري وأنا قاعد في بيتي؟

- ما قلناش إشي يا بيك.. إحنا ما بنتّهم لا سمح الله.

ازداد أبو عزمي غضباً وحدّة:

- تتّهم؟ ومين أنت حتى تتهم؟ شوف.. أنا ساكت على هالحكي كرمال الثورة وفلسطين بس، والا اتذكر أنا أبو عزمي.. أبو عزمي اللي عرفتُه قبل الثورة.. وهالحين أنا أبو عزمي إياه زائد الثورة!

- وأنا جاي أحكي معك باسم الثورة وبس. ومقامك محفوظ.. إحْنا بس الخوف إنه الزلام اللي معك يستغلّوا اسمك واسم الثورة.

- اللي بتّهم ازلامي بتهمني..

- يا أبو عزمي، عندنا معلومات مؤكدة أنه فيه ناس بحملوا طربوش وبدوروا على الرايح والجاي وبقولوا: هذا طربوش أبو عزمي، حطّوا فيه..

- وانتوا شو عرَّفكم إنه هذول ازلامي؟

- إذن إيدنا بإيدك حتى نجيبهم ونحاكمهم، قبل ما يسودوا سمعة

الثورة وسمعتك.

صاح أبو عزمي:

- سمعتي ما فيه حد في الدنيا بقدر يسوّدها. سمعتي أبيض من كل الحطّات!

أراد بذلك أن يصغّر غيره من الثوار الذين يرتدون الكوفية، بينما ظل هو على عادته في وضع طربوش الوجاهة. ثم قال:

- خلصنا من هذي الشغلة.. وشو الثانية؟

أجاب أحمد:

- إنك شديد زيادة عن اللزوم مع الناس.

- قصدك مع المشبوهين بالتعامل مع الإنكليز؟

- يا سيدي المشبوهين فيه محاكم للثورة بتحاكمهم، وإذا ثبتت عليهم الأدلة بنالوا جزاهم.

- أنا برضه عندي محكمة، بس أنا اللي بحاكم، ومحكمتي سريعة وفورية. وإيش الأدلة اللي بتحكي عنها؟ يعني لازم نلاقي ورقة مطبوعة وعليها ختم الإنكليز بتكليف المشبوه بالتعامل معهم؟ الثورة ما عندها وقت زي محاكم الحكومة.

- ما بتخاف إنا نظلم الناس بهذي الطريقة؟ والناس يا أبو عزمي ما بتسقط أولادها إلا إذا راحوا شهدا ضد الإنكليز والصهاينة.. بتخاف بكره

كل واحد إله ثار قديم عند الثاني يروح طاخّه ويدّعي أنه مشبوه أو خاين.. تقوم حمولته تنقلب على الثورة ونبلّش ببعض، وهاذا الي بدهم إياه الإنكليز. يعني الثورة لازم تحلّ المشاكل اللي بين الحمايل، مش ننقل مشاكل الحمايل وعوايدهم القديمة للثورة.

- أنا بعرف شو الثورة، وما بدّي حدا يعلّمني عنها، والحمايل أنا أدرى منك فيها. واللي بخون بدنا ندفنه ولو كان من أكبر الحمايل، وأعلى خيلهم يركبوه!

بعد أن خرج أبو صالح، وعاد أعوان أبي عزمي إليه، وجدوه ينفخ غيظاً، وقال:

- عال والله! ولد مفْعوص ما بقيت اشتريه ببصلة، صار قائد فصيل، وعامل عياره بعياري.. أنا أبو عزمي.. صار ناسي لما جلدته وسلخت جلده.

تريّث لحظة يفكّر، ثم استأنف:

- أبو أكرم السويدي.. هذا هوه.. القايد أبو صالح..

قالها بلهجة الاستهزاء، وتابع:

- كان له علاقة قديمة معه ومع ابنه الدكتور أكرم.. من يوم ما ضمّنوه أرضهم.. وظلّ يلفي عليهم في عزبتهم وفي حيفا.. بالتأكيد أبو أكرم هوّه اللي نكشه عليّ.. وهالحين جاي يحكي عن العداوات القديمة بين الحمايل..

أخذ نَفَساً عميقاً وتابع:

- ومين قال إنها صارت قديمة! ما بنسى إلا النذل وقليل الأصل.

قال عبارته الأخيرة وهو يصوّب نظره إلى ابن أخيه محمد الذي يلزمه معظم الوقت. وإذ لم يُرزَق أبو عزمي غير البنات فقد كان محمد الذي يبلغ الآن الثامنة عشرة من عمره بمثابة ابنه. أما محمد فقد كان عمّه مَثَله الأعلى الذي يتطلع إليه في كل شأن. فهو الرجل الذي لا يعجزه شيء، ولا يجرؤ عليه أحد، ولا يُرَدّ له أمر، ولا يعرف معنى الخوف. ثم أضاف إلى ذلك كله أخيراً بطولاته في القتال ضد الإنكليز. فمن ذا الذي يستطيع أن يزيد عليه؟ ومنذ وقت مبكر من عمره كان يسمع أن ابنة عمه الصغرى التي لم تتجاوز حتى الآن الثالثة عشرة من عمرها، ستكون له. ولكنه بخلاف عمّه لم يكن حادّ المزاج، ويميل إلى الهدوء والصمت، ويُظهِر عطفاً على الفلاحين الذين يعملون في أراضيهم. فإذا وقف عليهم في الحقول تلطّف معهم وباسطهم واستمع إليهم، وربما قَبِل دعوتهم لمشاركتهم في طعامهم البسيط، خشية أن يُتَّهم بالكِبْر والتأنّف. فكانوا إذا أقبل عليهم بدلاً من عمه يشعرون بالراحة، فإذا رأوا أبا عزمي مقبلاً انفضوا بسرعة عن ابن أخيه وانشغلوا بأعمالهم. وبالطبع لم يكن أبو عزمي ليعجبه ترفّق ابن أخيه وتبسّطه. فكان يؤنبه أحياناً ويذكّره بمقامه، ويقول:

- هذول الناس ما بفرقوا بين اللطف وبين الضعف. إذا تبسّطت معهم بتجَرّأوا عليك وما بقبضوك جدّ. لازم توريّهم العين الحمرا دايماً حتى

يظلوا ماشيين عدل. وإنه يخاف منك الناس أحسن من إنهم يحبّوك، عارف شو أحسن شي بقولوه عني الناس؟ شرّاني ما عنده يمّه ارحميني.. قصدهم قوي وما بقدر عليه حدّ. وشو بدّي غير هيك؟ أتذكر هذا الحكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

كانوا يعدّون أنفسهم للخروج في عملية عسكرية مشتركة مع «أبو عزمي» وجماعته ضد مخفر للشرطة والجيش أنشأته سلطة الاحتلال الإنكليزي بين القرى المجاورة لمراقبة الثوار وملاحقتهم، وألزمت أهل القرى دفع تكاليفه، عندما دخل حمد العربيات على القايد «أبو صالح»، وفاجأه بالقول:

- جيتك طالب يا اخوي يا أبو صالح.

نظر إليه أحمد مستغرباً، وأكمل حمد:

- أختك المستورة خضرة!

اعترت الدهشة «أبو صالح»:

- شو قلت؟

ضحك حمد وقال:

- مش إلي أنا واسطة خير..

ازدادت حيرة «أبو صالح». وكان حمد بطبيعته يحب خلق مواقف التشويق والمقدمات الظريفة المحيّرة قبل الإفصاح المباشر.

- العبد يا أبو صالح.. أخوي العبد.

بعد أن استوعب أبو صالح الموقف سأل مبتسماً:

- هو بعثك؟

- والا أنا اتطوعت على خاطري؟

- وليش حضرته ما أجا بنفسه؟

- يعني وساطتي ما بتنفع؟

- انت بتمون على راسي. بس.. هسّع؟ ما لقيت وقت غير هالوقت واحنا طالعين ندبّ عالموت؟

- موت عدّوك وعدونا يا أبو صالح.. شو فيه مناسبة أحسن من هيك؟ بعدين يا خوي إذا الله كاتب إنه يستشهد العبد في هالعملية، بروح لعرايسه اللي في الجنة وبدّوش جميلتك!

ضحكا معاً. وقال أحمد:

- هسّع خلينا في اللي احنا فيه. وبعدها إذا الله كتب إلنا الحياة بصير الحكي.. وانت عارف الأصول.. أبوي وأمي وإخوتي، وراي خضرة. قول يا رب!

كانت معركة حامية طويلة، إذ أطبق الثوار على المخفر من جهتين، أبو عزمي وجماعته من جهة، وأبو صالح وجماعته من جهة أخرى وفقاً لخطة مدبّرة. ولكن تقدّم الثوار كان بطيئاً بسبب رشاش منصوب على سطح المخفر وراء ساتر من أكياس التراب، ويَصُبُّ النار بغزارة. بعد حين، التفت أبو صالح إلى يمينه والتقت عيناه بعيني العبد وراء سلسلة

حجرية، وقال أحمد:

- اللي بدو بنت الناس، ما بغلى عليه مهرها.. ورينا إذا بتقدر تخلصنا من الرشاش.

قفز العبد من فوره وجرى منحنياً نحو المخفر في خط متعرّج بينما غطاه أحمد وحمد وآخرون بصليات نار متصلة، حتى استطاع الوصول إلى جدار المخفر واحتمى به، ثم حلّ قنبلة يدوية وقذفها إلى سطح المخفر.. وتوقف الرشاش. وما هي حتى كان الثوار يهتفون بالتكبير وقد احتلوا المخفر. والتقى أبو صالح وأبو عزمي وجهاً لوجه. وقال أحمد:

- الله يعطيك العافية يا أبو عزمي.. كفّيت ووفيت.

اكتفى أبو عزمي بهزّة من رأسه. والحقيقة أن «أبو عزمي» أبلى بلاءً حسناً في تلك المعركة وأبان عن شجاعة فائقة لم يملك معها أبو صالح إلا الإعجاب به. وفجأة تنبه إلى بقعة دم في كتفه. كان قد أصيب هناك دون أن يعيقه ذلك عن المضي في القتال حتى نهايته، ولا أظهر أي تعبير عن الألم. وهتف أحمد:

- كتفك يا أبو عزمي.

ارتد مبتعداً وقال:

- مش إشي.

ولحق به ابن أخيه محمد وقد زاد إعجابه بعمّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- آه يا خضرة.. سمعتِ شو قال أخوك. شو رايك؟

كتمت فرحتها الغامرة كما ينبغي للفتاة المحترمة، وقالت مطرقةً:

- ما لي راي على رايكم يابا.

وبالطبع كان هذا الرد الوحيد الواجب في كل الأحوال. ولكن حسن أحب أن يتظرّف على عادته:

- كيف عاد؟ انت اللي بدّك تتجوّزي مش احنا.

نهرته أمه، فأطلق ضحكة قصيرة عابثة، وانطلقت خضرة متشاغلة بعمل البيت، وكأنَّ الأمر لا يخصها وكأنه أمر من عاديات الحياة. فهكذا تتصرف بنت الأصول، ولا يسعها أن تبدي غير الحياء، بينما يضجّ نداء الحياة في داخلها المحجوب، وتتفجر ينابيع الفرح، وتصدح طيور الصباح، وتتفتح شقائق النعمان، ويتجلّى قوس قزح وراء مطر ناعم وشمس رائقة!

على مدى أيام، اعتمرت القرية بأصوات العرس والحداء والدبكة والدحيّة وأغاني الحنّة وزفة العروسين. وامتزجت الأغاني الشعبية الموروثة بالأزجال الوطنية. وحين برز أبو صالح يحفه حمد العربيات وآخرون، صدحت امرأة:

هيه ويا أبو صالح يا برجنا العالي سكنت حداك

هيه وياكل ما هبّ الهوا يفتح نداك

هيه وما أنا تمنيت من الله يقلّ اعداك

هيه ويصبر عليك زمانك تاتنول مناك

وأردف ذلك زغرودة جماعية مدويّة.

قام العبد من مكانه وأخذ بيد حمد العربيات وهتف في الحضور:

- يا ناس يا أهل البلد.. هذا أخوي حمد العربيات من السلط.. نشمة النشامى وزينة الرجال. بشهد الله وبشهدكم هذا أخوي بعهد الله.

وعلى الرغم من أن «أبو صالح» كان قد أمر بعدم إطلاق النار، فإنه سَمَح لنفسه في تلك اللحظة بإطلاق رصاصتين تكريماً لحمد.. وما هي حتى انطلقت الزغاريد الجماعية، أعقبته امرأة بزغرودة خاصة بحمد:

هيه ويا حَمَد يا نشمة يا جار المجاورني

هيه ويا جار الرضا ما انتَ جار خوّاني

هيه ما انت طلّال عحيطان جاراتك

هي ولا يوم تركتني إلا رفعت الضيم عني

لمعت دمعة في عيني حمد تأثراً بالحفاوة الخاصة، كما تمثلت في خياله وردة السلط الندية، وطفة، التي أجّل زواجه بها ليشتري بمهرها بندقيته المنذورة لفلسطين. فتناول ربابته، وأشار أبو صالح بيده في الحضور

لإسكات الأصوات. ثم انطلق حمد في عزف رائع متصاعد كأنه كان يذيب روحه فيه، وامتزج فيه الحماس بالفرح والشجن معاً.

الفرح في زمن الشدّة، وأغاني الحب في زمن الحرب، والاحتفال بالحياة في زمن الاحتفال بالشهادة! فكان من الطبيعي أن يدق الفاصل بين هذا وذاك، ويتنقّل الزجل بينهما:

تلولحي يا داليه

يا أم غُصون العالية

تلولحي عرضين وطول

تلولحي خلّيني أطول

هانا واربط عالدبّة

تا تُمرق أم الجبّة

يا أم ثويب اصْباغُه نيلِه

ما ظلّ لك عندي حيله

يا أم ثويب أكمامه زمّ

لمّيني وأنا بَلتَمْ

يا أم ثويب اصْباغُه يقطرْ

شُوفك في رمضان يفَطّرْ

لَزْرع شتلة تفاحة

عشانك يا فلّاحة

لَزْرع شتلة بيتنجان

عشانك يا أم الذّهبان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هز الرمح بعود الزينْ

وانتو يا نشامى منين

واحنا رجالك فلسطين

والنِّعم والنعمتين

وآه يا ضرب الشباري

في العدا والدمّ جاري

آه يا ضرب السلاحْ

في العدا والدم ساح

يا يمّه وإن جابوا أرْداني

مصبوغة بدمي وأكفاني

قومي واجمعي خلّاني

قوليلهم مات وما ذكر

غير أوطانه وشرفه الأكبر!

لم يحلّ الزواج عقدة لسانه ولا عقدة لسانها ليعبّر كل منهما عن حبّه القديم للآخر. قد صارت الآن حلاله وسكنه، ومع ذلك فإن مشاعر الحب التي تعتلج في صدريهما ما تزال تصطدم بحواجز الحياء.. والعيب! فكلام الحب يعني بالضرورة البوح بالعواطف المكتومة منذ سنين، قبل الزواج. وما كان البوح به عيباً أو حتى حراماً قبل الزواج، فإن البوح به الآن يبقى محفوفاً بروادع الحرج. ولكن ما لا يقوله الكلام تقوله العيون والحركات ولهفة الوداع والاستقبال.

وبعد حين من الألفة، وبينما كان مستغرقاً في تنظيف بندقيته وتحريك أقسامها، سمعته يقول كأنه يحدِّث نفسه:

- غريبة الدنيا وأحوال البشر.

التفت إليه بنظرة استطلاع ومحبة، وازدادت تعجباً وحيرة حين بدأ ينشد بعض الأزجال الشعبية مما أنشده الحدّاء في عرسه:

أول واحدة لاقتني بشعور الشقر مرخيّات

يا حلالي يا مالي

وثاني واحدة لاقتني بخدود الحمر مدهّنات

يا حلالي يا مالي

وثالث واحدة لاقتني، وأم عيون مكحلات

يا حلالي يا مالي

دخلك يا أم عيون السود، قولي بيش مكحلات

يا حلالي يا مالي

دخلك يا أم خدود الحمر، قولي بيش مدهّنات

يا حلالي يا مالي

أطلق ضحكة غريبة، ونظر إليها قائلاً:

- ليش ما رديتِ وراي.. يا حلالي يا مالي.

قالت بخجل:

- يا حلالي يا مالي.. بسّ شو أجا عبالك تْحَدّي هسّع.

هز رأسه واكتسى وجهه بملامح التأمل دون أن يفارق ابتسامته:

- يعني هالغزل وغيره بنغنيه في الأعراس والمناسبات.. الشعر الأشقر، والخدود الحمر، والعيون المكحلة.. والكل بسمع.. الختيار والشاب والولد الصغير.. عادي.. وفي القعدات بتسلّى الناس بقصص الحب القديمة.. حبها وحبته.. وانحرم منها وانحرمت منه.. والكل بستنى النهاية السعيدة.. لما ينكشف الكيد، وبرجع الحبيبين لبعض وبتجوزوا، وبخلفوا صبيان وبنات.. حتى النسوان بخرفوا هالخراريف لأطفالهم. وما

فيها عيبة. بس يا ويل ويله اللي بشكوا إنه واقف لبنت عطريق العين، والا حمّل الجرّة على رأسها. والا نطق اسمها على لسانه! ويا ويل ويلها أكثر منه إذا شكّوا إنها أعطته نظرة ولا بسمة! وهياني أنا.. مع مرتي حلالي لحالنا في بيت واحد.. ومستحي أحكي لها قديش استنيت هالوقت.. قديش كنت أحلم فيها وأنا صاحي.. وأنا ماشي وطالع ونازل ومتمدد على الفراش أو في البيادر. بصحى وبنام على اسمها وصورتها.. قديش كان عندي حكي مش قادر أقوله.. وحتى وهو مخبّا في صدري كنت أصحى على نفسه مستحي وخجلان.. خجلان من نفسي، ومن صاحبي وحبيبي أبو صالح..

أطرقت بخجل وقالت بصوت هامس بعد تردد:

- والله كنت حاسة طول الوقت.

قال مبتسماً:

- ومع هيك لو اتجرأت في هاذاك الوقت وقلت لك إشي منه كان ازعلتِ وبهدلتيني، ويمكن كرهتيني!! صح!

لم تجب، وأخذ يتأملها ثم سأل:

- وأنتِ!

اكتفت بالقول:

- القلوب عند بعضها يا ابن عمي.

”بعد سنوات من الاضطهاد والتصغير، صار بيتنا محط أنظار القرية وتقديرها. ذلك بعض ما كنا نحلم به في أيام الطفولة المبكرة إلا أنه لم يتحقق بالطرق التي كانت ترسمها تلك الأحلام. لم تتغير ظروفنا المادية، ولم نعثر على الخاتم السحري ولا على مصباح علاء الدين، ولم تنفتح لنا «طاقة القدر» في لحظة خاطفة مباركة، ولم نهجر القرية إلى أضواء المدينة وطرقها المعبّدة وبيوتها الحجرية الجميلة. كانت البندقية حسب. بندقية أخي أحمد «أبو صالح» في جملة البنادق التي صعدت الجبال، فصعدنا بقدر صعودها. كانت تستهدف العدو المستعمر، ولكن صدى طلقاتها كان يرتد داخل المدينة والقرية. أعارت نفسها للوطن فألقى عليها الوطن مهابته وعباءته وكوفيته!“.

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

وصل موسى، صاحب المقهى القديم في حيفا، إلى موعده المضروب مع القائد أبو صالح الذي أقبل عليه مسرعاً متلهفاً، وابتدره بالسؤال عن فوزي والعملية الفدائية الجديدة التي كلّفه بها لاغتيال جاويش إنكليزي مشهور بالقسوة والتنكيل. أجابه موسى بأن الجاويش قد شبع موتاً. هزّ أبو صالح قبضته بسعادة، ثم تنبه إلى أن موسى لبث منقبض الوجه، فأوجس في نفسه. وحدّق في موسى مستطلعاً، فأخبره هذا أنه بعد اغتيال الجاويش على باب المخفر، وفرار فوزي، خرجت الدوريات من الفور، فقبضت عليه وعلى آخر وقد اشتبهت بهما على حسب الوصف. وكلاهما كان يرتدي الكوفية وثياباً متشابهة، وهما الآن تحت التحقيق.

أطرق أبو صالح منقبضاً. فقد كان يعلم ما الذي يعنيه التحقيق في ظل تلك الظروف.

لم تكن أول واقعة اغتيال ينفّذها فدائيون في مدن فلسطين، ضد ضباط وأفراد من البوليس الإنكليزي وحكام إداريين، لا سيما من عُرِفوا بالقسوة الشديدة في غرف التحقيق وفي المداهمات، وتعذيب المساجين، بل القتل العشوائي بكل الحجج. وقد جنّ جنون المسؤولين مع تكرار الحوادث، وفشلهم في القبض على الفاعلين على الرغم من تشديد الإجراءات والعقوبات التي شملت إقامة محاكم عسكرية مع تعديل قانون الطوارئ، فكانت الشبهة وحدها أو اكتشاف أي نوع من السلاح

أو الذخيرة، أدلة كافية تقود إلى المشنقة. ولما تفاقم الوضع بدأت سلطات الانتداب بالإعلان عن جوائز مالية قيِّمة لمن يساعدها في التوصّل إلى المطلوبين. ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً على الرغم من الضائقة الاقتصادية العامة.

والآن، ها هو فوزي، ابن وادي الحوارث المغتصَب، والذي كان يلقَّب بالسفاح قبل أن ينقلب إلى فدائي يعمل بإمرة «أبو صالح»، ها هو يجلس موثقاً إلى جانب الشاب الآخر الذي قُبِض عليه معه في الشبهة نفسها، وقد تغيرت ملامحهما لشدة التعذيب بكل الوسائل. كان المحققون عازمين على الحصول على اعتراف. وكان أشدّهم شراسة الجاويش روبن، ولو كان فوزي وحده في ذلك الموقف لآثر الموت تحت التعذيب على الاعتراف. ولكن نقطة ضعفه كانت في الشاب الذي أُخِذ معه. وقد كان الجاويش روبن واضحاً: إما أن يموت واحد منهما، وإما أن يموت الاثنان، تحت التعذيب أو على حبل المشنقة باعتبارهما شريكين في العملية الإرهابية!

ولم يجد ذلك البدوي الشهم مفرّاً من الاعتراف! ولكنه أصرّ أنه فعل ذلك منفرداً، ولا صلة له بأي تنظيم فدائي سريّ فليفعلوا ما يشاؤوا به بعد ذلك، فلن يجدوا عنده غير ما اعترف به عن نفسه.

في ليلة الإعدام غنّى القلب الشجاع:

شاب الليل وأنا على راسي أقول: آه

والصبح بان وخيال المشنقة جوّاه

على بلادي، ما على نفسي أبكي والله

أنا شهيد رايح لربّه والجنة مأواه

ورا الحديد قاعد وحيد، إيدي على راسي سهيان

ذبلت عيون الكهربا وهي تبكي واصفرت الحيطان

ورا الحيطان شفت الأفق والأهل والإخوان

وسط البيوت الخرابة قايلين، آه

وداعاً يا فلسطين، وداعاً يا بلاد

تاجها الأقصى والإسرا والميلاد

وداعاً ويا مرحبا بالموت ولقا الله.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾.

«يهنيه الشهادة».

«الشهيد حبيب الله».

«الله يطعمنا إياها زيّه».

ولكن التعزّي بكل هذه المعاني والوعود القرآنية، لا يمنع من الحزن. وها هو أبو صالح يتنحّى عن الجمع ويجلس على صخرة ويسرح بصره في البعيد، ويستذكر لقاءه الأول العاصف مع السفاح فوزي في مقهى موسى في ذلك الحي الشعبي في حيفا، وكيف تحوّل الصدام إلى أخوّة صادقة ثابتة عززتها بعد ذلك رفقة السلاح والكفاح. رحمك الله يا فوزي. وأنا صاحب الدم!

كان المحامي محمود قد اختار أن يترك مكتبه في حيفا ليلتحق بالثوار ويعمل مع القائد أبو صالح ويشرف على المراسلات والدفاتر ويدبّج البيانات وينظر في قضايا الخلافات التي صار الكثيرون يحتكمون فيها إلى الثوار بدلاً من المحاكم الرسمية، قال معترضاً حين عرف نية «أبو صالح»:

- راجع نفسك يا أبو صالح.. أنت قائد فصيل وعندك مسؤوليات كبيرة. وفيه ألف واحد مستعد يقوم بالعملية بدون تردد.. ألف واحد زيّ فوزي..

تدخل موسى الذي كان حاضراً:

- كلام الأستاذ محمود صحيح.. وأنا جاهز يا أبو صالح.. كلفني بالمهمة وأنا أخوك. حياتي مش أهم من حياة فوزي الله يرحمه.

وتدخّل آخرون، كل يعرض نفسه للانتقام لفوزي باغتيال الميجر تومسون، مدير مركز الشرطة الذي احتُجِز فيه فوزي وتعرّض للتعذيب

الشديد، قبل إعدامه، بأوامر منه وتحت إشرافه. وكان له سجل حافل بالقسوة والوحشية.

ولكن «أبو صالح» أصرّ على أن ينفّذ العملية بنفسه، ولم تجدِ كل المحاولات لثنيه عن عزمه.

في هذه الأثناء، وقبل أن ينقضي صيف عام ١٩٣٨، كانت القيادة العامة للثورة قد أصدرت تعميماً يأمر بأن يرتدي جميع الناس في المدن الكوفية الريفية الفلسطينية. إذ كان الشائع أن يكون الفدائي الذي يتولّى اصطياد أحد الضباط أو المسؤولين الإنكليز ممن يرتدون الكوفية، فإذا وقعت الواقعة هرعت الشرطة والجنود لتقبض على كل ريفي يصادف وجوده قريباً من مكان الحادث.

وهكذا رفعت طرابيش الأفندية، وحلّت محلها الكوفية التي سيصير لها من المعاني الرمزية أكثر من دلالتها على المنبت الاجتماعي. وكانت الاستجابة العامة الفورية لذلك التعميم دليلاً صارخاً على الهيبة التي بلغتها الثورة في أوساط الشعب كلّه، واختباراً ناجحاً للتضامن الشعبي معها. كما كانت تعبيراً رمزياً عن التحول في مركز الفلاح المعنوي نتيجة لتصدره حركة المقاومة المسلّحة في ثورة وُصِفت بثورة الريف الفلسطيني.

وطاب لمسعود وهو يقف على بسطته من الخضار والفاكهة التي جاء بها للبيع والترزق في حيفا على مجرى العادة بين الفينة والأخرى، أن يرى

موظفي البلدية يرتدون الكوفية كغيرهم. وهو الذي لقي من بعضهم قديماً ما لقي من القسوة والتحقير والطرد عن الأرصفة، وحتى ركل البضاعة، شأنه في ذلك شأن غيره من أمثاله.

ولم يستطع مسعود أن يقاوم الآن رغبته في السخرية، وقد صار آمناً من تنمّر الموظفين، لا سيما كبيرهم الذي كان أشدّهم عليه وعلى أصحابه. فقال بلهجة مشوبة بالسخرية:

- آه يا أفندي.. كيف لاقي الحطة عراسك؟ ثقيلة! بالله ما هي أحلى من الطربوش؟ مبروك عليك..

ثم رفع يديه داعياً:

- الله ينصر فلسطين والثورة والثوار.

ثم نظر إلى الموظف الذي أدرك ما في الكلام من السخرية، وقال مسعود:

- قول آمين.. الله ينصر الثورة والثوار.

ردّد الموظف: آمين. ثم آثر الانصراف مع الآخرين، بينما أخذ مسعود يشيّعه بابتسامة عريضة. ما أبعد اليوم من البارحة!

ثم غابت ابتسامته بسرعة، ودهمه شعور بالندم، إذ ذكرته نفسه اللوّامة أن الثورة أكبر من المناكفات والمغالبات بين أبناء البلد والوطن الواحد، والشعب الواحد؛ ولو أن «أبو صالح» شهده في ذلك الموقف لأنّبه تأنيباً شديداً!

ولكن، حتى الأرض المباركة، ليست وطناً للملائكة، حتى وإن كان أعداؤها من الشياطين! فثمة من الفلاحين من شمت بأصحاب الطرابيش الذين اضطروا إلى خلع طرابيشهم وارتداء كوفية الفلاح التي كان البعض يزدرونها أو يزدرون صاحبها. وكذلك كره بعض الأفندية والبكوات أن ينزلوا عن السمت الذي يميّزهم، وإن اضطروا إلى ذلك. فما إن ابتعد موظف البلدية عن مكان البسطات حتى همس لأصحابه:

- هادولا الفلاحين.. قاموا تياستهن عن روسهن وحطوها على روسنا.

وضحكوا معاً. وكانت تلك عبارة ترددت بين آخرين من أضرابهم. ولو سمعهم مسعود الذي لامَ نفسه على ما بدر منه نحوهم، لغادرته نفسه اللوّامة وخلت مكانها نفسه الأمّارة بالسوء!

وحين دخل الدكتور أكرم على زوجته هدى مع طفلتهما سلمى، لم تستطع أن تخفي امتعاضها من منظره بالكوفية. وقالت:

- اللي بشوفك ما بصدّق انك حكيم!

جذب ابنته منها وأخذ يقبّلها وهو يقول لزوجته:

- يا ستّي.. يحسبني ثائر وبلاش حكيم.

وقبل أن يتنبه نزعت الكوفية عنه وقذفت بها بعيداً، وحين نظر إليها مستنكراً قالت:

- لا تآخذني.. بس لما بشوفك فيها بحسّ انك واحد غريب، مش جوزي

الدكتور أكرم.

قال:

- هذي صارت رمز للثورة يا بنت الحلال.

قالت:

- رايحة تطول هالشغلة؟

- أي شغلة؟

- شغلة الحطّة هذي؟

- الله يطوّل عمر الثورة. ومستعدّين نلبس حطّة وقمباز كمان. ولو كان في إيدي كان طلعت عالجبال مع الثوار.. فلاحين والا مش فلاحين.. وإلي الشرف.. زي ما عمل صاحبي الأستاذ محمود.. وزي ما عمل الأستاذ عبدالرحيم محمود اللي بشتغل مع أبو كمال، عبدالرحيم الحاج محمد.. القائد العام.. أنا مش أحسن منهم.. بس أبو صالح قال بنحتاجك في حيفا أكثر..

قالت بشيء من الاستنكار:

- أبو صالح اللي حكيتوا لي عنه. اللي كان.. أستغفر الله.. صار يؤمر عليك.. انت الدكتور أكرم السويدي ابن العيلة!

أجاب وقد بدا عليه الضيق:

- الثورة الآن حمولة الجميع، وما فيه حمولة فوقها.. وأرجوك يا هدى، انت عارفة جوزك، وهذا الحكي بزعجني.. ما بحب أسمعه في بيتي.. أبداً!

قالت:

- ما بقول إشي.. الثورة على راسنا.. والكل لازم يدعمها، بس.. قصدي.. في الأخير الكل برجع لمقامه.

هزّ رأسه عابساً، وآثر ألا يتابع الحوار.

كان يحبها وتحبّه حقاً. ولكن مزاجه كان مختلفاً عن مزاجها، وحتى عن مزاج أبيه. وكانت من إحدى العائلات المدنية والغنية المعروفة التي تضررت مصالحها في الإضراب الكبير وظروف الثورة. ولكن عجرفتها الموروثة ستتعرض قريباً لاختبار كبير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبس الخطب فابتسمْ

وطغى الهولُ فاقتَحَمْ

رابطَ الجأش والنهى

ثابتَ القلب والقدمْ

وقف صاحب عربة الخضار يقلّب بضاعته ويعيد ترتيبها، وكان بين الفينة والأخرى يسترق نظرة سريعة إلى بوابة مخفر الشرطة الرئيس في حيفا. وقد لفّ طرف كوفيته على الجزء الأدنى من وجهه.

صامتٌ لو تكلّما

نطق النار والدّما

قل لمن عاب صمتَه

خُلِقَ الحزمُ أبكما

وأخو الحزم لم يزلْ

يده تسبق الفما

هو بالبابِ واقفُ

والرّدى منه خائفُ

فاهدأي يا عواصفُ

خَجلاً من جراءَتِهْ

أخيراً انفتحت بوابة السور الذي يحيط بالمخفر، وبرزت سيارة الجيب الخاصة بالميجر تومسون، مدير المخفر، يقودها السيرجنت روبن. وما إن تقدّمت نحو ثلاثين قدماً على الشارع حتى اندفعت عربة الخضار أمامها، على نحو سريع مفاجئ. فلم يستطع السائق تفاديها واصطدمت السيارة بها صدمة عنيفة قلبتها على جانبها الآخر، وسقط ما كان عليها، وكان صاحبها قد أسرع إليها منحنياً على بضاعته، وبعد لحظات سريعة من الصدمة العنيفة بدأ الراكبان يترجّلان من السيارة وهما يكيلان اللعنات. وما هي حتى أمطرهما صاحب العربة بوابل من الرصاص فسقطا إلى الأرض، ثم قذف سلاحه وولّى راكضاً. قُتِل الميجر تومسون من فوره. أما السيرجنت روبن فتحامل على نفسه وسلّ مسدسه وأطلق النار في اتجاه الفاعل قبل أن يغيب في زقاق ضيق، وقبل أن ينكفئ السيرجنت بوجهه على الأرض ميتاً.

أسرع أبو أكرم السويدي إلى باب بيته وقد أزعجته الطرقات المتتالية، ليفاجأ بأحمد صالح الشيخ يونس، أو القائد «أبو صالح»، واقفاً أمامه يتصبب عرقاً.

وما إن دخل حتى انهار إلى الأرض فاقداً الوعي، وكان ظهره مضرجاً بالدماء من أثر الرصاصة التي أطلقها السيرجنت روبن واستقرت فيه. وكانت هدى، زوج الدكتور أكرم، قد برزت من الداخل تستطلع الأصوات. وضعت كفّها على فمها وأطلقت شهقة خوف.

كان الدكتور أكرم قد جهّز في طابق التسوية غرفة عمليات لمثل هذه الحالات الطارئة بناءً على تكليف «أبو صالح» له. ولم يخطر له في ذلك الحين أن «أبو صالح» نفسه سيكون أول فدائي يلجأ إليه. ولحسن لحظ لم تكن الرصاصة قد غارت عميقاً، إذ أصابته على مسافة بعيدة من مسدس السيرجنت روبن. ولكنه كان قد نزف كثيراً في طريقه إلى بيت الدكتور أكرم وأبيه. واضطر الحكيم إلى الاستعانة بزوجته هدى في إجراءات العملية. وكان لها بعض الخبرة في أعمال التمريض، إذ درست سنتين في كلية الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت، قبل أن تتوقف عن إكمال الدراسة، مفضلة الزواج من الدكتور أكرم الذي قال بعد أن فرغ من عمله على إصابة «أبو صالح»:

- الحمد لله.. ما فيه خطر على حياته. حظه كويّس.

قالت هدى:

- وحظنا.. يعني لو مات عندنا كان تورطنا ورطة كبيرة.

- الله لطف.

بعد تردد سألت:

- فكرك قديش بحتاج يظل عندنا؟

أجاب:

- بدّه أسبوعين على الأقل قبل ما يقدر يتحرك..

لم تستطع أن تكتم مشاعر القلق:

- أسبوعين؟ عندنا هون؟ بس الدنيا قايمة قاعدة على اغتيال مدير المخفر والشاويش اللي كان معه.

ألقى الدكتور أكرم عليها نظرة عتاب:

- شو فيه خيار ثاني؟ على أي حال اطمني.. بيتنا بعيد عن الشبهات.

وأردف وهو ينظر نحو أبيه:

- أبوي حاكم صلح وسمعته طيبة.

علّق أبو أكرم:

- سمعته طيبة، في هذا السياق بهدلة يا حكيم!

اكتفى الدكتور أكرم بابتسامة خفيفة. ولم تستطع هدى أن تتحرر من قلقها الذي بدا في ملامحها وحركاتها. فقال زوجها:

- يا ستّي إحنا ما رحنا باجرينا للثورة والثوار.. هاي الثورة أجَت لعندنا ودخلت بيوتنا. عالأقل هذي شهادة إلنا إنّا أسهمنا فيها، حتى لو كان بدون تخطيط مسبق منا. بعدين.. اسمعي يا هدى.. انسي قصة العائلات والفلوس والأراضي والمقامات، وانسي إنه هذا الرجل فلاح اشتغل في يوم من الأيام مع أسرته في أرضنا.. هذا الآن أهم من جوزك الحكيم. وإذا طلعنا من هالوضع بالسلامة إن شاء الله، شرف إلنا إنا استقبلناه في بيتنا وعالجناه وخبّيناه.

مهما يكن، فإن هدى لم تقصّر في خدمة الفدائي المصاب ورعايته حتى قضي الأمر، وتمكن من التسلل عائداً إلى أهله وجماعته، وغادرها القلق. وعندئذٍ فقط شعرت بشيء من الرضا عن نفسها! وأكثر من ذلك كان رضا زوجها منها، حتى تنبه أن «الفرشة» التي كان ينام عليها ذلك الثائر الفدائي الفلاح لم تعد موجودة في البيت. ولما استفسر من زوجته أجابت بأنها تَصَدّقت بها بعد تنظيفها! وآثر أن يكتم مشاعره وقد أدرك أن دافعها لم يكن محض الصدقة الإحسان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

احتفل أصحاب أحمد وأهله بعودته سالماً. وكان الدكتور أكرم قد نقل لصاحبه المحامي محمود خبر «أبو صالح» عنده، وتولى محمود بدوره طمأنة الأهل والأصحاب المقربين دون أن يبوح لأحد بمكان أحمد في بيت «أبو أكرم» السويدي وابنه.

أطلق العبد بضع طلقات نارية احتفالاً بعودة «أبو صالح»، الذي نهاه عن ذلك مذكِّراً بأن السلاح لم يُحمَل لمثل هذه الحاجة. وتدخل حمد العربيّات ممازحاً:

- من يومن ما جاب البارودة الجديدة وهوّه بدوّر على مناسبة حتى يستعملها.

قال أبو صالح:

- المناسبات الصحيحة جاي وكثيرة. بارك الله فيكم.

وكانت خضرة قد أصرّت على أن يأخذ العبد إسورة العرس ليبيعها ويشتري بها بندقية جديدة، بعد أن عرفت منه أن بندقيته السابقة تخذله أحياناً حين تعجز عن سحب الرصاصة إلى مكانها. وقد رفض عرضها أولاً حتى أقسمت عليه: في سبيل الوطن، ولكن كذلك خشية على الزوج الذي تعشقه.

وبدلاً من إطلاق الرصاص، تولّى حمد العربيات طقس الاحتفاء بعودة «أبو صالح» على طريقته في كل مناسبات الفرح والشجن: العزف على

الربابة الذي يتقنه إتقانه إطلاق النار!

لم يأتِ أبو عزمي العلي لتهنئة «أبو صالح» بعودته، كما فعل آخرون من قواد الفصائل. ولكن، جاء ابن أخيه محمد. وبلّغه سلام عمّه واعتذر عنه بمشاغل طارئة.

فوجئ محمد بردّة فعل عمّه حين أخبره بتصرّفه، فقد صاح به غاضباً:

- أنا قلت لك تبلغه سلامي وتعتذر عني؟ أنا بعثتك بهالمهمة! بتعمل من ورا ظهري يا ولد؟

اضطرب محمد اضطراباً شديداً، وقال متلعثماً:

- العفو يا عمي.. ظنيت..

قاطعه أبو عزمي:

- لا تظنّ شيء بالنيابة عني.. بدّك تقول الزلمة قائد فصيل ومنا فينا وقاتلنا مع بعض.. منا فينا لما بنكون بنص المعركة مع الإنكليز. بعدها كل واحد برجع لمركزه ومقامه، زي ما كنا قبل الثورة!

أطرق محمد منكسفاً، لا يدري ما يقول بعد. ثم تغيّرت ملامح عمه إلى تعبير المحبة، واقترب منه وربّت على كتفه:

- لا تزعل من عمك لما برفع صوته عليك. انت عارف معزتك عندي. بس أنا لازم أوجهك.. لا تنسى انك أنت اللي بدّك تؤخذ محلّي بعدما ينقضي الأجل.

قال محمد:

- الله يطوّل عمرك يا عمّي.

ثم نزع أبو عزمي مسدسه القيِّم الألماني، وقدمه لمحمد:

- هذا فردي. ما ببيعه بكل المصاري. بدّي إياك توخذه وتصونه زي ما بتصون عمك..

قلّب محمد المسدس في يده فرحاً وهتف:

- على عدوّك يا عمي.. هذا الفرد أغلى من روحي. وروحي فداك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن من الصعب على أبو صالح ومن حوله أن يدركوا أن محمد العليّ يختلف عن عمّه، على الرغم من التصاقه به. وكانت الشكاوى قد اتسعت وتواترت عن قسوة أبو عزمي العلي وشدته مع الناس باسم الثورة والضبط والربط والحزم. هذا إلى جانب إرهاقه الناس بجمع المال. فمن تخلّف أو عجز اتهمه بالتهرب من واجباته تجاه وطنه، إن لم يتهمه بخيانة القضية. فكان يحبس على هواه ويضرب ويجلد ويوثق ويشهّر بكل مخالف أو متهم. وكان الولاء له شخصياً مقدماً على أي ولاء آخر، أو أنه كان يطابق بين الولاء له والولاء للوطن. ولم يكن يرجع في شيء إلى قيادة الثورة التي يرى نفسه أكبر منها، ويرى أنه يستمد شرعيته من بلائه في قتال الإنكليز. وما كان الناس ليختلفوا على شجاعته وبلائه، ولكن حين تفاقم الوضع لم يعد هذا ليشفع له. فهل يكون عليه أن

يوزع شدّته على العدو الغريب وعلى ابن البلد؟ وهل يكون على الناس أن يصطلوا بنار الإنكليز وبناره؟ وهم في جملتهم لا يتوانون عن دعم الثوار بما يقدرون عليه من المال والمؤونة عن طيب خاطر، بل بأنفسهم أيضاً. فالكثيرون ممن بقوا في حقولهم وقراهم، كانوا إذا وقعت واقعة بين الثوار والإنكليز، يتركون أعمالهم ويفزعون إلى إخوانهم الثوار بالسلاح إن وُجد، أو بغير ذلك من أشكال الدعم والمعونة. وفي بعض الوقائع استطاع هؤلاء أن يفكّوا الطوق المضروب على الثوار. أفما يكفيهم ما يفرضه عليهم الإنكليز من الضرائب والغرامات والعقوبات الجماعية كلما وقعت معركة بالقرب من إحدى قراهم؟ حرق البيوت وتدميرها وجمع أهل القرية ثم تعريضهم لكل أنواع العذاب من الضرب والجلد والمشي على شوك الصبّار، وحين اشتد أوار الثورة بلغ بهم الأمر أنهم إذا تبيّن لهم أن هذا الشهيد أو ذاك من إحدى القرى القريبة، اختاروا عدداً من شبابها أمام أهليهم عشوائياً وأطلقوا عليهم النار ليكونوا عبرة ورادعاً. وكانت طريقتهم أن يُلقوا جثة الشهيد أمام أهل القرية بعد جمعهم، فإذا صاح أهله صار دم غيره مباحاً بالقدر الذي يشاؤون. أفما يكفي هذا كلّه حتى يكون عليهم أن يَتَوقّوا «أبو عزمي» العلي وجماعته؟ وقد يكون ذلك أشدّ عليهم من الناحية المعنوية على الأقل. فعقوبات الإنكليز على قسوتها إنما هي شهادة على مواقفهم الوطنية، أما عقوبات «أبو عزمي» فتأتي مع التهمة بالتواطؤ مع الإنكليز أو التهرب من الواجب الوطني. ومما زاد الطين بلّة أن بعض «أولاد الحرام» من الزعّار واللصوص الذين لا علاقة لهم بالثورة، استغلّوا هذا

الوضع فصاروا يعترضون الناس ويبتزونهم ما يمكن أن يكون معهم من النقود، باسم الثورة وباسم «أبو عزمي» العلي بصفة خاصة.

كان لا بد أن يتوقف ذلك قبل أن تتحول الشكاوى من أبي عزمي وجماعته إلى الثورة بجملتها. ولكن قيادة الثورة كانت تفضّل أن تسوسه بالحسنى أول الأمر، كي تتجنب صراعاً داخلياً يمكن أن يمتد إلى حمولته وحلفائها، فتنبعث النزاعات العشائرية القديمة على حساب الثورة ضد العدو الغازي. ولكن «أبو عزمي» ما كان ليستجيب إلى رسائلها المتوالية. وعلى أي حال وجهت القيادة العامة قادة الفصائل إلى ملاحقة كل من يعترض الناس بطلب المال دون تفويض من الثورة وإنزال عقوبات رادعة به.

ثم ناشدت أهل القرى أن يحتسبوا شهيدهم لله، فإذا ألقى الإنكليز بجثته أمامهم فلْيحاول أهله ما استطاعوا كبح عواطفهم، وَلْيُنكر الجميع معرفتهم به، كي يتجنبوا المزيد من القتل والتنكيل. وبالطبع، لم يكن من السهل على أهل الفقيد أن يروا جثة ابنهم أمامهم دون أن تتفجر أحزانهم.

وقف محمد العلي أمام عمّه «أبو عزمي» يقرأ بلاغاً عاماً من القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين، يعلن عن جوائز مالية على رؤوس عدد من القادة:

عبدالرحيم الحاج محمد: ألف جنيه.

عارف عبدالرزاق: ألف جنيه.

يوسف أبو درّة: ألف جنيه.

حسن سلامة: ألف جنيه.

وأخيراً وصل إلى اسم «أبو صالح»، أحمد الشيخ يونس: خمس مائة جنيه.

سحب أبو عزمي الورقة من يد ابن أخيه، بينما قال محمد ببراءة:

- الحمد لله يا عمّي، اللي صرف عينيهم عنك.. اسمك مش موجود.

ولكن «أبو عزمي» هز الورقة بيده ثم أخذ يمزقها بعصبية مفاجئة، ثم ركل كرسياً أمامه وصاح بانفعال غريب:

- طيب، بوريهم أولاد الكلب الإنكليز. قريب بيسمعوا عني كويس، والله لأخليهم يحطوا على راسي عشر آلاف مش بس ألف!

وخرج مسرعاً وهو ينتفض غضباً، مخلّفاً ابن أخيه وراءه وقد طغت عليه الدهشة والحيرة في موقف عمّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان العبد في بيته جالساً يمسح على بندقيته الجديدة، حين علّقت خضرة مبتسمةً:

- من يومن ما اشتريت هالبارودة وانت بتحلِّس وبتملِّس عليها.. هاذي صارت ضرّة!

قال العبد وهو ينقل بصره بينها وبين البندقية:

- بالعكس.. لما بكون برّة بشوفك فيها.. مش اشتريتها بحق الإسوارة تبعتك؟ من اليوم وطالع راح أعطيها اسم: خضرة!

قبل أن تعلّق، سُمِعت انفجارات وقذائف وزخات رصاص من بُعد، فتغيّر وجه العبد وقفز فوراً ووضعت خضرة يدها على صدرها:

- يا ساتر يا ربّ.

في بعض الحقول وصل مسعود راكضاً يصيح في الفلاحين:

- الفزعة.. فزعة يا شباب. الإنكليز طوّقوا الثوار عند جبل التين.. اللي عنده سلاح يطلع بيه، ملقانا عند الدبّة.

وفعل مثل ذلك في مواضع أخرى، قبل أن يعدو راكضاً إلى بيت أسرته ليستخرج بندقيته المخبأة وينضم إلى الشباب في مكان التجمع. نزلت أم أحمد على الأرض تبتهل وتدعو وقد طغى عليها الخوف والقلق. وكذلك فعل أبو أحمد، إلا أنه كان يدعو في سرّه.

أما حسن الذي بلغ الآن الخامسة عشرة من عمره، فاعترض أخاه في طريقه إلى الخارج مع البندقية:

- وأنا.

أزاحه مسعود من طريقه وتابع هرولته إلى الخارج، بينما صاح حسن من خلفه:

- وعدتني هالمرّة دوري.

أما العبد، فقد انطلق إلى مربط فرسه من فوره، وانطلق بها دون أن يجد الوقت ليودّع زوجته التي ما زالت آثار حناء العرس على كفيها. فخرجت تشيّعه وهي تدعو وترتجف، حتى غاب عن أنظارها. وفي طريقه مرّ بالقرب من الشباب الذين خرجوا للفزعة وفكّ الطوق، وبينهم مسعود الذي ناداه، ولكنه لم يلتفت إلى الصوت وهو منطلق على جواده بأقصى سرعته كيلا يتأخر عن إخوانه.

أنصتت التلال والوديان إلى وقع حوافر جواده، وخفق قلبها مع خفقان قلبه، وثارت حميتها مع ثوران حميّته. أخذت تحدوه:

يا عبدالله تأهب يا عبدالله

يا عبدالله تقحّم يا عبدالله

جاؤوا من كهف الليل ليغتالوا شمس الأيام

رسموا خط البارود الأسود بين الأرض وبين الأحلام

بين وعود الغيم وبين عيون الأيتام

وانتشر العسكر

من كل مكان جاء العسكر

يا خيّال الفجر عليك سلام الله ادخُل في لحم الأرضِ..

وفي ألَق الملكوتْ

كي تحيا فيها ما بَقِيَت، والموتُ يموت!

- يا ولدي

وانفجر الصخر زهوراً دموية.

طارت قبّرة واختبأت في عبّ صبيّة

وتطاير في الكون بخار ورديّ

بصق الخيّال دماً في وجه القتلة

وتعلّق بالشمس لكيلا يسقط أرضاً

وتراءى الموت له في زيّ يمامة

تتألق عند تخوم الأبدية.

بعد معركة طويلة استعملت فيها قوات الانتداب الطائرات الحربية، تمكن الثوار ومن فزع إليهم من أهل البلد من فك الطوق، وأسهم أبو

عزمي العلي وجماعته بقدر مشهود في ذلك. واضطر جنود الإنكليز إلى الانسحاب.

هتف الثوار مكبّرين. احتضن بعضهم بعضاً. وأقبل أبو صالح على «أبو عزمي» العلي يحتضنه بحرارة فاجأ بها نفسه، ولم يتلقَّ مثلها من «أبو عزمي» الذي لم يلبث طويلاً وانصرف مع جماعته. وكان محمد العلي أسعد الحضور بذلك التصرّف من «أبو صالح» وإن لم يظهر عمّه نفس الحماس. ولكن ذلك طبع عمّه في كل شأن: جبل لا تهزّه الريح في مواطن الفرح والشدّة سواء. وحسبه أنه نفر على عجل لفك الطوق دون تردد حين بلغه الخبر. ولولا بلاؤه وتدخله لربما كانت النتائج فاجعة!

بعد استراحة المحارب، حيّا أبو صالح شباب الفزعة وبينهم أخوه مسعود، وأمرهم بالعودة إلى القرية ونقل البشرى. وإذ بدؤوا بالانصراف، توقف مسعود لحظة، ثم ارتد نحو أخيه وسأل:

- العبد! وينه؟

أجاب أحمد متوجّساً:

- شو قصدك؟ مفروض إنه في بيته!

قال مسعود:

- شفته بعيني طاير على حصانه لعندكم..

ران الصمت الثقيل للحظات قصيرة، قبل أن يخف الجميع وينتشروا في

كل اتجاه.

بعد وقت من البحث والتقصي وجدوا الفرس هائمة بلا فارسها.. وكان عليها آثار دم طازج! وكانت بندقية العبد مثبتة في مكانها إلى جانب السرج. وعلى مسافة أخرى وجدوا آثار دم على الأرض مع آثار أخرى لجرّ جسم ثقيل.

طلّت البارودة والسبع ما طلّ

يا بوز البارودة من الندى مبتلّ

بارودة يا مجوهرة شكّالك وين؟

شكّالي ع عادتوا سرى في الليل

بارودة يا مجوهرة شكّالك راح

شكّالي عَ عادتو سرى مصباح.

ربما كان دم العبد مصباحاً منيراً. ولكن «أبو صالح» ومسعود وحمد العربيات وسائر أصحاب العبد الذين خبروا شجاعته وسمو خُلُقه، قد انطفأت في نفوسهم في تلك الساعة ألوف المصابيح. ولا عزاء لهم في احتمال أن يكون الإنكليز قد أخذوه جريحاً حيّاً. فالمصير واحد. ولكن، كيف السبيل إلى معرفة مصيره؟

الإنكليز هم من تولّى ذلك.

فما إن عاد مسعود إلى القرية حزيناً لا يدري كيف يتوصل بخبر العبد

إلى أخته وأهله، حتى كان الإنكليز قد طوقوا القرية، ونادوا بالمكبرات لخروج الجميع: نساءً ورجالاً وصبياناً وصبايا، إلى منطقة البيادر. وبعد سيل من الشتائم واللعنات، أومأ الملازم الذي يقود الجند إلى بعض جنده، فمضوا إلى سيارة عسكرية، وما لبثوا أن عادوا بجثة مغطاة وضعوها أمام الجميع. وتعمّد الملازم أن يتريّث قليلاً قبل أن يكشف عن الجثة ليتمتع برؤية ملامح القلق على وجوه الجميع، وكلٌّ يخشى أن يكون القتيل من أهله، وأن يدخل في اختبار الصبر على فجيعته فلا ينبئ عن الحقيقة بالصراخ والعويل والنواح، كي يجنّب القرية ما يترتب على ذلك من العقوبات الجمعية، ومن ذلك إضافة شهداء آخرين وجنازات أخرى. وتلك كانت مناشدات الثورة لأهل القرى.

وأخيراً كشف الملازم الغطاء. وأخذ وجنده يستعرضون ردود فعل الحاضرين.

صرخت خضرة صرخة مدويّة متفجعة ملأت القرية والتلال الوديان وعمائر الزيتون وحقول الذرة، وجفلت منها الأيائل وقطعان الماعز والجياد العاديات، والطيور في أعشاشها فطارت فزعة في كل اتجاه.

وانطفأت الشمس قبل مغيبها، وعمّت العتمة الكون كلّه. وغاب الناس والأصوات والألوان، فلا ثمة إلا تموّجات شائهة وأزيز الكون وطنين الأبدية، وصيحتها المتصلة القادمة من جب عميق لا تدرك قعره.

ولكنها كانت صيحة لم يسمعها أحد سواها!

ولم يكن الذي أعانها على دفن صيحتها أمها التي طوّقتها بذراعها وأخذت تتمتم بالتهليل، ولا تَصَبُّر أم العبد وزوجها تَصَبُّرَ السنديان القديم على الريح العاصف. ولكن الذي أعانها حقاً رجلان هما القاتل والقتيل! القاتل الذي يراقب وينتظر انهيار أصحاب الدم ليتشفى أولاً ويقتل ثانياً، وأما القتيل فهو الذي أوصاها من قبل أن تصبر وتحتسب إذا كُتِبت له الشهادة، ولا تخذل دمه أمام قاتله، وتخذل معه أهلها وناسها، فتوردهم المهالك، وقد تصيب مهلكة الانتقام أخاها مسعود أو حسن.. أو أباها.

وإذ يئس الملازم من الحصول على بغيته، انطلق وجنده مبتعدين بسياراتهم العسكرية، بعد سيل آخر من اللعنات والتهديد والوعيد. عندئذٍ فقط صاح أحد الشباب مكبِّراً ومهلِّلاً، فهتف الآخرون بهتافه، وصاح آخر: «الشهيد حبيب الله»، فرددوا من ورائه، بينما اندفعت خضرة إلى زوجها تسابق أمه وأباه.. وانكبت عليه تقبل جبينه وتمرّغ رأسها بصدره المضرج بالدماء. الآن يبيح لها الموت ما لا تبيحه الحياة. فلتُقبّل الآن يديه وجبينه أمام الخلق، ولتحضن رأسه في حجرها وتغسله بنبع دموعها السخيّ النقيّ. وستحلف وغيرها في قابل الأيام أنه كان يبتسم، وكان ما يزال ساخناً، ولم يكن لينبئ عن موته إلا انقطاع نفسه وغياب صوته. ولسوف يؤيّدها في ذلك كثير من الناس، فذلك شأن الشهيد، وتلك هي الشهادة له بالشهادة! ولكن قلّة من ذوي القلوب القاسية، مع تباعد الأيام وصدمة الفجيعة، سوف يتهامسون بنقدها

ولومها على ما رأوا من احتضانها لزوجها الشهيد وتقبيلها له وتمسيدها لجسده على مرأى من الناس! ويفتي بعضهم أنه منذ فارق الحياة لم يعد زوجها وحلالها ليجوز أن تفعل هذا معه!

ولكن هذا لن يمنعها من التسلل إليه ولقائه كلما جُنّ الليل ونامت أعين الخلق، وهدأت الأصوات إلا من صداح طيور غريبة ليست من طيور الدنيا، وصهيل جياد بعيدة ليست من جياد الدنيا، وترانيم «شبّابة» مجهولة المصدر بين التلال والسماء!

لا، لم تكن تتسلل لتزوره في مرقده الأبدي.. فقد كان قد غادره ليتجوّل على غفلة من الناس في طرقات القرية وتلالها وعمائرها مثل طيف محتجب إلّا عنها. ولم يكن عليها أن تتلفت حولها خشية عين الرقيب.. فالآن تستطيع أن تمشي حافية القدمين، وأن تسلم شعرها للريح دون خرقتها.. ولقد يحملها الشوق والتلهف على أن تستعير جناحَي طائر غريب لترتفع بهما في الفضاء فوق بيوت القرية لتجده في انتظارها يجلس على صخرة مستنداً إلى سنديانة قديمة وبيده ناي يستقبلها بنغماته وترانيمه.. فيتعانقان بلا خجل.. ويقول لها وتقول له ما لم يكن بوسعهما أن يقولاه من قبل. واكتشفت أنها تحسن كلام الغزل. مثلما يحسنه. فتبقى معه على ذلك حتى مطلع الفجر، حين توقظ الشمس الأحياء وتطفئ نجوم الأحلام! وتردُّ الحالم إلى فراشه، فيكون عليهما أن يفترقا من جديد على أمل اللقاء في ليلة تالية، وحلم آخر لا يتأبّى عليها.

وما لم يكن يتأتى لها من كلام الشعراء، كانت تهمس به الأرض الشاعرة

التي تحسن قديمه وحديثه، وتصوغه بلغة الملاحم والأساطير التي ما زالت تنتجها عبر العصور، وتدّخرها في ذاكرتها الخالدة، وما زالت توحي بها لبعض أبنائها وتلهب بها خيالهم جيلاً بعد جيل.

آهٍ يا أقمار الحزن الهائمة الفضية

يا زهرة عرس دمويّة

تتفتّح في راحة خضرة

حلماً ممنوعاً وقصائد شعبيّة

في كل العالم تُسْدَل بعد الموت ستاره

في هذا الوطن النازف بالخضرة والماءْ

تبدأ في الكون الأشياءْ

حين يقوم بساعات الليل الشهداء

ويضيئون أصابعهم تحت شبابيك الفقراء

في منتصف الليلْ

حين يصير القمر الدافئ طفلاً يدرج في الطرقاتْ

والحزنْ

يسقط في القلب كنجم ميّتْ

تتجوّل خضرة في الأحلام، وتؤنس ليل الأموات.

توقد في قلب العالم جرح المأساة

في منتصف الليل

حين تكون النجماتْ

لامعة كعيون أليف يشتاق أليفه

والريحْ

تصفر في صدر مثقوبْ

تتلفع خضرة بالقمح وجلد الأرض وأجنحة الشهداء

وبرغم الحزن النازف بالموّالْ

فالقمر هناك

ما زال صبياً يدرج في الشرفات ويقفز فوق العتباتْ

ويغني للجنيات

إذ تعدو خضرة بين حقول القمح

ودروب الزنبق والريح

تشعل في الكون السادر في النوم

أزهار الدم وزيتون الذكرى المرّة

والصوت الهامس في البريّة ينفذ مثل الجمرة

يا ولدي

تلك الأيام المورقة الخضراء

ما زالت خلف مضيق الموت بعيدة

لكنّ جِراح الشهداء

لن تَفْتَرَ يوماً.. تنزف بالخضرة والماء.

تتفتح عشباً برياً وصبايا

شعراً ورصاصاً وحكايا.

وإذ توقظها الشمس القاسية من أحلامها، يكون أول ما ترى من مكانها على الفراش بندقية العبد التي اشتراها بثمن إسوارتها، معلقة على الجدار، تذكّر بقلب شجاع دعته الأرض إليها، وزمن جميل موجع، وتَعِدُ بزمن آخر، يتحقق فيه حلم الأرض الطيبة: زمن جميل لا وجع فيه، تضيء فيه الزيتونة المباركة ما بين المشرق والمغرب.. ولا ثمّ ما بين الماء والماء إلا نداء الحياة ومهرجانها الأبديّ الصاخب بالخضرة والأغاني ومعاول الفلاحين وأزجال الشعراء وأنغام النايات.

ولكن حتى ذلك الحين، فإن فضاءات الحياة ما زالت تتراكم فيها غيوم داكنة أشدّ ثقلاً على النفوس الحرّة من عتمات ليل بلا قمر ولا نجوم! والآن إذ تصحو خضرة على واقع الفقد الموجع، تنهض من فراشها بما

يشبه الطقس اليومي، فتتلمّس بندقية العبد، ثم تتلمّس بطنها الذي زرع فيه عقبه الذي سيحمل اسمه ويرث بندقيته وقضيته!

بارودته لقطت ندى ع قرابها

لقطت ندى واستوحشت لصحابها

(الصقور تهجر الجبال)

استقبلهم محمد العلي مرحِّباً. وقادهم إلى مجلس عمّه الذي كان في انتظارهم. لم يردّ التحية ولم يدعهم إلى الجلوس، وابتدر بالقول مخاطباً «أبو صالح»:

- بأي حق بتقبضوا على اثنين من ازلامي؟

رد أحمد:

- كنت بتمنى ما يكونوا من رجالك. هذول مجرمين قتلوا ناس أبرياء.

رفع أبو عزمي صوته:

- اللي قتلهم ازلامي مش أبريا.. ناس مشبوهين.

قال أحمد بلهجة حازمة:

- ثارات عائلية يا أبو عزمي.. ثارات قديمة.. التحقيق في محكمة الثورة أثبت هالحكي.. والمشبوهين على كل حال مسؤولية محكمة الثورة، مش مسؤوليتك.

صاح أبو عزمي وقد تصاعد انفعاله:

- مين الثورة ومحكمة الثورة اللي بتحكي عنها. وأنا شو بسوّي هون. ومين عبدالرحيم الحاج محمد، ومين سعيد أبو درّة.. مين عارف عبدالرزاق وأشكالهم.

- هذول قادة الثورة.. همّه اللي بعثوني إلك.. الحال ما عاد ينسكت

عنه.. واللي راح له ولد على إيد ازلامك مش زعلان على ابنه قد ما هو زعلان على تشويه سمعته وشرفه.. لما بنقتل بتهمة الخيانة والتعاون مع الإنكليز. واحنا بنعرف انهم ناس شرفا.

صاح أبو عزمي من جديد:

- مين انت حتى يبعثوك تبلغني هالكلام الفاضي؟ ليش ما أجاني عبدالرحيم الحاج محمد بنفسه إذا كان له كلام عندي.

- ما هوه لها الغرض أنا جاييك هسّع.. لَتروح معي لأبو كمال..

هنا انفجر أبو عزمي بوجه «أبو صالح»:

- إيش؟ أطلع برّة.. غور من وجهي قبل ما أجلدك مرّة ثانية قدّام الناس.. والا نسيت يا مصدّي يا مقطّع.. مش هيك كانوا يسموكم في البلد؟ غربيّة مقطعين! والا صدّقت إنه البارودة اللي حملتها عملت منك زعيم؟ كل واحد برجع لأصله.

انقبض وجه أحمد انقباضاً شديداً وقد عادت له ذكرى تلك الواقعة، ومعها حقده القديم. ولكنه تمالك نفسه. ولم يكن مرافقوه أقل ضيقاً منه: حَمَد العربيات، والمحامي الأستاذ محمود، وعايد الذي استذكر أعمال أبيه، فاختلطت في نفسه مشاعر الغضب من إهانة «أبو عزمي» لقائده «أبو صالح»، مع مشاعر الخجل من مواقف أبيه القديمة التي شاركه في بعضها، قبل أن تشتعل الثورة وينضم هو إليها تحت قيادة ابن «الغربيّة المقطّعين» كما كان يردد أبوه. ولكن أكثرهم ضيقاً وغضباً

كان مصطفى السبعاوي الذي التحق بفصيل أبو صالح منذ البداية. تدخّل في الكلام دون أن يستطيع أحمد أن يوقفه:

- انت هسّع بتهين كل حمولة السبعاوي.. أنا مصطفى السبعاوي.. وهذا أبو صالح الشيخ يونس السبعاوي، زينة الحمولة وجملها، واحنا كلنا وراه!

ردّ أبو عزمي متهكماً:

- والله والنِّعم.. هسّع صار من آل السبعاوي!

همّ مصطفى أن يتابع، فنهاه أحمد بحركة من يده، وقال مخاطباً «أبو عزمي» بلهجة قاطعة:

- إذن خلّيني أبلغك قرار الثورة.. انت خلص.. انتهيت.. ممنوع من اليوم إنك تشتغل باسم الثورة. الثورة ما بتعترف فيك.. وبتعتبر فصيلك عصابة، والمال اللي بتفرضه على الناس تقشيط وسرقة وإتاوة. وممنوع تحاسب حدّ حتى لو شفته بعينك بتعاون مع الإنكليز. والثورة بدها تلاحق كل واحد غير مخوّل بالتصرّف باسمها. مفهوم؟

جنّ جنون أبو عزمي، ووضع يده على مقبض مسدسه:

- إذا ما بتطلع هاللحظة بحط الطلق بين عينيك!

تأهب رفاق «أبو صالح» ووضعوا أيديهم على سلاحهم. وكذلك فعل رجال «أبو عزمي». ولكن «أبو صالح» انفتل خارجاً ولحق به أصحابه.

وأشار «أبو عزمي» لرجاله بالخروج، ولبث وراءهم واقفاً يلهث. وما هي حتى دخل ابن أخيه مسرعاً يتلفت وراءه ويتساءل بقلق:

- شو القصة يا عمّي!

- هه! مين عبدالرحيم الحاج محمد، أبو كمال؟ وإيش قرية «ذنابة» اللي طلعته.. هيك بتصير كلفة الثورة علينا أكثر من عوايدها! الأيام بينا على كل حال. أنا عملت فصيلي على عاتقي وما أخذت إذن من حدّ، وأنا بسّ اللي بقرّر أنهيه.. قال انتهيت! هه!

أقبل محمد العلي متعجلاً نحو أحمد وأصحابه في مركزه، ووقف غير بعيد، وصاح من فوره:

- شو القصة يا أبو صالح؟ صرنا بدنا نبلّش ببعض؟ نسيت مواقف عمّي اللي خبرتها بنفسك؟

قال أحمد مترفقاً:

- اسمع يا محمد.. انت شاب طيب.. مليح انك أجيت. إذا كنت بتحب عمك صحيح انصحه يطيع أوامر الثورة اللي بلغته إياها. لمصلحة عمك نفسه ولمصلحة الثورة اللي أهم منّه ومنا كلنا.

- وما له عمي؟

- لازم تصدّق اللي بحكيلك إياه، وما تخلّي القرابة والمحبة تعميك. عمّك شجاع وقلبه قوي.. وما بنكر، كان إله مواقف مشهودة. بس اللي خرّبها

حب السلطة والوجاهة والزعامة.

- عمي زعيم من يوم انخلق. مش محتاج لحدّ يرفعه.

- اسمعني بس.. عمك إله عداوات قديمة مع بعض الحمايل والآن بستغل الثورة تايصفّي حساباته القديمة.. رصاصة على الإنكليز ورصاصة على أهل بلده.. وبيِعْتَقِد أن الرصاصة الأولى بتبرر له الرصاصة الثانية! والحمايل ما بتنزل عن دم أولادها. واحنا صرنا مخيرين، يا إما بنتبرأ من عمك أو نتحمّل جرايره من حساب الثورة والتفاف الناس عليها.

- جرايره! أنا ما جيت أسمع هالحكي على عمي.. بس عمي زي السيف.. وطول عمره محسود على صيته ورزقه. وإذا ظنيت إنك تحرضني على عمي، اعرف إنه عمي عندي بكل الدنيا.. تاج رأسي وأعز عليّ من روحي.

وانطلق راجعاً بالسرعة التي جاء فيها. وعلّق الأستاذ محمود المحامي:

- صحيح الدم ما بصير ميّة.

هز أحمد رأسه وهمس:

- ولا دمّ الأبريا عند أهاليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حيفا، حين عاد الدكتور أكرم السويدي من عيادته، استقبلته زوجته هدى، فسألها من فوره عن السيارة العسكرية التي تقف أمام البيت. فعلم منها أن الحاكم الإداري الإنكليزي قد جاء زائراً لوالده وأنه يجلس معه الآن في صالة الاستقبال.

انقبض وجهه، وألقى بحقيبته جانباً، ودخل إلى غرفته، وحبس نفسه حتى علم أن الحاكم قد غادر البيت. فمشى على عجل ليواجه والده بوجه شديد العبوس. وأدرك أبو أكرم ما في نفسه وما يهمّ بقوله فسبقه بالكلام:

- يعني الرجل فاجأني بالزيارة وما بقدر أطرده. بعدين كل الحكي كان بتعلق بشغل المحاكم والقضاء. وأنا في النهاية حاكم صلح. يعني شو أعمل؟

ردّ أكرم:

- وليش حضرته ما بعث إلك حتى تروح له عالسرايا؟ هوّه الحاكم.. يعني أهم شخصية إدارية بريطانية في المدينة. السبب واضح يابا وما أظن إنه يفوتك. الخبث الإنكليزي المعروف.. تشويه سمعة الشخصيات البارزة، وزرع الشك بين أهل البلد.. خاصة في هالوقت اللي كثرت فيه مشاكل الثورة وتصفية الحسابات القديمة بسبب ناس زي أبو عزمي الزفت. شو بدّه أكثر من أنه يعرف إنه الحاكم البريطاني بتردد علينا حتى

ينتهز الفرصة؟ والراجل إله ناسه هون في حيفا.. وأنا أحياناً بحسّ إنه في ناس بتراقبنا.. بس بقول: يمكن أوهام.

نزل أبو أكرم جالساً بضيق شديد:

- طب شو العمل؟ لا تفكر إني مبسوط على هالحالة.

أجاب أكرم:

- إذا بدّه يكرر الزيارات بحجة تطوير الجهاز القضائي، بصير الأفضل تقدم استقالتك. واحنا والحمد لله وضعنا ممتاز، ومش بحاجة لها الوظيفة.

وقد تكررت الزيارات من الحاكم الإداري ومن مسؤولين آخرين، ورفضت السلطات استقالة «أبو أكرم». بل كان ذلك مدعاة للمزيد من الزيارات بدعوى إقناعه بالعدول عن الاستقالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المساء قد هبط حين أخذ الدكتور أكرم يعد أوراقه وحقيبته للخروج من عيادته. وكان ينوي أن يتوجه منها إلى مقر اللجنة القومية. أغلق باب العيادة، ثم استدار ليتابع طريقه إلى سيارته، حين دوّى طلق ناري. ارتد أكرم إلى الحائط بظهره، وسقطت حقيبته وانتثر ما فيها. ونزل إلى الأرض وانكفأ رأسه بين ساقيه.

لم يكن في وسع «أبو صالح» أن يحضر بنفسه إلى بيت العزاء. فأوكل بالأستاذ محمود المحامي مهمة نقل تعازيه الحارة إلى أبي أكرم. ولما عاد

الأستاذ محمود من حيفا إلى مركز أبو صالح كان معه أبو أكرم نفسه. فاحتضنه أبو صالح بحرارة وقبّل جبينه. وحين اختلى به مع الأستاذ محمود، قال أبو أكرم:

- أنا وانت بنعرف يا أبو صالح مين قتله.

هز أبو صالح رأسه:

- المشكلة يا بيك إنا ما بنقدر نثبت شي.

- عارف يا أبو صالح.. ومش لهيك أجيتك.. احنا لو بدنا الثار عندنا أزلام بنتظروا بس الإشارة. والله أعلم شو الجهد اللي بذلته حتى أقنعت شباب الحمولة ما يعملوا شي.. يعني لولا إني أبو المرحوم وأوْلى الناس بدمه كان ولّعوها. بس احنا في ظروف ثورة.. وعندنا إنكليز ويهود، وهذا اللي بدهم إياه.. ومصلحة الوطن فوق كل اعتبار مهما كانت النفوس ثايرة. على كل حال، أنا بحتسب ابني الوحيد عند الله، وكرمال الثورة وفلسطين. بس اللي جيتك فيه أغلى من الدم: السمعة والشرف. واللي دبر قتله ما بقصّر في ترويج الإشاعات.. وحرام.. حرام واحد مثل أكرم قضى حياته في العمل الوطني تتشوه سمعته. هذا بسّ اللي إلي عندك يا أبو صالح.

هز أبو صالح رأسه، والتفت إلى الأستاذ محمود:

- اكتب فوراً بيان باسمي واسم فصيلنا بنعي الشهيد الدكتور أكرم وعدِّد جهوده الوطنية قبل الثورة ومع الثورة. واذكر فيه أن الثورة رايحة تبذل

كل جهد ممكن لمعرفة المجرم ومعاقبته. وهاته أختمه. ولازم يتوزع على الجرايد وعلى الناس في كل النواحي.

ثم التفت إلى «أبو أكرم»، وتابع:

- وبوعدك يا بيك أراجع القيادة العامة حتى تنشر بيان مثله. والقيادة على كل حال ما بدها شهادة على نظافة الشهيد ووطنيته.

قالت هدى التي كان جفناها منتفخين من البكاء، بعد أن قرأ أبو أكرم عليها البيان:

- شو الفايدة. هذا ما برجّع أكرم.

- سمعة المرحوم.. سمعة العيلة كلها.. سمعة البنت اللي بإيدك لما تكبر وتصير تفهم.

قالت بأسى وهي تحتضن ابنتها:

- لما تكبر من غير أبوها!

- ما في شيء بسدّ عن الأب يا هدى.. صحيح.. بس الجد أب ثاني.. وزي ما قالوها: ما أعز من الابن إلا ابن الابن. إن شاء الله حياتي كلها رايح أبذلها لسلمى.

ثم أطلق تنهيدة عميقة حرّى، وقال:

- إيه.. لما ماتت أم أكرم الله يرحمها، وأكرم بعده صبي كان حزني عليها مضاعف.. لنفسي ولأكرم.. هلأ بقول: من حُسْن حظها إنها ماتت قبل ما

تشرب حسرته.

اختنق صوته بالحزن وغلبته الدموع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آن أوان الحزم مع «أبو عزمي» العلي. فعدا أنه المتهم الأول في اغتيال الدكتور أكرم، فإنه مستمر في تحدّي أوامر القيادة بالتوقف عن العمل وابتزاز الناس وقهرهم باسم الثورة. وإذا كان من غير الممكن استئصال شأفته في الوقت الحاضر، فلا أقل من تلقينه درساً يعلم معه أنه ليس فوق الثورة وقيادتها. وكان على «أبو صالح» أن يتولّى ذلك. وربما خالط أسبابه الوطنية العامة والمشروعة، رغبته في الانتصاف لنفسه من تلك المظلمة القديمة، وهي الرغبة التي استطاع حتى الآن أن يكبحها حتى بعد أن واتته قدرة السلاح وعزوة فصيله القوي المحبوب. ولكن، لا بأس أن تُكسَر سطوته لكل الأسباب.

تمكن الشباب من استدراجه بعيداً عن جماعته وأخذوه مكمماً موثقاً معصوب العينين إلى معسكر لأبي صالح.

- هذي كبيرة يا أبو صالح.. أكبر منك ومن الثورة نفسها.

قال حين نزعت كمامته وعصابة عينيه.

مشى أحمد بهدوء وقد ضم ذراعيه وراء ظهره حتى صار وجهاً لوجه مع أبو عزمي. وقال:

- ما فيه حدّ أكبر من مصلحة الوطن.. حذرناك وأنذرناك كثير يا أبو

عزمي.. وما فيش فايدة.. وآخرتها دبرت اغتيال شاب من خيرة الشباب.

- إذا كنت بتقصد الحكيم ابن السويدي. انت أقل من أني أدافع عن نفسي قدامك. وخليني أذكرك.. أنا أبو عزمي العلي إذا الثورة تبعتك خلتك تنسى.

هنا أفلت أحمد ذراعيه من خلفه، فظهر بيده سوط. وما هي حتى أشار إلى مصطفى السبعاوي وحمد العربيات، فجرّا «أبو عزمي» إلى شجرة جميز في المكان، وأوثقوه بها على الرغم من مقاومته. ومع سيل التهديدات والشتائم الغليظة التي أمطرهم بها.

هز أحمد سوطه، واقترب منه، وهمس في أذنه:

- لا ما نسيتش يا أبو عزمي.. حاولت.. بس انت كنت دايماً موجود منشان تذكرني.

ثم بدأ بجلده، واجتهد أبو عزمي أن يكتم تأوهاته مع تتابع الجلد، إلا ما كان يغلبه من الحشرجات المخنوقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- معقول؟ قول وغيّر يا أبو عايد.

لم يصدّق المختار سمعه إذ قصّ عليه أبو عايد الخبر.. وأجاب أبو عايد:

- بَقُول، بس ما بغيّر.. هذا اللي صار يا خوي.

- أبو عزمي العلي، اللي كان سايق الناس قدامه بالعصاة.. الكبير قبل

الصغير!! أحمد الشيخ يونس عمل فيه هيك؟

ثم أطلق المختار ضحكة قصيرة ونظر إلى «أبو عايد» بنظرة ساخرة:

- احمد ربك انك نفدت منه بجلدك. قليل ما عملت فيه وفي عيلته في هذيك الأيام؟

- ابني معه على كل حال.

قال المختار إمعاناً في النكاية في أقرب أصحابه:

- تحت أمره.. بقول له روح يمين بروح يمين، روح شمال بروح شمال.

أطلق أبو عايد تنهيدة بدت كالشخير، وقال:

- آ آخ، آخ. قديش غيّرت الثورة.. انقلبت الدنيا.. مش بس على الإنكليز.

علّق المختار محافظاً على نبرة التهكم:

- قصدك أمثالنا؟ هياك من جديد جَمَعْتنا مع الإنكليز والعياذ بالله.

قال أبو عايد:

- إي والله.. العياذ بالله.

قال المختار:

- طب أقول لك. خلّيهم يقلبوها على الإنكليز ويخلصونا منهم وملعون أبو هالمخترة والوجاهة.. وعلى إيش يا خوي وشاويش إنكليزي زي جزمتك بتفّ علينا وبزقني حتى راح يوقعني على ظهري.. وآخرتها إذا،

لا سمح الله، راحت البلاد لليهود، لا بظل أرضي ولا أرضك ولا مخترة ولا غراب البين.. وبنصير كلنا في الهوا سوا.. أو الصحيح بنصير كلنا في الخرا سوا!

وضحكا معاً.. ومن البلية ما يضحك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

تكتم أبو عزمي ما وسعه ذلك على ما وقع له من «أبو صالح». ولكن الأخبار تسرّبت على كل حال، وإن أخذت شكل الإشاعة. وكان قد غاب عقب ذلك بضعة أيام عن جماعته وأهله، دون أن يفصح عن السبب والمكان لأحد، حتى ابن أخيه. ولما عاد توجّه مباشرة إلى عزبته بدلاً من مقرّاته في الجبال. وفوجئ ابن أخيه بأن خلع زيّه شبه العسكري وعاد إلى مظهره المدني السابق. وأرسل إلى رجاله في الجبال أن يغادروا مقراتهم ويعودوا إلى ما كانوا عليه. ولكن عدداً كبيراً منهم لم يرجعوا إليه. وتسرّب الخبر أن الثورة قد توصلت إليهم بأمر الانفضاض عنه إن كانوا حقاً مخلصين لوطنهم وثورتهم.

أما ابن أخيه محمد فلبث حائراً مشتت التفكير، لا يدري ما يحدث حوله. وما كان عمه ليشفي صدره بالإجابة عن تساؤلاته، ومنها السبب في تكرار غيابه بين الحين والحين، حتى علم أخيراً أنه يتردد على حيفا. وكيف لعمّه أن يذهب إلى حيفا بعد إسهامه في مقاتلة الإنكليز؟ وكلما سأل لم يجد من عمه إلا جواباً واحداً مبتسراً: «عمك بعرف شو بعمل، ولا تكثر من السؤال».

أما أبو صالح وغيره من القادة فقد بلغهم خبره من استخبارات الثورة.

- يا خسارة.. يا خسارة! إيش ما كان، بسّ يخون ويتواطأ مع الإنكليز على الثورة، ويخطط معهم لتشكيل فِرَق لملاحقة الثوار؟ باسم السلام والسياسة و.. الزفت؟

هكذا علّق الأستاذ محمود بأسف. وقال مصطفى السبعاوي:

- خلّيه ينكشف على حقيقته. هيك بصير مع اللي زيّه.. رِجل في الجنة ورِجل في النار.. في الأخير واحدة من الرجلين بدها تلحق الثانية.

قال أحمد:

- كنت بتمنى لو رجله اللي في النار هيّه اللي لحقت رجله الثانية. هذي الوقعة الوسخة اللي وقعها ما بتضرّه لوحده بس، هذي بتضرنا كلنا..

ثم شرد في التفكير، وقال:

- يا ترى شو بقول ابن أخوه هسّع؟ لما سمعنا بنحكي عن مصايب عمّه وخطره على الثورة راح ينجنّ من الزعل.

قال عايد:

- بظل عمه. وهوه اللي ربّاه. ومعروف إنه خطّبه بنته. يعني شو نتوقع؟

هز أبو صالح رأسه متأملاً، وقال:

- صحيح.. بس برضه من اللي شفته منه، الشاب صادق ووطني والله أعلم.. يمكن زعله الشديد ما كان بس فورة دم، ولكن كمان لأنه التهمة بتطعن بذمة عمّه الوطنية وإخلاصه للثورة. واللي هيك لا يمكن يوافق عمه على الخيانة الصريحة لما تظهر له. على الأقل خلينا نتمنى يكون هيك.

ولكن محمد العلي كان آخر من صدّق الإشاعات عن عمّه، حتى دخل يوماً مجلسه فوجد عنده عدداً من كبار الضباط الإنكليز، يتبادلون الكلام والضحك وكؤوس الخمر. وعلى الرغم من أنه كان نهاراً مشمساً لا غيم فيه، فإن غيوماً أخرى متلبّدة في صدره قد أطلقت صاعقة صدّعت قلبه وروحه وعالمه كلّه! ووقف لحظات متسمّراً في مكانه عند الباب، ينظر ولا يرى إلا وجوهاً شائهة، والطنين الذي ملأ أذنيه، صرف عن سمعه صوت عمه يناديه ليعرّفه على الضيوف. وارتد عن الباب إلى الساحة الخارجية مهرولاً، حتى استند بيديه على الجدار وطرق رأسه به، وشهق بالبكاء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- آن الأوان تفهم بعض حقائق الحياة والسياسة يا محمد.

هكذا بدأ أبو عزمي كلامه لابن أخيه الذي لبث مطرقاً ينظر إلى الأرض. وتابع أبو عزمي:

- الدنيا مش أبيض أو أسود زي ما بتتصوّر.

تحامل محمد على نفسه ليردّ بصوت خفيض مثقل:

- موش إحنا اللي بنعمل الأبيض وبنعمل الأسود؟

أجاب أبو عزمي:

- مش دايماً.. هذا لو كنا بنعيش لحالنا، يمكن. اسمع يا محمد، أنا ما بحب الإنكليز ولا عمري بحبهم. وانت شفت عمايل عمّك فيهم.

قال محمد بصوت مفعم بالأسى:

- يا ترى مين اللي نسي قبل الثاني، انت والا همّه يا عمي؟

- اللي نساني ونسّاهم شعارهم المعروف والصحيح: في السياسة ما فيه صديق دائم ولا عدو دائم.. فيه مصلحة دائمة.

- مصلحتهم عارفينها، بس شو مصلحتنا إحنا يا عمي.

- العاقل بعرف كيف يحسب المكاسب والمخاسر.. مش قضية فزعة وثورة دم.. الثورة خلص بحكم اللي انتهت. انت بتسمع شو اللي قاعد يصير في بلاد أوروبا.. هتلر والنازية.. فتّح عين وغمّض عين إلا الحرب قايمة.. وبريطانيا وفرنسا مع بعض بحكم الضرورة.

قال محمد:

- واحنا شو دَخَلنا؟ فخّار يكسّر بعضه.

- احنا أول فخار بتكسّر.. من الآن بدا فخارنا يتكسّر.. ما خطر على بالك منين بيجي المدد والسلاح والمعونات للثورة عندنا؟ من سوريا.. من زعماءنا اللي يشتغلوا من هناك. وسوريا تحت الاستعمار الفرنسي. والسلطات الفرنسية كانت ساكتة وبتدعم طول الوقت نكاية في بريطانيا بحكم التنافس الاستعماري بينهم في المنطقة. شو بصير لما خطر النازية بوحّدهم وبصيروا حلف واحد؟ فرنسا بتصك على جماعتنا هناك وبتمنعهم من الشغل. يعني عصب الحياة تبع الثورة بوقف. وهذا بدا من وقت. مش ملاحظ إنه عمليات الثوار خفّت كثير في الشهور الأخيرة؟

وقريب بتوقف.. لا سلاح ولا مال ولا قيادة سياسية. واللي بقاتل هون معظمهم فلاحين بسطا.. والزعما السياسيين في مطرح ثاني وإيديهم مربّطة. وين نروح؟ وزي ما قالها الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جُهّالهم سادوا

فهمت يا محمد! فكّر مليح. هذا هو الواقع رضينا ولا كرهنا.

مرت لحظات صمت، ولم يرفع محمد رأسه من إطراقته. ثم قال:

- وإحنا نعجّل بموت الثورة؟

أجاب أبو عزمي:

- مش هيك.. بس إذا كانت ميتة ميتة، مش ضروري إحنا نموت معها. ومين عارف؟ لما بتتغير الظروف بنغير حسباتنا ومواقفنا. زي ما قلت: ما فيه صديق دائم ولا عدو دائم.

قال محمد:

- يمكن.. يمكن بين الدول والحكومات.. بس لما ابن البلد يخون قضيته، بصير شعبه عدوه الدائم! ما فيش رجعة!

اهتزّت ملامح أبو عزمي لذكر الخيانة، وصاح بابن أخيه:

- إياك تجيب سيرة الخيانة مع عمّك؛ واللي بتسمعه بقولها عن عمك

قدامك حطّ الطلق بين عينيه! سامع!

مرت هنيهة صمت.. ثم اقترب أبو عزمي من ابن أخيه، وربّت على كتفه متحبباً وقال:

- على كل حال.. اترك السياسة لعمك، أنا أفهم منك فيها.. ومن اليوم وطالع مش رايح أدخلك فيها معي.. انت بس اهتم برزق العيلة وأرضها.. بدي إياك تشرف عليها بنفسك وتنوب عني.. وبعدين.. ما ظل غير جمعتين على عرسك أنت وبنت عمك.. يا دوب تلحق ترتّب أمور العرس.

بقي محمد صامتاً.. ثم قام وخرج دون أن يلتفت إلى عمّه.

ليس للخيانة عذر. ولكن «أبو عزمي» لم يبتعد عن الحقيقة في وصفه للواقع الجديد. الحلف البريطاني الفرنسي الجديد وما يترتب عليه. وكانت الثورة بالفعل قد بدأت تذبل منذ حين، ولا يمسكها إلا ما بقي في يديها من السلاح والذخيرة والمال، وكلها يتناقص دون تعويض، وأمل غير محسوب بأن يحدث شيء ما يغير الظروف المتدهورة. وبالطبع فإن تراجع الثورة ونذر التوقعات المشؤومة، وتزايد الصراعات والنزاعات والثارات العائلية على طريقة «أبو عزمي» العلي، كل ذلك فعل فعله في تثبيط كثير من الناس عن بذل المزيد في سبيل الثورة.

أما محمد العلي الذي طالما انتظر يوم زواجه الموعود بابنة عمّه، فقد كان يقضي أسوأ أيام عمره وقد انهار عالمه وضاعت علاماته وغارت

نجومه. ولبث لياليه يتقلب على الجمر، لا يدري على أي جنب يميل. يحسب كل صيحة عليه. إذا نام لم يرَ غير كوابيس معتمة. وأشد منها أن يرى في المنام عمّه يقاتل الإنكليز بشجاعته المعروفة، ليصحوا على الحقيقة القاتلة.

في يوم العرس، امتلأت ساحة العزبة الواسعة بالضيوف من وجهاء المنطقة وزعاماتها. وجيء بأشهر الزجالين لإحياء العرس، وعقدت حلقات الدبكة، وتحالفت «اليراغيل» والنايات على خلق أجواء عرس عظيم يليق بمقام «أبو عزمي» العلي وحمولته.. عرس عظيم يبقى في ذاكرة الناس.. ولسوف يكون كذلك. ولكن، لأسباب أخرى غير بذاخته الهائلة!

وحين برز العريس في حلّته البهيّة بين عدد من أبناء الحمولة، انطلقت الزغاريد من كل اتجاه. وبدأ إطلاق النار الاحتفالي.

ولكن محمد العلي كان قد أصيب بالصمم، لا لدويّ الرصاص، ولكن لأنه رأى اثنين من كبار المسؤولين الإنكليز يجلسان إلى جانب عمّه وقد دعاهما إلى العرس زيادة في التفاخر والوجاهة.

«عريسنا زين الشباب

زين الشباب عريسنا

وعريسنا عنتر عبس

عنتر عبس عريسنا».

وما هي حتى استرجع نفسه من أرض التيه التي كان فيها. وبدلاً من أصوات اليرغول والربابات، طغت تراتيل الأرض ونداءات الزيتون والتلال والسلاسل الحجرية الموجودة منذ الأزل. ثم اندمج مع المحيطين به الذين لم يتوقفوا عن إطلاق النار احتفالاً به، فنزع مسدسه الذي أهداه له عمّه في يومٍ ما، وأطلق رصاصتين في الأعلى، وهو يهتف لعمّه مردداً:

- لعينيك يا عمّي!

وكانت الرصاصتان الثانية والثالثة في رأسي الضيفين الإنكليزيين، وأما الرابعة فكانت: «لعينيك يا عمي»، وقبل أن ينكفئ أبو عزمي العلي وقد حطّت الرصاصة بين عينيه فعلاً، بدا أن الموت قد أمهله لحظة خاطفة لتتسع عيناه على وسع خيانته وتتجمّدا على مزيج من الصدمة والرعب والإنكار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنته ثورة فلسطين الكبرى في أواخر عام ١٩٣٩ بإعلان من أحد. لا من القيادة العامة للثوار ولا من القيادة السياسية ممثلة في اللجنة العربية العليا المقيمة في دمشق. وقد لبثت تحتضر شهوراً قبل ذلك. توقف المدد وتضاءل السلاح، وأعلنت سلطات الانتداب أنها لن تلاحق من يضع السلاح ويعود إلى منزله، حتى خلت الجبال والبراري من جلّ أبطالها الذين هجروها مرغمين ولم تهجر قلوبهم، إلا من قلّة متناثرة هنا وهناك ممّن أصروا على أن يستدركوا على أنفسهم شهادة طلبوها ولم تطاوعهم.. ربما إلى وقت آخر. وكان لاستشهاد واحد من أنبل قادة الثورة وأحبّهم إلى قلوب الناس، وهو عبدالرحيم الحاج محمد، وقع عميق في أوساط الشعب. وكان على نحو ما إيذاناً بالنهاية. وما إن دخلت بريطانيا الحرب العالمية في مستهل خريف عام ١٩٣٩ حتى كانت الثورة قد انتهت عملياً. وما لبثت أخبار الحرب العالمية أن طغت على كل شيء. وتلاشت الثورة كما يتلاشى آخر النهار.. بلا حدّ فاصل، ولا وقت معيّن، ولا إعلان.

ولكن ثمة أشخاص، لن يتقبلوا بسهولة الحقيقة المُرّة، فلا يسعهم إلّا أن يفرّوا منها إلى الإنكار. وكان أبو صالح.. القائد أبو صالح.. قائد فصيل حطين واحداً من هؤلاء..

لم يبقَ معه في الجبل إلا حمد العربيات، الذي وقف على بُعد منه ينظر في الفراغ، وقد وضع بندقيته على كتف، وربابته على الأخرى. بدا المكان

شديد الوحشة. وإذ تنبه إلى وقع خطوات «أبو صالح» خلفه التفت إليه، وتبادلا نظرة عميقة، ثم وقفا جنباً إلى جنب ينظران معاً في الأفق البعيد بصمت تام، حتى قال أحمد أخيراً بما يشبه الهمس:

- ما ظلّش غيري وغيرك يا خوي يا حَمَد.

هز حمد رأسه وارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة لا تخفي حزنه الدفين، وقال:

- أنا وإياك كثير يا خوي يا أبو صالح.

- مش قادر أقولها.

- ولا أنا.

- الإنكليز بعدهم في بلادنا.

- واليهود.

- وظلّ معي عشرين طلقة.

- وأنا تقريباً نفس العدد.

- يعني..

أكمل حمد عنه:

- الثورة ما انتهت!

ردّد أحمد:

- الثورة ما انتهت.

لم يكن هذا وحده السبب!

لم يكن قبل الثورة شيئاً مذكوراً. ولقي وأسرته الصغيرة ما لقي من أضراب أبي عايد، ثم من أبي عزمي العلي. ثم حملته البندقية إلى أعالي الجبال، حتى صار القائد «أبو صالح» الذي تغنّي له النساء ويخطب الوجهاء ودّه، ويطيعه من كان يضطهده، ويخافه من كان يخيفه. وتفاخر به آل السبعاوي بين الناس بعد أن كانوا يتجاهلون نسبه فيهم ويحجمون عن نُصْرة أسرته وقت الحاجة. وحتى زعيم معروف مثل أبي أكرم السويدي جاءه يطلب منه أن يبرّئ سمعة ولده القتيل ظلماً. فما الذي ينتظره الآن بعد أن سكتت البندقية إذا نزل الجبل، وعاد حرّاثاً يقلع الصخر وينتظر ما تأتي به المواسم ليؤدّي ما يفرضه الإنكليز من الضرائب؟ وإلى متى يبقى في ذاكرة الناس: «القائد أبو صالح»، قائد فصيل حطين.. الجبل الذي لا تهزه الريح. فهل يعود بعدُ إلى ما كان عليه وكأنه لم يكن ما صار إليه؟ وقد بدأ ذلك فعلاً.. فهذا أبو عايد يأتيه مسعود للترتيب معه على عصر زيتونهم، فيؤجله أسبوعاً حسب ترتيب الدور ويُلقي عليه درساً في ضرورة العدل في تقديم السابق إلى حجز دوره. وقد كان صادقاً في ترتيب الدور ولم يؤخرهم دون حق بغرض الأذى والنكاية كما كان يفعل قديماً قبل الثورة. ولكنه أيضاً لم يقدّمهم كما صار يفعل في أثناء الثورة. وتوقفت هدايا المختار ودعوة «أبو أحمد» إلى المجالس وتقديمه فيها!

ولم يخف هذا كله على مسعود حين صعد إلى أخيه غير مرّة ينشده العودة ويذكِّره بالحقيقة القاسية وهي أن الثورة قد انتهت، ولا جدوى من البقاء في القواعد الخاوية في سفوح الجبال، إلا أن يعرض نفسه لخطر الطائرات الحربية التي تطلع بين الفينة والأخرى لتمشط الجبال ومن بقي في تلك القواعد.

ولكن أحمد أصرّ على الإنكار. «الثورة ما انتهت. ما وصلني أمر من القيادة العليا».

وها هو يتمشّى الآن مع حمد فيما كان معسكراً يضجّ بالحركة والحياة والأحلام البعيدة. وبعد وقت توقف أحمد وقال:

- روّح يا خوي يا حمد. روّح عالسلط واتجوّز وطفة.

قال حمد:

- إذا روّحت أنت على البلد.

ثم التفت إلى أحمد وفاجأه بالقول:

- وطفة تجوزت يا خوي يا أحمد.

سأل أحمد متعجباً:

- من وينتا؟

- من حوالي سنة.

- وكنت مخبّي عني كل هالوقت؟

بعد هنيهة أخرى من الصمت والشرود والتأمل. قال أحمد:

- سمّعني الربابة.

لم يتردد حمد، وأخذ يعزف على ربابته كما لم يعزف من قبل.. تحوّلت الربابة إلى قلبه المليء بالحب والشجاعة والحزن والغضب.. وتقلبت الربابة بين البكاء والصراخ والرصاص والثورة.. بين التأمل والرثاء، وحتى السخرية والضحك. وبدا بأن التلال المحيطة تشاركه في العزف على قلبه وقلبها القديم المتجدّد أبداً.

وفجأة، توقفت الربابة، وأصاخ الصاحبان السمع لنذر الموت الطائر في سماء الهاجرة.. وصاح أحمد:

- الأرض.. خذ الأرض.

أرعدت الطائرة الحربية فوقهم وأمطرت حملها الناري، وغابت بسرعة الموت.

رفع أحمد رأسه ببطء قبل أن يستوي جالساً وقد اكتسى وجهه بالتراب وغبار القذائف. ومرّت لحظات قبل أن ينتشل وعيه من جب الصدمة المفاجئة. مرة أخرى يخطئه الموت. ولكنه لم يخطئ صاحبه النبيل: حمد العربيات. وحين تبين له ذلك أسرع إليه يحتضنه ويهزّه ويناشده أن ينهض من غفوته. وفي حمأة اللحظة القاسية التي يختلط فيها العقل بدا وهو يهزه ويناديه ويرجوه وكأنه ينادي حبيباً يوشك على الرحيل إلى بلد

آخر، وأن حرارة الرجاء وصدقه يمكن أن تثنيه عن عزمه، إن لم يكن لشيء، فرفقاً بعواطف المحب الذي لا يقوى على فراقه!

ولكن حمد العربيات كان قد فارق فراق الأبد إلى مكان موغل في البُعد دون أن يخطو بقدميه خطوة واحدة على الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفنه عند شجرة سنديان قديمة. ولبث واقفاً عند قبره وقتاً يخاطبه بصمت، ويتلو ما يحفظه من القرآن الكريم. هنا يرقد ابن السلط العظيم الذي اختار فلسطين على «وطفة». ولن تذكره الكتب فيمن تذكر من الزعماء والقادة. ولكنه لن يغادر ذاكرة الذين عرفوه وجاهدوا معه، حتى يطويهم النسيان جميعاً مع موت الشهود. ولكن السنديانة التي دُفِن عندها ستكون شاهد قبره، ولسوف يمرّ بها من يمرّ بها على مدى عمر السنديان، فيقرأ ما حفره أحمد على جذعها بسكينته: «هنا يرقد الشهيد حمد العربيات». شاهد على شهيد، تغسله الأمطار موسماً بعد موسم دون أن تمحوه. فلا نامت أعين الجبناء.

جلس أحمد قبل أن يبدأ نزوله من الجبل، ونظر في ربابة حمد في يده التي عجز طائر الموت الأسود عن تدميرها. وتمنى لو يستطيع أن يعزف عليها بكاءه صاحبها. ولكنها تولّت ذلك بنفسها! وما هي حتى بدأت ترسل ترانيمها من حيث انتهى حمد قبل أن يقطعه الموت. وكما تقلبت نغماتها على يديه، لم تُقِم في الحزن وحده، فتقلبت بينه وبين أصداء العرس الذي لم يدركه حمد العربيات، مع وطفة!

وقد آن الآن وقت الرحيل إلى ذاكرة الأيام السابقة والأيام القادمة!

أقيموا صدور المطيّ فقد رَفَعت شمسَها الهاجرة

وهذا أوان اللجوء إلى سروةٍ في حمى الناصرة

سأمضي إلى حيث تشربني الشمس حتى الثمالةْ

وأعلن حُبّيَ للقبرات ونخل الجزيرة والبحر والسحب المشرعة

وطفل يشد إلى ظهره مدفعه.

سأفتح جرحيَ حتى مداه لكي تخرج الزوبعة

أقيموا صدور المطيّ فإنّيَ راحِلْ

وقد صار لحميَ نهباً لكل القبائلْ

ولي حاجة لا تقال بكل المنازل.

أقيموا صدور المطيّ فلي دونهم وطن في الوطنْ

ولي دونهم زمنٌ في الزّمنْ

ولي حاجة في نخيل العراق وأخرى بأرض اليمن

ولي نجمةٌ في الشآم ولي قمر في الجليلْ

ولي عنب مثل جمر الغضبْ

في كروم الخليلْ

وأعلم دربي طويلٌ طويلْ

ولكنه النهر يحفر مجراه مهما استطال السبيلْ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(لا استراحة للمحارب)

العام ١٩٤٠، وقد بلغ عليّ سبعة عشر عاماً، وهو الآن في صفّه الدراسي الأخير في مدرسة عكا. وبقي الأول على صفّه عبر تلك السنين. أما حسن فقد غدا شاباً وسيماً شديد الحرص على مظهره وثيابه وقيافته على نحوٍ لافت بالقدر الذي تتيحه له أوضاع الأسرة والثياب الريفية. ولم يتخلّف يوماً عن انتظار أخيه على طريق القرية حين يأتي زائراً في إجازاته، ليكون أول من يستقبله، ويصحبه إلى البيت. وكان عليّ يمشي نحو عشرة كيلومترات على قدميه من حيث تتوقف الحافلة في إحدى القرى الكبرى، في أيام الصيف والشتاء، وأيام الصحو والمطر والوحول. وإذا كانت هذه في وقتها أمراً صعباً مرهقاً، فلسوف تكون في المستقبل سبباً للفخر والاعتزاز يقصّه على أبنائه، وسوف يذكره بلغة مشبعة بعواطف الحنين. ولقد يكون استذكار الماضي الصعب شهادة على حاضر الإنجازات الكبيرة، على سبيل المقابلة وتعظيم الجهد، وإن بدا ذلك في ظاهره ضرباً من التواضع والإقرار بالجذور البسيطة.

- هات عنك.

وأخذ منه حسن حقيبة الكتب المدرسية المهترئة التي كان يحملها معه، والتي اشتراها بقرشين فقط من سوق المتاع القديم.

وأعقب حسن وهو يهز الحقيبة بيده:

- كيف شكلي وأنا حاملها.. لايق عليّ شكل الطالب لو.. لو زبطت معي

ودرست زيّك؟

آثر عليّ ألا يجيب. فمهما يكن جوابه، فلن يفعل إلا أن يثير في نفس أخيه مواجد قديمة بقيت معه، وما كانت لتخفى على عليّ الذي يقرأ دواخله مثل كتاب مفتوح، مهما يجتهد حسن في إخفاء ذلك بتظرّفه وخفّة دمه.

ثم سأل عليّ عن حال أخيه أحمد، فأجاب حسن:

- على حاله من يوم ما رجع من الجبال.. ما بحب يخالط حد.

علّق عليّ مفسراً:

- بعد تجربة طويلة مهمة في الجهاد في الجبال والوديان ومع المجاهدين، مش من السهل يعود يتأقلم مع ظروف الحياة المدنية العادية زي ما كان حاله..

قاطعه حسن ساخراً:

- آه يا خوي، اطلع لي فيها بحكي الأساتذة والأفندية. يا خوي أنا فلاح.. على الصفوف اللي درسناها مع بعض هون.

قال عليّ بلهجة تبطن المواساة:

- صدّقني.. انت بتفهم أكثر من كثير من المتعلمين.

لم يفُت حسن معنى المواساة في الكلام فقال:

- عزّيني يا خوي.. عزّيني.

قال عليّ مؤكداً:

- لأ، صحيح. ما بجاملك.

ردّ حسن:

- إذا كان صحيح إني وأنا مش متعلّم بفهم أكثر من المتعلمين، كيف عاد لو إني تعلمت زيّك؟

أُرْتج على عليّ، فآثر الصمت. ثم تابع حسن بنبرة ذاتية لم يستطع أن يحرّرها من رنّة الأسف:

- إذا كان هيك العزا، كيف بتكون حرقة القلب!

ثم نفض رأسه واستعاد ابتسامته وقال:

- كلٌّ ميسر لما خُلِق له. هاي بالنحوي زي ما سمعتها من الشيخ! والبركة فيك يا خوي.. ارفع راسك، واحنا بنرفع راسنا فيك. بس مش بكرة لما تصير إشي كبير تكبر علينا وتصير القرية صغيرة عليك وتنسى المطارح اللي بقينا ننط ونلعب ونصيد فيها، ونتقاتل مع الأولاد الزنخين اللي شايفين حالهم، والبيادر اللي كنا ننام فيها والجن يرموا علينا حجارة! وانت بدك تعملها تحتك من الخوف؟

ضحكا معاً. وتابع حسن:

- والا لما تتجوز واحدة مدنية تصير تقولك: لأ. أنا مش مستعدة أروح

عالأرية.. بتتوسخ أندرتي!

قال عباراته الأخيرة بأسلوب التقليد بالصوت واللهجة المدنية والحركة. وعلّق عليّ:

- «الأرية» بدل القرية وفهمنا. بس «أندرتي» منين جبتها يا فالح؟ في حد من المدينة بقول «أندرتي» بدل «كندرتي»؟ والا رايك بقولوا «آسِه» بدل كاسِه؟..

- ما شا الله.. هاي صرت خبير في خرّاف المدَنيّة!

هذه هي المرّة الأولى التي تجتمع فيها أسرة صالح الشيخ يونس كلّها منذ حين. وجاءت خضرة، التي كانت في آخر حملها، بطبق من الفطائر من أجل عليّ. وقد بقيت تقيم مع حماتها أم العبد. أما أبو العبد فلم يطل أجله بعد مقتل ولده.

علّق حسن بتظرّفه المعتاد:

- يعني بس لعليّ؟ إحنا ممنوع نوكل منهن؟ شايفين قيمة التعليم؟ محمد يرث ومحمد لا يرث!

قالت أم أحمد:

- اسكت انت يا أبو لسان. انت ليل ونهار قدامك هالشغلات. وكُلْ يا خوي مين مانْعَك؟

وإذ تذوّق عليّ منها، سألت خضرة:

- آه يا خوي، كيف؟

أجاب:

- رائعات كالعادة.

علّق حسن من جديد:

- الأكل كمان بالنحويّ؟

همّ مسعود أن يؤنّبه، فأسرع قائلاً:

- خرسنا يا خوي، خرسنا.

ما أشبه الليلة بالبارحة حين دار النقاش حول دراسة حسن وعليّ في مدرسة المدينة، واستقر الأمر على عليّ دون حسن كما أملت الظروف. والآن يوشك عليّ أن يفرغ من صفوف المدرسة. فماذا بعد؟ وفي ذلك الزمن كانت تلك الصفوف المدرسية كافية لتعيين من أتمّها معلِّماً في إحدى مدارس القرى ذات الصفوف الابتدائية المتدنيّة. وما الذي تطلبه الأسرة أكثر من ذلك؟ هذا بالطبع كان رأي أبي أحمد. ولكنه لم يكن رأي أحمد.

يجب أن يتم عليّ دراسته في أعلى مدرسة في البلاد: المدرسة العربية في القدس، التي كانت وأختها الرشيدية، لا تستقبلان إلا النخبة الأكثر تفوقاً في فلسطين، ليدرسوا الصفين الأخيرين فيهما. وليس بعد ذلك إلا التأهيل الجامعي في مكان ما خارج فلسطين، لمن استطاع إليه سبيلا. وقد أثبت

عليّ بتفوقه أنه جدير بذلك. وقال أحمد:

- الثورة علّمتني أشياء كثيرة يابا. بقيت زمان حريص على التعليم حتى نرفع مستوانا ونخلص من حياة الشقا والفلح.. هسّع صار عندنا سبب ثاني.. اللي مستعد يحمل السلاح هوه اللي لازم يكون المسؤول عن قراراته السياسية.. وهذا ما بصير حتى يصير بينا، إحنا الفلاحين، متعلمين وأصحاب شهادات منا فينا، إيدهم في النار أكثر من غيرهم. العلم في وضعنا سلاح.. لصاحبه وللبلد كلها.

تدخّل حسن معلّقاً:

- طيب، ما بتخاف اللي بصير معه شهادات عالية منا يتغيّر ويصير أفندي ويبطل يحسّ بالنار زي ما بنحسّ فيها! أو زيّ ما كان يحسّ فيها؟

قال ذلك وهو يرسل نظرةً سريعة إلى عليّ. قال أحمد:

- مش أخوك علي. ولا معظم الشباب اللي زيّه.. حتى لو شذّ منهم بعض الناس.

قال أبو أحمد:

- بس انت عارف البير وغطاه.. والقعدة في القدس بدها فتّ مصاري..

قال أحمد:

- دم قلوبنا لعلي.

- بس دم قلوبنا لا بنباع ولا بنشرى.

أطرق أحمد لحظات، ثم قال:

- أنا خلص يابا.. قررت أطلع من هون، وأجرّب حظي في مطرح ثاني.. والله كريم.

قبل أن يعود عليّ إلى مدرسته في عكا، أصرّ حسن على أن يخرجا معاً إلى مطارح الطفولة التي تسرّبت منهما على عجل. لكأنه كان يشعر بأنه كلما أوغل عليّ في طريق الدراسة والعلم والشهادات، سيوغل بالقدر نفسه بعيداً عنه وعن عالمهما القديم المشترك. سوف تتباعد الطرق، ليس بالمكان وحده، وإنما في المزاج والاهتمامات والأفكار. وسيزيد شعوره بالوحشة والوحدة، حتى بين سائر الأسرة وأهل القرية. فهو لا يسترجع ذكريات الطفولة ومطارحها إلا ويكون عليّ معه فيها. هنا كانا يقفزان فوق السلاسل الحجرية، وينصبان الأفخاخ، ويقذفان ثمر الجميّز بالحجارة ويتنافسان في جمع أكبر عدد منها.. هنا كانا يطاردان الفراشات والأحلام. هنا كانا يتعاركان مع أبناء الوجهاء الذين كانوا ينظرون إليهم بازدراء كما يفعل آباؤهم.. وهنا تراءى لهم الجنّ.. وهنا عند ضريح الوليّ أبو نار وقف حسن وصاح تجاه بيوت الظلمة: نار. ولم تشتعل النار، ولكنها بقيت مشتعلة في صدر حسن، وزادتها الأيام ضراماً.. بعد أن خلّفه عليّ وراءه وحيداً ليلاحق بمفرده حلماً رسماه معاً.

أما أحمد، فلم يكن اختياره الإقامة في حيفا بحثاً عن الرزق فقط.. لم تعد القرية لتتّسع للقائد «أبو صالح»، قائد فصيل حطين، سابقاً. ولم يكن ذلك تكبراً منه على أهل قريته، وهو الذي كابد ما كابد من كِبْر

المتكبرين. ولكن ما بلغه بالثورة قطع عليه طريق العودة إلى المكان الذي كان فيه قبلها، حيث أبو عايد وأضرابه يستعيدون سلطتهم بعد أن تلاشت سلطة الثورة. ولم يكفّ الناس هنا حين يرونه متجرّداً من سلاحه وثورته عن المقارنة بين القائد «أبو صالح» الذي كانه، وأحمد الشيخ يونس الذي رجع إليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أبو صالح مصيباً حين تحدث عن قيمة التعليم بعامة، وبين أهل الريف بخاصة. وكان في ذهنه تضييق الهوّة الواسعة بين الريف والمدينة، ومن ثمّ بين أصحاب القرار السياسي في المدن وحملة السلاح في الريف. ولكن، لم يخطر له أن للموضوع وجهاً آخر يتعلّق بالعادات والتقاليد والثقافة الاجتماعية. فالقائد الثائر أبو صالح بعيداً عن السلاح والمقاومة ضد العدوّ الغازي، لم يكن يختلف عن أيّ رجل تقليدي شديد المحافظة، ولا عن الأجيال السابقة، حين يتعلّق الأمر بطرق الحياة ومعايير الخطأ والصواب. ولم يكن ينغص عليه في حيفا غير رؤية بعض النساء «المفرعات» اللواتي لا يرسلن الخمار الأسود على رؤوسهن ووجوههن، أو رؤية الشباب «المائع» يُقبِل على دور السينما، أو رؤية اللافتات التي تروِّج للأفلام وعليها صور الممثلين الفسقة والممثلات المتبرجات اللواتي لم يجدن أهلاً يحسنون تربيتهنّ. وأقبح من ذلك إعلان بعض المسارح عن وصول مغنية معروفة من أحد الأقطار العربية، بل كان يضيق بصوت الموسيقى والأغاني الشائعة ينبعث في بعض المقاهي من صناديق الغناء التي تشغِّل الأسطوانات ويرتفع منها منا يشبه البوق الواسع. ومثل ذلك أجهزة الراديو التي تبث الأغاني بصوت مرتفع يلوّث أسماع أهل الدين والخُلق والورع. فإذا عاد إلى بيته طفق ينعى الزمان وأهله، ويقصّ على زوجته فتحية ذات الثمانية عشر عاماً بعض ما شاهد وسمع في يومه من فساد الزمان وانحدار الأخلاق. ولا ينسى أن يربط ذلك كله بالقضية الوطنية، فيتساءل: كيف يمكن أن ينصرنا الله على الإنكليز والصهاينة

ونحن على هذه الحال؟ ثم يتأمّل في ولده صالح الذي بلغ عاماً ويعبّر عن خوفه على سلوكه مستقبلاً إذا كبر في هذه الأجواء، والتفّ عليه أصدقاء السوء وزعران المدينة، يعلِّمونه لعب الورق ومشاهدة الأفلام وملاحقة البنات عند المدارس، كما رأى بعينيه. وما حاجة البنات أصلاً إلى الدراسة؟ هل صارت دراسة البنات من مظاهر الوجاهة والتمدّن؟ وقد ينسب ذلك كلّه إلى تدبير الإنكليز لعنهم الله، أولئك الذين يريدون خلق جيل مائع منصرف عن قضيته الكبرى إلى التوافه والمتع والسفالات.. الإنكليز والشيوعيون الكفرة الفجرة الذين يستبيحون المحارم والعياذ بالله! ولقد رأى بعض ذلك حين كان في حيفا قبل سنين، ولكنها لا شك قد زادت في هذه الأعوام الأخيرة.

وعلى كل حال، فقد كان في تلك الأيام السابقة في حيفا يقيم في أحياء العُمّال منشغلاً بعمل الأجرة اليومي أو التبطّل في قهوة موسى، أو الجلوس في المسجد بين الصلاة والصلاة يتلو القرآن أو يستمع إلى دروس المسجد، لا سيما دروس الشيخ عز الدين القسام رحمه الله وطيّب ثراه، ذلك الرجل الذي أطلق شرارة الثورة الكبرى المباركة التي جَعَلت أحمد الشيخ يونس القائد «أبو صالح». وعلى الرغم من أن الثورة قد انتهت منذ نحو سنتين وشهور إلا أن أحمد ما يفتأ يذكرها: «سقى الله هذيك الأيام». ثم يقف أمام صورة التُقِطت له في المعسكر يحيط به العبد وحمد العربيات وعايد ومصطفى السبعاوي والأستاذ محمود المحامي. ويطيل النظر، وينهي ذلك بتنهيدة طويلة عميقة!

وكان على فتحية الهادئة الوديعة الطيبة المطيعة «التي تأكل القطة طعامها».. أن تصغي إلى زوجها في كل يوم يسب الزمان وأهله دون أن تعلّق بكلمة تؤيّده أو تخالفه. وهل تملك أن تخالف زوجها صاحب الأمر والنهي، وهي الأميّة البسيطة الحييّة؟ فكيف إذا كان زوجها القائد «أبو صالح» الذي كانت تسمع أخباره من شقيقها موسى، رفيقه في مقهاه في حيفا، ثم رفيقه الذي عمل بإمرته في الثورة وكان رسوله إلى الدكتور أكرم وسائر الشباب الوطني في اللجنة القومية بحيفا! وفي الحقيقة كان موسى هو الذي ألمح إليه بالزواج من أخته، بدافع المحبة والتقدير لمركزه في الثورة. ولو لم يكن كذلك لما فكّر لحظة في تزويج أخته لفلاح فقير قادم من القرى يرتدي القمباز الريفي ويتحدث بلهجة أهل الريف، ولا يعرف من الدنيا غير عمارة الزيتون والمقثاة والبيدر والفأس والمحراث. صحيح أن موسى من أسرة دون المتوسّط، وأنها أسرة محافظة تغطي نساؤها وجوههنّ مثل الكثير من نساء المدن، على حين تكشف نساء القرى وجوههن، وصحيح أن فتحية أُميّة لا تقرأ ولا تكتب كما هو الشائع بين الكثير من الأسر المدنية البسيطة المحافظة، وصحيح أيضاً أن موسى نفسه لم ينل حظاً من التعليم أكثر مما نال أبو صالح نفسه في تلك الصفوف الثلاثة التي درسها في مدرسة القرية، ولكن أسرة موسى تبقى على كل حال أسرة مدنية حيفاويّة، تعيش في وسط يعجّ بالحياة الحديثة: سيارات وعمارات ومدارس ومستشفيات وعيادات ومراكب وسفن وميناء نشط وسكة حديد ودار للبلدية وبنوك وشوارع مرصوفة، وخليط متنوع من الناس: أهل البلد، وسوريين ولبنانيين

ومصريين وأردنيين بين تجار وعُمّال، وكذلك خواجات أجانب: إنكليز وألمان وفرنسيون وطليان من رجال الأعمال أو الإرساليات الدينية المسيحية، إضافةً إلى اليهود الذين كان جُلّهم من المهاجرين الجدد من أوروبا والذين خرجت سفنهم من وعد بلفور المشؤوم قادمة من جحيم أوروبا الذي اكتووا به، ليصنعوا جحيمهم الخاص ضد الفلسطينيين، ويستعيروا السياط التي جُلِدوا بها هناك، ليجلدوا بها أهل البلاد هنا! يقصّون أخبار عذاباتهم في أوروبا، ثم يتباهون على أهل البلد بأساليب حياتهم الأوروبية! يفرّون من أوروبا القاتلة ويتقمصّون صورتها في الوقت نفسه ويقتلون بها!

كل ذلك كان في حيفا وأكثر. هنا ميناء عظيم، وهنا مصانع كبرى وأنشطة ثقافية متنوعة. فأين من هذا كله فلاح من قرية مغمورة مثل أحمد الشيخ يونس، لولا أنه صار القائد البطل «أبو صالح»، وصار شَرَفاً لموسى وأسرته أن يزوّجوه فتحية على ما بينهم وبين أهله من اختلاف الطبع والأمزجة.

فعلى الرغم من تواضع الأحوال الماديّة لأسرة موسى وطرقها المحافظة، فقد كانت مثل معظم الأسر المدنيّة تُقبل على المتع البريئة التي تمنحها حياة المدن، لا سيما المدن البحرية المفتوحة: النزهة على شاطئ البحر، أو في هادار حيفا وكرملها، وسماع الأغاني من جهاز المذياع الذي يملكونه، أو من صندوق الغنا عند الجيران، حتى يصير بوسعهم شراء واحد خاص بهم. وربما تسلّل بعضهم سرّاً إلى إحدى دور السينما لمشاهدة فيلم

لعبدالوهاب لم يستطيعوا مقاومة إغرائه وإعلاناته. بل حدث أنهم اصطبحوا بناتهم إلى أحد هذه الأفلام مرة أو مرتين، وإن ألزموهنّ المحافظة على غطاء الوجه حتى في أثناء المشاهدة! على أن تطور الأحوال قد مسّ جانباً من حياتهم، فأدخلوا ابنتهم الصغرى المدرسة، وهو ما حُرِمت منه أخواتها. والحقيقة أن ذلك كان بضغط من ابنهم محمد الذي حمله تفوقه الدراسي إلى الكلية العربية في القدس حتى أنهى دراسته فيها، قبل أن يركب البحر إلى مصر لدراسة الطب. ولأنه كان فخر الأسرة فقد كانت كلمته نافذة، واستفادت منها أخته الصغرى.

ولذلك فإن فتحية حين كانت تسمع «أبو صالح» يردد على سمعها أنواع الفساد والميوعة التي يراها ويضيق بها صدره، كانت تكتم ضيقها بضيق صدره ونظرته! فقد كانت تتمنى في سرّها بعض ما ينكره على الآخرين، وما اعتادت مثله في بيت أهلها: على الأقل جهاز مذياع أو صندوق الغُنا (الفونوغراف) ونزهة إلى البحر بين الفينة والأخرى. هل من المعقول أن يكون البحر على بُعد عشرة دقائق من المشي، وقد يصل نداؤه إلى سمعها، ثم لا تستطيع الوصول إليه لتسرح النظر فيه وتداعب موجه بقدميها. نعم، هذا رجل عظيم تفاخر به. ولكنه إذ منحها سمعته الطيبة، سلبها في المقابل البحر وأصوات البحارة وأغانيهم، وهي بعد بنت البحر، وفي مقتبل العمر. أعداء غزاة يهددون بسرقة البحر كلّه من أصحابه، وزوج ثائر نذر نفسه لمنعهم من ذلك، فالبحر لنا! للوطن الفلسطيني، ولكنه منذ الآن ليس لفتحية، وصاحب هذا القرار ليس

الغزاة، ولكنه الرجل الذي لن يتوانى يوماً عن قتالهم!

والأنكى عليها أنه كلما ذهب معها في الحديث عن تلك التفاهات كان يعمد إلى استشهادها على صواب رأيه، كما يفعل الكثير من الناس في أحاديثهم، فيُعقِّب بالسؤال العارض العفوي: «مش هيك؟ مزبوط والا لأ؟» ولم يكن لينتظر جواباً يعتبره تحصيل حاصل. أما هي فتتجنّب حتى هز رأسها بالموافقة، وتتشاغل عن ذلك بهز ولدها أو عملها في البيت، بينما يزداد ثقل صدرها. فرجل يتحدث بهذه الثقة القاطعة، لا يترك لها أملاً في أن تبوح له برغباتها البسيطة التي تدخل في باب الموبقات كما يوحي كلامه. فلا تجد من تنفّس له عن صدرها وتبوح له إلا أخاها موسى، وتفعل ذلك همساً حين يكون في زيارتها، وحتى حين لا يكون أبو صالح معهما في البيت، وقد يشي تذمرها بشيء من اللوم لأخيها الذي اختار لها هذا الزوج المحترم والشديد معاً. وإذا كانت شدته في قتال الإنكليز أثناء الثورة مما يُحمَد له، فليته يتخلّى عنها مع زوجته وأم ولده في بيته!

ولكن موسى وإن كان مختلف الطباع عن أحمد، بحكم حياته في المدينة، فإنه لم يتحرّر من الأفكار التقليدية الشائعة عن مكان الزوجة من زوجها.

- يا خيّة كل واحد وإله طباعه. وبنت الناس بدها تدور مع طباع زوجها.

- وأظلني مخنوقة هون لا طلعة ولا نزلة؟ أنا روحي بدها تطق. الزلمة بكره شمّة الهوا، وحتى الطلعة عند الناس. ولما بدّي أطلع زيارة بحسب ألف حساب قبل ما أستأذنه. «من بيت اشقع لبيت اقرع». هيك بقول. كأني دايرة كل يوم بين بيوت النسوان. وأحيان بتجرّأ وبقول له خلينا نطلع نشم الهوا على البحر.. اشتقت للهادار والكرمل. بتطّلع عليّ زي اللي كفرت لا سمح الله. شمّة الهواء والعيب عنده واحد. شمّة الهوا عنده بس زيارة أهله في القرية. هادا كيف لو طلبت منه راديو والا صندوق غنا؟ مرة وحدة طلبت منه صندوق غنا.. تع شوف شو عمل. زي اللي قلت له اشتري لي شيطان تحطه في البيت.. دخيلك يا خيّ احكي معه.. انتو أصحاب وبحترمك ودايماً بحكي عنك.

ولكن موسى كان يدور حول الموضوع مع «أبو صالح» دون أن يدخل فيه، وقد يلمح دون أن يصرّح. فهو ما يزال عنده قائده السابق ذا الهيبة الطاغية، وإن صارا الآن شريكين في محل الخردوات الناجح. وعلى كل حال، فإن الكلام مع «أبو صالح» مهما تكن بدايته، لا بد أن يتحول إلى ذكريات الثورة، وتوقعات المستقبل الوطني. فلا الإنكليز غادروا البلاد، ولا المشروع الصهيوني توقف، ولا احتفظ الثائر بقيمته بعد أن ألقى السلاح قسراً. ثم يواسي نفسه بأن أجر الجهاد لا يذهب عند الله، وأنهم ما قاتلوا وجاهدوا من أجل الصيت والسمعة والمركز. ثم يعقب ذلك بالاعتراف بأن الإنسان يبقى إنساناً على كل حال، وأنه لا يستطيع أن يدفع ضيقه وأسفه حين يأتيه «زبون» يجهله فيتأمّر به، ويضجره

بالمساومة والمقارنة مع أسعار المحلات الأخرى. ولو حققت الثورة أهدافها لهانَ كل شيء، ولرضي من الحياة بلقمة مغموسة بالزيت وأن يذهب طيّ النسيان. فيُذكره موسى أن الثورة لم تذهب عبثاً، فعلى الأقل ألزمت الإنكليز التراجع عن قرار التقسيم الذي جاء في الكتاب الأبيض عقب توقف الإضراب الكبير، وقبل اندلاع الثورة من جديد. وأحمد، وإن كان يرغب في مواساة نفسه بهذا، فإنّ ما يمنعه من ذلك هو ما لا يخفى على أحد من مضيّ سلطات الانتداب في التهويد وفتح باب الهجرة لليهود بقوة أكبر من السابق. والتراجع عن قرار التقسيم لا يضمن عدم العودة إليه في الوقت المناسب لهم. وهكذا هي بريطانيا.. وتلك سياستها المعروفة.

فهل يستطيع موسى أن يتحوّل بهذا الحديث عن قضية الوطن، إلى قضية فتحيّة! فليكن ذلك في يوم آخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"كان زواج أخي أحمد من فتاة مدنية حدثاً هاماً في حياة الأسرة، وحديثاً آخر من أحاديث القرية. وقد اعتبرته الأسرة في ذلك الوقت مظهراً من مظاهر الارتقاء. وبذلك أضيف إلى أمي سبب آخر للتفاخر والاعتزاز. فها هو ولدها الأصغر يصبح أول أبناء القرية الذين يصلون إلى الكلية العربية بالقدس مع نخبة المتفوقين في فلسطين كلها. وقد بلغ ولدها الأكبر أن صار قائداً لأحد فصائل الثورة قبل أن يتزوج من بنات المدينة. وقد كان على الأسرة أن تتكلّف إحداث تغييرات في البيت، تتناسب مع استضافة العضو الجديد الذي انضم إليها، كلما جاء أحمد وزوجته للزيارة. وقد يأتي بعض أهل فتحية أيضاً بين الفينة والأخرى. وأخيراً، ها هو الطفل صالح، يملأ البيت سعادة لا يعكّرها بكاؤه. وكان قد سبقه رشدي ابن خضرة وزوجها الشهيد. فكان حبهم له ممزوجاً بالعطف والإشفاق".

من مذكرات علي الشيخ يونس

أخذت خضرة تتأمل «صالح» الصغير وهي تحمله وتهزّه.

- شوفوا شوفوا.. بضحك لي.. بضحك لعمته. أي والله بشبه أبوه..

تدخلت فتحية:

- وفيه من أخوي محمد. اللي بدرس طب في مصر.

تعمّدت أن تذكر أخاها بتلك الصفة، وإن كان في الواقع لا يشبه صالح

الصغير إطلاقاً.

قالت خضرة لتذكِّر أيضاً بجماعتها:

- إن شا الله يطلع زلمه عقد حاله زي أبوه، وذكي زي عمّه علي، وعاقل وهادي زي عمّه مسعود. وحلو زي عمّه حسن.

صاح حسن بظرفه المعتاد:

- يعني خضرة مدحت الجميع، وذمّت الجميع.. أبو صالح زلمة، يعني الباقيين نسوان مقاطيع، وعلي ذكي.. يعني كل الباقين عقولهم عقدهم. ومسعود عاقل هادي، يعني الباقين هوج ومندفعين.. و.. حسن حلو، يعني الباقين «يخوف الله بهم عباده».

قالت خضرة ضاحكةً:

- والله ما أني عارفة كيف بتعوج الحكي..

حين ودعتهم خضرة لتعود إلى حماتها وولدها الذي لا تطيق جدته فراقه، وتشمّ فيه رائحة أبيه الفقيد الذي انقصف عمره في عز الشباب، أسرع أحمد وخرج وراءها، وتغيّب دقائق قبل أن يعود. وكان يفعل مثل ذلك كلما جاء للزيارة. ولم يخف على فتحية التي تراقب الموقف في كل مرة، أنه يخرج في أثر أخته ليعطيها بعض النقود، وقد صارت أحوج ما تكون إلى تلك المساعدة بعد أن فقدت زوجها ووالده. وعلى الرغم من طيبة فتحية فإن الأمر كان يحوك في صدرها على الرغم منها. ولكنها آثرت الصمت والتجاهل حتى الآن. وكانت تعلم أيضاً أن أحمد يتولّى

معظم نفقات دراسة عليّ وإقامته في القدس.

وحين عاد أحمد، استأذنه حسن في أن يزور أخاه عليّاً في القدس: يحمل له بعض المؤونة ومصروفه الشهري، وينزّه عن نفسه قليلاً في صحبته، فقد ضاقت نفسه في القرية.

وهنا شكا أبو أحمد لولده الأكبر من تبطّل حسن، فهو لا يساعد كثيراً في عمل الأرض، ولا يهتم بغير مظهره وقيافته:

- بس قاعد يتطلّب. اغسلولي الحطّة.. بدّي قمباز جديد.. وما بتشوفه إلا وهوه ماسك المراي وبزبط شنبه وبتطلع في خلقته.

علّق حسن معترضاً:

- يعني عيب الواحد يهتم بشكله وقيافته؟

قال أحمد:

- مش عيب يا حسن.. بس كل إشي وإله وقته، والشي إذا زاد عن حدّه انقلب ضدّه زي ما بقولوا.. لازم تشتغل زيك زي غيرك.. وكلنا لازم نتعاون.

كانت فتحية تستمع إلى كل هذا. ويتفاقم شعورها الثقيل بأن زوجها يتحمل القسط الأكبر من مسؤوليات عائلته، على حساب أسرته الصغيرة. وحين عادا إلى حيفا لبثت تراود نفسها وقتاً على الكلام، حتى «بقّت البحصة» أخيراً، وإن كان ذلك بصوت متلجلج ضعيف وبأسلوب

الاستفهام الحذر:

- أبو صالح! أختك خضرة، كيف مدبرة حالها؟ قصدي بعد ما مات حماها، وقبله جوزها، الله يرحمهم.

أجاب أحمد بأسلوب مبتسر:

- الله ما بنسى حد.

- صحيح. بس، الله بيسّر الناس للناس. طبعاً انت ما بتنساها.

- قلت لك الله ما بنسى حدّ. وكلنا على باب الله.

مرت لحظات صمت، قبل أن تعود للسؤال:

- قدّيش بصرف أخوك عليّ في الشهر!

رفع أحمد رأسه واقتحمها بنظرة صارمة وقال بلهجة أكثر صرامة:

- ليش هالحكي؟ شو أجا عبالك؟ أنا فاهم قصدك.. بس اسمعي تاقول لك. لما بحرمك وبعطي أهلي هذاك الوقت اشكي.. إحنا عيلة طول عمرنا لبعض. الواحد بقيم من ثمّه وبحط بثم الثاني.. وإذا مستكثري على أخوي علي إنه يدرس في القدس، وبتقولي بكفيه الصفوف اللي درسها، فأخوك محمد اللي بتظلك تسميعنا إنه طلع يدرس طب في مصر مش أحسن منه.. وانتو زينا ما بتلعبوا بالمصاري لعب. وخليني أفهمك من اليوم، أنا مش من النوع اللي مرته بتدخل بينه وبين أهله.. وشو بطلع من جيبتي إلهم ما بخصّك لا من قريب ولا من بعيد.. وهذي آخر مرة، سامعة؟

آخر مرة في حياتك بتفتحي معي هذا الموضوع!

لن تفتح معه موضوع أهله من جديد. ولكنها ستتجرأ في اليوم التالي على مراجعته في موضوع «شمّة الهواء» والراديو أو صندوق الغنا، ليُسمِعها من جديد رأيه القاطع في هذه الأمور التي وصفها بعمل أهل اللهو والبطالة.

اعترضت قائلة:

- يعني أهلي بطّالين؟

أجاب بضيق ونفاد صبر:

- أنا ما لي بأهلك.. انت صار هون أهلك.. جوزك وابنك.

- يعني لما سألتك عن أهلك قلت ما إلك خصّ. ولما أنا بجيب سيرة أهلي بتزعل وبتقول..

توقفت لحظة تستجمع بعض الجرأة، وتابعت:

- يعني لا تزعل يا أبو صالح.. زي ما أنت عرفت أهلك من يوم ما فتحت عينيك.. أنا كمان عرفت أهلي من يوم ما فتحت عينيّ..

أنهى الجدال على عادته بعبارة حاسمة:

- طب بس.. ما بدّي أسمع هالحكي بالمرّة.. هه.. قال راديو وصندوق زفت.. شيطان في بيتي؟ ما ظل غير تقولي بدي أروح عالسينما!

ومشى خارجاً دون أن يلتفت إليها. وكانت تطبخ له على «بابور الكاز»، مدّت يدها لتتناول إبريق الزيت، ولكنها عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة إلى علبة السمن وغرفت منها بضع معالق كبيرة. وكان بخلافها يكره السمن على الطعام!

"كانت تجربة الدراسة في الكلية العربية بالقدس من أغنى تجارب حياتي. فلقد جمعت تلك الكلية مع أختها المدرسة الرشيدية نخبة من ألمع شباب البلاد: من الريف والمدينة؛ أولئك الذين سيشكلون أجيالاً جديدة من المتعلمين والمثقفين والمتخصصين في مختلف حقول المعرفة. وسوف يطير صيت بعضهم في الآفاق، ليُسهموا في رسم صورة متألقة للفلسطيني المتعلم والمعلِّم والعالِم، الذي يرى في العلم وسيلة عظمى للحراك والبقاء، في وجه التحديات الوطنية التي ستبقى تحاصره جيلاً بعد جيل. ولقد كان اجتماع تلك النخبة صورة لجيل متعدد المشارب والاتجاهات والظروف الاجتماعية، يجمع بينهم الطموح العلمي ويقظة الوعي والتطلع إلى آفاق بعيدة مفتوحة على كل الاحتمالات. وسيكون على هذا الجيل أن يضطلع بمسؤوليات كبيرة، فينجح في إنجاز بعضها، ويخفق في بعضها، وتمتزج في سيرته إنجازات عظيمة وخيبات أمل مريرة. وسيكون عليه أيضاً أن يعاني من التناقضات الحادّة التي خلقها دوره المتوسط بين تبعات الماضي ومسؤوليات الحاضر والمستقبل، وبين عالم الآباء القديم وعالم الأبناء الجديد".

من مذكرات علي الشيخ يونس

كانوا ثلاثة زملاء أصدقاء: علي وفالح (ابن سيلة الظهر)، وسامي ابن نابلس، الذي كان زميل عليّ ومنافسه في مدرسة عكا، حيث كان يقيم مع عائلته في مكان عمل أبيه في بلدية عكا، قبل أن يعودوا إلى نابلس مؤخراً. وكان سامي أكثرهم انطلاقاً وطلباً للمتع الصغيرة البريئة التي تمنحها المدينة المقدسة، دون أن يؤثر ذلك في أدائه الدراسيّ. أما عليّ فكان على عادته يفضّل المكوث في غرفته والانكباب على الدراسة، حتى يرغمه صاحباه على الخروج معهما. ولم يكن في وسعه أن يجاريهما فيما يخرجان إليه، إذ كان أقلّهما مالاً، وكان عليه أن يضبط مصروفه على قدر نقوده القليلة، كيلا يضطر إلى طلب المزيد من أسرته، وهو ما لم يفعله يوماً، ولن يفعله.

- يا ابن الحلال.. كلها حمص وفول وفلافل عند أبو جواد. ما قلنا لحم ومشاوي واللّي منّه.

قال سامي يحثّه على الخروج.

قال عليّ:

- الفول بسكِّر المخ. وبكرة امتحان رياضيات، والأستاذ أحمد سعيدان مش رايح يقبل الفول عذر صحيّ للتقصير.

قال سامي:

- يعني انت مصدّق إنه الفول بخبِّل يا أستاذ؟

أجاب عليّ دون أن يتزحزح من مكانه:

- فيه إلها تفسير علمي.

- هات يا خوي.

- الفول ثقيل على المعدة. يعني على المعدة إنها تنشط بشكل زائد لهضمه. وهذا يعني أن يتدفق الدم بقوة إلى المعدة مما يؤدي إلى ضعف تدفقه إلى الدماغ، مما يسبب بالتالي الخمول والنعاس.. والخمول والنعاس عدوّا الرياضيات وعدوّ الرياضيات، عدو للأستاذ أحمد سعيدان. فهمت يا أستاذ؟

قال سامي:

- أو هناك تفسير ثاني غير جسماني.. تفسير اقتصادي.. النزول للمطعم أثقل على الجيبة منه على المعدة!

- إذن اجتمع سببان: صحي ذهني واقتصادي.

- يا سيدي على حسابي هالمرّة. كويّس؟

ثم التفت سامي إلى فالح:

- احكي. قول.. انتو الفلاحين بتتفاهموا مع بعض.

مشى فالح وجذب عليّ بقوة وقال:

- طب عليّ الطلاق بالثلاثة، كل ما تحلّ تحرم، لتْقوم معنا. يا زلمة سمِعتُه.. على حسابه.. والكسب من هالمدني أبو طربوش حلال.

وكان سامي يرتدي الطربوش دائماً دون صاحبيه، فقال:

- والله ما حاسدينا يا هالفلاحين إلا على ها الطربوش.

قال فالح:

- ولك احنا خليناكم تلبسوا الحطّة أيام الثورة.

قال سامي ضاحكاً:

- قمتوا تياستكن..

وأكمل معه فالح وعليّ العبارة التي صارت مأثورة باللهجة النابلسية:

-.. عن روسْكِنْ، وحطيتوها على روسْني..

وتابع فالح مخاطباً عليّاً:

- سامع؟ وبدك بعدها توفر عليه ثمن الفول والحمص؟ قوم.. قوم. طول عمرهم مستغلّينا هالمدنية.. خلينا نستغل واحد منهم هالمرّة.

صاح سامي:

- ولكُنْ مين المضطّهد هون.. اثنين مقابل واحد.. أنا اللي تارك أولاد المدينة اللي في الكلية وداير معكن.

رد فالح:

- بارك الله فيك على التواضع والتنازل.

هتف سامي:

- يا عمّي مدني وتبت.. أسلمت خلص.. والإسلام يجبّ ما قبله. رضيتوا هيك؟ يالّلا.. خلصونا.

نهض عليّ وقال وهو يعدّ نفسه للخروج:

- للعلم.. إحنا مناسبين مدنيّة! أخوي أبو صالح..

صاح سامي من فوره مخاطباً «فالح»:

- سمعت كيف قالها صاحبك الفلاح؟ مناسبين مدنيّة!! قالها بشيء من التفاخر. شايف العُقَد؟

ردّ فالح:

- أو إنه بدّه يعزّيك. زي ما تشوف واحد واقع في مصيبة، تروح تقول له: معلش إحنا برضُه ابتُلينا..

سوف يتكرر مثل هذا المزاح الذي لم يكن إلا تعبيراً عن الهوّة الواسعة بين الريف والمدينة، وعن الصور الذهنية الظالمة التي رسمها كل من الطرفين عن الآخر. فالمدني يصم الفلاح بالجهل والسذاجة وبؤس المظهر والخَرَق، بينما يصف الفلاح المدني بالتكبّر والجبن والاستغلال. ولكن الإقبال على التعليم سيتولى تضييق الهوّة وفتح أبواب المصاهرة على نطاق واسع. والحقيقة أن تحوّل مثل هذه الأمور إلى مادة للحوار الساخر العلني هو تعبير عن تجاوزها والتحرر المتدرّج منها.

وقد اعترف سامي لعليّ في لحظة بوح بمشاعره حين اجتمعا لأول مرّة في مدرسة عكا. وكيف كان ينظر إليه نظرة ازدراء أول الأمر، حتى بدأت مواهبه تظهر في الصف، فانقلب الازدراء إلى غيرة، والغيرة إلى حقد. فقد كان الأول بلا منازع حتى جاء هذا الفتى الفلاح الذي يرتدي قمبازاً مرقوعاً ونعلين تخرج منهما أصابعه. وما هي حتى أزاحه من موقعه وهز ثقته الزائدة بنفسه، حتى تحوّلت الغيرة إلى إعجاب.. بل إن الغيرة نفسها ليست إلا تعبيراً صارخاً عن الإعجاب.. ومن الإعجاب إلى الصداقة التي تعزّزت مع الزمن وامتدت إلى هذا الوقت. ثم ذكَّره بدرس الإنشاء حين كان الموضوع عن الريف. فكتب سامي عن الطبيعة والبساتين والعصافير والهواء العليل، والفلاح الذي يكد في الحقول ليوفر للناس الخضار والثمر، وكأنه يفعل ذلك من باب الإحسان والصدقة، وكيف يغمس لقمته في زيت القناعة والرضا وراحة البال! وقد ظن أنه بذلك قد بلغ غاية البيان، حتى قرأ عليّ نصّه عن شقاء الفلاح وبؤسه، لا سيّما في ظروف الانتداب وضرائبه الباهظة. ثم قال سامي:

- بجوز تستغرب الآن إذ قلت لك إنه نصّك أسهم بطريقة معينة في تغيير حياتي.. أو طريقة تفكيري. بدّد أوهامي.. وعلمني كيف أقاوم الأوهام اللي بنورثها دون مراجعة.

هز عليّ رأسه مبتسماً، ودخل معه في مزاج المصارحة والبوح ومواجهة الذات:

- الوهم اللي كان عندك وما يزال عند كثير من أهل المدن، ما بعادله إلا

الوهم اللي بدا كثير من الفلاحين المتعلمين يصنعوه عن أنفسهم وعن أبناء المدن.. قصدي الصورة المثالية اللي بتروِّجها الروايات.. صورة الطالب الفلاح المكافح الجاد المجدّ المتفوق دائماً، مقابل صورة الطالب المدني المترف اللاهي اللي داير على المتع والسينمات والأمور البطّالة، وبِنتَهي أخيراً بالفشل. وهم ثاني كبير. وهاي أنا وانت.. شو الفرق؟

فاجأه سامي قائلاً:

- فيه فرق يا صاحبي.. صحيح كلنا وصلنا لنفس المرحلة من الدراسة. بس كان على الفلاح اللي زيك إنه يقطع مسافة أطول وأشق بكثير حتى يوصل لنفس المحل اللي وصله واحد زيّي.. عشان هيك أنا برضه بقول إنه حجم إنجازه أكبر قياساً بالجهد اللي كان عليه يبذله والظروف الصعبة التي كان عليه يتخطاها. عشان هيك بتفهّم الوهم الجديد اللي حكيت عنّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين طرق الباب، لم يكن عليّ يتوقع أن يكون الزّائرَ أخوه حسن. فضجّ بالفرح واحتضنه بحرارة بالغة. ثم قدّمه لصاحبيه سامي وفالح:

- أخوي حسن.. رفيق الطفولة ومستودع الأسرار، وشريك الأ..

وأمسك لسانه عن كلمة «الأحلام» التي لم تتحقق لأخيه. وأنقذه سامي بالقول:

- مستودع الأسرار بتقول؟ هات يا أخ حسن، اكشف إلنا خبايا وأسرار

هالآدمي خلينا نمسك إشي عليه.

كان يأمل أن يقضي أياماً جميلة مع أخيه في القدس، تبعث ذكرياتهما القديمة، وتنشئ ذكريات جديدة، وتنسيه ضيقه بقرية ظلت أصغر من أحلامه. فاتته الدراسة مع عليّ، ولكن دروب النجاح والتقدم كثيرة، وفي المدينة متسع لها. وها هي بعض العائلات الغنية في المدن، قد جاءت قديماً من الريف، وبلغت في المدينة ما لم يبلغه الكثير من أهلها الأصليين، بل يعمل في مصالحهم التجارية الناجحة كثير من أبناء المدينة. ما زال يحلم ببيت حجريّ تحيط به حديقة واسعة، وأن يرتدي بذلة وربطة عنق، ولكن بلا طربوش، وأن يتزوّج بفتاة مدنية تلمع كدينار الذهب!

ولكنه لن يرجع من تلك الزيارة بغير خيبة الأمل ومزيد من الحسرة على ما فاته من الدراسة. ما زال عليّ ذلك الأخ الحبيب المحبّ الذي لن يترك وسيلة ممكنة لإسعاد أخيه. ولكنه مع ذلك لا يملك ترف السياحة وإنفاق الوقت في التجوال، مع كل الواجبات الدراسية الضاغطة. فماذا يفعل حسن في أثناء ذلك غير الخروج وحده أحياناً والتجوال في زحمة الوجوه المجهولة، وبين اللهجات الغريبة عليه. أما الأشدّ عليه من ذلك، فهو الاستلقاء على الحشية يعبث ببعض كتب عليّ ويقلّب بعض صفحاتها على غير تركيز، فإن تمعّن في المكتوب لم يفهم شيئاً. لو أنه كان أصغر سنة واحدة فقط، لقُبِل في مدرسة عكا، وكان الآن يقاسم أخاه هذه الكتب، ويتبادلان الشرح والمذاكرة. ولكن هذا لم يحدث. أما الحوار

الذي يدور بين الزملاء الثلاثة، فيفهم منه ما كان مزاحاً أو من أمور الحياة العادية. ولكن، ما أسرع أن ينقلبوا عن ذلك إلى أمور في السياسة والفكر لا يستوعب معظمها، ويُضجره جميعها. وها هم الآن يخوضون في مثل هذا الحديث عن الحرب العالمية الدائرة والحلفاء وألمانيا النازية وارتدادات ذلك كلّه على مستقبل القضية الفلسطينية. لماذا يجب أن يكون الموضوع أكثر تعقيداً؟ هل هو كذلك حقاً أم أن كل هذا الكلام من باب استعراضات المثقفين؟

- أنا اللي بقوله: النازية عقيدة فاشية عنصرية، ونظام ديكتاتوري عسكري يهدّد الإنسانية كلها. كراهيتنا لبريطانيا ورفضنا للمشروع الصهيوني مش لازم يصرفنا عن هذه الحقائق والمبادئ العامة.

هكذا قال سامي الذي يميل إلى الأفكار اليسارية، فيردّ فالح:

- وليش يا خوي، يعني بريطانيا أقلّ عنصرية؟ وشو هوه الاستعمار البريطاني اللي إحنا مكويين بناره؟ أنا ما بهمني شو بصير بين ألمانيا وبريطانيا، فخار يكسِّر بعضه. اللي بهمني نتائج حربهم على بلدي.. وعدوّي هون هو بريطانيا.

- صحيح، بس قضيتنا العادلة ومقاومتنا المشروعة ضد الاستعمار البريطاني والمخطط الصهيوني، مش لازم تدفعنا للتعاطف مع عقيدة عنصرية ونظام ديكتاتوري..

- يعني شو طايلنا من ديمقراطية بريطانيا في بريطانيا.. إحنا اللي حرمتنا

حتى من مجلس تشريعي شكلي أو حكومة محلية هزيلة، والأهم أنها بتعمل لإعطاء بلدنا كلها لليهود. هذا يجعلها الآن عدوّنا الأول.. وملعون أبو النازية الألمانية على الديمقراطية البريطانية.

وهكذا يستمر النقاش، ويشعر عليّ بضجر أخيه وشروده. فيحاول إنهاء الجدال:

- يا جماعة، خلاصة الكلام إحنا مش مخيرين بين الشيطانين.. المسألة بالنسبة إلنا مش مسألة عقائد سياسة عامة.. قضيتنا قضية وطن مهدد بالاغتصاب. من هون مبتدى الأمر وهون نهايته.. وكل شي ثاني لازم ينطلق منه وبس.. وفي الأخير، مش بالضرورة يكون عدو عدوي صديقيّ ولا مطلوب منا «أن نستجير من الرمضاء بالنار». يعني خلوني أحطه بالطريقة التالية: أنا بكره بريطانيا، وما بأيّد النازية.. ويا ريت لو في طريقة ينهزم فيها الطرفين..

- وننتصر إحنا على العدو اللي في بلدنا.

كانت العبارة الأخيرة من حسن.. قالها وهو ينهض ثم يمشي نحو الباب، وقال عليّ:

- وين يا خوي؟

- الحرم.. قايم أصلي فيه.

- وأنا معك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحُسْن الحظ لم يكن حوار الزملاء الثلاثة كلّه في الدروس والفكر والنظريات والاتجاهات التي تبعث على الملل. فثمة أوقات للمزاح والطرائف والمناكفات المحببة.. والحبّ أيضاً!

- عمرك حبّيت يا علي؟

سأل سامي. وهنا تنبهت ملامح حسن، ورفع جسمه قليلاً من استلقاءته، واتّجه بنظره إلى أخيه، الذي تحاشا نظراته وبدا عليه الحياء. وردّ معترضاً:

- شو هالحكي؟ بدّك تسوِّد وجهي قدام أخوي. هسّع بظنّ إنه في شيء حقيقي وراء السؤال.

تدخل حسن باهتمام لأول مرة:

- وين سواد الوجه في الحبّ؟

هتف سامي:

- الله أكبر.. هاي أخوك قالها: وين سواد الوجه في الحب؟

نظر إلى أخيه نظرة عتاب، وأكمل سامي:

- قصدي القصيدة اللي سمعتنا إياها لما حسن طلع لحاله برّة. كلها غزل في غزل. منين جبت هالمعاني والصور؟

وكان عليّ شاعراً مجيداً حقاً، وإن لم يكن يقدّم نفسه بوصفه شاعراً.

وأجاب:

- الغزل موضوع من مواضيع الشعر.

قال سامي:

- والشعر مستمدّ من تجارب الحياة.

رد عليّ:

- أو مبني على الخيال.

- والخيال منين بيجي يا خوي؟ هيك من الهوا؟ مش من الرغبات والأشواق؟ إن ما كانت بنت بنت معينة في ذهنك، بتكون بنت بتتصورها وبتحلم فيها..

ثم توجه إلى حسن:

- والا لأ يا حسن؟

أجاب حسن بلا تردد:

- صحيح..

التفت إليه عليّ وقال مؤنباً:

- انت معي والا عليّ؟

أجاب:

- معك بالتأكيد.. مع أنك تحب أو بتتصوّر زي ما قال سامي.

هتف سامي من جديد:

- الله أكبر.. والله يا علي أخوك اللّي ظلّ في القرية بحبوح ومنفتح أكثر منك.

قال عليّ:

- سبحان الله.. المؤدّب صار متزمّت، وقليل الحيا صار متحرر!

قال سامي:

- على أي حال.. ممكن تقرضني القصيدة؟

- كيف أقرضك إياها؟

- قصدي ما دام مش نافعتك، بتنفعني أنا.. أنا مش شاعر.. وانت ما بتنشر.. أنا إلي عوزة فيها.. إذا سمحت لي.. بَنْسبها لنفسي وببعثها..

قاطعه فالح:

- لبنت؟

أجاب سامي:

- والا لمين؟

سأل فالح:

- بتحبّ؟ وحدة؟ مصاحب؟

ردّ سامي:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أيوه يا خوي بحب ومصاحب.

تدخّل عليّ بنبرة تنمّ عن الدهشة، أو الصدمة:

- وهيّه؟

- ما لها؟

- بتبادلك الحب والمكاتيب وهالقصص؟ بتحكوا مع بعض؟

- أنا ما بآمن بالحب من طرف واحد.

- وكيف بتقبل تحب وحدة مستعدة تحب وتصاحب؟

- أما سؤال عجيب غريب.. يعني لازم أظلّ أحب الوحدة من بعيد، فإذا حبّتني ساعتها لازم أحتقرها وأبطّل أحبها.. شو هالمنطق؟

كان حسن أكثر استغراباً.. ولم يكن استغرابه كاستغراب أخيه من سامي، ولكن من أخيه نفسه! ثم قال عليّ:

- طيب إذا كان هيك، متى ناوي تخطبها وتعقد عليها؟ منشان نحضر عرسك.

بدا أن سامي فوجئ بالسؤال، فلم يخرج منه إلا صوت مبهم:

- هاه؟

قال عليّ:

- إيش يعني هاه؟

لم يجب سامي. ورمقه فالح متفحّصاً، ثم أطلق ضحكة ساخرة وقال:

- منافق!

تنبهت ملامح حسن من جديد، ونقل بصره بين سامي وفالح مستطلعاً، حتى قال فالح بلهجة التهكم مردّداً كلام سامي:

- ما بآمن بالحب من طرف واحد!! ويعني بظل أحب البنت، فإذا استجابت إلي بحتقرها وببطّل أحبها؟ شو هالمنطق..

وضحك من جديد:

- بس لما بتوصل للزواج منها، ما بتناسبني واحدة مستعدة تحب وتصاحب! منافق.. عصا عالرجل وعصا عالحافر.. رِجل هون ورِجِل هناك. لا والله عليّ أصدق منك.. حتى لو كان متخلّف بعض الشيء!

ثم توجه إلى حسن الذي صار بمثابة الحَكَم في هذا الموضوع:

- والا شو رايك الآن يا حسن؟

فكّر حسن لحظة، ثم قال:

- هسّع أنا لا مع هاذا ولا مع هاذا.

هتف فالح:

- قطعت جهيزة قول كل خطيب.

في بقية الأيام التي قضاها حسن بالقدس في تلك الزيارة، أصرّ على أخيه عليّ ألا يضحّي بأوقات دراسته للخروج معه، وأنه قادر على التجوال وحده. ولم تنقضِ أيام الزيارة حتى كان قد عرف من المدينة وحواريها وأسواقها ومآثرها أكثر مما عرف أخوه حتى الآن.

ولما عاد إلى القرية رآها أكثر بهاءً وجمالاً. ووجد نفسه أكثر إقبالاً على العمل في الأرض الطيبة، دون أن يزايله الشعور بالوحدة والوحشة.

١

يا زريف الطول وقف تاقلّك

ورايح عالغربة وبلادك أحسن لك

خايف يا المحبوب تروح وتتملّك

وتعاشر الزينات وتنساني أنا

يا زريف الطول ويا عيني إنتْ

يا عقد الجوهر على صدر البنتْ

وإن تُبتْ يا عيني كفّي إنتْ

وإن حضر طبيب وإيده مطهَّرة

يا زريف الطول من الحارة مرقْ

قلبي بحبك وهيك الله خَلَق

لاكتب المكتوب عطْلاحِ الورق

ومكتوبك يا زين ألفّه بمحرمة.

كانت تغني بصوت ساحر، ويردّد معها الزنبق البري الذي كانت تقطفه من كتاب الربيع المفتوح الذي لا تستعصي قراءته على أحد: المتعلم والأمّي سواء!

وقف متسمّراً في مكانه يستمع كالمسحور. وحين التفت رأى وجهاً كفلقة

القمر، لم يرَ مثله في ريف أو حَضَر. وجَفَلَت إذ رأته يصوّب النظر إليها.. وبدا عليها الخوف والاضطراب.. واضطرب حسن باضطرابها، وبدأت تتراجع بسرعة المذعور.. بينما مدّ حسن ذراعه بغرض أن يطمئنها:

- لا تخافي.. لا تخافي.. أنا مش..

ولكنها هرولت مبتعدةً عنه حتى غابت في الكروم كما يغيب الحلم الجميل. وخلّفته في مكانه مزروعاً في دهشته الغامرة وخَدَره اللذيذ!

من أين طلعت هذه الحورية التي تفتّح عنها الربيع كما تفتح عن الزنبق البريّ الذي كانت تقطفه؟ أم هي جنيّة تمثّلت له في ذلك الجمال الساحر لتواسي وحشته وخيبات أمله، أو على العكس من ذلك، لتعذبه وتلوّع قلبه انتقاماً لعزيز أوقع به الأذى على غير قصد إذ ألقى ماءً ساخناً في مكانٍ صادف وجود عزيزها الخفيّ فيه، دون أن يسمّي الله، فمثل ذلك يقع -كما يقصّ بعض الناس- بين عالمي الإنس والجنّ اللذين يتداخلان كثيراً في أرض الأساطير القديمة والغموض والخوف والمخيلة الجامحة.

أم أنها كانت من بنات خياله الذي تضيق به القرية الصغيرة وتصدّه المدن العامرة! وإلا من أين جاءت وهو لم يرها من قبل؟ وأين اختفت عن بصره دون أن تختفي من عقله ووجدانه وأفكاره وأحلامه!

لا، لم تكن نجمة ساقطة من السماء، ولا جنيّة تجلّت له من عالم آخر، ولكنها كانت فتاة رائعة الجمال فرّت مع أمها من جحيم الأرض وناسها:

من قرية أخرى لم تلقيا فيها إلا العذاب والاضطهاد والتهديد والوعيد من ذوي القربى. وسيعرف حسن قريباً أن الفتاة يتيمة مات أبوها بعد قطيعة طويلة كاملة مع أقاربه. بل إنهم قاطعوا جنازته ومراسيم دفنه. وما ذاك إلا لأنه أطاع قلبه وعصاهم في زواجه من امرأة مقطوعة مغمورة النسب، أو حتى مغموز في نسبها، حتى دندن بعضهم أنها من أصل غجري تحرص على إخفائه. وإذ مات الرجل استفردوا بالحرمة وابنتها، فغصبوهما الإرث كله ظلماً وعدواناً. ولم يرعوا في البنت إلاً ولا ذمّة، ولا نظروا في قرابة الدم، فكراهية الأم تمتد إلى البنت التي قيل فيها «اضرب الجرّة على ثُمْها، بتطلع البنت لأمها». ولم يكتفوا بكل ذلك حتى مكثوا يهددون ويتوعدون لتُخرِج الأم ما أخفت من نقود زوجها كما كانوا يعتقدون، حتى خافت الأم على نفسها وابنتها، فخرجت مذعورة محسورة لا تلوي على شيء، والتجأت إلى هذه القرية عند رجل طيب شهم كان له صحبة وشراكة مع زوجها فيتردد عليهم من حين إلى آخر. فأشفق عليهما وأنزلهما في «خشّة» صغيرة متهالكة، على أن تعملا في قطف زيتونه وتعشيب أرضه كلما احتاج إلى ذلك. كانت الأم والبنت تحسنان التطريز والخياطة وجلي الأواني النحاسية وتلميعها، وكذلك شحذ السكاكين. ولعل هذه المهارات الأخيرة مما ساعد على الإشاعة بأصلها الغجري عند أهل زوجها. وما كانت كذلك في الحقيقة.

كل ذلك لم يمنع حسن من أن يبقى هائماً بجميلة التي يطابق اسمها رسمها، وأن تبقى مقيمة في مخيلته ليلاً ونهاراً، وأن تجعله يكتشف

الشعر فيه باللغة التي يعرفها.. لغة الزجل التي تملأ أجواء القرى عشقاً جريئاً لا يُنكر أحد سماعه، ويُنكر الجميع رؤيته! فكان يخرج إلى حيث رآها أول مرة لعلّه يراها من جديد، فيتجوّل هنا وهناك، ويرسل بصره في كل ناحية، ويصيخ السمع، ويحاور الطيور والسنديان العتيق. فإذا صفّق طائر صفق قلبه معه، وإذا سمع حفيف العشب والغصون والسنابل، كاد يقفز من مكانه. فإذا يئس من رؤيتها جلس إلى صخرة، وأخذ ينفخ في نايه نغمة «زريف الطول»، متمثّلاً نفسه فتى الأغنية: زريف الطول. على أنه لن يفكر في الغربة بعد، كما تخشى فتاة الأغنية، ولن «يتملّك» فتاة أخرى في أرض أخرى، ولن يسلوها بمعاشرة «الزينات»، إن لم يكن لشيء، فلأنها زينة الزينات.

وأخيراً يلقاها في آخر مكان يتوقع أن يلقاها فيه. باب بيته! فإذ كان يقترب من الباب من الخارج، انفتح قبل وصوله، وخرجت الحورية تحمل في يدها قطعة من القماش. وقف مشدوهاً وتبادلا نظرة سريعة على غفلة من الدنيا ومن نفسيهما، قبل أن تشيح بالسرعة نفسها، وتنطلق مبتعدة تكاد أن تتعثر في مشيتها. لبث واقفاً يشيّعها بأنظاره الحائرة، قبل أن يندفع إلى الداخل. ولحظت أمه وأخته خضرة امتقاع وجهه واضطراب ملامحه وحركاته، قبل أن يسأل بصوت متلجلج متقطع لم يستطع السيطرة عليه، عن تلك الزائرة الغريبة. فأخبرته أمه عنها وعن أمها، وأنها دعت بها لتعطيها قطعة القماش التي أهداها إياها أبو صالح، لتخيطها وتطرّزها لها مع أمّها المسكينة. فإلى جانب كونهما

ماهرتين في هذا العمل كما شهدت لهما بعض نساء القرية حتى اشتهر ذلك عنهما، فإنها بمثابة المعونة على «حرمتين» غريبتين معدمتين لا معيل لهما، ولا رجلاً ينهض بشأنهما.



كانت تنحني على كومة الحطب التي جمعتها وحزمتها، حين سمعت وقع خطوات خفيفة تقترب منها، التفتت بنظرة خاطفة وخفق قلبها خوفاً وفرحاً في الوقت نفسه، وإذ همّت أن ترفع الحزمة على رأسها امتدت يدا حسن ورفعتا الحزمة، والتقت عيناهما في نظرة عميقة. وارتسمت ابتسامة على وجه حسن، قبل أن تولّي عنه وقد كادت ساقاها أن تخذلاها.

كانت أم جميلة جالسة تعمل في عجينها، حين طرق الباب. فقامت جميلة لفتحه. وفوجئت بحسن يقف أمامها.

- العواف.

نظرت الأم من مكانها مستطلعةً وقالت:

- بالغانم. إيش يا خوي.

- أنا حسن. ابن أم أحمد، مَرْت صالح اليونس.

- آه.. الثوب.. بعده يا خوي ما خلصش.. قديش بدّه يا جميلة؟

أجابت جميلة بصوت مرتجف:

- أبو يومين. لوما إني اتفقت مع أم علي الحسن أطلع القّط إلها زعتر بكرة، كان خلّصت الثوب قبل.

قالت أم جميلة:

- زي ما سمعت يا خوي.. سلّم لي على أم أحمد.

استغربت الأم حين رأته متلبثاً في مكانه. ثم قال بعد تردد:

- شو بدّي أقول يا خالتي. أمي وصّتني عليكن.. قالت زي خواتك والناس للناس. عاد قصدي إذا احتجتن إشي من هون والا حتى من المدينة، أنا زي ابنك.

قالت أم جميلة:

- ما بتقصر.. أصيل ابن أصلا.

أراد أن يطيل الوقوف والكلام ما وسعه ذلك:

- أنا بنزل للمدينة من وقت للثاني.. يعني إذا احتجتِ قماش.. خيطان.. اللّي في بالك.

- الله يرضى عليك يا خوي..

- وبعدين الطابون تبعنا اعتبروه طابونكم.. والبير تبعنا مَلّوا منه وينتا ما بدكم.

- الله يجبر بخاطركم.

في هذه الأثناء كانت جميلة قد عادت إلى مكانها تطرّز، وتسترق النظر إليه بين الفينة والأخرى. وحين لم يعد عنده ما يقوله استأذن في الذهاب. وإذ أغلق الباب وقف مبتسماً، وأخذ نَفَساً عميقاً.

لم تُفاجَأ هذه المرّة حين كانت تقطف الزعتر، ورأته يقف على بُعد ينظر إليها. ولكن الحياء حملها على تجاهله وتابعت عملها. بينما أخذ يعزف بنايه. ثم غلبت مشاعره على تحرّجه وتردده، فاقترب منها قليلاً، فابتعدت عنه بالقدر نفسه، فهتف بها لأول مرة:

- احكي لي كلمة يا جميلة.. بدّي أسمع صوتك.

هنا وجدت نفسها تبتعد أكثر، فصاح في إثرها:

- وين؟

توقفت وأجابت دون أن تلتفت إليه:

- خايفة لحدّ يشوفنا.

- بس أنا واقف بعيد.

- ولو.

وتابعت المشي، كأنها تنوي العودة، فمشى وراءها وهتف من جديد:

- استني يا جميلة.. ورحمة أبوك استني.. عندي حكي كثير بدّي أقوله. والله أنا زلمة قصدي شريف وبخاف الله، وما بعرف الشغلات البطّالة.. وريتني أقع هسع ميّت إذا كنت بكذب..

- بعيد الشر عنك.

انفلتت منها العبارة على غير تفكير وتدبر. وكادت تصفع وجهها، وأعقبت:

- هذا مش مزبوط.. مش مليح.. شو تقول انت عني؟

هنا تدفق الشعر من قلبه على لسانه:

- مش مليح؟ قولي للشمس مش مليح تطلع من الشرق.. قولي للدحنون مش مليح يكون لونه أحمر. قولي للعشب مش مزبوط يطلع من الأرض وطين الحيطان.. قولي للزنبق مش مليح تكون رحيته حلوة ومعطّرة.. قولي.. قولي لوجهك مش مليح يكون حلو..

اكتسى وجهها بحمرة الخجل، ولم تعد ساقاها تطاوعانها على المشي والابتعاد عنه. وتابع بشعر دبّجه لها بينه وبين نفسه وهو يتمثلها في خياله:

عِلْمي القمر في السما

وإيش نزلوا جنبي

يُدرج بعيني وأنا

نار الهوى بقلبي

قالوا الهوى ممنوع

قلت احبسوا النجمة

وسدّوا طريق الغيم

وبعد اشنقوا النجمة

كان العمر خالي

لا لون ولا وردة

صحرا عَ مدّ العين

أولها في كِبدي

حتى أريت الزين

صار الفضا حدّي

نجوم على كتفي

وغيوم على خدّي

بدر السما ينزل

وينام على زندي

انقشعت كل مخاوفه مرّة واحدة، وأعاره ربيع الأرض روحه وسخاءه، فأردف بصوت ثابت هذه المرة:

- بحبك يا جميلة.. بحبك.. من يوم ما خطرتي قدامي أول مرة، وأنا بنام

وبفيق على صورتك. إذا كانت هذي جريمة فأنا أكبر المجرمين وبستحق الذبح.. وانت بس اللي بتقدري تذبحيني..

أطرقت لحظة وقد اخترق الكلام روحها الظامئة إلى الحبّ الذي حُرِمت منه، وقالت:

- وعليش تحبني يا ابن الأصل. أنا مقطوعة لا قدّامي ولا وراي.. غُربيّة لا أهل ولا عزوة.

قال:

- أنا من اليوم وطالع أهلك وعزوتك، والله شهيد. إحنا غربيّة مثلكم، وذقنا المرّ مثلكم.. وزي ما قالوا: الغريب للغريب نسيب.

- بس انت إلك أصل. حالكم غير حالنا.. عندكم أرض.. وأخوك بقى قايد.. وأخوك الثاني دراسة وعلم.. وانت..

ترددت لحظة، ثم استأنفت:

- وانت مزيون كل البنات بتتمناك. واللي زيي ما بطلعلها تتمنى واحد زيّك.

- اللي زيك؟ بتقولي اللي زيّك؟ ومين زيّك؟ من يومن ما جيتي البلد والنسوان ما لهن سيرة غير حلاوتك.

- وشو الفايدة يا حسن؟

لأول مرة تنطق اسمه، فنزل على قلبه برداً وسلاماً. أو الأحرى جمراً

حارقاً ومضيئاً. وتابعت:

- الناس ما بتطلّع على الشكل. بتسأل عن الأصل. إن ما سألت أنت، أبوك وأهلك وغيرهم بسألوا. اللي زيي آخرتها لواحد أعرج والا أعمى والا اختيار مرمّل..

- لا تقولي هيك دخيلك.. لا تقولي أهلي وأهلك.. لا تقولي الناس كلهم.. قولي أنا وانت.

أطرقت لحظة وشردت في التفكير. ثم قالت:

- طيب بلاش أتوخّر.

ومضت مبتعدة وقد نسيت ضمائم الزعتر التي قطفتها، فالتقطها وركض بها وراءها وناولها إياها. وإذ أخذت تبتعد، تناهى إلى سمعها من ورائها عزيف «نايه»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- غلّبناك معنا يا ابن الناس.

هكذا قالت أم جميلة، إذ وضع كيساً مملوءاً إلى نصفه بحبوب الذرة. وردّ قائلاً:

- ولو.. ما اتفقنا إني زي ابنك؟ والا أخوك الزغير يا ستّي، يعني حتى لا نكبّرك كثير.

ضحكت أم جميلة، واكتفت جميلة بابتسامة عريضة، وهي تداري عن

أمها تعابير لهفتها التي يكاد وجهها أن ينطق بها. وقالت أم جميلة:

- أنا انحرمت من الأولاد والإخوة. حكمة الله.. وبعث لي إياك يا أصيل.

- إن كان في الدنيا خير يا خالتي.

اختطف نظرة إلى جميلة، وقال للأم بعد لحظة تردد:

- شو بدّي أقول يا خالتي.. رشدي المحمود سلمني المارس تبعه أحرثه وأنكشه. وبدّي وحدة تعشّب من وراي.. عاد قلت إذا..

قاطعته الأم:

- أنا يمّه.. أنا بطلع.

كاد الشعور بخيبة الأمل أن يغلب على ملامحه، وبدا مثل ذلك على وجه جميلة، قبل أن تتدخّل بالكلام:

- يمّه انت ظلّي في البيت كملي ثوب أم نجيب. اليوم شفتها وشدّت عليّ كثير تانخلص الثوب.. وكانت زعلانة.. بلاش نطفش الناس.. أنا بطلع أعشّب بدالك.

لاح طيف ابتسامة على وجه حسن. وعلم الآن أن في نفس جميلة كالذي في نفسه، وأنهما يمكن أن يتخاطبا دون كلام.. وذلك شأن المحبين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقفت جميلة عن اقتلاع العشب، وأطلقت آهةً سمعها حسن فترك المحراث وأسرع إليها وهي تضع يدها على إحدى عينيها. شيء ما دخل

في عينها وشعرت بحرقة لاسعة، وانهمر دمعها دون إرادة.

قال حسن:

- خلّيني أشوف.. افتحي عينك بإيديك الثنتين.

لم يكن ذلك سهلاً، فلم يطاوعها رمشاها. ودون تفكير مدّ حسن يديه ليساعدها فيما عجزت عنه. عندئذٍ تحاملت على نفسها وباعدت بين الرمشين بصعوبة. نظر حسن مدققاً متفحصاً، ثم أخرج منديلاً نظيفاً من جيبه، ومرّر طرفه برقة متناهية على طرف جفنها.

- كيف هسّع!

ضغطت جفنيها على عينيها، ثم فتحتهما، وفعلت ذلك بضع مرات، حتى تأكدت أنها صارت بخير، وتخلّصت مما بدا لها أنه بثقل الحصاة.

ولم يتَنَبّها في هذه الأثناء إلى الرجل الذي كان يقف بعيداً ويشاهد الموقف!

وبعد أن فرغا من عمل النهار، وهَمّ كل منهما أن يمضي في طريقه، استوقفته، فنظر إليها مستطلعاً. أطرقت قليلاً، ثم رفعت رأسها وفاجأته بالسؤال:

- خُرّافك الحلو.. صحيح من قلبك؟ والا..

استغرب من السؤال، وأجاب:

- والّا إيش؟ بلعب؟ له له يا بنت الناس.. وجهي وجه واحد عديم

المروءة.

- حاشاك.

- لعاد إيش؟

- سمعت الناس بقولوا: اللي بفرح كثير لا بد تصيبه مصيبة بعدها. وأنا خايفة لأني فرحانة فيك!

ضحك وقال:

- هاذ لأنه الناس تعوّدت على المصايب.. صارت تخاف تفرح.

ترددت مرة أخرى، وقالت:

- لعاد، لوينتا يا حسن! بخاف الناس تبدا تحكي.

فهم مغزى السؤال. وقال:

- بس شويّة وقت يا جميلة. علمك أخوي مسعود أكبر مني وبعده ما تجوّز.. بعدين العيلة مبلوشة بدراسة أخوي علي في القدس، ويا دوب تقدر تصرف عليه وعلى البيت، وعلى أختي خضرة وابنها رشدي اليتيم. بدنا نصبر شويّة.. بس إلك عليّ عهد الله ما بتجوّز غيرك.. ومن هسّع أنا بعتبرك مخطوبة إلي. والخاين الله يرديه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا علي يا الأفندي

يا سراج الدار

جبت العلم وافنونه

ونورت الدار

يا علي يا فَرْح أمّك

يا أبو البدلات

جينا تانهني أمك

ونضوّي الشمعات

امتلأ بيت الشيخ يونس بغناء المهنئات والزغاريد، بينما امتلأت الساحة أمام البيت بالمهنئين. ودارت كؤوس شراب الورد و«باكيتات» الحلقوم على الحضور. وتجمّع الصبيان يدورون في المكان لينالوا نصيبهم من «الحلوان». وقد يعود أحدهم مرات ليأخذ المزيد معوّلاً على «العجقة» والزحام ونسيان من أخذ منهم ومن لم يأخذ.

كان ذلك يوماً من أيام أسرة الشيخ يونس، بل القرية كلها. فهذا أول فتى فيها يتخرّج من الكلية العربية، ويحصل كذلك على المركز الأول في دفعته. علي صالح الشيخ يونس، مفخرة أسرته ومفخرة القرية التي جاء معظم أهلها للتهنئة ومشاركة الأسرة فرحها.

وبالطبع، لم يأتِ أبو عايد ولا المختار. وكان أبو عايد يتميّز غيظاً:

- طبعاً.. بحق إلهم يعملوا تعليلة وزفة.. شو بقوا وشو صاروا.. امبارح قائد فصيل بحل وبربط.. واليوم أفندي وأستاذ.. مش زيّ الهامل ابني.. حمدان اللي طلع معه عمدرسة عكا، وما ضاين غير سنة. الله يرحم هذيك الأيام، لما كانت أصابع ابن صالح الشيخ يونس طالعة من مشايته. آ آخ... آخ..

قال عايد الذي لم يتردد في حضور المناسبة وتقديم التهنئة:

- الحسد مش مليح يابا..

- مليح، مش مليح، هذا اللي إجاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين انفضّ الناس، وسكتت الزغاريد، دون أن يتراجع ضجيج الفرح في بيت الأسرة، تقدّم عليّ من أخيه الأكبر، ونظر إليه بمحبة وامتنان، ثم أخذ يده ليقبِّلها فسحبها بسرعة مستغفراً الله. وقال علي:

- لوماك ما صار هذا اليوم. أنا مدين إلك للأبد يا أبو صالح. والله يقدّرني أردّ جميلك.

- عيب يا علي.. لوما جدّك واجتهادك وشطارتك ما صار هذا. وإذا كان أنا عملت إشي فأنا عملته إلك ولنفسي ولكل العيلة. نجاحك ذخر إلنا كلنا.. وبكفي فرحة أبوك وأمك.

ثم التفت أبو صالح إلى أبيه:

- آه يابا. شو رايك اليوم؟

- الحمد لله اللي رايكم غلب رايي.

تدخلت أم أحمد مخاطبة زوجها:

- اتذكر هالحكي من اليوم وطالع لما يكون إلك راي وإلنا راي!

زمّ أبو أحمد شفتيه وقال:

- هوه يعني إذا رأيي بقى غلط مرّة، بكون داماً غلط.. شو هالخرّاف؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحبّا أن يسترجعا معاً شيئاً من الأيام الخالية. فصعدا إلى ضريح «أبو نار»، ووقفا عند شجرة الجميز العتيقة التي شهدت تعاقب الفصول والسنين وأسندت إلى جذعها حيارى ومحزونين ومحرومين جاؤوا يطلبون بركة الوليّ الدفين في حيّزها، واستمعت إلى همس قلوبهم المشتعلة وأحلامهم المنشودة. وشهدت فيما شهدت هذين الأخوين حين كانا صبيّين يطاردان الفراشات أحياناً ويثوبان إلى المكان في أوقات الهمّ والغمّ والأذى والاضطهاد.

قال عليّ:

- بتتذكر يا حسن لما وقفنا هون نتطلع على القرية وقلوبنا مليانة من عملات أبو عايد فينا، ومن ظلم المعلم الشيح حسين، ومديت إيدك

وصحت: نار. بلكن تشب النار زيّ ما عمل أبو نار على قولة الناس؟

أسند حسن ظهره إلى جذع الجميزة ونظر إلى القرية تحته، وقال بنبرة مشوبة بالأسى:

- بس أنا مش ولي. والنار ما شبّت هناك، وظلّت شابّة في قلبي.

نظر إليه عليّ متأمّلاً وقد أحسّ حزنه. والحقيقة أنه رأى مظاهر القلق عليه منذ عاد من القدس. ولولا أنه يعلم مدى حبّه له وفرحه بإنجازه الدراسي، لشك أنه يرثي لحاله لأنه حُرِم مما أتيح لأخيه، وهو الذي لا يقلّ عنه ذكاءً وموهبة. وقال عليّ مواسياً:

- بس الأمور الآن تغيّرت يا خوي.. ما عادت الناس تستوطي حيطنا زي زمان.

قال حسن وهو يديم النظر في الفراغ:

- أنت بطلع لك تقول هيك.

- يعني عشان خلصت تعليمي في القدس؟ ما عاد عندي أسباب للقلق والتفكير والتأزّم؟ يا خوي يا حسن.. لا الأحلام ومطالب النفس بتنتهي ولا أسباب الضيق والقهر.. بقولوا: باب بينفتح بفتح معه مية باب ثاني.. يمكن صحيح.. بس الصحيح كمان: باب بينفتح بكشف لك مية باب ثاني بتطمع إنك تفتحهم وما معك المفتاح.. بعض زملائي اللي كان ترتيبهم بعدي في الكلية رايحين يكملوا دراستهم الجامعية في القاهرة أو بيروت أو حتى لندن.. وزملاء آخرين أولاد عائلات ومحاسيب رايحين يتعيّنوا في

وظائف حكومية أفضل مني. هيك البشر، كل طموح بتحقق بخلق طموحات جديدة. بس.. انت.. انت مش على بعضك.. ما بدك تصارحني؟ يمكن أقدر أساعدك..

مرت هنيهة صمت وتأمّل قبل أن يجيب حسن:

- بحبها يا خوي. بحبها.. جميلة.

احتاج عليّ إلى لحظات أخرى ليستوعب الموقف، ثم سأل:

- البنت اللي أجت مع إمها عالبلد!

هز حسن رأسه. ثم التفت إلى أخيه:

- رايح تحفظ سري، مش هيك؟ زي ما كنت لما كنا صغار.

- سرّ؟ ما بعني هذا إنه في شي غلط في الموضوع حتى تكون حريص على أنه يظل سرّ؟ وفي شيء بظل سرّ في هالبلد؟ وبعدين الموضوع مش سهل يا خوي وانت عارف.

- قصدك إني بعدني صغير على الجيزة، ومسعود أكبر مني.

- مش بس هذا. زيّ ما فهمت الأم والبنت مقطوعات وما إلهن حدا.

اقتحمه حسن بنظرة لوم وعتاب:

- انت بتقول هذا يا علي؟ انت من دون الناس اللي دَرَسِتْ وتعلّمت واختلطت بالعالم. وبعدين انسينا قديش إحنا تعذبنا من قولة الناس

غُربيّة ومقطعين؟!

أطرق عليّ حائراً مرتبكاً. وتابع حسن:

- على أي حال أنا قلت إلها لازم نصبر شوية.

تحرّك وجه عليّ بعلامات الدهشة والاستنكار:

- يعني فيه بينك وبينها حكي في الموضوع؟ كيف؟ وين؟

- ما أنا بطلّ عليهم من وقت لوقت بشتري لهم أغراض وبساعد.. يعني ما إلهن حدا في هالبلد.

هز عليّ رأسه بأسف وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا الآن خايف عليك صح.

- بس رايح تدعمني وتوقف معي، مش هيك؟

آثر عليّ أن يشيح بوجهه ويتجنب الإجابة، فاصطدم نظره بضريح الوليّ «أبو نار»، ولم يستطع أن يدفع شعوراً غامضاً بالحرج أن يدور الكلام عن الحبّ قريباً منه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يدرِ أبو أحمد لماذا أرسل إليه المختار مستعجلاً إياه إلى مضافته. وحين دخل لحظ من فوره أن الحضور، وفيهم أبو عايد، يرسلون إليه نظرات عابسة. فأوجس في نفسه وأدرك أن ثمّة خطباً ما:

- خير يا مختار.

- منين الخير يا أبو أحمد. الشغلة زادت عن حدها وطلعت ريحتها. كل شيء إلا سمعة البلد والشرف والأخلاق.

وقف أبو أحمد منصدماً ومرتبكاً:

- شرف وأخلاق؟ بتقول إلي هالخراف؟ إحنا بنعلّم الناس الدين والشرف والأخلاق.

- ما هذا اللي محيرنا يا أبو أحمد.. عمرنا ما سمعنا من تلاكم إشي من هذا النوع، قبل هالأيام. بس الأولاد بكسروا يا أبو أحمد.

- يا زلمة مين الأولاد اللي بتحكي عنهم؟

- يعني كل الناس عارفة وبتخرّف وبتقول وانت غافل يا أبو أحمد؟ ابنك.. ابنك حسن يا أبو أحمد..

- ما له ابني حسن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كالعادة في الملمات الكبيرة، ليس لها إلا أحمد الذي جاء على عجل من حيفا إذ سافر إليه مسعود بالخبر.

مزيج العشق المتسلّط وعنفوان الشباب وعزة النفس التي جُبِل عليها والنفور من الظلم الذي لازمه منذ الصغر والشعور بالإحباط وخيبة الأمل في مواعيد الحياة، كل ذلك تواطأ ليشعل نار التحدي في صدره،

ويسقط حاجز الهيبة التي كانت دائماً تحصِّن أحمد، فصاح محتجاً على تقريع أخيه:

- أنا مش هامل.

ردّ أحمد بغضب جارف:

- هامل ونص.. شو أكثر من هيك همالة، ولك إحنا طول عمرنا عايشين على سمعتنا، كنا عايشين على الكراديش، بس سمعتنا فوق الناس. وصار إلنا عمر وإحنا بنتعب وبنشقى وبنجاهد حتى نرفع مستوى العيلة. منشان نبني إشي إلنا ولأولادنا، تيجي حضرتك في يوم واحد وتهدم كل اللي بنيناه؟ وين بدي أحط راسي بين الناس، أنا اللي كنت فوق الجبال.. وأخوك علي هذا ما لحقنا نرفع راسنا فيه حتى جيت انت بهمالتك..

قاطعه حسن:

- أنا ما وسخت سمعتكم ولا عملت إشي أستحي منه.

- ما عملت إشي؟ يعني حكي الناس كله كذب في كذب؟

- أيوه..

- ولك الناس شافوك معها في الكروم والمقاثي.. وشافوك بتلفي على بيتها، ما ظل حدّ إلا لاك سمعتنا، ويا شماتك يا أبو عايد!

- بدخل بيتها بوجود أمها اللّي قد أمّي.

- ولك استحي ولا تقارن بينها وبين امك اللي طرف ثوبها بشرف مليون

وحدة من هالشكل.

- حرام عليك يا أبو صالح.. حرام تطعن في الناس.. خاف الله.

- أنا بخاف الله، بس انت خاف الله.

- أنا شو بعمل؟ ولايا مقطوعات ما وراهن حد، وأنا بقضي حوايجهن من باب المروءة اللي تعلمناها منك يا أبو صالح.

- هذي هيه المروءة التي علمتك إياها؟ ولايا ما وراهن حد، بتقول، ليش ما وراهن حد، هذول اللي قالوا فيهم (لو فيها خير ما رماه الطير).

- مش هذا اللي بقوا تقولوه عنا لما نقول لهم إحنا من حمولة السبعاوي؟

- ولك ما تظلك تقارن بينا وبينهم.. هسع فهمت ليش أهل جوز الحرمة زعلوا على زلمتهم لأنه أخذها من غير شورهم، وليش طردوها مع بنتها.. خلص، صارت واضحة.

- قولوا اللي بدكم تقوله.. آه بحبها.. بحبها.

هنا بلغ الغضب بأحمد مبلغاً عظيماً:

- اخرس. ولك استحي من اللي أكبر منك.. استحي من أمك اللي قاعدة تسمعك.

- ما كفرتش.. بحبها وبدّي أتجوزها.

- هذا بعد ما نموت كلنا.. وقتها دور على حلّ راسك، بس وإحنا عايشين..؟ ولك أصلاً كيف بتقبل واحدة بترضى على نفسها شاب يدخل عليها ويقعد معها يسمعها كلام الحب والمسخرة.. شو بتكون واحدة من هذا النوع؟

هنا صاح حسن بصوت أكثر ارتفاعاً وحدّة وتحدياً:

- لا تحكي هيك عن جميلة.. جميلة أشرف وحدة في هالبلد.

- تفوه عليك يا وسخ.

وبصق عليه.

مسح حسن البصقة بكُم قمبازه، ومسح معها كل روادع الصبر على أخيه:

- أنا وسخ؟ من ساعة وأنت قاعد تسب عليّ وعليها، وأنا متحمّل وصابر عشانك أخوي الكبير وطول عمري بحترمك وبقدرك. بس أنا مش مستعد أسمع كلمة ثانية منك ولا من غيرك. اعمل اللي بدك إياه. اتْبَرّا مني وانشرها في الجريدة.. أنا ما عدتش صغير تشدْني من ذاني وتبهدلني وتقل قيمتي.

وإذ هَمّ أن يمشي خارجاً، جذبه أحمد بعنف، فقاومه، وتدخّل الأب لأول مرة:

- استحي يا حسن.. هذا أخوك الكبير.. عمود العيلة.

صاح حسن بأسلوب شبه هستيري هذه المرّة، وهو يتفلّت من أخيه:

- أخوي الكبير. أخوي الكبير.. بس ما يعملش عليّ القائد أبو صالح، وهذي محكمة ثورة.. الثورة خلصت.

هنا فقد أحمد عقله، ودون تفكير صفع أخاه صفعة هائلة كادت تلقيه على ظهره. وسالَ الدم من طرف فمه، بينما أخذ أحمد يرتجف من شدة الانفعال وفورة الغضب وطائف الندم.

وأسرع حسن في طريق الخروج، حاول عليّ أن يستوقفه فأزاحه من طريقه بقوة وجفاء. وترك الآخرين وراءه ينتفضون من شدة ما شهدوا، وتختلط فيهم مشاعر الخوف والإشفاق والأسى والحيرة معاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجده أحمد وعليّ حيث توقعاه جالساً تحت شجرة الجميز عند ضريح «أبو نار». وقفا غير بعيد، وقد غابت عن وجه أحمد كل ملامح الغضب، وحلّت محلها ملامح العطف. تحاشى حسن النظر إليهما. ثم قال أحمد بنبرة هادئة:

- حسن!

بعد لحظة صمت، تحدّث حسن بصوت مشبع باليأس والأسى:

- خلص يا أبو صالح.. أنا عرّة العيلة.. وسخ العيلة.. اعتبرني إصبع خربانه وأنتَنَت - اقطعوها واتريحوا. اعتبروني متت.

تريّث لحظة، ثم استأنف بنبرة مفعمة بالحسرة:

- أنا متت من يوم ما ركّبت علي عالحمار وطلعت فيه لمدرسة عكا، وظليت أنا وراكم هون.

أمعن أحمد فيه النظر متفهماً متعاطفاً:

- اسمع يا حسن.. أنا عمري ما قلتها لحد يا خوي.. هسع بقول لك إياها.. أنا غلطت لما مدّيت إيدي عليك.. ما صحيت على حالي.. ما بعرف شو صار فييّ.. سامحني يا أخوي يا حسن.. سامحني.

مرت هنيهة صمت أخرى، وفجأة قام حسن من مكانه وأقبل على أخيه واحتضنه بحرارة، وقال بصوت متكسر يغالب البكاء:

- انت اللي سامحني يا خوي.. أنا اللي غلطت عليك.. سامحني يا خوي.. سايق عليك اسم الله تسامحني.. انت أبو العيلة وتاج راسها.

شدّ كل منهما الآخر إلى صدره، وهو يطوّقه بذراعيه. بينما لبث عليّ واقفاً في مكانه ينظر بحزن وتأثر بالغين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ثمة رجل واحد ضجّ فرحاً بالواقعة وخبر حسن وجميلة. أبو عايد بالطبع. أخيراً وقع واحد من دار صالح الشيخ يونس. الأتقياء الأنقياء. وكالعادة نهاه عايد عن التشفّي والوقوع في أعراض الناس. فردّ عليه بأن الناس هم الذين يوقعون أنفسهم في لسان الناس. فذكّره عايد بأن الغلط أنواع، وأنهم لا يضمنون أن يقابلوا وجه الله بصفحة بيضاء. وكان

يلمح إلى مظالم أبيه، الذي ردّ عليه بأنه قد يكون قد ارتكب أخطاء في حياته، وأنه لا يدّعي أنه خِلْو من الذنوب. ولكن.. ليس هذا النوع من الغلط. ثم علّق ضاحكاً متشفياً متهكماً:

- وين القايد أبو صالح هسّع، وإلّا الأستاذ الأفندي علي أبو العلوم!

أما عليّ، فحين انفرد بأخيه اعتذر له عن صمته وقد كان بوسعه أن يتدخّل ويخفف من حدة الموقف. ولكنه اعترف بأنه، مع ما بلغ من العمر والتعليم ما يزال يشعر أنه لا كلام له مع كلام أخيه الأكبر، ولعله كذلك لم يعرف ما الذي ينبغي أن يقوله في ظل الموقف، إذ إن مشاعره متوزعة بين التعاطف معه وتفهمه من جهة، وبين التحفظات التي ما تزال تقيم في نفسه، ولم تستطع العلوم والمعارف التي حصلها وتجارب الحياة التي عاشها في المدينة أن تتغلب عليها، من جهة أخرى. والحقيقة أنه لم يكن في هذا يبوح عن نفسه لأخيه، أكثر مما كان يبوح لنفسه!

وأخيراً قال حسن:

- أنا مش متأسف على أي كلمة قلتها عن جميلة وأمها.. بعدني على رأيي وشعوري - أنا بسّ تأسفت على الكلمة اللي طلعت مني بحق أبو صالح.. القايد والثورة اللي انتهت.

قال عليّ:

- انت ضربت على عصب مكشوف.. وجع عمره ما بشفى منه. بس أبو صالح قلبه طيب.. قلبه علينا كلنا.. والآن شو ناوي تعمل؟ ما بتقدر

تتحدى الدنيا كلها.. وأحياناً بتظهر قوة الإنسان في تحدّي رغباته أكثر من تحدي المجتمع حوله.. يعني لا بد من موازنة الأضرار والمنافع.. هذي قاعدة عامة.

اكتفى حسن بالإطراق شارداً متفكراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تدرِ أم جميلة ما الذي يحدث حولها، ولماذا توقفت النساء عن طلب عملها في الخياطة والتطريز، ولم يعد أصحاب الأراضي والمزارع يدعونها وابنتها للعمل في الحقول: القطف والتعشيب ونحو ذلك. وأين ذهب ذلك الشاب الشهم الذي كان يتطوّع بقضاء حاجاتها، فهو لم يطرق بابها منذ حين. وأشدّ من ذلك أنها إذا عبرت طريقاً تجنبت النساء إلقاء التحية عليها أو ردّها، وأشَحْنَ عنها وتباعدن عن طريقها. ما الذي تغيّر في هذه القرية. ولحظت أن ابنتها دائمة الشرود والتفكير. وحين شكت أمامها ما تلقى من تغيّر الناس، انفجرت جميلة ببكاء مرير. ربتت على كتفها وقالت مواسية:

- بس يمّة، تحرقيش قلبي.. الله ما بنسى عباده. بس لو أعرف شو اللي صاير.

ألم يقل لها يوماً: «لا تقولي أصلي وأصلك، لا تقولي الناس كلهم، قولي أنا وانت بسّ». ألم يعاهد الله أمامها أنه لن يتزوّج غيرها «والخاين الله يرديه»؟ فما باله قد انقطع عنها وغاب مرة واحدة؟ هل خان «زريف الطول» عهده فراح إلى الغربة «ليتملّك» هناك وينساها كما تخوفت الأغنية! خطر لها هذا كله وهي تقف بين الحقول حيث التقته غير مرة وسمعت كلامه العذب وشعره الجميل فيها! وهمّت أن تغني «زريف الطول» لعل ذلك يستدعيه من غيبته. ولكن صوتها لم يطاوعها.

هل يكون قد ألمّ به عارض من مرض؟ ذلك أدنى إلى تفسير غيابه. وحين

مرّ بها هذا الخاطر ضجّ قلبها خوفاً عليه، وكَفَّت الطيور عن الصداح، وشحبت أزهار الربيع.

كانت أم أحمد تجرش القمح على الطاحونة الصخرية اليدوية في حوش البيت تعينها خضرة، حين طرق الباب. كانت الزائرة جميلة.

- العواف يا أم أحمد.. العواف يا أم رشدي.

ردتا التحية دون حماس. وبدا الارتباك على خضرة، بينما اكتسى وجه أم أحمد بالعبوس. ولم تدعها إلى الجلوس، وتابعت عملها. بدا الحرج على وجه خضرة، ولكنها حملت نفسها على التصرّف بأسلوب عادي، وتقدمت إلى الداخل:

- لاقيت حالي ما فيش وراي شغل. قلت ألفي على خالتي أم أحمد أشوف إذا بدها أساعدها بشي.

أجابت أم أحمد دون أن تنظر إليها متشاغلة عنها بعملها:

- سلم إيديك. ما في شي.

- إذا بعدك ما خبزت يا خالتي أعطيني أخبزلك.

ردّت أم أحمد بجفاء:

- خَبَزنا.

استرقت جميلة بعض النظرات نحو باب البيت. ثم عادت تعرض خدماتها:

- طيب.. إذا بدّك أملّي لك ميّة من البير.

- ملينا ميّة. وأنا بعدني قوية، وهاي بنتي خضرة بتساعدني..

- الله يخليكِ دايماً قوية.

مرت لحظات صمت متوترة، قبل أن تسأل جميلة من جديد:

- بس إن شا الله كلكم بخير.. انت وأبو أحمد والشباب الله يخلّي لك إياهم ويفرحك بيهم.

زاد ضيق أم أحمد وبدا ذلك واضحاً عليها، فأجابت هذه المرة بنبرة أشد جفاءً وأكثر إيحاءً:

- كلهم بخير.. بس الله يبعد عنهم أولاد الحرام.. واحنا بخير.

توقف الكلام. وفي محاولة أخيرة اقتربت جميلة من أم أحمد ومدّت يدها نحو الطاحونة:

- هاتي عنك يا خالتي.

أزاحت أم أحمد يدها بغلظة وصدّتها بجفاء بالغ:

- لع يا اختي.. لما بعوزك بقول لك.

هنا لم يعد عند جميلة شك في أنها غير مرغوب بها هنا، ولم يبقَ إلا الطرد الصريح. غصّت بشعور المهانة، وتراجعت.

- طيب بخاطركم.

- الله معك.

وحين أغلقت الباب وراءها، نفخت أم أحمد:

- شو هالناس.. شو هالخلق؟

هنا فقط برز حسن من الداخل وقال محتجاً:

- يعني ضروري يمّه تعاميلها بهالطريقة وتكسري خاطرها؟

- وإيش بدك إياني أعمل لها؟ أفرش إلها الدار؟ هذي اللي بقيت متعلّق بيها؟ انت عارف شو اللي جابها.. وأنا شايفة عينيها وين رايحة.. بنت الناس لازم تكون زي الصخر.. زي حبة اللولو جوّه صدفتها.. الزلمة يتعب تايوخذها.. مش هيه ترمي حالها عليه؟

- طيب، بس بس.

وخرج من فوره، وأطبق الباب وراءه بعنف:

لبثت خضرة طوال الوقت صامتة تراقب.. وتتألم! وقالت:

- بعده متعلّق بيها.

- تتعلق مشنقتها إن شا الله.

بعد لحظة تردد، قالت خضرة:

- بدّك المزبوط.. ولله ما هان عليّ تورّيها الوجه الناشف.. خطيّة يمّه.

- الخطيّة إنها ما تصون نفسها.

- حرام يمّة.

- يحرم جلدها. لعبت بعقل الولد.

- ليش ما تقولي إنه هوه لعب بعقلها..

- الشباب طول عمرهم يجهلوا، وعينهم بتزوغ قبل ما يعقلوا.. بس اللوم على البنت اللي مش لازم تعطيهم وجه إذا كانت بنت أصل.

- يمّه اللي بسمعك بحسب إنها عملت عملة كبيرة.. هذا حرام.. الله بجازي عليه.

- صغيرة ولا كبيرة.. البنت زي الثوب الأبيض، نقطة صغيرة بتبيّن عليه.

- بنت صغيرة وما شافت يوم بعمرها.. وبعدين لقيت شاب عليه القيمة زي حسن بهتم فيها وبسمّعها كلام حلو ما تعوّدت عليه.

صاحت بها أم أحمد:

- انت دايرة على أخوك والا عليها.

- لا على أخوي ولا عليها. بس شفقانة.. مش بيدي.. شو أعمل؟

- اسكتي ودوْري على خرّاف ثاني.

ما كانت أم أحمد لتدرك أن حبّ العبد المقيم في صدر خضرة -العبد الذي ما زال حياً في مخيلتها وأحلامها- جعلها أكثر تفهماً وعطفاً على جميلة من الجميع. فإذا كان الحب في ذاته خطيئة، فقد لبثت سنين

تحبه بصمت قبل زواجها. وكانت تستشعر أنه يحبها كذلك.. بصمت أيضاً، إلا من حوار النظرات المبتورة الخاطفة.. وقد تقول هذه النظرات أكثر مما يقول الكلام المنطوق. على أنها كانت تكلّمه في سرّها وخيالها المكتوم بكلام ربما كان أوضح مما يمكن أن يكون حسن وجميلة قد تبادلاه مسموعاً. وكان عليها أن تنتظر حتى صارت زوجته، لتبوح له بما كانت تقوله له في نفسها قبل ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما لم يكشفه الكبار لجميلة وأمّها، كشفه الصبيان الصغار مما سمعوا من أمهاتهم وآبائهم.

فحين كانت تمشي عائدة إلى بيتها تحمل جرّة الماء على رأسها، رأتهم يتغامزون ويتداعون، ثم يتهامسون. وما لبث الهمس أن أصبح مسموعاً:

- حسن.. حسن.. حسن.

وما هي حتى تحوّل الموقف إلى ما يشبه «الزفة»، وأخذ الصبيان يتراكضون ويحومون حولها ويتبعونها ويرددون بصوت جماعي:

- حسن.. حسن.. حسن..

أخذت تدور في مكانها مضطربة:

- روح وله انت وإيّاه.. الله يقطع لساناتكم.

ثم قادهم أحدهم إلى نشيد موحّد:

«حسن وجميلة

سيرتهم طويلة

حسن وجميلة

سيرتهم طويلة».

انهمرت دموعها.. وتعاقب الصبيان على دقّها وشدّ طرف ثوبها.. ثم ازداد الصبيان جرأة وقذفها بعضهم بالحجارة.. ودفعها آخر، حتى سقطت الجرّة عن رأسها وانكسرت واندلق الماء، ونزلت على ركبتيها تبكي.. وفجأة سُمِع صوت عليّ مهرولاً نحوها ويصيح بالصبيان:

- ياللّا وَلَه انت وإياه.. ياللّا..

تفرّق الصبيان، واقترب عليّ منها وهي ما تزال منكبة على الأرض تواصل البكاء، وقد انزاحت خرقتها عن شعرها. نظر إليها بعطف، بينما رفعت رأسها تنظر إليه بعينيها الدامعتين. وبدون تفكير، وجد نفسه يمدّ إليها يده ليساعدها على النهوض. وفي اللحظة التي مدّت يدها أيضاً بدا متردداً وسحب يده، وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً خشية أن يكون هناك من يرى ويراقب. ثم تحاملت خضرة على نفسها وقامت دون مساعدة. رمقها للحظة قصيرة، قبل أن يشيح ويبدأ في الابتعاد، ومضت هي في طريقها، تتعثّر في مشيتها.

تغلبت مشاعر الرحمة والتعاطف على كل اعتبار آخر في نفسه. وبدا شديد الحزن وهو يقص الخبر في البيت. وقالت الأم:

- أولاد صغار.. جُهّال يمّه.

قال:

- بس أبْوتهم وأمياتهم مش جُهّال. شو الناس؟ قلوبها حجر! هذي روح.. نفس.. لحم ودم.. حرام هيك.. والله حرام.

فجأة اندفع حسن خارجاً دون أن يقول شيئاً، ولحقه عليّ وأدركه أمام الباب وشدّه من كتفه يستوقفه فقال حسن:

- اتركني يا علي.. أنا صبّرت نفسي كثير ومش طالع بيدي.. أنا مش نذل، وقلبي مش حجر.

- أسوأ شي بتعمله الآن إنك تروح لبيتها. أنا ما حكيت اللي شفته إلا منشان تتركها لحالها إلى الأبد وتحميها من كلام الناس.

- ما أنا قطعت رجلي عنهم من وقت. وقف كلام الناس؟ خلص، اللي صار صار.. وما ظل غير طريقة وحدة ممكن تحل المشكلة.

وجذب نفسه وتابع طريقه بخطى سريعة.

كانت تجلس باكية في الركن حين دخل حسن واستقبلته الأم. ونقل بصره بينها بين أمها ، وشرحت الأم:

- طلعت تملي الجرّة، ورجعت زي ما انت شايف.. بتقول الجرّة وقعت وانكسرت، وأنا بقول لها: عمرها الجرّة.. اقعد يا خوي.. والله ما أني عارفة شو اللي قاعد بصير إلنا. زيّ اللي حد ضربنا بالعين أو عمل إلنا

عمل. وانت يا حسن ما طليت علينا من وقت.. إن شا الله خير.

- خير إن شا الله.

تردد لحظة ثم استأنف:

- اسمعي يا خالتي.. أنا بالعربي الفصيح بدّي جميلة.. برعاها وبرعاك وبحطكم الثنتين في عينيّ.

رفعت جميلة رأسها وقد فاجأها الكلام كما فاجأ أمها. التفتت الأم إليها ثم عادت تنظر إلى حسن:

- والله يا ابن أختي شو بدّي أقول.. عمري ما بلاقي لجميلة أحسن منك. جيب أبوك وإمك وإخوتك.. وأهلاً وسهلاً..

أطرق حسن لحظة، ثم قال:

- يا خالتي.. اعتبريني زي جميلة.. ما ليش أهل.

تنبهّت ملامح أم جميلة وأخذت تتفحصه:

- قصدك أهلك مش موافقين؟

اكتفى بالصمت والإطراق.. فقالت بنبرة حازمة:

- اسمع يا خوي.. إحنا صحيح ما فيش ورانا حد. بس بنتي ما بتتجوز إلا زي البنات الثانيات، بشورة أهل العريس ورايهم ورضاهم. ما بعرّضش بنتي للي اتعرضت إله أنا.. والا ليش إحنا مقطوعات ومرميات والناس

بلطشوا فينا؟ وهذا آخر الحكي.

عاد حسن إلى أهله وبادرهم بطلبه دون تردد وقال:

- بالمليحة بالعاطلة بدّي إياها. عاد هوّنوا الموضوع عليّ وعليكم واخطبوا لي إياها من أمها. ولا تقولوا لي كاني ولا ماني.. واسمعوني مليح: والله إذا ما خطبتوا لي إياها لأهجّ أنا وإياها من هالبلد واتجوزها بغير رايكم. وعمركم ما تشوفوا وجهي.. اعتبروا كان إلكم ابن اسمه حسن وراح.

نفخ أبو أحمد وحوقل، والتفت إلى عليّ:

- سامع خرّاف أخوك يا عليّ؟ احكي لك كلمة معه، هدّيه وعقْله..

أسرع حسن مخاطباً أخاه:

- آه يا أستاذ.. احكي لأبوك.. فهمه.. انت أبو العلوم والمفهومية.

ولكن عليّاً آثر الصمت وبدت عليه الحيرة.

تدخّلت الأم قائلة:

- وإيش بتكون البنت اللي بترضى تهجّ مع واحد من غير شور أهله؟

أجاب حسن:

- بتكون مرتي بشرع الله. وإذا ما قبلت تهج معي، بهجّ لحالي. عاد فكروا وشوفوا رايكم..

وخرج بسرعة، مخلِّفاً إياهم في حال من الذهول والغمّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قامت أم جميلة على طرق الباب، وكان المختار هناك:

- العواف يا مختار.. طلّه عزيزة. أمِر؟

أجاب بنبرة غاضبة وبلا مقدمات:

- ظبّي اغراضك يا حرمه واطلعي انت وبنتك من البلد.

تحوّلت صدمتها إلى غضب وتحدٍّ:

- ليش يا خوي، أنا قاعدة في بيتك؟

- قاعدة في بلدنا.. وأنا مختار البلد.

- والله لما تكون البلد مطوّبة على اسمك بطلع منها.. غير هيك اتوكل على الله وروح شوف لك زلمة تتمرجل عليه. عندك الإنكليز واليهود أوْلى بمراجلك.

وصفقت الباب في وجهه. فجاء صوته من وراء الباب:

- بتسكري الباب بوجهي يا قليلة الحيا. وبترفعي صوتك على صوت سيدك يا خنزيرة الشيب؟

فُتِح الباب بسرعة من جديد، وظهرت أم جميلة وبيدها قضيب حطب وهي تصرخ في وجهه بانفعال عارم:

- أنا خنزيرة الشيب يا غاير يا عديم الرجولة!

وأهوت عليه بالقضيب وقد فقدت أعصابها، وحاول تجنبها ما استطاع وهي تتابع التلويح بالعصا، حتى بدأ الناس بالتجمّع والمراقبة.

وحين ارتدت إلى داخل، وجدت جميلة واقفة ترتجف كطائر مذعور. وقالت الأم وهي تلهث:

- والله لأنعل أبو أحسن زلمة في هالبلد. خلصنا من الغايرين قرايبك، أجينا لهالمختار النذل؟ شو صاير بالزلام؟ ما ظلّش إنكليز ويهود يتمرجلوا عليهم تايتمرجلوا على بنت وأمها.. بس أنا بورّيهم.. والله ما بطلع على موتي.. يا قاتلة يا مقتولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قابله أبو عايد بالضحك وقد بلغه خبره مع أم جميلة. وقال المختار:

- الحرمة لما يطق فيها عرق الحيا، ما فيه أعطل منها. والواحد بعيبها على حاله أنه يمدّ إيده عليها ويضربها.

قال أبو عايد:

- طب شو بدك تعمل هسّع؟ رايح تخلّيها تكسر كلمتك قدام الناس؟

- فشر! والله ما بظلني مختار إذا ما طردتها مع بنتها.. فيه ألف طريقة وطريقة.

بعد لحظة تدبّر وتفكير، رفع أبو عايد رأسه وقال وقد اكتست نظراته

بالغموض:

- فيه طريقة وحدة بسّ.

تفحّصه المختار مستطلعاً. وتابع أبو عايد:

- إذا عملت إلها إشي، بتروح بتتشكى عليك، والمحاكم بتدور معها.. شو بدّك تثبت عليها؟

سأل المختار وقد نفد صبره:

- خلّصني، قول.. شو عندك؟

أجاب أبو عايد:

- اللي طلّعها من بلدها، بطلّعها من عندنا. قرايب البنت.

ثم نظر إلى المختار، واستأنف:

- الشرف يا مختار.. الشرف.. بتظل البنت محسوبة عليهم، وعرضها عرضهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرّة قرّر حسن أن يذهب بنفسه إلى حيفا ليتحدث مع أخيه الأكبر. وكانت ردة فعل أحمد الأولى الاستنكار، فقد كان يظنّ أن الأمر قد انتهى وعاد حسن إلى عقله ورأي أهله. وتحدّث حسن بهدوء تام:

- بدّي أسألك يا خوي يا أبو صالح. انت ليش جاهدت في الثورة؟

- شو هالسؤال؟

- ضد الإنكليز واليهود.. يعني ضد الظلم.. والظلم أنواع يا أبو صالح.. والزلمة الحرّ اللي زيك ما برضى بالظلم من أي نوع ولا من أي جهة. قبل الثورة انت واجهت ظلم أبو عايد، بعدين ظلم أبو عزمي، وتحمّلت اللي تحملته.. وهاذي البنت وأمها مظلومات.. أهل البنت ظلموها مع أمها وطرودهن من بلدهم. وأهل البلد عندنا ظلموهن.. ما بنكر قلبي مال للبنت قبل ما أعرف قصتها، بس لما عرفت وقفت معها ومع أمها بداعي الشهامة والمروءة اللي تعلمناها منك. واتذكرت كيف إحنا كنا مظلومين وفينا رجال، ولوماك كان رحنا تحت الرجلين.. إيش حال ولايا ثنتين.. تصوّر لو كانت إمي وخضرة بدون زلام زيك.. وَحَدَّ الله يا خوي بيني وبين الحرام.. وطول عمرها نسوان الفلاحين بسلمن وبفتحن الباب وبهلّلن بالضيف وبشتغلن مع الزلام. وهسّع زاد الظلم عليهن.. برموا أحجار على بابهن ولا حدّ بشَغْلهِن. يعني لوما صرت أرميلهن صرّة الخبز من فوق الحيط وما بتجرّأ أدق الباب عليهن. عارف ليش يا أبو صالح؟ لأنه عندهن كرامة.. والأم بصراحة طردتني، لما وصلت معي إني كنت

مستعد أتجوزها بدون شوركم.. بس الأم طردتني وقالت لا تعود إلا مع أبوك وإخوتك وأهلك وكل وجها البلد.

كان أحمد يصغي صامتاً متفكّراً وقد لانت ملامح وجهه. وحين عاد مع حسن إلى القرية كان قد تغيّر قلبه. وقال لأبيه:

- أهون الشرّين يابا.. أهون الشرّين.

قال أبو أحمد:

- بعد كل اللي صار؟ شو بدها الناس تقول؟ شو بده يقول المختار وأبو عايد؟

أجاب أحمد:

- يروح أبو عايد والمختار يضربوا روسهم بألف حيط. ما عدنا نحتاج لفرمان منهم يعلمنا الصح والغلط.. راحت هذيك الأيام.. هسّع همّه اللي لازم يحسبوا...

توقف إذ انفتح باب الحوش دون طرق أو استئذان، واندفعت أم جميلة صارخة مذعورة تلطم خديها:

- طنيب عليكم يا أهل الدار.. طنيب عليكم.. أنا موجهة على الله وبعدين عليكم..

نهض الجميع، وصاح حسن:

- إيش يا خالتي؟

- جميلة يا خوي.. جميلة.. دخيلك يا أبو صالح.. هات إيدك أحبها.

وأخذت بيده تقبّلها، فسحبها من الفور، وصاح حسن من جديد وقد أخذ الخوف بمجامعه:

- قولي يا خالتي منشان الله.. مالها جميلة.

- أخذوها.. أخذوها.. ولاد عمّها.. والشرّ بعينيهم.. ضربوني وشدوها من شعرها وأخذوها.

وانهارت إلى الأرض تبكي وتضرب على رأسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان أحد ولدي عمها يجرها من شعرها بقسوة بالغة، كانت تتوسّل باكية مذعورة:

- دخيلك يا ابن عمي..

- اسكتي يا فاجرة.

ثم ألقاها إلى الأرض، وسلّ مسدسه، وهي تتوسّل:

- لا.. دخيلك.. وحق الله ما وسّخت عرضكم.. تقتلنيش يا ابن عمي.

وإذ صوّب المسدس إلى رأسها، سُمِعت طلقة مدوّية من مكان آخر قريب. فتوقف الرجل ونظر. كان أحمد يقف بين إخوته: مسعود، وحسن وعليّ، وبيده بندقيته يسدد بها نحو الرجلين بعد أن أطلق رصاصة تحذير في الهواء. وهَمّ حسن أن يركض نحو جميلة، ولكن أحمد

جذبه إلى الوراء، وصاح في الرجل الذي يحمل المسدس:

- ارم الفرد اللي في إيدك.

صاح الرجل:

- ومين أنت؟

أجاب أحمد:

- أبو صالح.. القايد أبو صالح. قلت لك ارم الفرد والا بحط الطلق بين عينيك.

بعد لحظة صمت متوترة، أسقط الرجل مسدسه. وصاح من مكانه:

- القايد أبو صالح كان أيام الثورة. وكان يحارب الإنكليز واليهود. وشو بدخله هسّع بين بنت دارت على حلّ شعرها وبين أهلها؟

ردّ أبو صالح:

- اللّي بطردوا الناس من بيوتها وبحرموهم من حقوقهم مش أهل، إنكليز كانوا والا يهود ولا عرب.. أنا اليوم أهل جميلة، من يوم ما صارت خطيبة أخوي.. والقايد أبو صالح ما بخطب لأخوه وحدة دايرة على حلّ شعرها.. ياللّا هسّع، وروني عرض اكتافكم وأوعوا عمركم تخبطوا في هالبلد.. المرة الجاي مش رايح أضرب في الهوا.. ياللّا يا جميلة.. تعالي عندي، وأنا أخوك وأبوك.

رفعت جسمها عن الأرض تنفض ثوبها وترفع الخمار على رأسها، ثم

مشت متعثرة إلى حيث أحمد وإخوته، وجسمها ما يزال ينتفض من أثر الخوف.

ألقى أحمد نظرة أخيرة نحو الرجلين.. ثم ارتد راجعاً مع جميلة وإخوته. وما أن مشوا خطوات حتى انطلق عيار ناري، وسقطت جميلة على الأرض وقد اخترقت الرصاصة ظهرها..

صاح حسن صيحة مروعة وقد انكبّ عليها يهزّها. ولكنها كانت قد فارقت الحياة. وبدون وعي حاول أن ينتزع من أخيه بندقيته ليطلق النار على القاتل.. ولكن أحمد جذبها عنه. قُضي الأمر.. ولا جدوى الآن من أي ردة فعل، إلا المزيد من المصائب.

وكان عدد من أهل القرية قد برزوا عن بُعد ينظرون.. وبدوا كأشباح خارجة من المقابر.. يعمهم صمت الموت.. ويُغَلّفهم ضباب الفجيعة، ويتنازعهم الشعور بالذنب.

فعلى الرغم من كل الاتهامات والإشاعات الظالمة التي شارك معظمهم فيها، فقد تغلّب عليهم الحزن والندم، لا سيما بعد أن جاء تقرير الطبيب الشرعي يؤكد عذرية البنت. وحتى أبو عايد الذي اقترح التوصّل إلى أهل جميلة، شعر بغصّة موجعة واعتزل الخروج أياماً.

وزاده لوم ولده عايد أسفاً على أسف، وضيقاً على ضيق.

- مبسوط يابا.. ارتاح بالك.. طلّعت الإنكليز واليهود من بلادنا؟ أزهقتوا روح بعمر الزهور..

- أنا قلت الهم يقتلوها؟ كان فكري..

قاطعه عايد:

- كان فكرك إيش؟ يوخذوها عندهم ويديروا بالهم عليها؟ من اليوم بدك تحمل خطيّتها للأبد.. انت ومختار البين.

- خلص يابا.. خلص.. الله أعلم شو اللي بقلبي..

إذ خرج عايد، نزع أبوه كوفيته وقذفها جانباً، ووضع رأسه بين يديه.

كلٌّ حمل نصيبه من الندم والشعور بالذنب. وأكثرهم في ذلك أسرة الشيخ يونس كلها. فهيمن عليهم الصمت، وانصرفت نفوسهم عن الطعام، حتى قال أحمد:

- لو إنّا وافقنا من أول يوم على الجيزة، كان بعدها عايشة. عمري ما بسامح نفسي.. أنا شاركت في قتلها.

قالت أم أحمد مواسية:

- يمّه المكتوب عالجبين لازم تشوفه العين.. نصيبها.

أجاب:

- مين اللي قرّر مصيرها يمّه.. أبو عايد والمختار؟ قرايبها والناس اللي بتفتري على الناس؟ لا اعتراض على حكم الله.. بس الاعتراض على حكم الناس. شو نقول عن حالنا مع الإنكليز واليهود؟ برضه نصيبنا؟ يا رب غفرانك.

أما حسن فاختار أن يدفنها في أرض العائلة عند شجرة زيتون. ووقف أمام القبر يطيل النظر، وإلى جانبه أخوه عليّ الذي توزّع حزنه بين جميلة وبين أخيه المفجوع. وكاد يكره نفسه لأنه تردد في دعمه منذ أول لحظة. وأثبتت له القصة كلها أن أخاه حسن ما زال الأكثر شجاعة ومروءة ونبلاً، وأن التفكر في أسئلة الكتب، قد يصرف الإنسان عن القراءة في كتاب الحياة.. وهو ما يتقنه حسن أكثر منه! وحين سأل أخاه عن قراره دفنها في ذلك المكان، بدلاً من مقبرة البلد، قال حسن وهو يتأمّل في قبرها:

- ما بدّي يجاوروها الناس اللي ظلموها وسببوا قتلها.. ما قبلوها وهي عايشة، هسّع دورها ما تقبلهم وهي ميتة. أنا قبلتها من أول يوم وسكّنتها في قلبي، وأرضنا أوْلى فيها.. من اليوم وطالع، هذي الزيتونة حصّة جميلة.. وقف إلها.. ما حدّ يمدّ إيده عليها منا، إلا للفقراء والمساكين والغربيّة والمقطوعين.

تريث لحظة، ثم استأنف بصوت يكاد أن يغلبه البكاء:

- بلكي على الله تسامحني.. لوماي..

واختنق صوته.. ربّت عليّ على ظهره:

- لا تقول هيك.. شو أقول أنا؟

ثم طوّقه بذراعيه ومضى به مبتعدَيْن..

ولسوف يلبث الناس يمرّون بذلك القبر، تحت تلك الزيتونة التي حفر

حسن عليها اسم جميلة. ولسوف يخبر الكبير الصغير، والعارف الجاهل. ومع الزمن تتدخّل الأسطورة كالعادة، لتروي قصتها.. أو قصصها المختلفة باختلاف الرواة وخيالاتهم.

أما أم جميلة فقد اختفت فجأة من القرية، وحلّت مكانها حكايات مختلفة تتحدث عن مصيرها. فمن قائل إنها فقدت عقلها وساحت في أرض الله على غير هدى، ومِن قائل إنها «طشّت» بين الجبال والوديان حتى حررها الموت من كسرة القلب والجوع والعطش، ومن قائل إن الضباع لا بد أن تكون قد افترستها وهي تطوف في البراري ليلاً كما فعلت كثيراً. ولا تُذكَر قصص المواجهة الليلية مع الضباع إلا لحقها الكلام عن طريقة الضباع في الافتراس، إذ تبدأ بإطلاق رشاش بولها على الضحية، فإذا أصابتها صارت الضحية كالمسحور. وأخذت تلحق الضبع وتناديه: «يابا» أو «يمّا» حتى تستدرجه الضبع إلى وجْرها، وهناك تفترسه على راحتها بلا منافس من الضواري! وليس من الضروري أن يكون ثمة شهود.. فالشاهد هو المخيلة والحكايات المأثورة الموروثة.

في جوف الأرض أو في جوف الوحش، وداعاً أيها العالم القاسي الأكثر توحّشاً من الضباع، والذي يمكن أن تكون فيه الضحية جلاداً والمظلوم ظالماً في آن!



(مدرسة في وقف الوليّ)

١٩٤٦

حين أكمل عليّ دراسته في الكلية العربية بالقدس، كان يأمل، في ضوء نتائجه الفائقة، أن يعيَّن في مدرسة مرموقة في إحدى مدن فلسطين. وقد توسّط له في ذلك أبو أكرم، بناءً على طلب «أبو صالح»، ولكنه أخفق في محاولاته، فعُيِّن مدرساً في قريته لأربعة صفوف في البدء، مع السماح بتوسيع المدرسة لتشمل ستة صفوف مع الزمن، لخدمة أبناء القرية وما يجاورها من القرى الصغيرة. فإذا كان ذلك أمدّوه بمدرّس آخر أو اثنين تحت إشرافه. والشرط أن يتولّى أهل القرية تكاليف تلك التوسعة. وكانت حجة المعارف في تعيينه هناك أن على اللامعين الذين تأهّلوا لمهنة التدريس من أهل الريف أن يسهموا في تطوير مناطقهم الريفية قبل أن يصار إلى نقلهم إلى مدارس أخرى في المدن. على أن أبا أكرم وعد أن يتابع جهوده ما وسعه ذلك، وكان راغباً حقاً في خدمة أبي صالح الذي لم ينسَ له مأثرته في تبييض صفحة ولده الشهيد.

وقد آن الآن أوان التوسعة. وأبدى وجهاء القرية وعلى رأسهم المختار حماساً بالغاً. فمستوى المدرسة يرفع من مستوى القرية في محيطها. كما أن الإقبال على تعليم الأبناء قد تزايد على نحو ملحوظ في الأعوام الأخيرة، مع تعاظم قيمة التعليم بين الناس. كما أن زيادة الصفوف يوفر على الآباء الراغبين نفقات الدراسة والإقامة في المدينة. واستيعاب المدرسة لتلاميذ من القرى المجاورة يزيد من تزاحم الأقدام فيها، ومن

شأن ذلك أن ينعش بعض أعمال التجارة والصنائع البسيطة في القرية. كل هذا يقتضي الآن بناء مدرسة جديدة في مكان مناسب.

وبادر المختار إلى التبرّع بقطعة من أراضيه لهذا الغرض.

ولكن «علي» كان في ذهنه رأي آخر. فاعترض بأن المصلحة تقتضي ألا تُبنى المدرسة في أرض زراعية خصبة، لا يستفيد منها صاحبها فقط، وإنما يتعيّش منها آخرون ممن يعملون فيها. والمدرسة ليس مجرد بناء وغرف، إنما ينبغي أن تحيط بها ساحة للتلاميذ، ويكون فيها مرحاض واحد على الأقل، وربما ملعب صغير في المستقبل. كما أن العمل في المزارع المحيطة بها يشوِّش على التلاميذ. ومن جهة أخرى، يحسن أن يكون موقع المدرسة مناسباً للتلاميذ الذين سوف يسعون إلى المدرسة مشياً كل يوم من القرى المجاورة.

إذن، أين؟

لم يكن المختار والوجهاء الحاضرون مستعدّين للمفاجأة الصادمة حين اقترح عليّ أن يكون الموقع في وقف «أبو نار».. الولي أبو نار.

كان أبو عايد كالعادة أول المعترضين وأعلاهم صوتاً: وقف أبو نار؟ كيف يدعوهم للتعدّي على حقوق الوليّ قدّس الله سرّه؟

وعلا لغط الحاضرين يؤيدون أبا عايد، ويستنكرون رأي عليّ أشد الاستنكار.

كتم عليّ غيظه، وحاول استعمال العقل والمنطق لإقناع القوم. فذكّرهم

بما كانوا يقولونه قبل قليل عن أهمية التعليم، بل قداسته. ومنهم من ذكّر بقوله الله تعالى: ﴿اقرأ﴾ دليلاً قاطعاً على أن العلم من الدين.

لم يُقدِّر عليّ مدى حساسية الموضوع في نفوس القوم وعنادهم فيه. وردّ أبو عايد بأنهم ما زالوا عند أقوالهم، ولكن لا ينبغي أن يغفل أحد عن قدر «أبو نار» ووقفه المنذور له منذ زمن لا يذكرونه. ولم يتردد في التحذير من عواقب التعدّي على حرم الوليّ، فقد تنهدم المدرسة على رؤوس من فيها. فذاك أبو نار. وبالطبع ذكّر عليّاً بالقصة التي ألحقت بالولي كنيته: أبو نار، حين غاضبه أهل القرية في ذلك الزمن وسخروا من كراماته، فصاح من مكانه الذي يوجد الآن فيه ضريحه وهو يشير إلى القرية: نار. فاشتعلت النار بغلال البيادر. وعندئذٍ فقط صدقوه وسلّموا له وأحاطوه بالتجبيل والاحترام والتبرّك الذي يليق به. وما كان لعليّ أن يسكت عن هذه الأوهام، وشعر بأنه يخون بذلك نفسه في المقام الأول ويزري بكل ما حصّله من العلم، فقال:

- يا جماعة.. هذي خرافة.. أسطورة.

ارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار من جديد، وتابع عليّ:

- حدّ منكم شهد هذه القصة؟

وكيف يشهدها أي منهم، وقد وقعت -حسب الرواية- منذ مائة سنة أو أكثر؟ ولكن، هل يعني ذلك أن يُكذِّبوا آباءهم وأجدادهم وقد تواترت الحكاية منهم، ولم يجادل فيها أحد حتى الآن؟

ولماذا بُنِي للرجل هذا الضريح المغطّى بشرشف أخضر مطرّز بآيات من القرآن؟ ولماذا ما زال الناس منذ دهر يتكلفون تنظيف المكان وإضاءته بالمصابيح وإعادة دهنه وترميم خرابه، على ما فيهم من خَصاصة؟

ردّ عليّ:

- أنا ما بقول إنه الناس اللي سبقونا تقصدوا الكذب. بس.. بكون فيه أصل للقصة.. شي صار.. ومن واحد للثاني، ومن جيل لجيل بتتضخم القصة.. والناس بتتوهّم.. وبتحب حديث الكرامات الغريبة.

ثم شرح لهم بأن الأولياء الصالحين يدعون الناس إلى الهداية، وصالح الأعمال وتقوى الله، ويعلِّمونهم الأذكار، وينوّرونهم في أحكام الدين. ويدعون لهم لا عليهم بأن تشبّ في بيوتهم النار، انتصاراً لأنفسهم وانتقاماً. أين هذا من سيرة الرسول ﷺ حين اشتد به الأذى من الناس، وحين عرض عليه جبريل أن يطبق عليهم الجبلين، قال: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»، وأيهما ينبغي أن يكون أسوتنا؟ ثم تلا علي قول الله تعالى عن النبي: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، وقوله سبحانه: ﴿فبما رحمةٍ من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

لم يملكوا إلا القول: صدق الله العظيم..

ومع ذلك لم يصدُقْ عليّ! وثمة مخارج من حججه، فالرسول كان معه

الوحي، وكان يعلم أن الله سينصره في آخر الأمر. واستدرك عليّ وهو يرى القوم ينهضون للخروج احتجاجاً:

- يا جماعة اسمعوني.. أنا ما بقول إنه أبو نار مش رجل صالح.. يا سيدي وولي كمان.. بس أنا بنكر الرواية عنه.. يعني بدافع عنه.

ولم يتم عبارته الأخيرة، حتى وجد نفسه يقف وحيداً.

ما لم يُتَح لعليّ أن يتمه من الكلام، أتمّه عنه عايد حين قصّ أبوه عليه خبر الأستاذ علي صالح الشيخ يونس؛ منهياً كلامه بتعميم السخط على عائلة الشيخ يونس التي لا يفتأ أحد أفرادها يطلع عليهم «بفنّة» جديدة، وكأنهم من طينة أخرى غير طينة الناس.

- خرافة! قال خرافة. كرامات أبو نار خرافة! اسمع يا سيدي.

قال عايد:

- سيدنا أبو نار ميت وشبعان موت.. وإيش إله كرامات جديدة.

- كراماته القديمة.

- أما غريبة هالكرامة.. حرق البلد. هذي نقمة مش كرامة! وإذا كانت هذي كرامة الله يرزقنا بمية واحد زيّه يدعو على الإنكليز ويحرقوهم عن بكرة أبيهم.. هذول مزعلين الناس حقيقي!

لم تخف نبرة التهكم في كلامه، فنهره أبوه مستنكراً:

- يعني بتتمسخر؟ شايف لهجتك صايرة زي لهجة ابن الشيخ يونس؟

لم يمنع ذلك «عايد» من الاستمرار في التهكم:

- وأرضِ أبو نار، فكرك أبو نار بفلحها وبوكل منها؟

- طب سدّ ثمك، بدك تورطنا معه. ترى بسمع وبوصله الحكي.

- وهوّه ميت؟! ما شاء الله.. ما شاء الله.

ثم تحوّل إلى الجدّ وأسلوب المواجهة المباشرة:

- يعني خايف من غضب الله إذا بنينا مدرسة في وقف أبو نار، وما خفت الله لما بهذاك الوقت حرقت غلّة الجماعة، واعتديت على شجرهم، وسمّيت حمارهم.. وفي الأخير سببت موت المسكينة جميلة وهجّجت أمها؟

- ولك شو صاير لك؟ بتوقف مع علي اليونس ضد أبوك؟

- ضد الغلط يابا.. ضد الغلط. ومع الحق والمصلحة والعقل.. ولما بنصحك بالصحيح يابا، بكون داير معك مش ضدك. سمعت حديث الرسول ﷺ: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.. قالوا له: مظلوم وعرفنا ليش، والظالم كيف ننصره؟ قال: لما بتمنعوه من أنه يظلم..

- إي والله.. آخر زمن.. صار الولد بده يربّي أبوه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كان عايد قد انحاز للأستاذ عليّ على رأي أبيه فالمفارقة أن «أبو أحمد» كان أمْيَل إلى رأي أبي عايد! وكان على عليّ أن يعيد عليه حجج

الدين والعقل التي ساقها للقوم، مؤكداً أن هذا ضرب من الشرك. وقال أبو أحمد محتجاً:

- يعني كل الناس اللي بقدسوا أبو نار صاروا مشركين! وأنا كمان مشرك؟ اللي بحب الله بحب أولياؤه وبتقرّب لله فيهم.

ثم زاد ما نسي أبو عايد التذكير به:

- شجرة اللوز اللي قدّام قبره..

- قصدك اللي بوكل منها ببطّل يجيب أولاد لأنها حصة أبو نار!!

- هاذي معروفة..

فجأة سُمِع صوت حسن يضحك بقوة، فالتفت الجميع إليه وقال:

- هاذي راحت عليّ.. ترى أكلت منها بحياتي حتى انفزرت.

ضرب الأب كفاً بكف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

وتابع حسن:

- وبعرف ناس أكلوا منها، وهسّع صار إلهم عر أولاد. وهذي الكرامة الوحيدة اللي بعترف فيها لأبو نار.

وعاد يضحك، وتابعه عليّ في ضحكه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مسعود قد افتتح دكاناً صغيراً للنجارة.. وكان ماهراً بيده وله شغف بهذه المهنة. فقرر أن يجمع بينها وبين عمله في الفلاحة. وقرّر أنه لا يوجد نجار في القرية وما حولها. وبالطبع لم تكن أعمال النجارة المطلوبة في تلك البيئة بالأمر الذي يحتاج إلى الكثير: كراسٍ وصناديق لحفظ بعض المتاع وخزائن بسيطة لحفظ الطعام التي تسمّى «نمليّة» وأبواب خشبية وأعواد المحاريث والعصيّ المشذبة، ونحو ذلك. وقد درّ عليه عمله هذا دخلاً لا بأس به. وفي هذه الأثناء فإن مسعود الطموح الذي يعرف أكثر من غيره كيف يطوّر نفسه وأحواله حتى في أضيق الظروف والإمكانات، اكتشف متعة القراءة والمعرفة في كتب أخيه عليّ والروايات والمجلات التي يحرص على جمعها وشرائها كلما نزل حيفا أو يافا أو القدس. وفتن بمجلة الرسالة المصرية على وجه خاص، فكان لا يترك مقالة فيها إلا وقرأها. ثم صار يلح على أخيه أن يأتي بالمزيد. وقد توسعت آفاقه بكل ذلك وتغيّرت حتى اللغة التي يتحدث بها. وجد صعوبة في فهم الكثير مما يقرأ في بادئ الأمر، ثم توسع فهمه حتى صار يستوعب الكثير منه. وما يستعصي عليه يراجع فيه أخاه علياً. وقد وجد في العقّاد مصدر إلهام حين عرف أنه لم يدرس غير بضعة صفوف. ومع ذلك شغل الدنيا بعبقريته. لم يكن ليطمح أن يبلغ ما بلغه العقاد ولا أن يكون كاتباً. حسبه أن يستدرك على نفسه ما فاته من المدرسة، وأن يحمله الكتاب إلى آفاق أخرى أبعد من قريته. فالآن يغتني عقله بأسماء غير أسماء أبي عايد والمختار وأبو حسين وأبو خضر والمثقاة ولوح «الدراس»، لتحل محلها أسماء طه حسين، والعقاد، وعلي الطنطاوي وأحمد أمين، وأحمد

حسن الزيات، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم وسواهم من كُتّاب «الرسالة».

حين جاءه عليّ في دكانه مهموماً لموقف أهل القرية من موضوع المدرسة شكى له حيرته في الناس وتناقضاتهم. فإذا تحدثوا في قيمة العلم واستعدادهم ليبيعوا ما أمامهم وما خلفهم لتعليم أبنائهم، حسبت أن الناس قد تنوّروا وأن الدنيا تتغير إلى الأمام بسرعة. وما هي حتى ينقلبوا إلى الخرافة والأوهام.

لم يجد مسعود إلا أن يشبه الحال بثمرة نصف ناضجة، فلا هي حلوة الطعم تماماً ولا هي حامضة الطعم تماماً.. بين بين. ولا بد من الصبر حتى تنضج. والصبر في رأيه العملي -الذي هو في أصل طبيعته- أن تأخذ من الناس ما تيسّر وتدع عنك ما تعسّر. وقد قالها بهذا اللفظ الفصيح الذي استقرّ في ذهنه من بعض قراءاته، وابتسم معها لأخيه متفاخراً:

- شفت شو عملت فيّه القراية!

ثم أكمل:

- وشو هامّك من أرض زراعية وأرض مش زراعية.. الزلمة تبرّع بأرض من عنده بتسوى ذهب.. وما بعملها إلا واحد بحب يشوف ناسه بتعلّموا.. بارك الله فيه..

صمت عليّ مطرقاً، ورمقه مسعود ثم قال:

- والا صارت قضية مبدأ عندك؟

هز عليّ رأسه.. وقال بالفصحى:

- هي كذلك يا أخي. أما والله ما جاوَزتَ الحقيقة! وأنا لم أجاوز الحق.

ضحك مسعود، وابتسم عليّ أخيراً وقال:

- هكذا تحدث العقاد.

وضحكا معاً هذه المرة.

أما حسن، فكان حاسماً كعادته حين أخبره عليّ أن الأمور بدأت تكبر. وأن بعض الكبار يفكّرون في رفع شكوى فيه إلى المعارف، وآخرون اقترحوا منع أبنائهم من الذهاب إلى مدرسته حتى يتراجع عن موقفه، أو أن يبادروا دون موافقته إلى البدء في بناء المدرسة على الأرض التي يختارونها.

هز حسن رأسه أولاً وقال:

- إذا كنت مخطئ تراجع.

أجاب عليّ بنبرة تصميم:

- أنا مش مخطئ.. خايف.. خايف تكون العواقب أكبر من الهدف نفسه.. الجماعة حوّلوها لمعركة.

هنا نهض حسن من مكانه واقترب من أخيه حتى صار معه وجهاً لوجه، وقال بأسلوب حاسم:

- إذن ادخل المعركة حتى الآخر. أكبر جريمة بترتكبها بحق نفسك وبحق مبدأك وبحق الناس، حتى الناس اللي هسّع واقفين ضدّك، إنك تنسحب من المعركة.. أو حتى تتردد. إذا ترددت لحظة وحدة اعتبر نفسك انهزمت.. وإذا انهزمت رايح يكون صعب عليك تنتصر مرة ثانية. هذي هيه العواقب اللي لازم تخاف منها.. عواقب الانهزام.. أما العواقب الثانية فلازم تتذكر إنه حتى المعركة اللي بتنتصر فيها إلها ثمن.. واتذكر برضه إنه المعركة اللي بتخوضها وتنهزم فيها في بعض الأوقات أحسن بكثير من المعركة اللي ما بتخوضها بالمرّة.

وقع كلام الشاب النبيل الشجاع في نفسه. فقال:

- شكراً يا حسن.. شكراً.

بقي رأي أحمد الذي أكسبته الثورة حكمة متوازنة لا تسلّم للظروف الضاغطة بدعوى الواقعية، ولا تصنعها أوهام الحالمين.

زاره عليّ في بيته في حيفا، واشتكى إليه ما يلقى من وجهاء القوم وكبارهم، حتى كاد أن يداخله اليأس. وصار يتمنّى أكثر من أي وقت مضى أن تنقله المعارف إلى مدرسة في إحدى المدن، ليتخلص من وجع الرأس ومكايدات أبي عايد التي لا تنتهي. وهو حقه الذي حُرِم منه حتى الآن.

بعد تفكير وتمعّن قال أحمد:

- يعلم الله أني راجعت أبو أكرم والأستاذ محمود المحامي مرة ورا مرة.

والشهادة إنهم ما قصّروا.. بس حساب البيدر مش زي حساب الحقل. على كل حال.. اسمع يا علي.. الناس ما بتتغير بين يوم وليلة.. بس لازم تعرف، وانت أبو الفهم والعلم، إنك ما بتفوز بقضية كبيرة لوحدك. لازم يكون معك ناس يقتنعوا برايك، ويوقفوا معك. قوة مقابل قوة.. هيك المعارك. قلت لي إنه أخوك مسعود بقول: حال الناس زي الثمرة اللي نصها مستوي ونصها بعده. اشتغل على النص المستوي.. الشباب في البلد غير أبوتهم.. كثير منهم أيام الثورة طلعوا بدون شورة أبوتهم..

وهيك أنا رأيي مع مسعود ومع حسن، مع بعض.

قُرِع الباب في هذه اللحظة، فقام إليه عليّ مسرعاً، واستغرب أحمد إذ رأى أخاه يعود وهو يحمل صندوقاً، وسأل:

- شو هاظ؟

وضع عليّ الصندوق على المنضدة، وقال:

- هدية صغيرة لمرة أخوي أم صالح.

لم تصدّق فتحية عينيها حين رأته يستخرج جهاز مذياع من الصندوق، وخفق قلبها فرحاً بانَ على وجهها، وغلبتها شهقة المفاجأة السعيدة. بينما نظر أبو صالح عابساً مستنكراً، ثم التفت إلى زوجته وسأل بنبرة الاتهام:

- انتِ طلبتِ منه؟

تدخل عليّ من فوره:

- ما حد طلب مني شي. عاد بدّك تكسره وتضيّع ثمنه أو حتى تبهدلني، اعمل اللي بدك إياه.

قال أبو صالح مستسلماً على مضض:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

التفت إليه عليّ وقال مبتسماً:

- الكلام اللي كنا نحكيه يا خوي يا أبو صالح.. الدنيا بتتغيّر.. واحنا لازم نتغيّر.. والعيب مش في الراديو.. العيب في الناس..

هتفت فتحية وهي تتأمل المذياع:

- سلّم إيديك يا علي.. سلّم إيديك. بشتغل على طول؟

- بس أوصله بالبطارية..

خاطبها أحمد:

- طيب فوتي كملي شغل الغدا.

تحركت من فورها، ولاحقها صوت أبي صالح:

- وممنوع ينفتح على غير القرآن.

قال عليّ مبتسماً:

- وانت؟ ما بدّك تسمع الأخبار؟ القائد أبو صالح أوْلى الناس بمتابعة الأخبار.

تنهد أبو صالح وقال:

- والله أبو صالح ما عاد قايد، حتى في بيته!

في المطبخ همّت فتحية بدون تفكير أن تسكب من السمن في المقلاة، ولكنها استدركت على نفسها بسرعة، وقرّبت إبريق الزيت!

وبعد الغداء، غابت فتحية، وبقي أحمد وعلي يتحادثان. وفجأة جاء من الداخل صوت المذياع خافتاً بأغنية عبدالوهاب: «خايف أقول اللي بقلبي تزعل وتعاند ويايا..»!

أرسل أحمد إلى أخيه نظرة عتاب صامتة، وآثر عليّ أن يتشاغل عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمل عليّ بنصيحة أخيه الأكبر. وانقسمت القرية إلى معسكرين، وانقلب الكثير من الأبناء على آبائهم وانحازوا إلى معسكر عليّ الشيخ يونس. وبالطبع استجلب هذا له ولأسرته المزيد من النقمة من أبي عايد وأمثاله. وتكرر الكلام عن هذه العائلة الصغيرة التي ما زالت منذ دهر تطلع عليهم بالعجيب الغريب المستفز وتتحدى توقعاتهم. إذ أحرى بأمثالهم أن يمشوا إلى جانب الحائط ويكتفوا بطلب الستر. وها هو أكثرهم وداعة وتجنباً للمشاكل يقود أبناءهم على طريق آخر يتاخم القوى الغيبيّة المخيفة. وكان من الطبيعي أن يكون أكثر معسكر عليّ من الشباب، ولكنه ضمّ أيضاً عدداً من كبار السن الذين -لأمرٍ ما- احتفظوا بقلوب شابة متوثبة، أو أن بعضهم كان يرغب في إغاظة أولئك الوجهاء المتكبرين، وربما كان بعضهم أيضاً «قليل الدين».. نعم قليل الدين، فلا يستحضر صحيحه الذي لا ينكره، فكيف يستحضر الخرافات المنسوبة إليه! ولكن معظم أنصار عليّ كانوا قد اقتنعوا بأدلته وحججه الدينية وأن تقديس «أبو نار» على ذلك النحو هو ضرب من الشرك، لا يقرّه الدين أولاً.

والطريف أن المعسكر المقابل الذي يقوده المختار وأبو عايد لم يكن على ذلك القدر من التقوى ومخافة الله في صحيح الدين، ولكنه كان أكثر تمسكاً بالخرافة.

وتواطأ عليّ أخيراً مع أنصاره على أن يخرجوا في صبيحة يوم معيّن إلى

وقف «أبو نار» ليبدأوا حفر الأساسات على وفق مخطط بسيط ساعدهم فيه أحد البنائين. وبالطبع علم الطرف الآخر بالمخطط، فاستعد بدوره للمواجهة.

وتعجب أنصار عليّ حين قال لهم:

- بقي شي واحد أعمله، قبل الشغل.

ولم يفصح لهم عن مقصده.

كان الشيخ إبراهيم الرجا، شيخ الطريقة القادريّة في المنطقة، يجلس في زاويته مع عدد من مريديه، وقد ارتدى عمامة خضراء، وتدلت من حول عنقه مسبحة طويلة، حين دخل عليه الأستاذ عليّ، مسلِّماً، ثم أخذ بيده وقبّلها. وجلس جانباً. وعرّف بنفسه، بينما استمر الشيخ في التمتمة بالذكر.

ثم سأل الشيخ:

- قلت لي درست في القدس.. نيّالك.. الصلاة في الأقصى بتعدل خمس مية صلاة. من وجهك مبيّن إنك كنت تصلّي في الحرم أكثر الأوقات.

هز عليّ رأسه:

- كل ما كنت أقدر. بتعرف يا سيدنا الشيخ.. مدرسة.. وواجبات..

بعد لحظة صمت، هتف الشيخ فجأة:

- لا إله إلا الله.

فهتف عليّ مع الحاضرين:

- محمد رسول الله.

ثم توجه الشيخ بخطابه إلى عليّ، سائلاً عن سبب زيارته للزاوية، على غير عادة الأفندية الذين لا يعتقدون بالطرق الصوفية وشيوخها.

أجاب عليّ:

- انتو البركة، والعين ما بتعلى على الحاجب. والعلم اللي الله سبحانه وتعالى فتحه عليكم ما بتحصّل في المدارس ولا الجامعات. العلم اللدنّي يا سيدنا.. ثم تلا قوله تعال: ﴿وعلّمناه من لدّنا علماً﴾.

ارتسمت على وجه الشيخ ابتسامة عريضة، وظهر عليه الرضا. فهذا شاب يعرف الفرق بين علم الظاهر وعلم الكشف.

- قلت لي اسمك علي؟

هز عليّ رأسه، وقال الشيخ:

- الله يعلي مقامك يا علي.. إلك من اسمك نصيب إن شاء الله.

قالها بأسلوب العارف المكاشف. واستأنف سائلاً:

- أؤمر يا علي.. انت جاييني في حاجة مبينة على وجهك.

- ما يؤمر عليك ظالم يا سيدنا.. والله جيتك أول شي تدعي لي دعوة صالحة وتقرا على صدري.

أشار إليه الشيخ أن يتقدم، ففعل حتى مسّت ركبتا عليّ ركبتي الشيخ الذي وضع يده على صدره وأخذ يتلو من سورة النور: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دريّ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور..﴾.

وهنا كرر عبارة ﴿نور على نور﴾ بضع مرات.

وكان عليّ يحب هذه الآية على نحو خاص، ويكثر من قراءتها، ويتمعّن في معانيها، ويتأمل في أسرارها. وقد أسعده أن يتلوها الشيخ على صدره، وإن كان قد عجب لأن الشيخ المبجّل الذي يتبادر مريدوه إلى التبرك بكل ما يتعلّق به قد وقع في بعض الأخطاء النحوية في تلاوة الآية. ومع ذلك لم يصحح عليه، وهو الآن يجلس منه مجلس التلميذ المريد.

ثم قال الشيخ:

- هذا أول شيء زي ما قلت.. يعني في شي ثاني.

أيضاً قالها بأسلوب العارف. أجاب عليّ:

- يا سيدي، ناويين إن شاء الله نبني مدرسة جديدة ببلدنا تستوعب صفوف أكثر وتلاميذ أكثر، وتخدم المنطقة. والدين حضّ على العلم ﴿هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وزي ما انت عارف: بلدنا بلد الولي أبو نار، الله يقدّس سرّه! وكان على الطريقة القادرية اللي انتو عليها.

وشرح له عليّ أن الفكرة هي بناء المدرسة في وقف «أبو نار» تكريماً له من جهة ولأنها الموقع الأفضل للتلاميذ من جهة أخرى. وبذلك يبقى التلاميذ جيلاً بعد جيل يذكرون اسمه وسيرته كلما ذكروا المدرسة، ويقفون على ضريحه ويقرأون الفاتحة عنده. وذكر أن من عادة الإنسان النسيان والغفلة. وقد كثر انشغال الناس بالدنيا عن الدين وأهل الذكر، حتى صار ضريح أبو نار مهملاً ولا يزوره إلا القليل وقت الحاجة فقط. ويخشى أن يتحوّل بعد حين إلى «خرابة». وأي شيء أحسن من صوت العلم يجاوره، بدلاً من ناي الرعيان وأزجالهم؟ ومن أبرك من الشيخ إبراهيم وأوْلى منه ليكون أول من يضرب الفأس في حفر الأساسات؟

وعد الشيخ إبراهيم خيراً بعد أن أثنى على عليّ وتمنّى لو كان كل الشباب المتعلم مثله يقدِّرون الأولياء وأهل الذكر. وحين قام عليّ مستأذناً، قال الشيخ:

- اقعد اقعد.. الليلة في ذكر.. لا بدّ إنك بتحب تحضره!

لم يسع عليّ إلا الاستجابة، وكتم عدم حماسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمع الشباب في صبيحة اليوم الموعود في وقف «أبو نار»، وقد أحضروا عدّة العمل. وكان عليّ قد أخبرهم بزيارته للشيخ إبراهيم الرّجا واتفاقه معه. ولكن الشيخ لم يظهر حتى الآن. بدأ الشباب يشكّون في مجيئه. فلعله قد غيّر رأيه، أو أقنعه بعضهم بتغيير رأيه. فأخذ بعضهم يلحّ على

البدء في العمل على كل حال، وعليّ يدعوهم إلى التريث قليلاً. ولكن، لئن لم يصل الشيخ حتى ذلك الوقت، فقد وصل رؤوس المعسكر الآخر، وصاح أبو عايد وهو يقود ركبه إلى المكان بأن يضع الشباب فؤوسهم وعدّتهم من فورهم، فلن يحفر أحد هنا إلا على جثته. واعترضه ولده عايد:

- له يابا.

- مليح انك اتذكرت إني أنا أبوك.. خلص، ما هيه الدنيا خربت وصار الدم ميّة.

تدخّل عليّ:

- يا جماعة استهدوا بالله.

صاح به أبو عايد:

- اسكت انت.. انت اللي حرضت أولادنا علينا.. كُلّه منك انت.

تدخل عايد من جديد:

- يابا اسمعني بس.. مش بتقولوا هذي اللوزة حصة أبو نار، واللي بوكل منها ما بجيب أولاد. طيب خذ مني.. أنا وأنا صغير قرطت منها وأكلت حتى استويت.. والحمد لله ابني هسّع صار عمره خمس سنين، واللي بشوفه بقول عمره عشرة، ما شاء الله لا قوة إلا بالله. بدّك أكثر؟ طب خذ.. بتصدق إني طعميتك منها وانت مش داري؟ وما شا الله، زادت

خلفتك اثنين بعدها. شو رايك هسّع؟

في هذه اللحظة تناهى إلى أسماع الحضور صوت «عدّة» الصوفية: طبول وكؤوس. توقف الكلام. وأصاخوا السمع، وفجأة صرخ أبو عايد صرخة رعب:

- عدّة.. صوت عدّة، من ضريح أبو نار. هذا تحذير.. كرامة ثانية.. ارموا اللي بإيديكم وانفدوا بجلودكم..

هنا سمع صوت عليّ الذي كان ينظر في اتجاه معيّن، وقال:

- تعالوا شوفوا مين جاي بالعدّة!

وصل الشيخ إبراهيم أخيراً في جمع من مريديه، يرفعون الرايات البيض التي طُرِّزت عليها آيات وبعض أسماء الله الحسنى، ويضربون الطبول والصناج والكؤوس، على عادتهم في المناسبات الاستعراضية.

لا بأس.. لم يأت الصوت من ضريح «أبو نار». ولكن، لا بد أن الشيخ إبراهيم وجماعته سمعوا بالإثم العظيم الذي يوشك هؤلاء على اقترافه، فجاؤوا ليعترضوهم، وفاءً بذمتهم للولي الكبير الذي يرقد في المكان. هكذا همس أبو عايد وصدّقه المختار كالعادة. ولما وصلوا إلى الموقع أسرع أبو عايد للتبرؤ أمام الشيخ من صنيع هؤلاء المارقين، وأشار إلى عليّ بوصفه الضال المُضِلّ.

لم يجبه الشيخ. وإنما بسط كفّيه وهتف:

- فاتحة للنبي وأحباب النبي وأبو نار.

وإذ فرغ الجميع من التمتمة بتلاوة الفاتحة، جاءت الصدمة الكبرى حين خاطب الشيخ أحد الشباب قائلاً:

- ناولني هالفاس.

صرخ أبو عايد دون وعي إذ رأى الشيخ يرفع الفأس ليهوي به على جذع شجرة اللوز:

- حصة أبو نار!

ضرب الشيخ بالفأس ضربة أولى.. ثم قال قبل أن يتابع العمل:

- حصة أبو نار أكبر من هاللوزة.. ومن هالأرض.. الأرض والمدرسة اللي رايحة تنبنى فوقها هيه حصة أبو نار.. وبإذن الله المقام العالي في الجنة.

ثم تلفت في الحاضرين:

- يالّلا..همّة يا شباب.

وأغرب ما وقع بعد ذلك أن «أبو عايد» والمختار ومن جاؤوا معهما وجدوا أنفسهم بعد وقت من العمل، يشاركون فيه، بعد أن دعاهم الشيخ إلى المشاركة في الأجر!

حين انتهى عمل اليوم، ومضى الشباب عائدين إلى القرية، سأل مسعود عايد:

- صحيح أكلت من اللوزة وانت صغير؟

ضحك عايد:

- عمري ما حطيت إيدي عليها.. بس هسّع نادم.

- يعني كذبت على أبوك؟

- بكل فخر واعتزاز.. كذبة بيضا.. يعني أخف من اللي عملها علي عند الشيخ إبراهيم زي ما حكى لنا. اقرأ على صدري! بركاتك يا سيدنا! العين ما بتعلى على الحاجب.. قصدنا نكرِّم اسم أبو نار!

ابتسم عليّ وقال:

- سمّيها سياسة.. دبلوماسية.. اللي ما بيجي بالعافية.. بيجي..

قاطعه عايد:

- لعبة الإنكليز.

- بس الأهداف شريفة.

تدخل مسعود مستعرضاً:

- الغاية تبرر الوسيلة.. ميكافيلّي.. كتاب الأمير.

صاح عايد متهكماً:

- إيش يا خوي.. ميكا.. إيش؟ ومنين جايب هالحكي، من فضلة الأستاذ؟

وأشار إلى عليّ الذي قال:

- الفضل لله، وبعدين لهمّة أخوي مسعود.

وفجأة توقف عليّ واكتسى وجهه بملامح التفكير. وتوقف الآخرون معه يستطلعون. أخرج ورقة من جيبه وأعطاها لعايد الذي قرأها وقد تغيّر وجهه!

كان ذلك كتاباً رسمياً من دائرة المعارف بقرار نقل عليّ إلى إحدى مدارس حيفا في العام الدراسي القادم. وكما يُظهِر تاريخ الكتاب فقد صدر قبل عشرة أيام. إذن فقد مضى عليّ في خطته بشأن مدرسة «أبو نار» وهو يعلم بالقرار الذي لبث وقتاً يتطلع إليه.

قال عليّ:

- لو عرفوا جماعتنا كان ظلّوا يماطلوا ويأخروا الموضوع بألف حجة وحجة لحين ما أنتقل.. المهم الآن إنا حققنا الهدف.. والخرافة طارت والحمد لله.

تابعوا المشي بعد ذلك صامتين.

(نُذُر المأساة)

إذا كان ثمة خصلة في جابر المحمود يمكن أن يُمدَح ويُذَمّ بها في الوقت نفسه فهو طول النفس والإلحاح وعدم اليأس من طلب الشيء مهما يتكرر الرفض الذي يبدأ على نحو متلطف وينتهي بأسلوب جاف قاطع. فما زال منذ شهور يطلب خضرة، ويُردّ، ثم يعود، بنفسه أحياناً وبالاستعانة بالوسطاء أحياناً أخرى. ولكن، حتى الوسطاء لم يكونوا يَنْحَوْن في كلامهم إلى تزكيته كما هي عادة الوسطاء في خطبة النساء، وإنما كان معظم كلامهم يتجه إلى أهمية ستر المرأة بالزواج، وأن تجد بيتاً غير بيت أبيها يؤويها وولدها، وظِلّ رجل ينهض بأمرها. وفي كل ذلك إلماح إلى وضع خضرة المترمّلة ومصير أمثالها. والحقيقة أن هذا ما كان يعوّل عليه جابر المحمود الذي لا يملك من الصفات الأخرى ما يمكن أن يغري بمصاهرته. ولذلك تجاوز الثلاثين دون أن يتزوّج، أو الأصح، دون أن يزوِّجه أحد. الكل كان يعلم أنه شخصية منفّرة وغريبة الأطوار، مع بعض اللؤم والبخل. وكان لا يُرى إلا وحيداً عابساً يتلفت بعيون زائغة أو يلزم الأرض بنظراته. وفوق ذلك كان دَميماً قصير القامة. وإذا تحدَّث لم يُحسِن التأتّي وألقى الكلام كمن يلقي الحصى، فلا يميز بين ما يَحْسُنُ قوله وما لا ينبغي له قوله.

وعلى الرغم من أن أسرة الشيخ يونس، كانت ترغب في تزويج خضرة حقاً، وكانت مقتنعة بكل ما يسوقه الوسطاء من الأسباب عن ستر الأرملة، فإن صفات جابر المحمود المنفّرة كانت تصدّهم عن القبول،

وترجو أن يأتيها من هو أفضل منه، وبخاصة بعد التقدّم الذي أحرزته الأسرة في أبنائها. فهذا أخوها القايد أبو صالح، وهذا الأستاذ عليّ الذي لم يسبقه أحد في القرية إلى ما صار إليه: الكلية العربية، ثم ها هو الآن مدرِّس في مدرسة مرموقة في حيفا، وهذا مسعود الذي جمع بين النجارة والفلاحة وعُرِف بتعقّله و«شطارته» حتى قيل فيه إنه يستطيع أن يَجْبُر حبّة الخيار المكسورة على عِرْقها، تعبيراً عن قدراته العملية، وهذا حسن زينة القرية وفتاها الشجاع ومهوى أفئدة فتياتها.

ولكن ذلك كلّه لم يشفع للأرملة التي يضاف إلى ترمّلها عبء صبيّ بلغ السادسة من عمره الآن. وبيع الزواج على الاثنين! وها قد مرّت هذه السنين دون أن يتقدّم لها من يستحقها ويستحق مصاهرة أسرتها.

ومع ذلك لم يكن الرادع الأكبر عن مصاهرة جابر المحمود ما عُرف عنه من النقائص، وإنما موقف خضرة نفسها من الزواج بعد العبد الذي لم يتوقف عن زيارتها في أحلام النوم وأحلام اليقظة معاً. وأي رجل بعد العبد يمكن أن تراه زوجاً؟ فكيف إذا كان المتقدّم رجلاً مثل جابر المحمود؟ فكانت إذا ذُكِر الموضوع أمامها تضرب على رأسها وتذهب في البكاء والعويل. وكانت حماتها أم العبد قد لحقت بزوجها وولدها، فاضطرت خضرة إلى العودة إلى بيت أسرتها. وكان أشد ما يؤلم أبويها وإخوتها أن يسمعوها تقول من خلال بكائها:

- يعني مستثقلين قعدتي وابني.. ابن الشهيد، عندكم ومستقلعين منّا؟

فتحتضنها الأم وتهزّها بحرارة بالغة وتسكّن خواطرها، مؤكدة لها أنها في عيون الجميع وقلوبهم، بينما تردد خضرة الكلام عن الفارس الحبيب الفقيد الذي لن يملأ رجل بعده عينها، ولا يمكن أن ينسيها إياه، ولو كان أمير الأمراء أو ابن شهبندر التجار!

لا تجد خضرة حرجاً في أن تعدّد خصال العبد السامية، وأن تعبّر عن حبها المقيم له وإن لم يعد هو مقيماً في الحياة. ولكن الذي لا تستطيع أن تبوح به هو النفور الذي يعتريها ويهتز له بدنها كلّه إذ تتصوّر نفسها تنام إلى جانب رجل آخر يلامسها. تلك أشبه بالخطيئة وإن كانت غير ذلك في عيون الخلق! فللقلب أحكام غير ما يحتكم إليه الناس! بل كيف لها أن تنام بين رجلين: رجل حيّ يملكها بحكم الشرع ولكنه غريب عنها، ورجل آخر ما زال حيّاً في خيالها وأحلامها وإن كان ميتاً!

ولكن سلطان الناس أكثر تحكماً وسطوةً وغلبةً من سلطان القلب. نعم، لن يستثقل أهلها مقامها فيهم مع رشدي الصغير. ولكن ماذا سيكون من أمرها بعد أن يذهب والداها إلى حيث ذهب أبو رشدي. لن يرضى إخوانها أن تبقى وحدها، ولسوف يكون عليها أن تعيش مع ولدها عند أحدهم، لتكون عالة عليه. ولئن أحسن أخوها رعايتها ولم يضق بها ذرعاً، فماذا عن زوجته؟ وأي زوجة مهما تكن تطيق أن تشاركها بيتها وحياتها أخت زوجها وولدها إلى الأبد؟ وثمة طرق كثيرة مختلفة للتعبير عن الضيق والنّبذ، وربما الإهانة. وقد يفضي ذلك إلى انهيار علاقة الزوجية بين أخيها المضيف وزوجته.

لم تكن هذه المخاوف والأفكار لتفوتها، فإن حاولت التغافل عنها ذكّرها بها آخرون تلميحاً أو تصريحاً، حتى كسرتها السنون وأخضعتها التقاليد وغلبتها على نفسها ومشاعرها. فأذعنت كارهة مكرهة.

وكان أقسى ما في مراسيم عقد الزواج إصرار الشيخ المأذون على أن يسمع منها كلمة الرضا صريحة واضحة، عملاً بالحكم الشرعي الذي ينصّ على أن «الثيب أحق بنفسها من وليّها»، وأنه «لا تُنكح الأيّم حتى تُسْتَأمر» بخلاف البكر التي يكفي منها الصمت علامةً للرضا. ويا للمفارقة: «الثيب أحق بنفسها..» وهي الآمرة على نفسها كما يفرض النصّ. ولكنها في واقع الحال لا حق لها في نفسها ولا أمر، وإن كان عليها أن تقول: نعم، بصوت مسموع. وكيف لكلمة القبول أن تخرج من حنجرة مخنوقة ومن قلب كاره يصيح دون أن يسمعه أحد: لا.. لا.. لا..

بقي لها من الإرادة في نفسها أن ترفض التزيّن إلّا قليله، وأن لا تُنقَل إلى بيت زوجها الجديد في زفّة مشهودة. فقط، عند المساء، يصحبها مسعود، وهو الوحيد الذي رضي بتحمّل تلك المهمة الثقيلة بحكم الضرورة، إلى بيت زوجها. وبالطبع أبقوا رشدي عندهم لبضعة أيام، ليُضَمّ إلى أمه بعد ذلك.

وخيّم على البيت جوّ ثقيل أشبه بالمأتم منه بالعرس.. وجوم وصمت وانصراف عن الطعام، وشعور موجع بالذنب، وإن كان ذنب المُكره المضطر. ولكن، لا أحد يستمتع بأكل الميْتة حتى لو لم يجد غيره للبقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يطل الوقت حتى تبيّن لخضرة أن زوجها الجديد أقبح خلقاً حتى مما كان يقول فيه مبغضوه: بخل ولؤم وجبن وقسوة قلب وأنانية مع سقوط المروءة وعزة النفس.. لا شيء مما اعتادته من أهلها ومن.. العبد! نفْيٌ من عالم الرجولة والشهامة والكرم إلى عالم مظلم مقيت، وأرض بور موحشة.

فبعد ثلاثة أيام فقط من الزواج، سأل وهو مستدير عنها، يضع الكوفية على رأسه ليخرج:

- قولي لي يا خضرة. همّه أهلك ما تذكروا ينقطوك؟

لم تتأخر في تسليمه صرة من النقود. ولم يتأخر في فتحها وعدّ ما فيها، فقال بأسلوب مشوب بالاستنكار:

- ثلاث ليرات؟

أجابت:

- خير وبركة. هالأيام الزلمة المِسْعَد ما بطلعهن بشهر ونص والا شهرين.

- بس أخوك الأستاذ بطلّع قدهن كذا مرّة في الشهر.. وأبو صالح عنده مصلحة في حيفا.. ومسعود..

قاطعته:

- الله يعينهم، على إيش وإيش بدهم يطوقوا. كثّر الله خيرهم.

غمغم ومشى خارجاً.

قمبازان فقط، عمرهما بعمر الاحتلال البريطاني للبلاد، وحطّتان قد تَهَرَّأَتْ أطرافهما، وسِرْوالان، أحدهما مرقوع، ونعلان ترددا كثيراً على عامل الأحذية للترقيع واللصق. هذا كل ما عنده من متاع لنفسه لم يفرضه عليه الفقر ولا الزهد، وإنما فرضه البخل والإمساك. عليها منذ اليوم ألا تنتظر حتى يجتمع ما يكفي من الثياب للغسيل، فلا ثمّة إلا بديل واحد لما يتّسخ منها. ومع ذلك فهي غير ملزمة بغسيل يومي لثوبه المتسخ، بل إن ذلك غير مرحَّب به عنده. فهذا يعني الزيادة في استعمال قطعة الصابون الوحيدة التي لا يؤتى بغيرها حتى تذوب إلى صفيحة رقيقة تنزلق من اليد. ولماذا التعجل في غسل الثوب إذا كان سيتسخ في عمل الحقول غداً؟ فليكن، ولكنها حريصة على نظافة ثيابها وثياب ولدها التي حملتها معها من دار أبيها، وكما اعتادت دائماً. فلا مفرّ من أن تجمعها وتغسلها هناك.

خير الطعام عنده الخبز والزيت ورَصيع الزيتون، وربما بعض الزعتر أحياناً. فهذا كله من مؤونة البيت. وما البأس فيه وهو من خير الأرض ويسدّ الجوع. الجوع عند جابر المحمود سيّد الطهاة. وهو يتعامل مع الطعام كأنه دواء لألم الجوع، وليس مطلباً للمتعة واللذّة.

لم يخف شيء من ذلك على أهلها، ولكنهم لا يريدون أن تكبر المشاكل بينها وبين الرجل مهما يكن من أمره. فكانوا إذا جاءت في زيارتهم، لم ترجع إلا ومعها صُرر من الطعام المطهو وغير المطهوّ: خضار وفواكه

وبعض اللحم أو الفراخ الحيّة، وربما بعض الحلوى التي يأتي بها عليّ من حيفا. ولا ينسى عليّ أن يضع في يدها بعض النقود، فتمتنع حتى يقسم عليها، ثم يذكِّرها بالقرش الذي وضعته في يده أول ذهابه إلى مدرسة عكا. فتقول:

- أنت بدّك تظلّ تتذكر هالقرش؟

وبالفعل لم يكن لينسى ذلك أبداً.

وقد اعتاد جابر المحمود على هدايا أسرة زوجته. وإذ يتوفر من الطعام الذي تأتي به مما ليس مستعداً هو أن يوفره، فإنه ينسى كل مدائحه في الزيت والزيتون، ويُقبِل على الأكل بشراهة لا تُبقي لها ولابنها الكثير. فإذا علم أن أخاها علياً كان في البيت في زيارته الشهرية من مكان عمله في حيفا، سألها عما أعطاها من النقود، وأخذها باعتبارها حقاً ثابتاً له. فمال الزوج للزوج، ومال الزوجة له أيضاً. هذا من طبائع الأمور ونواميس الحياة، مثل بزوغ الشمس من المشرق وغروبها في المغرب. وليته كان يعتبرها أموراً مسلَّماً بها لا تستحق الشكر والامتنان فقط، ولكنه كان متحفزاً دائماً ليتّهمها بأنها «تحمّله جميلة» و«ترى نفسها عليه» بما تحمله من أسرتها. وبدلاً من الشكر لا تسمع منه إلا الكلام القاسي الذي يصل حد الشتائم أحياناً، وينذر بالعنف. ولا يفوته أن يذكِّرها بأنه مهما يقدّم لها أهلها، فإن يده تبقى هي العليا، ولن يبلغوا ردّ «جميلته»! يريد بذلك زواجه من ابنتهم الأرملة ذات الصبيّ.

- اللي زيّك ما بطلع لها تتشرط.. انت اللي زيّك لازم تحبّ إيد الزملة اللي أخذها، الصبح والظهر والمغرب، وتحمد ربها اللي بعث إلها واحد يضبها مع ابنها.

ولكن، أشدّ من هذا كله نظرته إلى صغيرها وتعامله معه. فمن الواضح أنه لا يطيق وجوده معهما. ولماذا لا يقيم مع جدّيه وأخواله؟ فهم أوْلى به. وإذا كانت أمّه هنا وهو معها، فإن البيت للرجل على كل حال. ولكن ذلك كان شرط خضرة وأهلها عليه حين وافقوا على ذلك الزواج البئيس. على أن ذلك لن يمنعه من نهره والصراخ به لأتفه الأسباب، بل إنه كان يغار منه في سرّه إذ يرى خضرة تحيطه بحب وعطف لا يجد لنفسه شيئاً منهما. وكان قد أملى أن يجده نائماً عندما يعود في المساء من الحقول، وإلا قامت الدنيا ولم تقعد. وإذا خلا به، ربما قرصه أو ضربه حتى يبكي الصبي بحرقة متألّماً، ثم يأمره أن يكتم ذلك عن أمه، وإلا ناله منه عذاب شديد.. وأكثر منه لأمّه! فكان الصبي ابن الشهيد يمتثل للأمر ضنّاً بأمّه أولاً.

«نصيب».. هذا هو الدواء الشعبي لكل الأدواء، والعزاء لكل المصائب التي يقترفها البشر، ويعاني منها البائسون.

وبدا أن خضرة كبرت عشر سنين في بضعة شهور من زواجها.

- بكرهه يمّه.. بكرهه.

- عيب يمّة.. البنت الأصيلة ما بتقول هيك عن جوزها.

- ما بحسّش إنه جوزي.. لما بسمع هالكلمة بحسّ إنها عيب.. عيب يمّه!

- أوعي يمّه لا تكوني بتحسّسيه إنك بعدك متعلقة بجوزك الأول. ترى ما في شيء يجرح الزلمة أكثر من هالشي. يمكن عشان هيك..

قاطعتها خضرة:

- لا والله ما بتطلع مني كلمة.

- مش ضروري كلمة.. ما هو ببيّن على الوحدة بدون حكي.

- مش بيدي.. مش بيدي يا ناس.. ما بطيقش شوفته.. لما بسمع صوت اجريه راجع زيّ اللي بخبّط في قلبي.. وبنام وبحلم..

لم تكمل العبارة، وأكملت عنها أمها:

- بالعبد. بصير هالحكي؟

- يمه هو الحلم بإيد الواحد؟ لما بيجيني العبد في المنام بقدر أقول له عيب أنا صرت مرت زلمة ثاني؟

تنهدت بعمق، ثم استأنفت هذه المرة بلهجة قوية كأنها تتحدّى نفسها والعالم الذي رماها تلك الرمية:

- آه بحلم فيه.. بحلم بالعبد كأنه ما مات.. بشوف حالي قاعدة معه ومتهنية فيه.. بشوفه حامل بارودته بنظف فيها وبتطلع عليّ وبضحك.. بعدين.. بفتح عيني بلاقي هالزلمة الغريب جنبي بشخّر..

ثم انكسرت حدة لهجتها:

- بستحي يمّه.. بستحي.

- من جابر؟

التفتت خضرة إلى أمها وقالت بنبرة التأكيد:

- من العبد.

قالت الأم:

- أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم. والله ما إني عارفة شو بدّي أقول لك.

شردت خضرة في التفكير بضع لحظات، ثم تساءلت:

- علمك يمّة الوحدة يوم القيامة.. الوحدة اللي زيي بتروح لمين؟ للأول اللي حبّته والا الأخير اللي ما بتطيقه؟

- قالوا لك عني عالِمة يمّة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت خضرة تحتطب في البر، حين طرق حسن باب بيتها، وكان يحمل بعض الطعام، تناوله منه جابر المحمود، بينما ركض رشدي إلى خاله يحتضنه. انحنى حسن عليه، ثم استخرج من جيبه حفنة من «البنانير» الشفافة الملوّنة وأعطاه إياها، وقفز رشدي فرحاً بها. ثم استخرج «شلناً» وهز يده:

- شلن.. هذا إلك انت. أوعك تضيّعه.. الشلن بحكي هالأيام..

ثم دسّه في جيب رشدي. ومضى عائداً.

جلس جابر المحمود يدخّن ويراقب رشدي وهو يلعب بالبنانير، ثم قال:

- الشلن اللي أعطاك إياه خالك. هات أعطيني إياه أشتري لك فيه إشي مليح.

حين رأى رشدي يتجاهله ويتابع اللعب، صاح به:

- ما سمعتنيش وله؟ بقول لك هات الشلن.

ثم نهض جابر غاضباً وأقبل على الصبي:

- بدكاش تجيبه بالمليح، بتجيبه بالعاطل.

تمنّع الصبي وشدّ بيده على جيبه، بينما كان جابر يحاول الوصول إلى داخله حتى تمزق طرفه، وفجأة عضّ رشدي يد جابر بكل ما يملك من قوة. فجنّ جنونه، وانهال عليه بالضرب والصفع بقسوة بالغة حتى ابتزّ الشلن منه، وتركه في زاوية الغرفة يبكي بحرقة. وقال جابر مهدِّداً وهو يلهث:

- اسكت وله! واسمع تا أقلك.. إذا بتطلع منك كلمة واحدة لأمك بدّي أكسر ضلوعك وضلوعها. سامع؟

ولكن ما يمكن أن يكتمه خوف رشدي على أمه ونفسه، تفضحه الكدمات الظاهرة على وجهه، وثوبه الممزق، وآثار دموعه.

دقّت خضرة على صدرها وهرعت مذعورة مولولة إلى ولدها. ولم يكن من الصعب أن تستنتج أنه تعرض للضرب، فالتفتت إلى جابر الذي وقف مستديراً عنها يلف سيجارة أخرى، وصاحت به:

- أنت ضربت الولد؟

لم يكن سؤال من يجهل الجواب. ولم يكن في وسع جابر أن يتهرّب من المسؤولية، وكانت نظرات رشدي الحاقدة إليه واضحة المعنى. كل ما قاله جابر:

- الولد بدّه تربية.. وأنا الزلمة هون.

هنا تخلّت خضرة عن وداعتها المعهودة، واستيقظت فيها وحشية الأمومة حين تحمي صغارها فتُنْبت لليمامة مخالب الصقر:

- الله يكسّر إيديك ورجليك.. ولك انت زلمة ياللي ما بتخاف الله؟ ولك هذا ولد.. يتيم.. ابن شهيد.

قبل أن تعي على نفسها كانت تستلقي على ظهرها بعد أن لطمها لطمة هائلة، ثم انكبّ عليها ضرباً وصفعاً. عندئذٍ نسي رشدي كل مخاوفه منه، فقفز على ظهره يضربه بقبضتيه الصغيرتين ويحاول جذبه بعيداً عن أمه، حتى قذفه زوج أمه بعيداً بلا رحمة.

كانت ما تزال تشهق بالبكاء في بيت أبيها، وولدها ملتصق بها، حين أسرع حسن في طريق الخروج والشرر يتطاير من عينيه، وهرول مسعود وراءه واعترض طريقه:

- لا تتسرّع يا حسن.. دخيلك؟

صاح حسن:

- ما أتسرّع؟ ما شفت أختك وابنها؟

- شفت يا خوي.. وأنت مش زعلان أكثر مني.. بس أخوك أبو صالح جاي بكرة، وما بصير نعمل شي بغير رايه. استهدي بالله.

عاد به إلى الداخل. ولم يجد حسن إلا أن يقول وهو ينظر إلى أخته وولدها.

- ينعل أبو الساعة.. مبسوطين هسّع؟ سترتوا على بنتكم مع النذل ابن النذل؟ هياها رجعت إلكم مبهدلة؟ مش أحسن لو ظلت عندكم معززة مكرمة؟ هه! قال: ظِلّ زلمة ولا ظِلّ حيطة.

قالت أم أحمد:

- ريت حيطة تسقط على راسه.

قال أبو أحمد بصوت مخنوق:

- دخيل الله.. لا تحرقوا قلبي أكثر ما هو محروق.

أدركه أحمد واقفاً مع بعض الرجال، عند دكان «أبو منصور». وإذ تنبه جابر له مُقبِلاً فيما يشبه الهرولة وقد بدا الغضب الشديد على وجهه، أدرك ما ينتظره، فحاول الهرب من فوره. ولكن أحمد ركض وراءه حتى أمسك به، وانهال عليه بالضرب لكماً وركلاً ودفعاً على نحو متّصل، حتى

طاح به إلى الأرض، ثم جذبه من ثوبه وأوقفه على ساقيه وأخذ يطرق رأسه بجدار. وحين اقترب الرجال للتدخل صاح بهم أحمد:

- أوعه حد يقرّب.

فتوقفوا، بينما كان جابر يحاول التفلّت منه، وهنا ارتكب الخطيئة القاتلة حين صاح:

- فلّتني.. حاسب ما فيه حكومة؟ والا حاسب بعدك القايد أبو صالح.. خلصت الثورة.. الثورة خلصت.

كان ثمن العبارة فادحاً. إذ ألقى به أحمد إلى الأرض من جديد وأخذ في ركله بقدمه في كل جانب، ثم أسرع إلى كرسي قريب عند باب الدكان فأخذه ونزل به عليه، حتى بدا أن الرجل على وشك الهلاك.

ثم وقف أحمد عليه وهو يلهث بشدة، وقال:

- المرّة الجاي بقطعك وبرمي لحمك للكلاب.

ثم بصق عليه قبل أن يمشي عائداً.

لم يقدّر أحمد حين انتقم لأخته ولكرامة الأسرة كلها، أن جابر المحمود سوف يرفع دعوى قضائية عليه بعد أن حصل على تقرير طبي. وحتى لو قدَّر هذا مسبقاً لما كان لذلك أن يثنيه عن ضربه وإذلاله كما فعل.

أخذت خضرة تضرب على رأسها وتولول:

- كلّه من تحت راسي.. هذا اللي أجا لأخوي من وراي.

ردّ حسن بحزم:

- ما جاش من وراك. انت اللي أجاك من ورانا لمّا جوزناك للنذل.

وحين سمع أمه تعلّق:

- صدق اللي قال.. همّ البنات للممات.

ردّ من جديد:

- صح.. صح يمّة.. طالما ظلّ فيه ازلام أنذال وظالمين!

قالت مستسلمة:

- قولتك.

تولى القضية الأستاذ محمود المحامي الذي عمل مع «أبو صالح» في الثورة، وكان همّه التوصل إلى مصالحة خارج المحكمة. فلا يليق بالقائد «أبو صالح» التردد على المحاكم. والأشدّ من ذلك أن ينتهي إلى السجن في مشاجرة شخصية، وهو الذي قاتل الإنكليز ونجا منهم. فالتقرير الطبي حاسم في تشخيص الأضرار الجسدية، ومنها كسر أحد الأضلاع. وقرر الأستاذ محمود أن يتدخل بنفسه عند جابر المحمود، أو جابر «الزفت» كما صارت الأسرة تسمّيه، مع بعض وجهاء القرية، وعلى رأسهم المختار، وحتى أبو عايد الذي لانت أخلاقه بعض الشيء منذ مقتل جميلة، ورَضِيَ أن يشارك في الوساطة. وكان شرط جابر لإسقاط الدعوى أن تعود إليه خضرة، ولكن بدون ولدها. ولم يكن قبول الأسرة لشرطه ذاك من باب

الاضطرار فقط، لتجنب أحمد عواقب المحكمة، ولكن، كان هذا ما عزمت عليه مسبقاً، حتى قالت أم أحمد:

- يعني لو ظل ساكت كان أشرف له..

ثم توجهت بالكلام إلى ابنتها:

- الغاير بغار منه.

بخلاف المتوقع، وعلى الرغم من قسوة الفكرة، لم تبدِ خضرة ممانعة:

- ناوي يشغله بعد سنة. لما قلت له بدنا نعلمه، قال: وأنا مجبور أعلمه؟ خلّيه يطلّع لقمته.

قالت أم أحمد:

- شايفة لعاد؟ ويمّه، مش رايح يكون بعيد عنك.. كل يوم بتشوفيه عندنا.

تدخّل عليّ الذي كان حاضراً هذه المرّة، فأكد لخضرة أن الجميع سوف يتعهّدون رشدي كأنه ولدهم. وأيّده مسعود وحسن بقوة.

وحين خرج مسعود بأخته ليردّها إلى بيتها، قال حسن متحسّراً:

- إحنا اللي بنكسر روس البنات.. بس بدنا إياه ينكسر بدون ما يطلّعن صوت ويقلقن راحتنا.. الله ينعل عيشة الفلاحين.

ولكن هذا لم يكن رأي أغنية عبدالوهاب الشهيرة التي يتغزل فيها بحياة

الفلاح: «ما أحلاها عيشة الفلاح...»، ولكأن المذياع أراد أن يزيد أحمد غضباً على غضب حين كان يبث الأغنية على سمعه في بيته في حيفا، وفتحية تترنّم معها، فصاح منفعلاً:

- سكري هالراديو الزفت لأقوم أكسره. لا والله حلوة كثير عيشة الفلاح! إذا كان البيك حاسد الفلاح على عيشته، أنا عن كل الفلاحين، مستعدين يبادلوه عيشته بعيشتهم. انتِ اللي قاعدة ترددي وراه، شو رايك؟ مستعدة تتركي حيفا وتعيشي في القرية عندنا؟

ولم يكن في وسعها إلا الامتثال وإطفاء المذياع.

"لم يكن زمناً هيِّناً للجميع، رجالاً كانوا أم نساءً. إلا أنه مما يعين الشقاء على الإنسان، أن يكون امرأة.

هل كان يجب أن تنفصل خضرة عن ولدها ذلك الانفصال الموجع؟ وماذا كان الخيار البديل؟ كان الطلاق يتاخم العار مهما تكن دواعيه. وحتى لو لم تكن عواقبه على المرأة أقسى من استمرار الزواج من رجل مقيت، فإنها ستكون كذلك على أسرتها. وعلى الرغم من كل الكلام الجميل الذي يقوله لها أهلٌ محبّون حقاً كما كنا نحن مع خضرة، فإنهم في أعماقهم يؤيدون عودتها إلى زوجها على الرغم من كل شيء.

لماذا لم يكن أمامنا وأمامها غير هذين الخيارين؟ فإما أن تعيش عالة في بيوت إخوتها إلى الأبد، وعبئاً ثقيلاً على أزواجهم، وإما أن تفني بقية عمرها في جوار زوج تنقبض لطلّته، وينفرج صدرها لغيبته؟ سوف يمر

وقت آخر ليدرك الناس في الريف على نحو خاص، قيمة تعليمها: لها.. ولهم!

ومن عجب أن ينظر إليها الأهل على أنها هَمّ وعِبء دائمان، في الوقت الذي تنهض فيه بأعباء الجميع، ويحسن أن يكون ذلك بلا شكوى.

ولقد كان في وسع الرجل منا دائماً أن يروي قصة كفاحه مع الحياة على نحوٍ ما. ولم يكن مثل ذلك للمرأة.. المرأة الأميّة بوجه خاص. فهي لا تملك اللغة التي تستطيع أن تشيّد بها روايتها أو تعي بها واقعها وعياً كافياً بشرطه الإنساني.. والحقيقة أن الفرق بين الثقافة والجهل هو فرق نوعي في مستوى الإنسانية، إذا لم نقتصر في تعريفها على الجانب الطبيعي الذي لم يكن لنا إسهام في صنعه".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرملتان.. وعائلة واحدة!

أما إحداهما فابنتهم التي انتهت عند رجل بغيض، على الضدّ في كل شيء من زوجها الأول الشهيد.

وأما الثانية فتوشك أن تنضم إلى أسرة الشيخ يونس، زوجة لمسعود! وما الذي ينقص مسعود حتى يختار أرملة من دون الفتيات؟ إنه ليس جابر المحمود الذي ما كان لأحد أن يزوِّجه ابنته إلا أن تكون على وشك العنوسة، أو بها عيب جسديّ، أو تكون.. أرملة ذات ولد!

ولكن الأرملة التي اختارها مسعود التي مات عنها زوجها بعد ثلاث سنين فقط من الزواج دون أن يعقِّب منها ولداً، فثمة ما يجبر نقصها.. في نظره هو على الأقل: فهي ابنة عز وجاه ومال.. إنها ابنة.. أبي عايد! نعم، أبو عايد إياه.. خصم الأمس الذي يوشك أن يكون صهراً.

ولكم، إذا كانت هذه الميزات كافية لتَجْبُر نقص الترمّل عند مسعود الذي قرأ عن ميكافيلي وضغط عبارته الخالدة «الغاية تبرر الوسيلة» ولم يجد فيها ما يعيبه، فإن تلك الميزات لم تكن كافية عند أسرته.

أرملة! و«قَشْرة» كما وصفتها أم أحمد وكما توصف الأرملة في العادة، والمعنى أنها «تقشر» أزواجها إذ يموتون عنها! وأعقبت أم أحمد بمَثَل آخر: «قال يا ميخذين الأرامل زرعكم شَوَّل، توكل وتشرب وتمدح جوزها الأوّل».

ولم يكن مسعود أول من اعترض على هذه الأوصاف، ولكنه كان حسن الذي ذكّر أمّه بأن هذا حرام، وأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، وأن آخر من يجوز له أن يقول هذا هو عائلة مثلهم ترمّلت ابنتهم. فهل كانت هي نذير شؤم على زوجها الأول الذي مَنّ الله عليه بالشهادة ومن ورائها حياة أبدية في النعيم المقيم مع الأنبياء والصدّيقين؟ ولكن اعتراض حسن على هذا السبب، لم يمنعه من الاعتراض على السبب الذي أدرك أنه هو ما شجّع أخاه مسعود على اختياره: وهو أنها ابنة أبي عايد أغنى رجال القرية وأكثرهم مالاً وأرضاً! وهي في حسابات مسعود خطوة أخرى للارتقاء، بأن يصير صهراً للرجل الذي طالما ازدراهم في الماضي ووصفهم بـ «الغربيّة المقطعين». ولولا نقص الترمّل في ابنته، وارتقاء مستوى الأسرة بالقائد أبي صالح والأستاذ عليّ في المقابل، لما رضي أبو عايد أن ينظر في الموضوع، ولردّهم ردّاً قبيحاً.

ولم يفت حسن أن يلمح إلى دوافع مسعود تلك، التي تجنب التصريح بها، فذكّره أن الناس لا يقسمون للبنت من الإرث، ويعيبون على المرأة التي «تقاسم» إخوانها! وفي المقابل لم يتحرج مسعود من القول: إنه لا يضيع حق شرعي وراءه مطالب.. والمرأة على دين زوجها، تطلب حقها بدفعه وطلبه!

ولما عبّرت أم أحمد عن خشيتها أن تكون لطيفة ابنة أبي عايد عقيماً، لأنها لم تنجب من زوجها الراحل، جادل مسعود بأنها لم تلبث معه غير ثلاث سنين، وليست أول من تتأخر في الإنجاب مثل هذه المدة وأكثر.

ومن يدري، ربما كانت المشكلة عند الرجل.

ووجد حسن نفسه يتقلّب بين الاعتراض على دوافع أخيه، والاعتراض على منطق أمّه التي خاطبها بالقول:

- طب نوريني يمّه.. الأرملة وهيك بتحكوا عنها، مع انه بنتك برضه ترمّلت. وشو بتقولوا في الزلمة اللي بترمّل؟

أجابت:

- الزلمة ما بعيبه شي، مترمّل وإلا مش مترمّل. بوخذ أحسن بنت لو عمرها خمستاشر سنة.

- يعني المرة لما تترمل بتقولوا عليها «قشرة».. «قَشْرَت» جوزها.. قدمها مش مليح عالدار. والزلمة لما بترمّل، هذاك مسكين.. نصيبُه مش مليح.. الله يعوّض عليه بوحدة أحسن.

ردّت الأم مبترّمة:

- من وين انت بتجيب هالحكي؟

- من اللي شفته.. الله أكبر يا ناس.. الظالم ظالم.. مفهوم. بس المظلوم برضه يسب على حاله؟ المرة بتكون مدعوس على راسها وهيه قبل كل الناس بتسب على حالها وعلى البنات.

وقبل أن يخرج، قال له مسعود ممتناً:

- سلّم ثمّك يا حسن.

التفت إليه حسن، وقال بنبرة مشوبة بأسى مقيم:

- يا ريت بس لقيت حدّ أقول له: يسلم ثمّك يوم قصة جميلة! أنا مع الأرملة على كل حال، مش مع أبو عايد.

وأطرق مسعود متفهماً ومتعاطفاً.

وبعد أخذ وردّ لم يسع الأسرة إلا أن تمضي مع رغبة مسعود وإصراره. وما كان أبو عايد ليرضى بتلك المصاهرة لولا السبب نفسه الذي جعل عائلة الشيخ يونس تتحفظ أول الأمر على الفكرة، وهو أن ابنته أرملة، ولولا ما صارت إليه أوضاع العائلة. وأعانه على القبول ولده عايد الذي قاتل مع «أبو صالح»، وتحت إمرته، وصار بينه وبين أسرة الشيخ يونس صحبة ومودّة.

على أن «أبو عايد» لن يبيع ابنته بالرخيص على كل حال. فلا بد أن يساق لها مهر مقبول، ربما كان أقل من المهر الذي تستحقه لو كانت بِكْراً، ولكنه مؤكداً أكبر مما يساق عادةً لأرملة من أسرة أخرى عادية. وهذا غير الحليّ الذهبية التي تليق بمقامها. أما السكن، فرضي أن تُبنى لها ولزوجها عليّة فوق بيت الأسرة، على أن يكون ذلك مؤقتاً، حتى يتمكن مسعود من ابتناء بيته المستقلّ.

وبعد التفاوض والكلام المألوف عن أن الأب يشتري لابنته رجلاً محترماً في المقام الأول، تم الاتفاق بين الطرفين. وكان على أسرة الشيخ يونس أن تتعاون على جمع النفقات التي لم تبقِ معهم الكثير.

وكان أكثرهم ضيقاً بهذا العبء الجديد الكبير: فتحية زوجة أحمد، التي لم تملك مع ذلك إلا الصمت أمام زوجها وأسرته، والإطناب في التبرّم أمام أهلها، ومثلها أم أحمد التي تملك أن تعبر عن رأيها دون حرج ولا تردد:

- هذا لو بقت بنت قديش بطلب؟ علمي الناس بتقول «الأرملة الطلبة والجيزة واحدة، الأرملة حرف ناقص، نصّ فيد ونصّ كسوة، ونص طبخة». وهسّع بتقولوا: ما هي بنتك أرملة برضه! وهيه لوما أرملة جوزناها للغاير جابر الزفت؟ وطبخته علينا. وبنتي بتسوى مية واحدة زي بنت أبو عايد.

ثم التفتت إلى مسعود:

- شو رايك انت هسّع؟ هذي الطمعة تبعتك؟ تيجي تصيده يصيدك؟

تدخّل أحمد هذه المرة:

- يمّه ما بصير هذا الخرّاف. إحنا جماعة عندنا مبادئ.. هذي راس مالنا.. والمصاري اللي بدها تيجي من ورا أبو عايد ما بدنا إياها. والموضوع خلص انتهى بعد الجاهة والطلب والاتفاق.. المهم تطلع مرة مليحة تسعد أخونا.

ولم يفت حسن فرصة التعليق التهكمي:

- يعني أحسن من أبوها.. إن شا الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن الشهور التالية ستثبت أن أفضل الأرملتين (خضرة) قد ذهبت لأسوأ الرجلين (جابر المحمود)، بينما ذهبت أسوأهما (لطيفة بنت أبو عايد) لخير الرجلين: مسعود الشيخ يونس! فقد أظهرت لطيفة أنها ابنة أبيها تكبراً وعناداً. فلم يكن لها من اسمها نصيب كبير! ولم تكن لتعين أم أحمد في أعمال البيت، وتنتظر أن يخدمها الجميع. وبخلاف المتوقّع من أم أحمد التي كانت أشد الجميع اعتراضاً على زواج مسعود بها، فإنها الآن أكثر الجميع صبراً عليها وتستّراً على تقصيرها تجنباً للمشاكل بينها وبين مسعود. وكانت تلتمس لها الأعذار دائماً. ولكنها كانت تستاء من إرهاقها رشدي ابن خضرة بطلبات الخدمة كأنها ترى ذلك حقاً عليه لقاء احتضان الأسرة له، فتعترض أم أحمد أحياناً بأسلوب متلطف ما وسعها ذلك. ولم يكن رشدي ليبدي أي تبرّم بخدمة جدّته وقضاء حاجات البيت، بل كان يتطوّع بالعمل والمساعدة دون طلب منها، ويفضِّل أن يلزمها على الخروج واللعب مع الصبيان، حتى حين تدفعه جدته إلى ذلك دفعاً، وحتى حين يأتي خاله أبو صالح وأسرته من حيفا للزيارة، ويخرج إلى عمارة الزيتون بغرض الاسترواح والنزهة مع ولديه صالح الذي بلغ الآن السادسة من عمره، وصلاح الذي يبلغ نحو الرابعة. فيؤثر رشدي أن يمكث في حاجات جدّته على اللعب مع ابني خاله. ولكن اعتراضات أم أحمد القليلة والمتلطفة على كثرة طلبات لطيفة من رشدي، لم تكن لتجدي نفعاً ولا تجد منها أُذناً صاغية. فلا تملك إلا أن تكتم غيظها، وتخفي ذلك كله عن مسعود.

ولكن ما كانت أم أحمد تجتهد في التغاضي عنه والتستر عليه، لم تكن لطيفة نفسها لتحرص على إخفائه. ولِمَ تفعل وهي ابنة أبي عايد، أكبر وجهاء القرية وأكثرهم مالاً وعِزّاً وجاهاً؟ وهي لا تفتأ تذكّر بذلك وتدلّ به. فهي من دون الجميع لا ترى في كونها أرملة رجل سابق ما يلزمها الرضا بأقلّ مما اعتادته في بيت زوجها الأول أو في بيت أبيها. ولو كان ذلك من قبيل احترام الذات ورفض القيم السائدة لكانت أهلاً للثناء. ولكن مكانة أبيها وثروته لا تغيران من حقيقة أنها كانت امرأة أميّة ريفية لا تعرف شيئاً من تلك الأفكار، ولا تزيد عن النساء الأخريات إلا بالتعالي الذي ورثته من أبيها. ثم إن عائلة الشيخ يونس كانت تحسن معاملتها وتغضي عن طباعها المزعجة، ولم تقصّر في تكريمها إذ أنفقت في زواج مسعود منها كل مدّخراتها أو معظمها. وليت ابنتهم خضرة لقيت من التكريم بعض ما لقيت لطيفة. وذلك كله في ظل أوقات صعبة بات فيها كل الناس يحرصون على كل قرش يملكونه في مواجهة مستقبل غامض ملبد بالغيوم الداكنة. فقد انتهت الحرب العالمية منذ نحو سنتين، وعادت القضية الفلسطينية إلى واجهة الاهتمام الدولي، وعمّت الجميع حالة من التوجس والترقب وعدم اليقين بما ستحمله لهم الأيام القادمة والقرارات الدولية المتعلقة بمصير وطنهم!

ومع ذلك بذلت أسرة الشيخ يونس كل ما قدرت عليه لزواج مسعود ولطيفة التي لا تتوقف عن طلباتها وسلوكها المتعالي.

وكانت تزداد تجبّراً وترفّعاً كلما جاءت فتحية مع زوجها، فتلحظ ما تراه

معاملة خاصة لابنة المدينة. ومن هي هذه المدنية الحيفاوية التي لا تُحسِن حتى الآن الخبز بالطابون، ولا يطلب منها أحد أن تنشل الماء من البئر وتقول: «إسّه» بدلاً من «هسّع»، وتشير إلى الذكور بلفظ «هِنّه» الخاص بالإناث بدلاً من «همّه»! ألم يكن أبوها مجرد موظف بسيط في سكة الحديد؟ أين هذا من ثروة أبي عايد وأراضيه؟

كان على مسعود أن يذكّرها مراراً أن المسألة ليست مسألة مدنية وفلاحة، كل ما في الأمر أن فتحية تأتي ضيفة ليومين، وأنها لا تحسن من العمل ما تحسنه ابنة الريف. وكتم رغبته الملّحة في أن يقارن بينها وبين فتحية الوديعة الهادئة الطباع التي لا يُسمع منها كلمة مستفزّة، وهي الطباع التي استجلبت لها محبة العائلة وتقديرها، حتى إنها كانت تنحاز لها على «أبو صالح» في أي خلاف عارض يقع بينهما.

ولكن، لم يكن ثمة ما يغيّر من سلوك لطيفة. وبذل مسعود وسعه في الصبر عليها ومداراتها في الشهور الأولى من الزواج، تقديراً لصحبة أخيها المجاهد عايد، وتجنباً للوم اللائمين الذين تحدّى اعتراضاتهم على الزواج منها، وأصرّ على خياره حتى خضع له الجميع.

ولكن صبره أخذ ينفد مع الأيام، على الرغم من نصائح أمه بسعة الصدر وكتم الغيظ. فليكن أبوها من يكون. فهو الآن زوجها الذي تُنسَب إليه، والذي ينبغي أن يكون صاحب الأمر والنهي، وله عليها حق الطاعة. وإلا كانت رجولته محلّ اتهام.

سمعت الأسرة أصوات شجارهما المتصاعد من العليّة. وحين طال ذلك صعدت أم أحمد لتصلح ما بينهما، فوجدت لطيفة تلملم أغراضها للخروج إلى بيت أبيها. فأسرعت إليها تجذب منها الأغراض لتثنيها عن عزمها:

- استهدي بالله يا لطيفة..

صدّتها لطيفة بفظاظة وغلظة:

- لمّا ابنك وانتو كلكم تعرفوا قيمتي وقيمة أبوي..

- بيتك يا لطيفة.. هاذ بيتك.

- بيتي مش خلقة هالغرفة اللي بتسموها عِليّة.. غرفة واحدة في بيت أبوي قد ثلاثة منها. والخرّاف هسّع مش معي.. الخرّاف مع أبوي، تاشوف شو آخرتها في العيشة معكم.

رحم الله أيام الثورة حين كان أبو عايد يحسب لأبي صالح كل حساب، ويقف أمامه متهيباً يصغي مع غيره من وجهاء القرية إلى أوامره وتوجيهاته، وحين كان يُجلِس أبا أحمد في صدر المجلس إكراماً لولده القائد. والآن يستقبله مع كل أولاده بوجه شديد العبوس. وما إن جلسوا حتى ابتدر مسعود باللوم والتأنيب على ما بدر منه في حق لطيفة وفي حق أهلها عليه. وكان كلامه يرشح بالمنّة عليهم إذ رضي أن يعطيهم ابنته. واضطر أبو أحمد أن يردّ بأسلوب متلطف ما وسعه ذلك، فذكر أنهم طلبوا الغالية واشتروا النسب، ولكن أحداً لم يجبر أحداً. وعلى أي

حال، فإنه لا ضرورة لتضخيم الأمور. فالذي حدث مجرد «زعل» عابر مما يقع بين كل الأزواج، وأنهم جاؤوا جميعاً ليعيدوا معهم لطيفة معزّزة مكرّمة. وهنا وصل أبو عايد إلى «بيت القصيد» وهو حق ابنته في بيت مستقل.

ومن أين يأتي مسعود وأسرته بالمال لهذا المطلب، في الوقت الراهن؟ يستدينون؟ ومن يقرض الآخر في هذه الأيام المضطربة وقد اقتربت ساعة الحقيقة، ولا يدري أحد ما تحمل معها الأيام المقبلة للبلاد والعباد، وقد شاع أن الإنكليز يعدّون العِدّة للرحيل بعد أن مكّنوا للصهاينة لاغتصاب البلد؟ وكان مسعود هو من ذكّر أبا عايد بذلك. ولم يبدُ أن هذه الاحتمالات السوداء والمصائر القاتمة مما تستوقف عندها «أبو عايد». وهو في ذلك مثل الكثيرين من الناس الذين يعرفون النذر ولكنها لا تصل بهم إلى تصوّر ذهاب البلاد! فذلك أشبه بيوم القيامة! وكان أحمد أكثر الحضور ضيقاً بكلام مسعود المكرور عن ضرورة رؤية الواقع على حقيقته والتأهب لكل الاحتمالات! التأهب لمواجهة العدو، نعم. ولكن أن تذهب فلسطين للصهاينة! فلتكن القيامة! فحاول أبو صالح أن يصرف الكلام عن هذا الاتجاه، والعودة به إلى موضوع لطيفة.

وعلى كل حال فقد كان أبو عايد يدرك أنه لن يكون في وسع أسرة الشيخ يونس توفير بيت مستقل للطيفة، حين عرض مَطلبه ذاك. ولكنّ غايته كانت أبعد من ذلك.

- إذا كان عالمصاري، فيه حلّ عندي.

شخصت أبصار الجميع إليه في حيرة وتعجب وترقب. وأردف:

- الأرض تبعتكم.

ردّ أبو أحمد من فوره:

- نبيعها؟ فال الله ولا فالك يا زلمة. نفرّط بأرضنا منشان نبني بيت للطيفة؟

أجاب أبو عايد:

- ليش بتسمّيها تفريط؟ قصدي أنا بشتريها. يعني ما بتروح لغريب.

«عادت حليمة لسيرتها القديمة»، بعد أن ظن آل الشيخ يونس أنها صارت تاريخاً قديماً. ولم يكتفِ أبو أحمد وأولاده بالرفض القاطع، حتى قال مسعود:

- نيالك على هالنفسية يا عمي. الناس خايفة تروح أراضيها كلها مع البلاد، وأنت بعدك داير على شرا الأراضي؟ يا ريتني متفائل زيّك.

قال أبو عايد:

- وليش لع! إذا ولّى الإنكليز، الله لا يردهم، هذولا اليهود، أولاد الميتة، ما بطلع بإيدهم شي علينا.

توقف لحظة، ثم تابع:

- وإذا لا سمح الله راحت البلاد. مين بدّه يسأل عن ماله ومصاريه؟ ما

هو الموت أحسن هذيك الساعة.

أراد أبو أحمد أن يحسم الأمر فقال بلهجة قاطعة بأن ما يدعو أبا عايد إلى الرغبة في شراء الأرض مهما تكن الظروف، وحتى لو صارت الدنيا على كف عفريت، هو ما يدعوه إلى عدم التخلّي عن أرضه، فهي روحه ولحمه ودمه.

وتدخّل أحمد من جديد ليردّ الكلام إلى وجهته. فأكد لأبي عايد بأن الأسرة لن تدّخر جهداً في توفير بيت مستقل لمسعود ولطيفة، ولكن لا بد من الصبر والانتظار. والتفت إلى عايد كأنه يحثه على تعزيز موقفه. ولم يخيّب عايد أمله. واضطر والده أخيراً إلى القبول والمصالحة على مضض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

”في خريف عام ١٩٤٧ بدأت القضية الفلسطينية تدخل طورها الخطير الحاسم. فقد كانت بريطانيا تعد نفسها لمغادرة البلاد بعد عقود طويلة من الاستعمار بذلت فيها كل ما في وسعها لتنفيذ وعد بلفور وتحقيق المشروع الصهيوني على أرض فلسطين. وكان طرح مشروع التقسيم للتصويت في الأمم المتحدة إيذاناً ببدء تلك المرحلة الفاصلة التي لن تنحصر آثارها في الشعب العربي الفلسطيني وحده، ولا في الأمة العربية كلها، ولكنها ستتعدّى ذلك إلى المجتمع الإنساني بأسره.

كانت لحظة الحقيقة تقترب بسرعة تسبق التوقعات، وكان معظمنا يدرك مقدماتها المنطقية، ولكن كان ثمة من يرفض استخلاص النتيجة، أو يتهرب من تصوّر احتمالاتها المرعبة. وكان أخي مسعود أكثرنا تشاؤماً.. أو الأصحّ أكثرنا واقعية“.

من مذكرات علي الشيخ يونس

لم يكن مسعود بالذي يرغب في الخوض مع «أبو صالح» في جدال يعلم مسبقاً أنه سيغيظه. ولكن السحب القاتمة التي تتراكم الآن بسرعة وتنذر بالمصير، تقضي بالتفكير في احتمالات المستقبل القريب وما ينبغي على الأسرة أن تستعدّ له كيلا يفاجئهم الطوفان. فسافر إلى حيفا ليلتقي أخويه «أبو صالح» و«عليّ» في منزل الأول، حيث يقيم عليّ أيضاً منذ انتقل للعمل في إحدى مدارس حيفا. وكما هو متوقّع لم يتأخر «أبو صالح» في إظهار ضيقه بموقف أخيه المتشائم. وكان على مسعود أن

يذكّره ببعض الحقائق المُرّة. المسألة ليست مسألة عدو وفزعات، والحروب تعني السلاح والتخطيط والإدارة والتنظيم والقيادات، ومن وراء ذلك قرارات دولية تفرضها القوى العظمى بالقوة. فكيف بنا إذا نجح قرار التقسيم في الأمم المتحدة، وهو الأرجح طالما أن وراءه أمريكا وبريطانيا وغيرهما؟ سوف يرفضه الشعب الفلسطيني وسائر الحكومات العربية، ولكن هل سيكون بوسع هؤلاء أن يحبطوا تنفيذ القرار؟ أما الفلسطينيون فسيجدون أنفسهم في مواجهة الإنكليز والصهاينة معاً. وقبل خروج الإنكليز من البلاد سوف يلقون بكل ثقلهم إلى جانب المنظمات الصهيونية المسلحة لفرض الأمر الواقع وتنفيذ قرار التقسيم ووعد بلفور. وقد صار من المعلوم أن الحركة الصهيونية جاهزة بالسلاح والتدريب والمؤسسات ليعلنوا دولتهم في اليوم الذي تخرج فيه قوات الانتداب بعد أن تترك لهم الكثير من سلاحها ومعداتها. أليس هذا ما كان يعمل عليه الإنكليز منذ احتلوا فلسطين؟ وأطلقوا أيدي المنظمات الصهيونية وغلّوا أيدي الفلسطينيين!

اعترض أبو صالح بأن الفلسطينيين لن يكونوا وحدهم في الحرب هذه المرّة. فقد توحّدت الحكومات العربية بشن الحرب. واللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة العربية مكلّفة بتنظيم جيش الإنقاذ من المتطوعين العرب حتى يدخلوا فلسطين قبل الجيوش العربية ويدعموا المجاهدين الفلسطينيين ويساندوا الجيوش العربية حين تقع الواقعة. ولكن مسعود ردّه من جديد إلى الواقع المعتم، فذكّره أن اللجنة العسكرية في الجامعة

العربية تحتجّ بجيش الإنقاذ لمنع إمداد المجاهدين الفلسطينيين بالسلاح. وما زالت القيادات الوطنية الفلسطينية تطالب، ولا حياة لمن تنادي. وخلاصة الأمر أن القوى الاستعمارية التي غلّت أيدي الفلسطينيين هي التي تغلّ أيدي الحكومات العربية، فهي تهيمن هنا وهناك بالقدر نفسه. والضحية فلسطين وشعبها.

هبّ أبو صالح واقفاً، ولأول مرة يصب جام غضبه على أخيه، فما الذي يريد أن يخلص إليه؟ لا جدوى ولا أمل، وأن فلسطين ضائعة لا محالة؟ أهذا ما خرج به من الكتب التي يتطفل عليها؟ كلام كثير وفعل قليل؟ إذا كان هذا ما تفعل القراءة والكتب فلتذهب إلى مكب القمامة!

قال ذلك ودخل غرفته. أما عليّ فلبث طوال الوقت صامتاً. كان يدرك أن حجج مسعود قوية ومنطقية يشهد عليها الواقع البائس. ولكن ما عسى المغلول أن يفعل غير التعلّل بالآمال، وبالرصاصات الأخيرة التي يملكها ليُعْذِر إلى ربّه ووطنه ونفسه؟ وذلك حال «أبو صالح» الذي ربما كان ما أغضبه من كلام مسعود فظاظة ما فيه من الحقائق والشواهد. ومن يدري؟

لعلّ الحكومات العربية تفي بتهديداتها على الرغم من كل شيء، فيلتقي طوفان الجهاد من هنا وهناك على أمرٍ قد قُدِر. فهذه فلسطين.. الأرض المقدسة.. والكثيرون في فلسطين وبلاد العرب يدركون أن اغتصاب فلسطين وقيام دولة لليهود عليها يهدّد الجميع، وأن إحدى غايات الاستعمار من قيامها أن تكون قاعدة متقدمة له في المنطقة العربية،

ووكيلاً عنه.

وضع مسعود رأسه بين يديه أسفاً وحزناً. وتدخلت فتحية لتهوِّن عليه:

- ما تزعلش من أخوك.

قال:

- إن شا الله أكون أنا الغلطان.. لأ يا أم صالح.. مش زعلان من أخوي.. يمكن زعلان من نفسي.. ما أجيت أتجوّز وأكلف عيلتي إلا لما صارت الدنيا على كف عفريت، وما بنعرف مصيرنا بكرة.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

حين رأت أن علياً لا يقول شيئاً، ويكتفي بالإطراق والشرود، وهو المتعلم، بدأ الكلام الذي سمعته من مسعود يَدْهَمها بالمخاوف والقلق.

"في التاسع والعشرين من تشرين أول عام ١٩٤٧ صدر قرار التقسيم في الأمم المتحدة بضغط معروف من الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة. ولم يمضِ شهر واحد على ذلك حتى تجدّد الكفاح المسلّح في فلسطين، وامتد القتال إلى جميع مناطق البلاد. لم يكن قتالاً متكافئاً. فقد كانت الثورة الفلسطينية تعاني من نقص فادح في السلاح والتنظيم والإعداد والمصادر المالية والعسكرية، في مقابل جيش الانتداب والعصابات الصهيونية التي كانت بمثابة جيوش منظمة بما توفر لها من التدريب والتنظيم والسلاح الثقيل.

وكانت بريطانيا قد أعلنت خطتها مغادرة البلاد في الخامس عشر من

أيار عام ١٩٤٨. وما هي حتى بدأت تُخْلي الكثير من معسكراتها وتسلّمها لعصابات الهاغاناة الصهيونية، بكل ما فيها من سلاح وعتاد. وكان التركيز على مدينتي حيفا ويافا بصفة خاصة، إذ كانت القوى الصهيونية ترى أن انتزاعهما ضرورة قصوى لنجاح المشروع الصهيوني".

من مذكرات علي الشيخ يونس

كان من الطبيعي أن يعود أبو صالح إلى سلاحه للدفاع عن حيفا مع سائر الثوار. وكان القتال يدور من شارع إلى شارع ومن حي إلى حي. وكانت خطة الإنكليز والصهاينة احتلال أكبر قسم من المدينة قبل موعد انسحاب بريطانيا من البلاد. ولكن عزيمة الثوار لم تكن كافية لصد القصف الوحشي للمدينة بالمدفعية. وبدا أن حيفا وأختها يافا تحترقان. وقد صحّت كل ظنون مسعود، وذهبت مطالب القيادات الفلسطينية من اللجنة العسكرية للجامعة العربية بإمدادات السلاح أدراج الرياح، بدعوى تجهيزها لجيش الإنقاذ من المتطوعين العرب، والوعد بدخول الجيوش العربية الحرب مع خروج سلطة الانتداب في الموعد المضروب. أما جيش الإنقاذ فقد ثبت الآن أنه كان وعيداً لا وعداً، وأنه كان بلاءً لا عوناً، ونقمة لا نعمة. فكان أشدّ قسوة ونكاية على أهل البلد منه على العدو. وكان يفتقر إلى التنظيم والانضباط والمهارة العسكرية. وصحّ فيه قول القائل: «أعاننا الله على من جاء ليعيننا». ولسوف يبقى الناس حيناً من الدهر حائرين في تفسير إخفاقه الكبير وسلوكه البئيس.

هل كان ذاك لفقر التدريب والتنظيم والسلاح فقط، أم كان كذلك

لمؤامرة خفية مدبرة تواطأت عليها القوى الاستعمارية وجهات عربية تابعة؟

أسئلة كثيرة سوف تبقى بلا إجابات قاطعة عبر السنين.

ومع تضييق الخناق على حيفا وأخواتها، بدأ بعض السكان بالنزوح القسري تحت ضغط القصف المتواصل وما يعقبه من عمليات التطهير والمداهمات.

استُدعي أبو صالح إلى مقر اللجنة الوطنية التي صارت مقراً لتنظيم الدفاع عن المدينة. وكان هناك أبو أكرم والأستاذ محمود المحامي وآخرون. وكان الرأي أن يعود إلى قريته ليقود عملية الدفاع عنها وعن القرى المجاورة؛ قبل أن يتم قطع الطرق بين حيفا وقضائها. فهو هناك القائد أبو صالح المعروف منذ أيام الثورة الكبرى، وهو أقدر من غيره على تجنيد المتطوعين وقيادتهم. ولعل ذلك أن يخفف الضغط على حيفا نفسها. كما أن التحرك في المناطق الريفية أسهل في ظل الظروف الضاغطة. وأعلمه الأستاذ محمود أنه رتّب له سيارة تنقله مع عائلته من الليلة إلى أقرب مكان تستطيع الوصول إليه، إذ كان الإنكليز يعملون على قطع الطرق بين المدن والقرى لمنع الإمدادات وعزل المناطق.

نهض أبو صالح والآخرون. وتعانق الجميع عناق من لا يدري هل يكون بعد ذلك لقاء أم لا؟ وكان آخر ما قاله أبو أكرم:

- الله يجمعنا على خير.

في بيت «أبو صالح» كان الجميع منهمكاً في الاستعداد للرحيل. والتقط أبو صالح تلك الصورة التي أُخِذت له مع أصحابه في أيام الثورة الكبرى، وأخذ يتأمّل فيها شارداً: العبد وحمد العربيات رحمهما الله، والأستاذ محمود، ومصطفى السبعاوي وعايد وآخرون. أما عليّ فكان يقف صامتاً واجماً يحيط بذراعيه ولدي أخيه: صالح وصلاح. وكلما جاء صوت القصف من الخارج اهتز الصبيان، فيمعن عليّ في شدّهما إليه. وصاح أبو صالح مستحثاً فتحية للتعجل.

وحين ظهرت له كانت تجرّ صرة كبيرة. صاح بها أبو صالح من جديد أن تترك كل شيء إلا بعض الثياب. وقال:

- يا بنت الحلال إحنا طالعين مؤقت لحين ما الله يفرجها. هو إحنا بدنا نفارق الدار للأبد؟

ثم قذف لها صورته مع إخوانه الثوار:

- خبيها معك. إذا ضيعت كل شيء لا تْضَيعيها.

لم يسع فتحية إلا أن تمتثل، وكانت في شهور حملها الأخيرة. وإذ مضى أبو صالح مع زوجته وولديه نحو الباب، تلبّث عليّ يجيل نظره في المكان متأمّلاً، قبل أن يصيح به أحمد للتعجّل.

"لم نكن نتخيل في تلك الساعة أن هذا سيكون آخر عهدنا بالعيش في ذلك البيت، وأن العودة إليه، أو حتى مشاهدته سيصير حلماً.. جزءاً من الحلم الفلسطيني الطويل.. هذا البيت الذي استمع إلى صلاتنا وحوارنا

وصوت آمالنا حيناً من العمر، لن يسمع بعد اليوم غير اللغة الغريبة، وسوف تجري ترجمته مع حيفا إلى العبرية. فعلى الرغم من كل الحسابات العقلية الواضحة التي لم يعد في الوسع تجاهلها، والتي تنذر بالنكبة العظمى القادمة كانت عواطفنا ترفض التفكير بأن هذا الوداع قد يكون الأخير لجيلنا. ولقد عشنا على تلك المفارقة في السنين السابقة: بين حساب العقل الذي ينذر بالمأساة، واحتيالات الوجدان التي تطرد ذلك الاحتمال المرعب. يجب أن تكون موازين الكون قد اختلّت لتضيع فلسطين؛ عروبة فلسطين وموازين الكون معاً، أو هي القيامة الآن!".

من مذكرات علي الشيخ يونس

يُتبَع ...

- قصيدة «الفدائي»: «لا تسل عن سلامته...» للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١).
- سائر الشعر الوارد في سياقات السرد من شعر مؤلف الرواية، كذلك الشعر الوارد بالمحكية على لسان شخصية «حسن».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- قصيدة «الفدائي»: «لا تسل عن سلامته...» للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١).
- سائر الشعر الوارد في سياقات السرد من شعر مؤلف الرواية، كذلك الشعر الوارد بالمحكية على لسان شخصية «حسن».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات